NORLA

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جو نيسبو
JO NESBØ

مؤلف رواية «انتقام» والذي فاقت مبيعات كتبه الثمانية ملايين ونصف المليون نسخة في مختلف أنحاء العالم

تصفية الخونة

رواية

جو نيسبو
JO NESBØ

ترجمة
مروان سعد الدين
مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

1-540-421-614-978 ISBN
يتضمن هذا الكتاب ترجمة النص الإنكليزي لرواية
Redbreast The
عن الأصل النروجي: Rødstrupe الصادر عن دار: Aschehoug & Co.
i

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

of support financial with published been has Translation This
i .NORLA

Rødstrupe as Norway in Published Originally
2000 Nesbø Jo by © Copyright
i Norway ,.Co & Aschehoug with agreement by Published
reserved rights All
.Inc ,Publishers Scientific Arab by 2011 © Copyright Arabic
S.A.L

الطبعة الأولى
1432 هـ ـ 2011 م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد ، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب : 5574-13 شوران - بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http:// www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية
أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة
أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

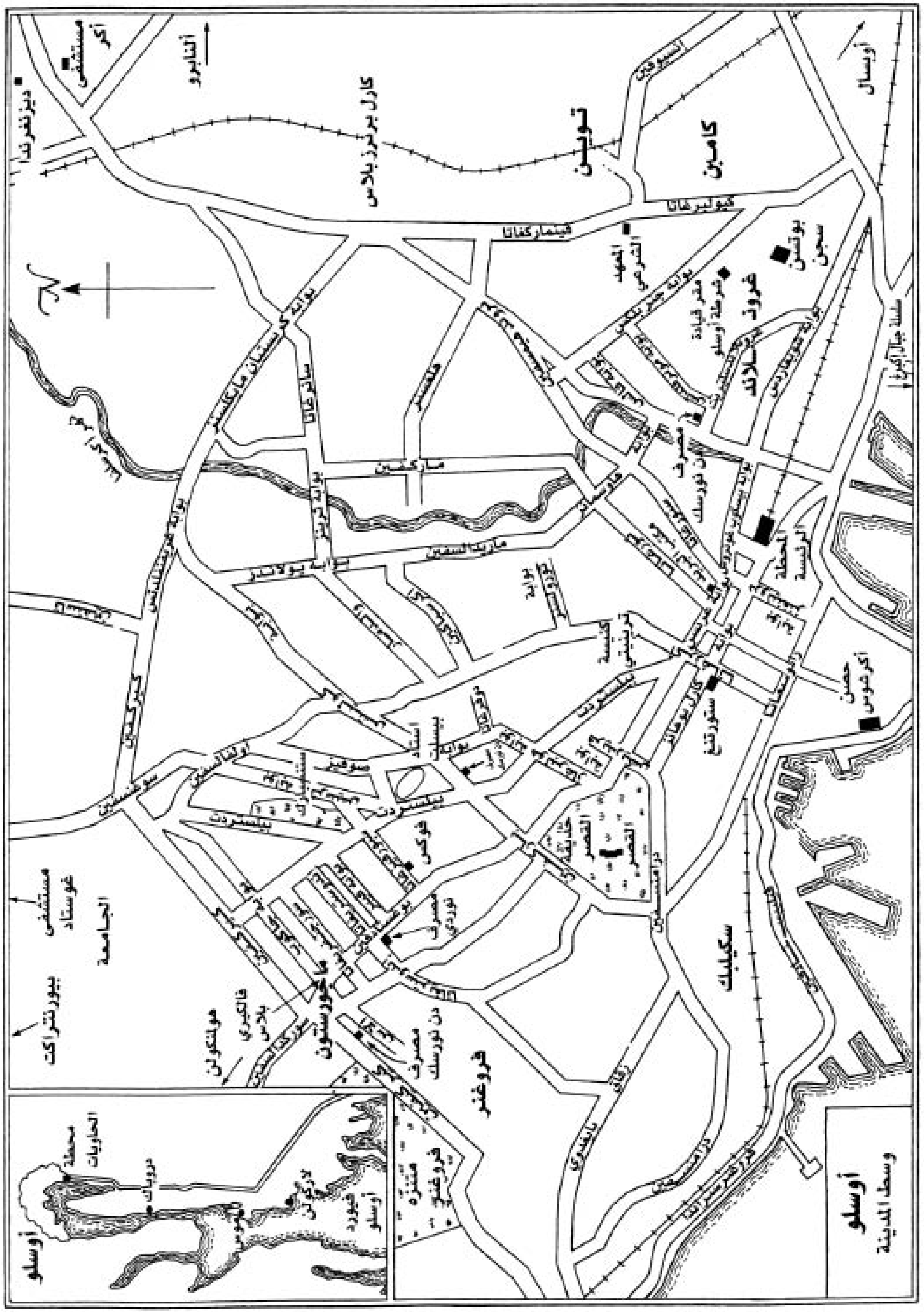
أوسلو
وسط المدينة

حاجز الدفع في ألنابرو. 1 تشرين الثاني 1999

كان هناك طائرٌ رماديٌّ يظهر ويختفي في مجال رؤية هاري. نقر هاري بأصابعه على المقود وهو يشعر بأن الوقت يمرّ بطيئاً. بالأمس، كان أحدهم يتكلم عن الوقت البطيء في التلفاز. كان الوقت يمرّ ببطء مثلما يحصل عشية الميلاد قبل مجيء سانتا، أو لدى الجلوس على كرسيّ الإعدام بانتظار وصله بالتيار الكهربائي.

نقر بقوة أكبر.

ركن هاري وإيلين السيارة في المنطقة المكشوفة خلف أكشاك التذاكر عند بوابة تحصيل الرسوم. رفعت إيلين صوت المذياع قليلاً، حيث كان المعلّق يقول بوقار ومهابة:

"حطّت الطائرة قبل خمسين دقيقة. وعند الساعة 6:38 بالضبط، وضع الرئيس قدمه على التراب النرويجي. استقبله عمدة أولنسيكر. إنه يوم خريفيٌّ ومناسب لاجتماع القمة هذا. لنسمع مجدداً ما قاله الرئيس في المؤتمر الصحفي قبل نصف ساعة".

كانت تلك هي المرة الثالثة. رأى هاري مجدداً الفِرق الصحفية الصاخبة محتشدة عند الحاجز. شدّ الرجال ذوو البذلات الرمادية الموجودون في الطرف الآخر - الذين لم يبذلوا جهداً كبيراً لإخفاء أنهم عملاء استخبارات سريّة - أكتافهم، ثم أرخوها في أثناء مراقبتهم الحشدَ. تفحّصوا للمرة الثانية عشرة سمّاعاتهم للتأكد من أنها تعمل على نحو صحيح. جالوا بأبصارهم في الحشد، وثبّتوا نظرهم لبضع ثوانٍ على مصوّرٍ كانت عدساته المقرِّبة أطول من العدسات الأخرى بقليل، ثمّ تابعوا مراقبتهم الحشدَ، تفقّدوا للمرةَ الثالثة عشرة سمّاعاتهم. رحّب أحدهم بالرئيس بالإنكليزية، وجرى كل شيء بهدوء، ثم صدر صرير من مكبّر الصّوت.

قال الرئيس بإنكليزية - أميركية وصوت أجش: "اسمحوا لي أولاً بأن أقول إنني سعيد لأنني هنا...".

قالت إيلين: "قرأت أنّ عالم نفس أميركيًّا معروفاً يظنّ أنّ الرئيس يعاني أ - ش - م".

"أ - ش - م؟!".

"أعني اضطراب شخصيّة مركّبة؛ انفصاماً في الشّخصيّة. كما هي الحال في رواية د. جيكل والسيد هايد في رواية الإسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون، 1886. ظنّ عالم النفس أن شخصيّة الرّئيس الطبيعية لا تدرك

أن الأخرى - وحش الجنس - تقيم علاقات مع كل أولئك النساء؛ لهذا السبب لم تستطع المحكمة العليا اتهامه بالكذب تحت القسم بشأن ذلك الأمر".

قال هاري وهو ينظر إلى الأعلى نحو المروحية التي كانت تحوم عالياً فوقهما: "يا الله!".

سأل شخص يتكلم بلهجة نرويجية عبر المذياع: "سيادة الرئيس، هذه هي الزيارة الرابعة التي يقوم بها رئيس أميركي إلى النرويج. كيف تشعر حيال ذلك؟".

توقّفٌ مؤقّت.

"العودة إلى هنا رائعة حقّاً. وأرى أنّ الأكثر أهمية هو أنّ الإسرائيليين والفلسطينيين يمكن أن يجتمعوا هنا. المفتاح لـ -".

"هل تتذكر أي شيء من زيارتك السابقة إلى النرويج، سيادة الرئيس؟".

"نعم، بالطبع. آمل أن نستطيع في محادثات اليوم -".

"ما أهمية أوسلو والنرويج بالنسبة إلى السلام العالمي، سيادة الرئيس؟".

"لقد لعبت النرويج دوراً مهمّاً".

وسُمِعَ صوتٌ يفتقر إلى اللهجة النرويجية وهو يطرح السّؤال التّالي: "ما النتائج الملموسة التي يعتبرها الرئيس واقعية؟".

قُطع التسجيل، وتكلّم شخص من الاستوديو: "سمعنا هناك أنّ الرئيس يقول إنّ النرويج لها دور حاسم في... عملية السّلام في الشرق الأوسط. الرئيس في طريقه الآن إلى -".

تأوّه هاري وأغلق المذياع. "ماذا يحدث في هذا البلد يا إيلين؟".

هزّت إيلين كتفيها.

خشخش لاسلكي صغير على لوحة القيادة، وسمع صوت يقول: "تجاوز الموقع 27".

سأل هاري: "هل الجميع جاهزون في مواقعهم؟". فأومأت إيلين.

فقال: "ها نحن ذا". عندها، حرّكت إيلين عينيها؛ إذ كانت تلك هي المرةَ الخامسةَ التي يقول فيها ذلك منذ أن انطلق الموكب من مطار غاردمون (أوسلو). كان بمقدورهما من حيث ركنا السيارة رؤية الطريق الخالي الممتد من حاجز الدفع نحو تروسترود وفوروسيت. دار الضوء الأزرق على سطح السيارة ببطء. أنزل هاري زجاج نافذة السيارة ليمدّ رأسه، ويبعد ورقة صفراء ذابلة علقت تحت ماسحة الزجاج الأمامي.

قالت إيلين وهي تشير بيدها إلى الأعلى: "إنه طائر أبي الحناء. رؤية

أحد هذه الطيور في وقت متأخر جداً من الخريف أمر نادر".

"أين؟".

"هناك، على سطح كشك الحاجز".

أخفض هاري رأسه، وحدّق عبر الزجاج الأمامي.

"آه، نعم. إذاً، ذلك أبو الحناء؟".

"نعم، لكنّك على الأرجح لا تستطيع التمييز بينه وبين طائر السُّمنة أحمر الجناحين كما أظن؟".

حجب هاري الشمس عن عينيه قائلاً: "هذا صحيح". هل كان بصره يضعف؟

قالت إيلين وهي تُحكم إغلاق غطاء الحافظة: "إنه طائر نادر".

قال هاري: "هل ما تقولينه حقيقة؟".

"يهاجر تسعون بالمئة منها جنوباً. ويجازف بعضها، إذا جاز التعبير، ويبقى هنا".

"إذا جاز التعبير؟".

سُمِع صوت خشخشة أخرى عبر اللاسلكي، ثم قال أحدهم: "من الموقع 62 إلى مقرّ القيادة. هناك سيارة مجهولة تقف إلى جانب الطريق قبل مئتي متر من المنعطف إلى لورنسكوغ".

أجاب صوت عميق بلهجة مدينة بيرغن من مقرّ القيادة: "لحظة واحدة 62. سننظر في الأمر".

صمت.

سأل هاري وهو يومئ نحو محطة إيسو: "هل تفقّدت المراحيض؟".

"نعم، أُخليت محطة الوقود من الزبائن والموظفين جميعاً باستثناء المدير. لقد أوصدنا عليه باب مكتبه".

"وهل تفقّدت أكشاك الحاجز أيضاً؟".

"أنجزنا العمل. استرخِ يا هاري، لقد تفقّدنا كل شيء. نعم، الطيور التي تبقى تفعل ذلك على أمل أن يكون الشتاء معتدلاً، أفهمت؟ لا بأس بذلك. ولكن، إذا كانت مخطئة فسوف تموت. لهذا قد تتساءل: لماذا لا ترحل جنوباً؛ تحسباً للأمر؟ هل التي تبقى كسولة؟".

نظر هاري إلى المرآة ورأى الحرّاس على كلا طرفي جسر السكة الحديدية، ببذلاتهم السوداء وخوذهم ورشاشاتهم أم بي - 5 المعلّقة حول أعناقهم. استطاع من موقعه أن يلاحظ توتّر أجسادهم.

قالت إيلين وهي تحاول وضع الترمس في علبة قفّازات ممتلئة أصلاً:

"القصد هو أنه إذا كان الشتاء معتدلاً، فستتمكن من اختيار أفضل المواقع لبناء أعشاشها قبل أن تعود الطيور الأخرى. إنها مجازفة محسوبة كما ترى. إما أن تضحك كثيراً، أو تجد نفسك في ورطة؛ سواء أأقدمت على تلك المجازفة أم لا. إذا خاطرت فقد تقع جثّة هامدة عن غصن متجمّد ذات ليلة ولا يذوب عنها الثلج حتى الربيع، وإن رحلت فقد لا تجد أي مكان تبني فيه عشاً حين تعود. تلك هي المعضلات السرمدية - إذا جاز التعبير - التي تواجه الجميع".

"لقد ارتديتِ السترة المضادة للرصاص، أليس كذلك؟". استدار هاري ليتفقّد المكان حوله. "نعم أم لا؟".

نقرت بمفاصل أناملها على صدرها ردّاً عليه.

"هل هو خفيف الوزن؟".

أومأت.

"بالله عليك يا إيلين! أصدرتُ الأمر بارتداء السترات المضادة للرصاص، لا سترات ميكي ماوس تلك".

"هل تعرف ما يستخدمه رجال الاستخبارات السريّة؟".

"دعيني أخمّن، سترات خفيفة الوزن؟".

"هذا صحيح".

"هل تعرفين ما الذي لا أهتم به أبداً؟".

"دعني أخمّن، إنها الاستخبارات السريّة؟".

"هذا صحيح".

ضحكت، وابتسم هاري أيضاً. صدرت خشخشة عن الجهاز اللاسلكي، ثمّ سُمِع صوت يقول:

"من مقرّ القيادة إلى الموقع 62. يقول رجال الاستخبارات السريّة إن سيارتهم متوقفة عند المنعطف إلى لورنسكوغ".

"الموقع 62. تلقيت الرسالة".

قال هاري وهو يضرب عجلة القيادة بحنق: "كما ترين، لا يوجد تنسيق. أفراد الاستخبارات السريّة يفعلون ما يحلو لهم. ما الذي تفعله تلك السيارة هناك من دون معرفتنا؟".

قالت إيلين: "تتأكد من أننا نقوم بعملنا".

"وفقاً للتعليمات التي يزودوننا هم بها".

قالت: "سيُسمَح لك باتخاذ بعض القرارات. لهذا توقف عن التذمر، وأوقف ذلك النقر على المقود".

انتقلت يدا هاري بإذعانٍ إلى حِجْره. فابتسمت إيلين، وأطلق زفيراً واحداً طويلاً: "نعم، نعم، نعم".

عثرت أصابعه على مقبض مسدسه الرسمي، عيار 0.38 ملم، من طراز سميث أند ويسون، الذي يتسع لستّ رصاصات. كان لديه مخزنا ذخيرة إضافيان في حزامه، في كلٍّ منهما ست رصاصات. لمس هاري المسدس وهو يفكّر في أنه ليس مخولاً بحمل السلاح. فربّما كان بصره يضعف، إذ فشل بعد دورة استمرت ثماني وأربعين ساعة في الشتاء الماضي في اجتياز اختبار إطلاق النار. وبالرغم من أن ذلك لم يكن غير معتاد، إلا أنها كانت المرة الأولى التي يحصل فيها هذا مع هاري ولم يحب ذلك على الإطلاق. كل ما كان عليه فعله هو الخضوع للاختبار مجدداً - كان كثيرون قد خضعوا له أربع أو خمس مرات – لكن، لسبب أو لآخر استمر هاري في تأجيل الأمر.

سُمِع المزيد من أصوات الخشخشة: "تجاوز الموقع 28".

قال هاري: "هناك موقع واحد بعد في منطقة شرطة رومرايك؛ وهو الموقع الآتي في كاريهوغن، ثم يصلون إلى منطقتنا".

سألت إيلين بنبرة متذمرة: "لماذا لا يفعلون ما اعتدنا القيام به؟! أي تحديد موقع الموكب بدلاً من تلك الأرقام الغبية كلّها".

"خمّني".

أجابا معاً: "الاستخبارات السريّة!". وضحكا.

"تجاوز الموقع 29".

نظر هاري إلى ساعته.

"حسناً، سيكونون هنا في غضون ثلاث دقائق. سأغيّر تردّد اللاسلكي الصغير إلى مقاطعة شرطة أوسلو. سأراجع التدابير الأمنية للمرة الأخيرة".

أغمضت إيلين عينيها لتركّز على التدابير الأمنية الفعلية التي سمعتها الواحد تلو الآخر. وضعت الميكروفون في مكانه قائلة: "كل شيء جاهزٌ وفي مكانه".

"شكراً. ضعي خوذتك".

"ماذا؟! حقاً يا هاري؟".

"لقد سمعتِ ما قلته".

"إذاً، ضع خوذتك أنت أيضاً!".

"خوذتي صغيرة جداً".

في تلك الأثناء، سُمِع صوت مختلف يقول: "تجاوز الموقع 1".

"آه تباً! تصبح أحياناً... غير مهني على الإطلاق". ثمّ وضعت الخوذة على رأسها، وأحكمت وثاق حزام الذقن، ورسمت على وجهها تعابير شاهدتها في مرآة السائق.

قال هاري وهو يتفحّص الطريق أمامهما عبر منظار مكبّر: "أحبكِ أيضاً. أستطيع رؤيتهم".

تلألأت الشمس على أعلى المنحدر المؤدي إلى كاريهوغن. في تلك اللحظة، رأى هاري أول سيارة في الموكب، لكنه كان يعرف الترتيب. ستُ درّاجات ناريّة من قسم المرافقة، وسيارتا مواكبة من الشرطة النرويجية، وسيارة استخبارات سرية، ثم سيارتا كاديلاك - فليتودز متماثلتان (سيارتا استخبارات سريّة جيء بهما من الولايات المتحدة) والرئيس يجلس في إحداهما، مع إبقاء مكان جلوسه سراً، أو كما فكّر هاري: ربما كان يجلس في كلتيهما؛ إحداهما لجيكل والأخرى لهايد. ثم جاءت المركبات الأكبر: سيّارة الإسعاف، وسيارة الاتصالات، وعدّة سيارات تابعة للاستخبارات السّرّية.

قال هاري: "كل شيء يبدو هادئاً". تحرّك منظاره ببطء من اليمين إلى اليسار. تنسّم الهواء فوق الإسفلت بالرغم من أنه كان صباحاً من شهر تشرين الثاني البارد.

استطاعت إيلين رؤية شكل السيارة الأولى. سيتجاوزون في ثلاثين ثانية بوابات تحصيل الرسوم، وسيكون نصف المهمّة قد أُنجز. وعندما تتجاوز السيارات نفسها الحاجز بعد يومين، في الاتجاه المعاكس، ستعود وهاري إلى عملهما المعتاد. كانت تفضّل التعامل مع الموتى في وحدة الجرائم على الاستيقاظ عند الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل للجلوس في فولفو باردة مع هاري النزق، الذي كان واضحاً أن كاهله مثقل بالمسؤولية المسندة إليه.

كان الهدوء تاماً في السيارة باستثناء صوت تنفّس هاري المعتاد. توثّقت من أن المؤشرين الضوئيين على كلا اللاسلكيين أخضرا اللون. كان الموكب في أسفل التلّة تقريباً. قرّرت أنها ستذهب إلى تورست بعد العمل. فلقد سبق لها أن تبادلت النظرات هناك مع رجل نحيل، شعره أسود وأجعد، وعيناه بنيتان ثاقبتان. بدا بوهيمياً قليلاً، ومثقّفاً. ربما...

"ما الذي -".

كان هاري قد أمسك بالميكروفون آنذاك: "هناك شخص ما في الكشك الثالث إلى اليسار. هل يستطيع أحد تحديد هوية هذا الفرد؟".

أجاب اللاسلكي بصمت شابته خشخشة، في حين كانت إيلين تنقّل

بصرها من كشك إلى آخر على التوالي. هناك! رأت ظهر رجل خلف زجاج الكشك البني؛ على بعد أربعين أو خمسين متراً فقط. كان ظِلُّ الشخص واضحاً في الضوء المشعّ من الخلف، وكذلك ماسورة البندقية القصيرة البارزة فوق كتفه ومعها المنظار. صرخت: "إنّه يحمل سلاحاً! معه رشاش".

"تباً!". فتح هاري باب السيارة، ثم أمسك بالإطار وخرج مسرعاً. حدّقت إيلين إلى الموكب الذي كان لا يبعد أكثر من بضع مئات من الأمتار.

قال هاري وقد دفع رأسه إلى داخل السيارة: "إنه ليس واحداً منا بالتّأكيد. ولكن، قد يكون من الاستخبارات السريّة. اتصلي بمقرّ القيادة". وكان آنذاك يمسك المسدس بيده.

"هاري...".

"الآن! وأطلقي البوق إذا قال مقرّ القيادة إنه واحدٌ منهم".

بدأ هاري بالجري نحو كشك التذاكر، وبدا له الرجل من الخلف مرتدياً بذلة. خمّن هاري من الماسورة أن السلاح رشاش. لقد آلمه اندفاع هواء الصباح الباكر في رئتيه.

صرخ بالنرويجية ثم بالإنكليزية: "شرطة!".

لم يتلقَّ ردّاً؛ فزجاج الكشك السميك مصنوعٌ لعزل ضوضاء حركة السير في الخارج. في تلك الأثناء، أدار الرجل رأسَه نحو الموكب، فاستطاع هاري رؤية نظارته الداكنة من نوع راي - بانز. إنّه من الاستخبارات السريّة، أو شخص ما يريد أن يُعطيَ ذلك الانطباع.

عشرون متراً فقط.

كيف دخل إلى كشك موصد إذا لم يكن واحداً منهم؟ اللعنة! كان بمقدور هاري سماع الموكب آنذاك. لن يستطيع الوصول إلى الكشك.

حرّر قفل الأمان وسدّد، وتضرّع إلى الله أن يمزّق بوق السيارة سكون ذلك الصباح الغريب على طريق مغلق لم يكن يرغب في أي وقت قطّ أن يكون قريباً منه. كانت التعليمات واضحة. لكن، لم يكن بمقدوره التخلص من أفكاره: سترة رقيقة. لا اتصال. أطلق النار، إنه ليس خطأك. هل لديه أسرة؟

كان الموكب آتياً من خلف كشك التذاكر مباشرة، وكان يتقدم بسرعة. ستصبح سيارتا الكاديلاك في غضون ثوانٍ عند مستوى الأكشاك. لاحظ حركة بطرف عينه اليسرى، إنّه عصفورٌ صغيرٌ طار عن السقف.

هل يقدم على المجازفة أم لا؟ المعضلة السرمدية.

فكّر في عنق السترة الواقية المنخفض، وأنزل مسدسه نصف بوصة. كان هدير الدرّاجات النارية يصمّ الآذان.

أوسلو. 5 تشرين الأول 1999

قال الرجل حليق الرأس وهو ينظر إلى الأسفل؛ إلى النص المطبوع: "تلك هي الخيانة العظمى". كان كل شيء أنيقاً ومرتّباً: الرأس، والحاجبان، والساعدان المفتولان، وكذلك اليدان الضخمتان اللتان تمسكان بالمِقْرَأ (طاولة صغيرة)، وكل شيء آخر. انحنى الرجل فوق الميكروفون:

"كان أعداء الاشتراكية الوطنية منذ عام 1945 أسياد الأرض، وقد طوّروا مبادئهم الديمقراطية والاقتصادية ووضعوها موضع تطبيق. ومن ثَمَّ، لم تغرب الشمس يوماً واحداً عن العالم من دون حرب. كنا قد اختبرنا - حتى هنا في أوروبا - الحرب والإبادة الجماعية. يموت ملايين الناس في العالم الثالث جوعاً، وأوروبا مهدّدة بهجراتٍ جماعية، وفوضى ستنشأ عن ذلك، وحرمان، وصراع من أجل البقاء".

توقف عن الكلام ونظر حوله. كان الصمت تامّاً في الغرفة. وشخص واحد فقط بين الحضور، كان يجلس على أحد المقاعد الخشبية خلفه، صفّق بتردّد. وعندما تابع الرجل خطابه متحمساً توهّج آنذاك الضوء الأحمر تحت الميكروفون على نحو ينذر بالسوء، ويدلّ على وجود تشويش في التسجيل.

"لا يوجد ما يفصلنا، حتى نحن، عن نسيان الوفرة، وعن اليوم الذي نضطر فيه إلى الاعتماد على أنفسنا وعلى المجتمع حولنا. ففجأةً، لم تعد الحرب - وهي كارثة اقتصادية وبيئية - والشبكة الكاملة من القوانين والأنظمة التي تحوّلنا جميعاً بسرعة كبيرة إلى عملاء اجتماعيين سلبيين، خياراً. وقعت الخيانة العظمى السابقة في 9 نيسان عام 1940؛ عندما هرب من يُسَمَّون قادتنا الوطنيين من العدو لإنقاذ أنفسهم، وأخذوا احتياطيات الذهب معهم؛ لتمويل حياتهم المترفة في لندن. الآن، العدو هنا مجدداً. وأولئك الذين يُفترض بهم حماية مصالحنا قد خذلونا مرة أخرى؛ إذ سمحوا للعدو ببناء دور عبادته في وسطنا، وتركوه يسرق العجائز منا، ويمزج دمه مع دم نسائنا. واجبنا كنرويجيين أن نحميَ عرقنا، ونتخلص من أولئك الذين يخذلوننا".

قلب الصفحة، لكن سَعْلَةً صدرت من المنصة أمامه جعلته يتوقف ويرفع بصره.

قال القاضي وهو يحدّق من فوق نظارته: "شكراً لك. أظن أننا قد سمعنا ما يكفي. هل لدى الادّعاء أي أسئلة أخرى يريد أن يوجّهها إلى

المتّهم؟".

أشرقت الشمس على القاعة 17 في محكمة التاج؛ وهي المحكمة الجنائية في أوسلو، وشكّلت هالة وهميّة حول الرجل الأصلع. كان يرتدي قميصاً أبيض، ويضع ربطة عنق رفيعة، بناءً على نصيحة من محاميه يوهان كروهن الابن، الذي كان يجلس آنذاك على كرسيه مسترخياً، وهو يحرّك قلماً بين الوسطى والسبابة. كره كروهن ما آل إليه وضعه عموماً، ولم يعجبه الاتجاه الذي سلكته أسئلة المدّعي العام، والطريقة التي كان موكّله، سفير أولسن، قد أعلن فيها بصراحة برنامجه، وحقيقة أن أولسن قد اعتبر أنّه من المناسب أن يرفع رُدْني قميصه؛ ليكشف للقاضي والزملاء عن وَشْم شبكة العنكبوت على كلا مرفقيه، وصفّ الصلبان المعقوفة على ساعده الأيسر. وكان على ساعده الأيمن وشم سلسلة من الرموز الاسكندنافية وكلمة فالكيريا، وهي جماعة نازيّة جديدة، بحروف قوطية سوداء.

لكن، هناك شيء آخر كان يعتمل في داخله بشأن المحاكمة كلها، ولم يستطع وضع إصبعه عليه. أبعد المدّعي العام، وهو رجل ضئيل الحجم يدعى هيرمان غروث، الميكروفون عنه بإصبعه الصغيرة، التي كان يزينها خاتم يحمل رمز اتحاد المحامين.

"بضعة أسئلة أخرى فقط حضرة القاضي". كان الصوت رقيقاً وخافتاً. لقد أصبح الضوء تحت الميكروفون أخضر.

"إذاً، عندما ذهبت عند الساعة التاسعة من 3 كانون الأول إلى مطعم دينيس في بوابة درونينجينز، كان ذلك بقصد إنجاز مهمّة حماية عرقنا التي كنت تتحدث عنها آنفاً؟".

دفع يوهان كروهن نفسه نحو الميكروفون قائلاً:

"كان موكّلي قد أجاب سابقاً عن هذا السّؤال وقال إنّ شجاراً وقع بينه وبين المالك الفيتنامي". ضوء أحمر. قال كروهن: "لقد استُفزّ. ليس هناك أي سبب يشير إلى أنّه فعل ذلك متعمّداً بالتأكيد".

أغمض غروث عينيه.

"إذا كان ما يقوله محامي الدفاع صحيحاً، سيد أولسن، فقد كنت تحمل بمحض المصادفة مضرب البيسبول في ذلك الوقت؟".

قاطعه كروهن وهو يرفع يديه يائساً: "من أجل الدفاع عن النفس. حضرة القاضي، لقد أجاب موكّلي سابقاً عن هذه الأسئلة".

فرك القاضي ذقنه حين كان ينظر إلى المحامي في أثناء تولّيه مهمّة الدفاع. كان الجميع يعرف أن يوهان كروهن الابن عضو في مؤسسة

حقوقية مُهمّة - وكذلك يوهان كروهن نفسه - وذلك ما دفع القاضي على ما يبدو إلى أن يقول أخيراً بحنق: "أتفق مع محامي الدفاع. أقترح المضي قدماً، إذا لم يكن لدى المدّعي العام أي شيء جديد يضيفه؟".

فتح غروث عينيه حتى أضحى من الممكن رؤية شريط أبيض ضيق فوق القزحية وتحتها. أمال رأسه، ورفع صحيفة عالياً بحركة واهنة.

"هذه صحيفة داجبلايت عدد 25 كانون الثاني. في مقابلة على الصفحة الثامنة، أحد المتعاطفين مع أفكار المتهم -".

شرع كروهن في القول: "أعترض...".

تنهّد غروث. "دعني أغيّر ذلك إلى: رجل يعبّر عن وجهات نظر عنصرية".

أومأ القاضي، ولكنه في الوقت نفسه رمق كروهن بنظرة عتب. تابع غروث:

"يقول معلّقاً على الهجوم على مطعم دينيس: إننا بحاجة إلى مزيد من العنصريين مثل سفير أولسن لاستعادة السيطرة على النرويج. استخدمت كلمة عنصري في المقابلة للدلالة على الاحترام. هل يعدّ المتهم نفسه عنصرياً؟".

قال أولسن قبل أن يستطيع كروهن التدخّل: "نعم، أنا عنصري. بمعنى أنني أستخدم الكلمة".

ابتسم غروث: "وما الذي يعنيه ذلك؟".

شدّ كروهن قبضتيه تحت الطاولة، ونظر نحو المنصّة، إلى المستشارين اللذين يجلسان إلى جانب القاضي؛ كلٌّ من جهة. سيقرّر هؤلاء الثلاثة مصير موكّله في السنوات القليلة الآتية، ووضعه الشخصي في سجل المحامين في الشهور القليلة الآتية. كان هذان المستشاران شخصين عاديّين يمثّلان الشعب، وعدالة الناس. اعتادوا أن يسمّوهما قاضيين شعبيين. لكن ربما كانا قد أدركا أنهما أكثر شبهاً بقاضيين ألعوبة. كان شاب يرتدي بذلة رخيصة وفضفاضة يجلس إلى يمين القاضي، وهو لا يكاد يجرؤ على رفع عينيه. وإلى اليسار بدا أن الشابة الممتلئة قليلاً تتظاهر بمتابعة الإجراءات، فيما هي تمدّ عنقها عالياً حتى لا يستطيع أحد رؤية ذقنها. نرويجيان عاديان. ماذا يعرفان عن أشخاص مثل سفير أولسن؟ ماذا يريدان أن يعرفا؟

كان ثمانية شهود قد رأوا سفير أولسن وهو يدخل مطعم دينيس متأبطاً مضرب بيسبول، وبعد تبادل كلمات نابية مع مالك المطعم هو داي، ضربه سفير أولسن على رأسه. وصاحب المطعم فيتنامي في الحادية والأربعين

من عمره، جاء إلى النرويج مع قوم القوارب في العام 1978. كانت الضربة شديدة جداً، ولن يكون بمقدور هو داي السير مجدداً. عندما بدأ أولسن يتكلم، كان يوهان كروهن الابن آنذاك يفكّر في الاستئناف الذي سيقدّمه إلى المحكمة العليا.

قرأ أولسن بعد أن عثر على التعريف في أوراقه: "العن - صريّة صراع أبدي ضد الأمراض الوراثية، والانحطاط الفكري والإبادة، بالإضافة إلى أنها حلم، ورغبة في الحصول على مجتمع أكثر صحة وحياة أفضل. الاختلاط العرقي نوع من الإبادة الجماعية الثنائية. يصبح من المقبول عموماً في عالم توجد فيه خطط لإنشاء مصارف وراثية للحفاظ على أصغر الخنافس، خلط أعراق بشرية كان تطوّرها قد استغرق آلاف السنين وتدميرها. في مقالة نشرتها الصحيفة المهيبة أميركان سايكولوجست في العام 1972، حذّر خمسون عالماً أميركياً وأوروبياً من مخاطر طمس حجج نظرية الوراثة".

توقّفَ أولسن، وجال ببصره في أرجاء قاعة المحكمة 17 ورفع سبابته اليمنى. كان قد استدار نحو المدّعي، واستطاع كروهن رؤية وشم سيج هايل (التحية النازية: تحيّة النصر) الشاحب على كتلة الدهن الحليقة بين الجزء الخلفي من رأسه وعنقه. في الصمت الذي أعقب ذلك، فهم كروهن من الضوضاء الصادرة من الرواق أن الجلسة في قاعة المحكمة 18 قد انفضّت ليتناول الجميع الغداء. مرّت ثوانٍ. تذكّر كروهن شيئاً كان قد قرأه عن أدولف هتلر: وهو أنه في الاجتماعات الجماهيرية كان يتوقف عن الكلام نحو ثلاث دقائق لإحداث التأثير المطلوب. عندما تابع أولسن كلامه، هزّ إصبعه على نحو متكرّر؛ وكأنه يرغب في طبع كل كلمة وجملة في أذهان المستمعين.

"إن الذين يحاولون أن يتظاهروا بأنّه لا يوجد صراع عرقي قائم هنا إما عميان أو خونة".

ثمّ شرب القليل من الماء من الكأس التي كان حاجب المحكمة قد وضعها أمامه.

تدخّل المدّعي: "وفي هذا الصراع العرقي، أنت وأنصارك الذين يوجد عدد منهم اليوم في هذه المحكمة، الوحيدون الذين لديهم الحق في الهجوم؟".

عندها، صدرت عن أصحاب الرؤوس الحليقة الجالسين بين الجمهور صيحات استهجان.

قال أولسن: "نحن لا نهاجم، ولكننا ندافع عن أنفسنا. إنه حقُّ كلِّ

عرق، وواجب على كلّ عرق".

سُمِعَت صرخة من حيث يجلس مؤيدو أولسن على المقاعد الخشبية، فاستجاب لها هذا الأخير بابتسامة: "في الواقع، حتى بين شعوبٍ من أعراق أخرى هناك اشتراكية وطنية تعي المسألة العرقية".

صدرت عن الجمهور ضحكات وكلمات استحسان متفرّقة. فطلب القاضي من الجميع التزام الصمت قبل أن ينظر إلى المدّعي مستفسراً.

قال غروث: "كان ذلك كل شيء".

"هل لدى محامي الدفاع أي أسئلة أخرى؟".

هزّ كروهن رأسه.

"إذاً، أطلب مثول أول شهود الادّعاء".

أومأ المدّعي إلى الحاجب الذي فتح الباب في نهاية الغرفة. كان هناك صوت تحريك كراسٍ في الخارج، ثمّ فُتح الباب على مصراعيه، ودخل منه رجل ضخم. لاحظ كروهن أن الرجل يرتدي سترة بذلة ضيقة قليلاً، وبنطال جينز أسود، وينتعل حذاء د. مارتنز كبيراً. أعطى الرأس الحليق تقريباً والجسد الرياضي القوي انطباعاً عن عمره، وبأنّه في أوائل العقد الثالث، بالرغم من أن العينين المحتقنتين والجلد المترهل تحتهما والبشرة الشاحبة والشُعيرات الدقيقة التي تنفصل على نحو متقطّع إلى دلتا حمراء صغيرة كانت تشير إلى عُمرٍ بحدود الخمسين.

سأل القاضي حين جلس الرجل على منصة الشهود: "هل أنت ضابط الشرطة هاري هول؟".

"نعم".

"ليس هناك عنوان منزلٍ كما أرى؟".

"إنّه خاص". أشار هول بإبهامه من فوق كتفه قائلاً: "حاولوا الدخول إلى منزلي عنوةً".

سُمِعَت في القاعة صيحات الاستهجان.

"أيها الضابط هول، هل أدليت بشهادة من قبل؟ بكلمات أخرى: هل كنت تحت القسم؟".

"نعم".

اهتزّ رأس كروهن مثلما تفعل دمى الكلاب التي يحبُّ بعض السائقين وضعها على رفوف كونسول سياراتهم، ثم بدأ يقلّب بأصابعه الوثائق بانفعال.

قال غروث: "لقد حقّقتَ في جرائم لمصلحة شعبة الجريمة. أليس

كذلك؟ لماذا كلفت بهذا القضية؟".

"لأننا قيّمنا القضية على نحو غير صحيح".

"آه؟!".

"لم نظن أن هو داي سينجو. لا ينجو المرء عادة إذا تهشّمت جمجمته وخرجت أجزاء منها".

رأى كروهن الفزع يبدو على وجهي المستشارين بشكل لا إراديّ. ولكنّ ذلك لم يكن مهماً وقتها. كان قد عثر على الوثيقة التي تحمل اسميهما، وكانت هي ما يريده: الغلطة.

بوابة كارل يوهانز. 5 تشرين الأول 1999

ستموت أيها الرجل العجوز.

كانت الكلمات لا تزال ترنّ في أذني الرجل العجوز وهو ينزل الدرجات، ويهمّ بمغادرة المبنى، ثم توقف ساكناً من دون حراك، وقد بهرته شمس الخريف الساطعة. مع تقلّص بؤبؤيه ببطء، أمسك "بالدرابزين" بقوة، وتنفس بتمهّل وعمق. أصغى السمع إلى ضجيج السيارات والقطار، وأصوات الأبواق التي تُفهِم المشاة أنّه بمقدورهم العبور، وأصواتٍ متحمّسة وسعيدة تتسارع على وقع الأحذية، وموسيقى. هل سمع من قبل مثل تلك الموسيقى؟ لم ينجح شيء في إخفاء صدى الكلمات: ستموت أيها الرجل العجوز.

كم مرة وقف هناك على الدرجات خارج عيادة د. بوير الجراحية؟ مرتين في السنة طوال أربعين عاماً، مما يجعلها ثمانين مرة. لقد وقف هناك ثمانين يوماً عادياً مثل ذلك اليوم، لكنه لم يلاحظ قطّ - ليس قبل الآن - مدى الحيوية في الشوارع، ومقدار الانتعاش، والتوق الشديد إلى الحياة. كان ذلك اليوم أحد أيّام شهر تشرين الأول، ولكنه بدا مثل يوم في أيار. لم يعد يشعر بالهدوء. هل كان يبالغ؟ استطاع سماع صوتها، ورؤية ظلّها في الشمس، وشكل وجهها وهو يختفي في هالة من الضوء الأبيض.

ستموت أيها الرجل العجوز.

اصطبغ البياض بلونٍ ما وصار بوابة كارل يوهانز. وصل إلى الدرجة السفلية، ثم توقف ونظر يمنة ويسرة؛ وكأنه لا يستطيع تحديد أي اتجاه يجب أن يسلك، واستغرق في حلم يقظة. فزع وكأن أحداً قد أيقظه، وبدأ يسير نحو القصر. كانت مشيته متردّدة، وعيناه ذابلتين، وجسده الهزيل المغطّى بمعطف صوفيّ فضفاض منحنياً قليلاً.

كان د. بوير قد قال: "لقد انتشر السرطان".

فأجاب: "صحيح". ثم نظر إلى الطبيب وتساءل: هل هذا شيءٌ يتعلمونه في كلية الطب؟ أي أن ينزعوا نظارتهم حين تكون هناك قضايا خطرة يجب الحديث عنها، أم أنه شيء يفعله الأطباء الذين يعانون ضعفاً في بصرهم لتفادي النظر إلى عيون مرضاهم؟ كان د. كونراد بوير قد بدأ يشبه والده. وجعله تراجع خط الشعر على رأسه، والانتفاخان تحت عينيه يشعر بأنّه يهتم به مثل أبيه.

كان الرجل العجوز قد قال بصوت شخص لم يسمعه منذ أكثر من

خمسين سنة: "أخبرني عن حقيقة وضعي بإيجاز؟". كان صوته أجوف وقاسياً ومتحشرجاً وصادراً عن رجل ترتعش حباله الصوتية خوفاً من الموت.

"نعم، في الواقع، هناك سؤال عن -".

"رجاءً أيّها الطبيب. لقد نظرتُ في عيني الموت من قبل".

كان قد رفع صوته، واختار كلماتٍ ترغمه على البقاء متماسكاً، وتكلم بالطريقة التي أراد د. بوير أن يسمعها منه، وكما أراد هو أن يسمعها أيضاً.

كانت نظرة الطبيب قد طافت فوق الطاولة، وتجاوزت الأرضية الخشبية البالية، ووصلت إلى النافذة المتسخة، واستقرت هناك لبعض الوقت قبل أن تعود وتلتقي نظارته. كانت يداه قد عثرتا على قطعة القماش التي يستخدمها لتنظيف نظارته مراراً وتكراراً.

"أعرف كيف -".

"أنت لا تعرف شيئاً أيها الطبيب". كان الرجل العجوز قد سمع نفسه وهو يطلق ضحكة قصيرة ومتحفّظة. "لا تنزعج يا د. بوير. لكنني أضمن لك شيئاً واحداً: أنت لا تعرف شيئاً".

لاحظ انزعاج الطبيب، وسمع في الوقت نفسه قطرات تنزل من الصنبور إلى المغسلة في الجهة الأخرى من الغرفة. كان صوتاً جديداً. فجأةً، وعلى نحو مبهم، بدا أنه يتمتع بحاسة سمع قوية كما لو أنّه في العشرين من عمره.

وضع د. بوير نظارته مجدداً، ورفع ورقة، وكأن الكلمات التي سيقولها مكتوبة عليها، ثمّ تنحنح قائلاً: "ستموت أيها الرجل العجوز".

كان الرجل العجوز يفضل لو أن الطبيب كان أقل صراحة معه.

توقف إلى جانب حشد من الناس، حيث سمع عزفاً على الغيتار، وصوتاً يغني أغنية لا بدّ من أنها كانت تبدو قديمة بالنسبة إلى الجميع؛ باستثنائه. كان قد سمعها سابقاً، قبل ربع قرن على الأرجح، لكنّ ذلك كان بالنسبة إليه وكأنّه قد حصل بالأمس فقط. كان كل شيء على هذه الحال آنذاك؛ كلما كان موغلاً في الزمن أكثر، كان يبدو أقرب وأوضح. تذكّر أشياء لم يفكّر فيها منذ سنوات. كان بمقدوره آنذاك إغماض عينيه، ورؤية أشياء تظهر على شبكيتيه؛ أشياء كان قد قرأ عنها سابقاً في مذكّراته عن الحرب.

"على كل حال بقيت لديك سنة لتعيشها".

ربيعٌ واحد، وشتاءٌ واحد. سيكون بمقدوره رؤية كل ورقة صفراء على الأشجار في ستودنتر لوندن. سيرى تلك الأشجار وهي تخلع ثوبها وكأنه يضع

نظارة جديدة أقوى. أكانت الأشجار نفسها موجودة هناك في العام 1945، أم لا؟ لم يكن ذلك واضحاً جداً في ذلك اليوم، ولا أي شيء آخر. الوجوه المبتسمة وتلك الغاضبة، والصرخات التي لا يكاد يستطيع سماعها، وباب السيارة الذي أُغلق بعنف. وربما كانت عيناه تذرفان دموعاً؛ لأنه عندما تذكّر الناس الذين حملوا أعلاماً، ولوّحوا بها، وركضوا على طول الأرصفة، كانت الرؤية حمراء وضبابية. سمع صراخهم وهم يقولون: عاد ولي العهد!

صعد التلة إلى القصر حيث اجتمع عدّة أشخاص؛ ليشاهدوا تغيير الحرّاس. تردّد هناك صدى الأوامر، والضربِ على أخمص البنادق، وأصواتِ أعقاب الأحذية على الرصيف المصنوع من آجر أصفر باهت. سمع صوت آلات فيديو، والتقط بضع كلمات ألمانية. وقف زوجان يابانيان شابان، وذراع كل منهما حول الآخر، وهما يشاهدان العرض بسعادة. أغمض عينيه، وحاول شمّ رائحة البذلات الرسمية وزيت الأسلحة. كان ذلك محض هراء بالطبع؛ إذ لا شيء هنا تفوح منه رائحة حربه.

فتح عينيه مجدداً. ما الذي يعرفه هؤلاء الجنود الفتية الذين يرتدون ملابس سوداء، ويؤلّفون حرس شرف النظام الملكي، ويقومون بأفعال رمزية؟ إنهم أكثر براءة وشباباً من أن يفهموها أو يشعروا بأي شيء بشأنها. فكّر في ذلك اليوم مجدداً، وفي النرويجيين الشباب الذين يرتدون ملابس الجنود، أو كما يدعونهم الجنود السويديين. كانوا في عينيه جنوداً من صفيح، فهم لم يعرفوا قطّ كيف يرتدون زيّاً رسميّاً، ولا يدركون شيئاً عن طريقة معاملة أسير الحرب. كانوا خائفين وقساة، يضعون لفائف تبغٍ في أفواههم، وقبعاتهم الرسمية الأنيقة مائلة على رؤوسهم، فيما يمسكون بإحكامٍ أسلحتهم التي حصلوا عليها حديثاً، ويحاولون التغلّب على خوفهم بضرب السجناء على ظهورهم بأعقاب بنادقهم.

كانوا يقولون حين يضربون أحدهم، استغفاراً لذنوبهم: "أنت حيوان نازي".

تنفّس بعمق، واستمتع باليوم الخريفي الدافئ، ولكنه شعر بالألم في تلك اللحظة. ترنّح إلى الخلف. يوجد ماء في رئتيه. قيل له إن ذلك هو الأسوأ. سينجم عن الالتهاب والقيح ماء، وسيتجمع في رئتيه خلال اثني عشر شهراً، وربما أقل.

ستموت أيها الرجل العجوز.

ثم فاجأه السعال الذي كان عنيفاً جداً، حتى إن أولئك الذين كانوا يقفون قربه ابتعدوا عنه على نحو لا إرادي.

وزارة الخارجية، فيكتوريا تيريز. 5 تشرين الأول 1999

مشى برنت براندهوغ معاون وزير الشؤون الخارجية في الرواق بخطواتٍ واسعة. كان قد غادر مكتبه قبل ثلاثين ثانية، وسيكون في قاعة الاجتماعات في غضون خمس وأربعين ثانية. حرّك كتفيه داخل سترته، وشعر أنهما أكثر من مشدودتين، وأن عضلات ظهره متوترة تحت القماش. لاتيسيموس دورسي؛ عضلات الظهر العلوية. كان في الستين من عمره. غير أنّ مظهره لم يكن يدل على أنه أكبر من خمسين سنة ولو بيوم واحد. لا يعني ذلك أنه مهووس بمظهره. ولكنه كان يدرك تماماً أنه وسيم، من دون الحاجة إلى القيام بأكثر من التمارين الرياضية التي كان يحبها على كل حال، بالإضافة إلى خضوعه إلى عدّة جلسات تسمير اصطناعي في الشتاء، ونزع الشعر الأشيب على نحو منتظم من حاجبيه اللذين كانا قد أصبحا كثّين.

صرخ في أثناء تجاوزه آلة النسخ: "مرحباً ليزي!". فزعت الشابة المتمرّنة في الشؤون الخارجية، ولم تكد تستطيع الابتسام قبل أن يصل براندهوغ إلى الزاوية التالية. كانت ليزي محامية متخرجة حديثاً، وابنة صديق من أيام الجامعة، وقد بدأت بالعمل قبل ثلاثة أسابيع فقط. لقد أدركت منذ تلك اللحظة أن معاون الوزير أعلى موظف حكومي في المبنى، وأنه يعرف من هي. هل سيكون بمقدوره إحراجها؟ على الأرجح نعم، ولكن لا يعني ذلك أن هذا الأمر سيحدث بالضرورة.

استطاع سماع غمغمة الأصوات قبل أن يفتح الباب. نظر إلى ساعته: خمس وسبعون ثانية، ثم دخل وألقى نظرة سريعة في أرجاء الغرفة للتأكد من أن كل السلطات التي استُدعيت موجودة.

صرخ وهو يبتسم ابتسامة عريضة فيما كان يمدّ يده فوق الطاولة نحو رجل طويل ونحيل يجلس إلى جانب آن ستوركسن قائد الشرطة: "حسناً، حسناً، إذاً، أنت بياريني مولر؟ أنت ر - ش - ج، أليس كذلك؟ سمعت أنك تشارك في سباق تتابع هولمنكولن؟".

كانت تلك إحدى خدع براندهوغ؛ وهي استخدام معلومةٍ عن الأشخاص الذين يلتقيهم للمرة الأولى، شيءٍ غير مذكور في سيرهم الذاتية؛ وكان ذلك يهزّهم. كان استخدام رمز ر - ش - ج الاختصار لعبارة رئيس شعبة الجريمة (بوليتيادلينغسيف) يسعده على نحو خاص. جلس براندهوغ وغمز صديقه القديم كورت ميريك، رئيس بوليتيتز أوفيراكنينغستنست، أو ر

- ا - س (رئيس الاستخبارات السريّة)، وأمعن النظر في وجوه الآخرين الجالسين حول الطاولة.

حتى ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف من سيرأس الاجتماع. وذلك لأن الممثلين - نظرياً على الأقل - كانوا رفيعي المستوى، وقادمين من مكتب رئيس الوزراء، ومن شرطة مقاطعة أوسلو، والاستخبارات السريّة النرويجية، وشعبة الجريمة، ووزارة الشؤون الخارجية التي يعمل فيها براندهوغ. وكان مكتب رئيس الوزراء قد دعا إلى الاجتماع. ولكن، لم يكن هناك شك في أن شرطة مقاطعة أوسلو ممثّلة بآن ستوركسن، وشعبة الجريمة ممثّلة بكورت ميريك، ترغبان في تحمّل المسؤولية العملياتية حين تصل الإجراءات إلى ذلك الحدّ. بدا أن معاون وزير الخارجية من مكتب رئيس الوزراء يتخيّل أنه يتولى المسؤولية.

أغمض براندهوغ عينيه وأصغى السمع.

توقفت مجاملات سعدت برؤيتك، وخَفَتَتْ غمغمة الأصوات ببطء، وصدر عن الطاولة صوت صرير على الأرض. ليس بعد، كانت هناك خشخشة أوراق وطقطقة أقلام، فمعظم مديري الأجهزة يحملون معهم إلى الاجتماعات المهمّة كهذا الاجتماع دفاتر الملاحظات تحسباً؛ للوم بعضهم في ما بعد على أشياء حدثت. سعل أحدهم، لكنّ الصوت جاء من الطرف غير الصحيح في الغرفة، ولم يكن من نوع السعال الذي يسبق الحديث، بل كان شهيقاً عميقاً. تكلم أحدهم.

قال برنت براندهوغ، وهو يفتح عينيه: "إذاً، دعونا نبدأ".

استدارت الرؤوس نحوه. كان الأمر في كل مرة على النحو نفسه: يفتح معاون وزير الخارجية فمه قليلاً، فيما تبتسم آن ستوركسن ابتسامة ساخرة تدل على أنها تفهم ما يجري؛ لكن الأمر بخلاف ذلك، ووجوه تخلو من أي انفعال تنظر إليه من دون أي إشارة إلى أن الصراع قد انتهى.

"أهلاً بكم في أول اجتماع تنسيق. مهمّتنا هي إدخال أربعةٍ من أهم رجال العالم إلى النرويج وإخراجهم منها سالمين".

سُمِعت ضحكات خافتة ومهذّبة حول الطاولة.

"الاثنين 1 تشرين الثاني سيزورنا رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك، ورئيس الوزراء الروسي فلاديمير بوتين، وأخيراً وليس آخراً كرزة الكعكة. فعند الساعة 6:15 صباحاً، بعد سبعة وعشرين يوماً بالضبط، ستهبط طائرة سلاح الجو الأولى (الطائرة الرئاسية) وعلى متنها الرئيس الأميركي في مطار غاردمون في أوسلو".

جال غراندهوغ ببصره من وجه إلى آخر حول الطاولة، وتوقف عند الوجه الجديد بياريني مولر.

قال: "أعني إذا لم يكن الجو ضبابياً". ثم أطلق ضحكة، ولاحظ بارتياح أن مولر قد نسي توتره للحظة وضحك مع الآخرين. ردّ براندهوغ بابتسامة، كاشفاً عن أسنانه القوية التي أصبحت أكثر بياضاً منذ آخر معالجة تجميلية أجراها له طبيب الأسنان.

قال براندهوغ: "لا نزال لا نعرف بالضبط عدد الأشخاص القادمين. كان مع الرئيس حاشية من 2000 شخص في أستراليا، و1700 في كوبنهاغن".

ارتفع صوت همهمات حول الطاولة.

"على كل حال، أخمّن استناداً إلى خبرتي أن مجيء نحو 700 شخص أكثر واقعية على الأرجح".

كان براندهوغ واثقاً تماماً من أن تخمينه سيتحقق قريباً؛ لأنه كان قد تلقّى قبل ساعة فاكساً فيه لائحة بأسماء 712 شخصاً.

"على الأرجح يتساءل بعضكم: لماذا يحتاج الرئيس إلى هذا العدد من الأشخاص لاجتماع قِمّة يستمر يومين؟ الجواب بسيط: ما نتكلم عنه هنا هو استعراض قوة قديم الطراز. إذا كان تقديري صحيحاً، فإن عدد الأشخاص الذين اصطحبهم معه الإمبراطور فريدريك الثالث حين دخل روما في العام 1468 هو بالضبط سبعمئة شخص، وذلك فقط ليثبت للبابا من هو أقوى رجل في العالم".

ضحك الجميع حول الطاولة، فيما غمز براندهوغ آن ستوركسن. كان قد وجد المعلومة في صحيفة أفتنبوستن. أطبق راحتي كفّيه على بعضهما.

"لا داعيَ لإخباركم أن مدة شهر قصيرة جداً، ولكنها تعني أننا سنحتاج إلى عقد اجتماعات تنسيق يومية عند الساعة العاشرة في هذه الغرفة، سيكون عليكم تأجيل كل شيء آخر حتى يخرج هؤلاء الرجال الأربعة من عهدتنا. هناك حظر على العطلات، والاستراحات، والإجازات المرضية. هل هناك أي أسئلة قبل أن نتابع؟".

شرع معاون وزير الخارجية في القول: "حسناً، نظن -".

فقاطعه براندهوغ: "يتضمن ذلك حالات الاكتئاب؟!". ولم يسع بياريني مولر إلا أن يضحك بصوتٍ عالٍ.

قال معاون وزير الخارجية مجدداً: "حسناً، نحن -".

فقاطعه براندهوغ مجدّداً وهو يقول: "الكلمة لك يا ميريك".

"ماذا؟".

رفع رئيس الاستخبارات السريّة ر - ا - س رأسه اللامع، ونظر إلى براندهوغ.

فقال له براندهوغ: "أردتَ قول شيء عن تقويم الاستخبارات السريّة للمخاطر؟".

قال ميريك: "آه، ذلك. لقد أحضرنا نسخاً معنا".

كان ميريك من ترومسو، ويتكلم بلهجة غريبة هي مزيج من لهجة ترومسو واللهجة النرويجية النموذجية. أومأ ميريك إلى امرأة تجلس إلى جانبه، حيث استقرت عينا براندهوغ عليها. لا بأس، لم تكن متبرجة، وشعرها البني قصيرٌ ومعقودٌ بدبوسٍ على نحو غير لائق، وبذلتها الرسمية الصوفية الزرقاء باهتة تماماً. لكن، بالرغم من أنها قد حاولت الظهور هادئة على نحو مبالغ فيه، جرياً على عادة النساء العاملات اللواتي يخشين من ألا يؤخذن على محمل الجد، إلا أنه أُعجب بما رآه. فلقد كانت عيناها البنيتان الهادئتان، ووجنتاها العاليتان تمنحها مظهراً أرستقراطياً يكاد يكون غير نرويجي. كان قد رآها من قبل، لكن تسريحة شعرها هذه المرة كانت جديدة. ماذا كان اسمها مجدداً؛ راكيل؟ ربما كانت مطلّقةً حديثاً. قد يفسّر ذلك تسريحة الشعر الجديدة. انحنت فوق حقيبة الأوراق الموجودة بينها وبين ميريك، فوقعت عينا براندهوغ تلقائيّاً على أعلى كنزتها، لكنها كانت مغلقة بأزرار فلم يتمكن من رؤية أي شيء مثير. هل لديها أطفال في المدرسة؟ هل سيكون لديها أي اعتراض على استئجار غرفة في أحد الفنادق في وسط المدينة في أثناء اليوم؟ هل تتأثر بالسلطة؟

براندهوغ: "زوّدنا بموجز مختصر فقط يا ميريك".

"حسناً".

قال معاون وزير الخارجية: "أودّ قول شيء أولاً...".

"هل يمكننا أن ندع ميريك يُنهي ما لديه أولاً؟ ثم يمكنك بعد ذلك قول ما تريده يا بيورن".

كانت تلك هي المرة الأولى التي يستخدم فيها براندهوغ الاسم الأول لمعاون الوزير.

قال ميريك: "تظن الاستخبارات السريّة أن هناك خطر وقوع هجوم أو أضرار أخرى".

ابتسم براندهوغ، ورأى من طرف عينه قائد الشرطة تفعل الشيء نفسه. إنها فتاة ذكية. وهي تحمل إجازة في القانون، وسجلها الإداري لا تشوبه شائبة. ربما عليه أن يدعوها وزوجها ذات أمسية إلى عشاء من

سمك السلمون. كان براندهوغ وزوجته يعيشان في منزل خشبي فسيح في الحزام الأخضر في نوردبرغ. وليس عليك في الشتاء إلا انتعال مزلجيك خارج المرأب وستنطلق بسهولة كبيرة. كان براندهوغ يحب منزله، في حين كانت زوجته تظن أنه كئيب جداً؛ فقد قالت إن الخشب القاتم يجعلها تخاف، بالإضافة إلى أنها لم تكن تحب أن تحيط بها الغابة. نعم، دعوة إلى العشاء. ألواح خشبية متينة، وأسماك سلمون طازجة سيصطادها بنفسه. كانت تلك هي الإشارات الصحيحة التي يجب أن تصدر عنه.

"يجب أن أذكّركم بأنّ أربعة رؤساء أميركيين قد اغتيلوا: أبراهام لينكولن عام 1865، وجيمس غارفيلد عام 1881، وجون أف. كنيدي عام 1963، و...".

استدار إلى المرأة ذات الوجنتين العاليتين التي نطقت بالاسم.

"آه، نعم. ويليام مكينلي عام...".

قال براندهوغ بابتسامة دافئة وهو يلقي نظرة على ساعته: "1901".

"بالضبط. لكن، كانت هناك محاولات كثيرة أخرى بمرور السنين. هاري ترومان، وجيرالد فورد، ورونالد ريغان كانوا جميعاً أهدافاً لهجمات خطرة في أثناء توليهم مناصبهم".

تنحنح براندهوغ: "لا تنسَ أن الرئيس الحالي تعرض لإطلاق نار قبل بضع سنوات، أو منزله على الأقل".

"ذلك صحيح. لكننا لا نأخذ بالحسبان هذا النوع من الحوادث؛ لأنها كثيرة جداً. أشك في أن أي رئيس أميركي في السنوات العشرين الأخيرة قد أنهى ولايته الدستورية من دون أن يتعرض لعشر محاولات اغتيال على الأقل تم اكتشافها وإلقاء القبض على منفّذيها. ولم تعرف وسائل الإعلام ذلك".

"لماذا؟".

تخيّل رئيس شعبة الجريمة بياريني مولر أنه قد فكّر فقط في السؤال من دون أن يتفوّه به، وتفاجأ مثل الآخرين حين سمع صوته. ابتلع ريقه حين لاحظ الرؤوس تستدير نحوه، وحاول إبقاء عينيه على ميريك، لكنه لم يستطع إلا جعلهما تتحولان في اتجاه براندهوغ، فغمزه معاون وزير الشؤون الخارجية مُطَمْئِناً.

قال ميريك وهو ينزع نظارته: "حسناً، جرت العادة كما تعرفون على إبقاء محاولات الاغتيال الفاشلة طي الكتمان". كانت نظارته تبدو من نوع النظارات التي تصبح داكنة تحت أشعة الشمس، ويستعملها هورست تابرت

في دور المحقق ديريك، وهي شائعة جداً، وتُطلب بريدياً.

"كان قد ثبت أن محاولات الاغتيال مُعدية مثل الانتحار على الأقل. إضافة إلى ذلك، نحن لا نرغب بكشف طرائق عملنا".

سأل معاون وزير الخارجية: "ما الخطط التي وُضعت بشأن المراقبة؟".

مرّرت المرأة عالية الوجنتين ورقة إلى ميريك فوضع نظارته مجدداً وقرأها.

"ثمانية رجال من الاستخبارات السريّة قادمون يوم الخميس. سنبدأ عندها بتفقّد الفنادق والطريق، وبالتّوثّق من كل أولئك الذين سيكونون على تماس مباشر مع الرئيس، وسندرّب ضباط الشرطة النرويجية الذين سنعمل معهم. سنكون بحاجة إلى استدعاء وحدات من رومرايك، وأسكر، وباروم".

سأل براندهوغ: "ما المهمّات التي سيتم إسنادها إليهم؟".

"مهمّات مراقبة أساساً. حول السفارة الأميركية، وفي الفندق الذي ستقيم فيه الحاشية، وفي موقف السيارات -".

"باختصار؛ كل الأماكن التي سيتواجد الرئيس فيها".

"ستتولى الاستخبارات السريّة النرويجية ذلك، مع الاستخبارات السريّة الأميركية".

قال براندهوغ بابتسامة متكلّفة: "ظننت أنك لا تحب القيام بمهمّات مراقبة يا كورت؟".

جعلت الذكرى كورت ميريك يكشّر. فقد رفضت الاستخبارات السريّة النرويجية تقديم الحماية لمؤتمر التعدين في أوسلو سنة 1998، استناداً إلى تقويمها الخاص بالمخاطر؛ إذ استنتجوا أنه كان خطراً متوسطاً إلى ضعيفٍ. وفي اليوم الثاني من المؤتمر، لفتت إدارة الهجرة النرويجية انتباه القائمين عليه إلى حقيقة أن أحد السائقين النرويجيين الذين كانت الاستخبارات السريّة قد انتقتهم للبعثة الكرواتية كان بوسنياً، جاء إلى النرويج في السبعينيات، وحصل على الجنسية النرويجية منذ سنوات طويلة. لكن الكروات ذبحوا والديه في العام 1993، وقتلوا أيضاً أربعةً من أفراد أسرته في موستر، في البوسنة والهرسك. وعندما فتّشوا شقة هذا الرجل عثروا على قنبلتين يدويتين ورسالة انتحار. بالطبع، لم تعلم وسائل الإعلام بذلك، لكن المضاعفات وصلت إلى المستوى الحكومي، وأصبح موقف كورت ميريك حرجاً جداً حتى تدّخل برنت براندهوغ شخصياً. كانت القضية قد هدأت بعد أن استقال مفتش الشرطة المسؤول عن منح التراخيص الأمنية. لم يستطع

براندهوغ تذكر اسم الرجل، لكن علاقات العمل مع ميريك كانت ممتازة منذ ذلك الوقت.

هتف براندهوغ وهو يصفّق بيديه: "بيورن! الآن كلنا آذان صاغية لسماع ما كنت تريد أن تخبرنا إيّاه. هيا!".

جال براندهوغ ببصره في أرجاء الغرفة، وتجاوز بسرعة مساعدة ميريك، ولكنه بالرغم من ذلك لاحظ أنها تنظر إليه. ذلك هو المطلوب، لقد كانت تنظر باتجاهه، لكنّ عينيها تخلوان من أي تعبير، أو انفعال. فكّر في أن يقابل نظرتها بالمثل؛ ليرى تعابير وجهها عندما تدرك ما يفعله، لكنه تخلّى عن تلك الفكرة. ماذا كان اسمها؟ راكيل، أليس كذلك؟

حدائق القصر. 5 تشرين الأول 1999

"هل أنت ميت؟".

فتح الرجل العجوز عينيه فرأى شكلَ رأسٍ فوقه، لكن الوجه تحوّل إلى هالةٍ من ضوء أبيض. هل كانت هي؟ هل جاءت آنذاك لتأخذه؟

كرّر الصوت الحاد: "هل أنت ميت؟".

لم يُجب لأنه لم يعرف إن كانت عيناه مفتوحتين، أم كان يحلم ببساطة، أم - مع سؤال الصوت له - إن كان ميتاً!

"ما اسمك؟".

تحرّك الرأس، فرأى قمم الأشجار والسماء الزرقاء. لقد كان يحلم؛ شيءٌ في قصيدة، وقاذفات ألمانية في الجو، للشاعر النرويجي نوردال غريغ، والملك يهرب إلى إنكلترا. بدأ بؤبؤاه ينسجمان مع الضوء مجدداً، وتذكّر أنه كان قد جلس على العشب في إحدى حدائق القصر ليستريح، ولا بدّ من أنه قد خلد إلى النوم. جثم فتى صغير إلى جانبه، ونظرت عينان بنيتان إليه من تحت حاشية سوداء.

قال الفتى: "اسمي علي".

كان الفتى باكستانيًّا، وكان أنفه ناتئاً وغريباً.

قال الرجل العجوز متبسماً: "اسمي دانيال، إنه اسم من الكتاب المقدّس".

نظر الفتى إليه:

"إذاً، أنت دانيال؟".

قال الرجل: "نعم".

لم يُبعد الفتى ناظريه عنه، وشعر الرجل العجوز بالارتباك. فربما ظنّ الفتى اليافع أنه مشرّد لأنه كان يستلقي هناك تحت الشمس الحارقة مرتدياً كل ملابسه، ومستخدماً معطفه الصوفي كبساط مدّه تحته.

فسأل الفتى ليتفادى نظرته المتفحّصة: "أين والدتك؟".

استدار الفتى وأشار: "إنها هناك".

كانت امرأتان بدينتان سمراوان تجلسان على العشب بعيداً قليلاً عنهما، فيما أربعة أطفال يمرحون حولهما، ويضحكون.

كان الرجل العجوز قد مدّ يده وقرَصَ أنف علي برفق، فصرخ الفتى مبتهجاً. ثم رأى رأسي المرأتين يستديران، ووقفت إحداهما على قدميها، فأفلت أنف الفتى من يده.

قال مشيراً برأسه باتجاه المرأة التي تقترب منهما: "جاءت والدتك يا علي".

صرخ الفتى: "أمي! انظري".

صرخت المرأة على الفتى بالأوردية، فابتسم الرجل العجوز. لكن المرأة نأت بنفسها عنه ونظرت بحزمٍ إلى ابنها الذي امتثل أخيراً ومشى نحوها. وعندما استدارا، اندفع بصرها نحوه، وتجاوزه وكأنه غير مرئي. لقد أراد أن يُوضح لها أنه ليس مشرّداً، وأن يخبرها أن له باعاً في تكوين المجتمع، فقد استثمر فيه، وأعطى كل ما لديه حتى لم يعد هناك أيّ شيء يقدّمه، بغض النظر عن الأخذ والعطاء والكفّ عن ذلك. كان ذلك وقتاً يسدد فيه آخرون الثمن.

لم يسمع الفتى الصغير وهو يناديه حين كان يغادر المكان.

مقر قيادة الشرطة، غرونلاند. 9 تشرين الأول 1999

نظرت إيلين غيلتن إلى الرجل الذي اندفع عبر الباب قائلة: "صباح الخير هاري".

"تباً!".

ركل هاري سلة المهملات الموضوعة إلى جانب مكتبه، فارتطمت بالجدار قرب كرسي إيلين، وتدحرجت على الأرضية المغطّاة بالمشمّع، وتناثرت محتوياتها في كل مكان: أوراق تقارير لم تنجز (جريمة إيكبرغ)، وعلبة لفائف تبغٍ فارغة (كاميل، عليها لصاقة: معفاة من الضريبة)، وعلبة لبن غومورن خضراء، وصحيفة داغسافيسن، وتذكرة دار عرض مستعملة (فيلمتيترت: الخوف والاشمئزاز في لاس فيغاس)، وقسيمة بلياردو مستعملة، ومجلة مختصّة بالموسيقى (موجو، عدد 69، شباط 1999، مع صورة للملكة على الغلاف)، وقارورة كولا (بلاستيكية، نصف لتر)، ولصاقة صفراء مع رقم هاتف فكّر لبعض الوقت في الاتصال به.

رفعت إيلين بصرها عن الحاسوب، وأمعنت النظر إلى محتويات السلّة المبعثرة على الأرض، وسألت: "هل تتخلص من موجو يا هاري؟".

كرّر هاري: "تباً!". ثمّ خلع سترة بذلته الضيقة، ورماها عبر المكتب الذي تبلغ مساحته عشرين متراً مربعاً ويشترك فيه مع إيلين. ارتطمت السترة بمشجب المعاطف، ثمّ وقعت على الأرض.

سألت إيلين وهي تمدّ يدها لمنع سقوط المشجب الذي تمايل: "ما الأمر؟".

"وجدتُ هذه في علبة بريدي".

ولوّح هاري بوثيقة في الهواء.

"تبدو مثل حكم محكمة".

"نعم".

"هل هي قضية مطعم دينيس؟".

"هذا صحيح".

"إذاً؟".

"حكموا على سفير أولسن بأقصى عقوبة؛ أي ثلاث سنوات ونصف".

"يا الله! يجب أن تكون فرحاً جدّاً".

"كنت كذلك لنحو دقيقة تقريباً حتى قرأت هذه".

رفع هاري فاكساً.

"حسناً؟".

"عندما استلم كروهن نسخته من الحكم هذا الصباح، ردّ عليه بإرساله تحذيراً إلينا بأنّه سيدّعي حصول خطأ في أصول المحاكمات".

ظهر تعبير على وجه إيلين، وكأنها تلوك شيئاً مقززاً في فمها.

"إنّه يريد إلغاء الحكم كله. لن تصدّقي ذلك أبداً، لكن كروهن، ذاك المراوغ، تصيّد خطأنا في أداء القسم". وقف هاري أمام النافذة، وتابع قائلاً: "يجب أن يؤدي المستشاران القسم حين يعملان للمرة الأولى بصفتهما قاضيين، ويجب أن يحدث ذلك في قاعة المحكمة قبل أن تبدأ القضية، وقد لاحظ كروهن أن المستشارة جديدة، وأنها لم تؤدِّ القسم في قاعة المحكمة".

"هذا يدعى توثيق اليمين".

"صحيح. ولقد تبيّن الآن وفقاً لشهادة الحكم أن القاضي قد شهد توثيق يمين المستشارين في مكتبه، قبل أن تبدأ القضية. إنه يلقي اللومَ على ضيق الوقت والقوانين الجديدة".

جعّد هاري ورقة الفاكس، ورماها في مسار قوسي، ولكنه أخطأ سلة مهملات إيلين بنحو نصف متر.

سألت إيلين وهي تركل ورقة الفاكس إلى شطر هاري من المكتب: "والنتيجة؟".

"ستعتبر الإدانة لاغية، وسيكون سفير أولسن رجلاً حراً لمدّة ثمانية عشر شهراً على الأقل حتى يتم فتح القضية مجدداً. من واقع التجربة، سيكون الحكم أخفّ كثيراً؛ بسبب الإجهاد الذي تفرضه مدة الانتظار على المتهم إلخ، إلخ، إلخ. سيصبح سفير أولسن على الأرجح رجلاً حراً بالرغم من تمضيته ثمانية شهور حتى الآن في السجن".

لم يكن هاري يتكلم مع إيلين، فقد كانت تعرف تفاصيلَ القضية كلها، بل كان يخاطب صورته المنعكسة على زجاج النافذة، وينطق بالكلمات ليسمعها ويرى إن كانت تبدو منطقية. مسح بكلتا يديه على جمجمته المتعرّقة، حيث كان شعرٌ أشقر كثيف يغطّيها تماماً حتى وقت قريب. كان هناك سبب بسيط دفعه إلى حلق ما تبقى من شعره، فقد سمع ذلك مرة أخرى في الأسبوع الماضي، حيث كان شاب يعتمر قبعة صوفية سوداء، وينتعل حذاء نايكي، ويرتدي سروالاً فضفاضاً يتدلى القماش من بين ركبتيه، قد اقترب منه في حين كان أصدقاؤه يضحكون بصوت خافت خلفه، وسأل هاري إن كان يشبه بروس ويليز في أستراليا؛ فقد مرّت ثلاث - ثلاث! -

سنوات منذ أن ظهر وجهه على الصفحات الأولى في الصحف، ومنذ أن جعل من نفسه أضحوكة في برامج تلفازية بالحديث عن القاتل المتسلسل الذي كان قد أطلق عليه النار في سيدني. فما كان من هاري إلا أن حلق شعره تماماً، في حين اقترحت إيلين أن يطلق لحيته.

"أسوأ شيء هو أنني واثق من أن ذلك المحامي كان قد جهّز مسودة الاستئناف قبل صدور الحكم، وكان بمقدوره قول شيء ما وتوثيق اليمين، ولكنه جلس هناك وهو يفرك يديه وينتظر".

هزّت إيلين كتفيها.

"هذا النوع من الأشياء يحدث. إنّه عمل جيد من قبل محامي الدفاع. يجب التضحية بشيء على مذبح القانون والنظام، فتمالك نفسك يا هاري".

قالت ذلك بمزيج من التهكّم والإقرار بالحقيقة.

وضع هاري جبينه على الزجاج البارد، وكان ذلك اليوم أحد أيام تشرين الأول الدافئة على نحو غير متوقع، ثم تساءل من أين جاءت إيلين، الشرطية الشابة الجديدة، ذات الوجه الشاحب الجميل الذي يشبه الدمية، والفم والعينين المدوّرتين مثل الكرة، بمثل صلابة العود تلك؟ لقد كانت فتاة من الطبقة الوسطى - كما تقول - وطفلة وحيدة مدللة ارتادت مدرسة داخلية في سويسرا. من يعرف؟ ربما كانت تلك تنشئة صلبة كفاية.

أرجع هاري رأسه إلى الخلف، وأطلق زفيراً، ثم حلّ أحد أزرار قميصه.

همست إيلين وهي تصفّق مشجّعة: "المزيد، المزيد".

"يدعونه الرجل الوطواط في دوائر النازية الجديدة".

"فهمت. مضرب البيسبول".

"لا أقصد النازي، بل المحامي".

"صحيح، إنه مثير للاهتمام. هل يعني ذلك أنه وسيم، وثري، ومجنون، ولديه صناديق شراب، وسيارة جميلة؟".

ضحك هاري قائلاً: "يجب أن تحظي ببرنامجك التلفازي الخاص يا إيلين. إنّ سبب ذلك هو أن الرجل الوطواط يفوز دائماً، وهو متزوج بالمناسبة".

"هل تلك هي السلبية الوحيدة؟".

قال هاري وهو يسكب لنفسه كوباً من القهوة منزلية التحضير التي كانت إيلين تحضرها معها منذ أن انتقلت إلى المكتب قبل سنتين: "نعم... كما أنه يهزأ بنا في كل مرة". المشكلة هي أن حاسة ذوق هاري لم تعد

تستسيغ القهوة العادية.

سألت: "حكم من المحكمة العليا؟".

"قبل أن يصبح في الأربعين".

"أراهنك بمبلغ ألف كرون على أن ذلك لن يحدث".

"اتفقنا".

ضحكا وشربا من كوبيهما المصنوعين من ورق مقوّى.

سألت: "إذاً، هل يمكنني الحصول على مجلة موجو؟".

"في منتصف المجلة، توجد أسوأ عشر صور لفريدي ميركوري (موسيقي بريطاني). فهو يقف عاري الصدر، وواضعاً ذراعيه على خصره، فيما تبدو أسنانه بارزة كأسنان الأرنب. إليكِ أيقونة سوء الحظ".

"أحب فريدي ميركوري فعلاً. أتحبّه؟".

"لم أقل إنني لا أحبه".

صرخ كرسي المكتب الأزرق المتهالك الذي بقي لمدة طويلة على الوضعية المنخفضة احتجاجاً حين استرخى هاري إلى الخلف مستغرقاً في أفكاره. ثمّ نزع هاري عن الهاتف أمامه ورقة ملاحظات صفراء اللون كتبت عليها إيلين.

"ما هذا؟".

"أنت تجيد القراءة، أليس كذلك؟ مولر يريدك".

حثّ هاري الخُطى في الرواق، وتخيّل المديرَ في أثناء ذلك وهو يزمّ فمه ويُغضّن جبينه حين يسمع أن سفير أولسن قد أفلت مجدداً.

رفعت شابة متورّدة الخدّين تقف إلى جانب آلة النسخ عينيها فوراً، وابتسمت حين تجاوزها هاري. ولكنه لم يستطع أن يبادلها الابتسام، ونظر إلى ساعته حول معصمه. إنها إحدى فتيات المكتب على ما يبدو، وكان عطرها عذباً وثقيلاً، وقد أزعجه ببساطة.

إذاً، لقد بدأ العطر يزعجه، ما الذي يحدث معه؟ كانت إيلين قد قالت إنه يفتقر إلى القدرة الطبيعيّة على الطفو. فمعظم الناس يكافحون للوصول إلى السطح، أما هو فبعد عودته من بانكوك، بقي في الأسفل وقتاً طويلاً، حتى إنه فكّر في عدم العودة إلى السطح مجدداً. لقد كان كل شيء بارداً ومظلماً، وكان الهدوء تاماً على نحو رائع، وكل انطباعاته باهتة نوعاً ما، كأنه مغمورٌ بالماء تماماً. وعندما كان الناس يتحدّثون إليه، كانت كلماتهم مثل فقاعات هواء تخرج من أفواههم، وتنطلق بعيداً إلى الأعلى. كان ذلك يشبه الغرق - كما فكّر - فانتظر، لكنّ شيئاً لم يحدث. إنه

خواءٌ فقط، لا بأس بذلك فقد نجا بفضل إيلين.

لقد انضمت إليه في الأسابيع الأولى بعد عودته، حين كان على وشك رمي المنشفة والذهاب إلى منزله، وقد تأكّدت من عدم ذهابه إلى المشارب، وأمرته بإطلاق زفير حين يتأخر عن العمل. ووفقاً لذلك، كان عليها أن تعلن: أهَوَ لائقٌ صحياً أم لا؟ كانت قد أعادته إلى المنزل عدّة مرات، والتزمت الصمت حيال ذلك. استغرق الأمر وقتاً، لكن هاري لم يكن لديه شيء يفعله على وجه الخصوص. وقد أومأت إيلين بارتياح في أول أسبوع استطاعا التأكيد فيه على أنه قد جاء صاحياً إلى العمل لمدّة خمسة أيام متتالية.

وفي النهاية، سألها بصراحة: لماذا كانت شهادة كلية الشرطة والإجازة في القانون خلفها، وحياتها كلها أمامها؟ لماذا وضعت حجر الرحى ذاك حول عنقها؟ ألم تكن تدرك أن ذلك لن ينفعها في مسيرتها المهنية أبداً؟ هل كانت تجد صعوبة في العثور على أصدقاء عاديين ناجحين؟

نظرت إليه بتعبير رزين وأجابته أنها فعلت ذلك فقط لكي تستفيد من خبرته؛ إذ كان أفضل محقق في شعبة الجريمة. هذا هراءٌ بالطبع، ولكنه بالرغم من ذلك شعر بالإطراء؛ لأنها قالت ذلك. وكانت إيلين زيادةً على ذلك، محققة طموحة ومتحمّسة جداً، ومن المستحيل أن لا تتأثر بما يحصل له، وكان هاري طوال الشهور الستة الماضية قد بدأ يقوم بعمل جيد مجدداً، وبعضه ممتاز أيضاً كما في حالة قضية سفير أولسن.

كان باب مولر أمامه، فأومأ هاري على عَجَلٍ إلى ضابط يرتدي ملابس مدنية تظاهر بأنه لا يراه.

لو أنه كان متسابقاً في البرنامج التلفازي السويدي رحلة روبنسون - كما فكّر هاري - لما كان الأمر سيستغرق منهم أكثر من يوم ليلاحظوا أخلاقه السيئة ويرسلوه إلى منزله. يا الله! لقد بدأ يفكّر بطريقة برامج القناة 3 السيئة نفسها. ذلك ما يحدث عندما تمضي خمس ساعات كل يوم أمام التلفاز؛ حيث كانت الفكرة أنه إذا تسمّر أمام التلفاز في بوابة سوفيز، فعلى الأقل، لن يجلس في مقهى شرودر.

قرع البابَ مرتين، مباشرة أسفل لافتة: بياريني مولر، رئيس الاستخبارات السريّة.

"ادخل!".

نظر هاري إلى ساعته: خمس وسبعون ثانية.

مكتب مولر. 9 تشرين الأول 1999

كان المفتش بيارني مولر مسترخياً على الكرسي بدلاً من جلوسه عليه بطريقة عمليّة، فيما ساقاه الطويلتان تبرزان من بين قائمتي المكتب. وكان يضع يديه خلف رأسه - وهو عيّنة جميلة مما كان باحثون في الأعراق أوائل يدعونه جماجم طويلة - والهاتف مثبّت بين أذنه وكتفه. كان شعره قصيراً جداً، وقد قارنه هول بشعر كيفن كوستنر الممثل الأميركي في ذا باديغارد أي الحارس الشخصي. ولم يكن مولر قد شاهد ذا باديغارد، فهو لم يذهب إلى دار عرض منذ خمس عشرة سنة لأن القدر كان قد ألقى على عاتقه مسؤولية جسيمة، ولم يمنحه وقتاً كافياً، ورزقه بولدين وزوجة لا تكاد تفهمه.

قال مولر: "إذاً سنناقش ذلك". ثم وضع الهاتف جانباً، ونظر إلى هاري من فوق مكتب مثقل بالوثائق، ومنافض السجائر الممتلئة والأكواب الورقية. حدّدت صورة موضوعة على سطح المكتب، يظهر فيها صبيّان يرتديان زي الهنود الحمر مركزاً منطقياً نوعاً ما وسط الفوضى.

"ها أنت ذا يا هاري".

"ها أنا ذا أيها المدير".

"لقد حضرتُ اجتماعاً في وزارة الشؤون الخارجية بشأن قِمة ستعقد في تشرين الثاني هنا في أوسلو، والرئيس الأميركي قادم... حسناً، أنت تقرأ الصحف، أليس كذلك؟ أتريد قهوة يا هاري؟".

كان مولر قد وقف، وخطا بضع خطوات واسعة إلى خزانة ممتلئة عليها أداة لتحضير القهوة، تتوازن فوق كومة من الأوراق، وتخرج منها مادة دبقة.

"شكراً أيها المدير. لكن أنا -".

كان الوقت قد فات، وسرعان ما تناول هاري الكوب الذي يتصاعد منه البخار.

"أنا أتطلع إلى زيارة خاصة من قِبَل وحدة الاستخبارات السريّة، الذين أثق بأنّ علاقتنا معهم ستصبح ودّية بعد أن نعرف بعضنا على نحو أفضل".

لم يكن مولر يعرف كيف يتكلم بتهكّم، وكان هذا الأمر أحد الأشياء التي تُعجب هاري في مديره.

أرجع مولر ركبتيه إلى الخلف حتى مسّتا أسفل الطاولة. ومال هاري

إلى الخلف لإخراج علبة كاميل مجعّدة من جيب سرواله، ورفع حاجبه في إشارة إلى مولر الذي سرعان ما فهم التلميح ودفع المنفضة الممتلئة نحوه.

"سأكون مسؤولاً عن الأمن على طول الطرقات من غاردمون وإليه. سيأتي باراك، بالإضافة إلى الرئيس -".

"باراك؟".

"إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل".

"إذاً، هناك اتفاق أوسلو آخر على الطريق، أليس كذلك؟".

حدّق مولر بيأس إلى عمود الدخان الذي يتصاعد إلى السقف.

"لا تقل لي إنك لم تقرأ عن ذلك يا هاري، وإلا سأصبح أكثر قلقاً عليك مما أنا عليه الآن؛ فقد كان النبأ على كل الصفحات الأولى خلال الأسبوع الماضي".

هزّ هاري كتفيه.

"إنّ الفتى الذي يوزع الصحف غير جدير بالثقة، ويُحدث فجوات كبيرة في معرفتي العامة، وعائقاً شائكاً في حياتي الاجتماعية". تناول رشفة أخرى من القهوة بحذر، ثمّ أبعد الكوب قائلاً: "وحياتي العاطفية".

"حقاً؟". نظر مولر إلى هاري بتعبير يوحي بأنّه لا يعرف إن كان هذا الأخير سيستسيغ ما سيأتي لاحقاً أو سيكرهه.

"بالطبع. من التي ستجد رجلاً في منتصف العقد الثالث يعرف كل التفاصيل عن حياة المشاركين في حملة روبنسون (برنامج تلفازي سويدي واقعي)، لكنه لا يستطيع تسمية أي رئيس دولة، ولا يعرف اسم الرئيس الإسرائيلي، جذّاباً؟".

"رئيس الوزراء".

"إذاً، أنت تعرف الآن ما أعنيه".

كتم مولر ضحكته، فقد كانت لديه نزعة للضحك بسهولة كبيرة. وهذا الأمر نقطة ضعف بالنسبة إلى ضابطٍ متزن، لديه أذنان كبيرتان تبرزان من جمجمة حليقة تماماً، وتبدوان مثل جناحي فراشة ملوّنة. كان هاري قد تسبّب بالمتاعب لمولر أكثر مما أفاده. لقد عرف بصفته رئيساً استلم إدارة دقّة شعبة الجريمة حديثاً أن أول وصية يجب أن يتقيد بها موظف حكومي لديه خطط لمسيرته المهنية، هي أن يتوخّى الحرص. عندما تنحنح مولر ليطرح الأسئلة المقلقة التي كان ذهنه قد جهّزها، ويخشى فمه التفوّه بها، عقد في بادئ الأمر حاجبيه؛ ليُظهر لهاري أن اهتمامه ينصبّ على الأمور المهنية، لا على العلاقة الودّية.

"أسمع أنك لا تزال تمضي وقتك بالجلوس وأنت شارد يا هاري".

"قليلاً جداً أيها المدير. فهناك أشياء جيدة جداً تعرض على التلفاز".

"لكنك لا تزال تجلس وتشرب؟".

"لا يحبون أن نقف عندما نشرب".

"توقف عن ذلك. هل تشرب مجدداً؟".

"بالحد الأدنى".

"إلى أي حد؟".

"سيرمون بي خارجاً إن تناولت كمية أقل".

لم يستطع مولر كتم ضحكته هذه المرة، ثم قال: "أحتاج إلى ثلاثة ضباط ارتباط لتأمين الطريق، وسأضع تحت تصرف كلٍّ منهم عشرة رجال من مقاطعات مختلفة في أكرشوس، بالإضافة إلى بعض الطلاب من السنة النهائية في كلية الشرطة. ظننت أن توم والر...".

والر وغد عنصري، ومرشح حاليًّا لوظيفة مفتّش التي سيُعلن عنها قريباً. كان هاري قد سمع ما يكفي عن نشاطات والر المهنية؛ ليعرف أنهم ثبّتوا كل الآراء السابقة التي قد يظنّها العامة عن الشرطة، باستثناء رأي واحد؛ وهو أن والر لم يكن لسوء الحظ غبياً، حيث كانت نجاحاته بصفته محققاً مثيرة للإعجاب، ودفعت حتى هاري إلى الإقرار بأنه يستحق الترقية المحتّمة.

"وويبر...".

"العجوز المتذمّر؟".

"... وأنت يا هاري".

"قل ذلك مجدداً؟!".

"سمعتني".

عبس هاري.

سأل مولر: "هل لديك أي اعتراضات؟".

"بالطبع لديّ".

"لماذا؟ هذه مهمّة مشرّفة يا هاري، ومأثرة لك".

"حقاً؟". أطفأ هاري لفافة التبغ في المنفضة بغضب. "أم أنها المرحلة الآتية من عملية إعادة التأهيل".

"ماذا تعني؟". بدا بيارني مولر منزعجاً.

"أعرف أنك تجاهلت نصيحة جيدة، وتشاجرت مع بعض الأشخاص عندما أعدتني إلى العمل بعد بانكوك، وأنا شاكر لك إلى الأبد. لكنْ، ما

هذا؟ ضابط ارتباط؟ تبدو مثل محاولةٍ تثبت فيها للمشكّكين بأنك كنت على حق، وبأنهم كانوا مخطئين، وأن هول في طريقه إلى التعافي، ويستطيع تحمّل المسؤولية وما إلى ذلك".

"حسناً؟". كان بياربي مولر قد وضع يديه خلف جمجمته الطويلة مجدداً.

قلّده هاري قائلاً: "حسناً؟ هل ذلك هو الأمر؟ هل أنا مجرد رهان مجدداً؟".

أطلق مولر تنهيدة يأس.

"كلنا رهانات يا هاري، فهناك دائماً جدول أعمال مستتر. وهذه ليست أسوأ من أي مهمّة أخرى. قم بعمل جيد، وسيكون ذلك نافعاً لكلينا. هل هذا صعب جداً؟".

تنفّس هاري، وهمّ بقول شيء، ثم أحجم عن ذلك، وأمعن التفكير في الأمر، ثم تخلّى عن الفكرة، وأخرج لفافة تبغ جديدة من العلبة.

"أشعر أنني مثل حصان لعين يراهن الناس عليه، وأكره ذلك".

ترك هاري لفافة التبغ تتدلى من بين شفتيه من دون أن يشعلها.

كان يدين لمولر بذلك المعروف. لكن، ماذا إن فشل؟ هل فكّر مولر في ذلك؟ ضابط ارتباط. كان قد امتنع عن تناول الخمر منذ بعض الوقت. لكن، يجب عليه بالرغم من ذلك توخي الحذر، وأن يأخذ وقته بالكامل. تباً! ألم يكن ذلك أحد الأسباب التي دفعته إلى أن يصبح محققاً؛ أي أن يتفادى وجود أشخاص تحت إمرته، وأن يكون أقل عدد ممكن فوقه؟ عضّ هاري مرَشَح لفافة التبغ.

سمعا أصواتاً في الرواق إلى جانب أداة تحضير القهوة. بدا أنه والر، ثم سمعا صوت ضحكات مجلجلة. ربما كانت الفتاة الجديدة التي تعمل في المكتب، فإن رائحة عطرها لا تزال عالقة في منخريه.

قال هاري: "تب - باً"، بمقطعين صوتيين مما جعل لفافة التبغ تهتزّ في فمه مرتين.

كان مولر قد أغمض عينيه، فيما كان هاري يمعن التفكير في الأمر، ثم فتحهما قليلاً وهو يقول: "هل يمكنني أن أعتبر كلمتك هذه موافقة منك؟".

عندها، نهض هاري وخرج من الغرفة من دون أن ينبس ببنت شَفَة.

حاجز الدفع في ألنابرو. 1 تشرين الثاني 1999

حلّق الطائر الرمادي في مجال رؤية هاري، وكان في طريقه للخروج منه مجدداً، وزاد الضغط على زناد سميث أند ويسون عيار 0.38 ملم، في حين كان يحدّق من فوق حافة شعيرة التسديد في مسدسه إلى الظهر الثابت خلف الزجاج. كان أحدهم يتكلم في التلفاز أمس عن مرور الوقت ببطء.

بوق السيارة يا إيلين. اضغطي البوق اللعين. يجب أن يكون عميلاً للاستخبارات السريّة.

مرّ الوقت بطيئاً، كما يحدث في أمسية الميلاد قبل أن يأتي سانتا.

أصبحت أول درّاجة نارية على مستوى كشك التذاكر، وطائر أبو الحناء لا يزال نقطة سوداء على الحافة الخارجية في مجال رؤيته؛ وكما يحدث قبل أن يتم وصل التيار الكهربائي بكرسي الإعدام...

ضغط هاري على الزناد: مرة، واثنتين، وثلاث مرّات.

ثم تسارع الوقت على نحو مدهش، وأصبح الزجاج الملون أبيض، وتناثر قطعاً على الإسفلت، واستطاع هاري رؤية ذراع تختفي تحت خط الكشك قبل أن يسمع صوت عجلات تمر. حدّق إلى الكشك، وبقيت عدّة أوراق صفراء ارتفعت في الهواء لدى مرور موكب السيّارات تطوف في الهواء قليلاً قبل أن تستقر على العشب الرمادي المتسخ. حدّق إلى الكشك، وقد أطبق الصمت مجدداً، وكل ما استطاع التفكير فيه للحظة هو أنه كان يقف عند حاجز دفع نرويجي عادي، في يوم خريفي نرويجي عادي، وهناك محطة وقود إيسو عادية في الخلف. كان الهواء يعبق برائحة صباح بارد عادي: أوراق متعفّنة، وغازات عوادم السيارات. لقد صدمه ذلك، فربما لم يحدث أي من ذلك حقاً.

كان لا يزال يحدّق إلى الكشك حين مزّق الصمتَ صوتُ بوق سيارة الفولفو خلفه.

القسم الثاني

1942

أضاء الوهج سماء الليل الرمادية، وجعلها تشبه لوحة زيتية متّسخة تطلّ على البيئة القاحلة الكئيبة التي تحيط بهم من كل الاتجاهات. ربما شنّ الروس هجوماً، أو ربّما كانت تلك خدعة. لكن، لن يعرف أحدٌ ذلك أبداً حتى ينتهي الأمر. كان غدبراند يستلقي على حافة الخندق، وكانت ساقاه مطويتين تحته، وهو يمسك سلاحه بيديه، ويصغي إلى دوي القذائف المكتوم الصادر من بعيد، ويشاهد الأضواء تخفت. كان يعرف أنه لا يجب عليه أن ينظر إلى الوهج؛ لأن ذلك يعني أنه سيصبح أعشى، ولن يستطيع رؤية القنّاصين الروس وهم يتحركون على الثلج في الأرض التي لا يسيطر عليها أحد، لكنه لم يستطع رؤيتهم على كل حال، ولم يرَ أحداً منهم قطّ، ولن يستطيع إطلاق النار وفقاً للأوامر، كما كان يفعل آنذاك.

"هذا هو!".

كان دانيال غدسون فتى المدينة الوحيد في الوحدة؛ فقد جاء الآخرون من أماكن تنتهي أسماؤها بالمقطع الصوتي دال. كان بعض الوديان عريضاً، فيما بعضها الآخر عميقاً ومظلماً ومقفراً، مثل مسقط رأس غدبراند. لكنّ الأمر لا ينطبق على دانيال. لم يكن دانيال ذو الجبين العالي، والعينين الزرقاوين المفعمتين بالحيوية، والابتسامة البيضاء مثل الآخرين. كان مثل شخص خرج من إعلان توظيف، وقد جاء من مكان ما حاملاً طموحاته معه.

قال دانيال: "الساعة الثانية، إلى يسار الشجيرة".

شجيرة؟! لا يُعقل أنّه توجد شجيرة في هذه البيئة التي تشبه حفرة أحدثتها قذيفة.

بلى، كانت هناك شجيرة؛ لأن الآخرين يطلقون النار عليها. سمع صوت فرقعة، ودوي، وهسهسة. سلكت خمس رصاصات مساراً مكافئاً، مثل يراعة. وانطلقت الرصاصات في الظلام، لكن سرعتها بدأت تخفُّ فجأة لأن قوتها تلاشت، ثم غاصت في مكان ما هناك. كان هذا ما يبدو عليه الأمر على كل حال، وظنّ غدبراند أنه من المستحيل أن تقتل مثل تلك الرصاصات البطيئة أحداً.

صرخ بصوتٍ يمتلئ كراهيةً ومرارةً: "إنه يهرب!". وبالكاد كان بالإمكان رؤية وجه سندر، ورؤية تينك العينين الصغيرتين نصف المغمضتين المحدّقتين إلى الظلام؛ فقد كان يرتدي بذلته المموّهة التي أخفت ملامحه جيّداً. جاء

من مزرعة بعيدة في مكان مرتفع في إقليم غدبراندسدالن، وعلى الأرجح من جيب ضيّق لا تشرق الشمس فوقه؛ لأنه كان شاحباً جداً. لم يعرف غدبراند لماذا تطوّع سندر للقتال على الجبهة الشرقية، لكنه سمع أن والديه وكلا شقيقيه قد انضموا إلى حزب التجمّع الوطني الفاشي، وأنهم يتجولون في قراهم وهم يضعون رُبُطاً على أذرعهم ويقولون لمواطنيهم إنهم يشكّون في أنهم أنصار للحزب. قال دانيال إن المخبرين وكل أولئك الذين استغلوا الحرب لمصلحتهم الخاصة سيحصدون ما زرعته أيديهم يوماً ما.

قال دانيال بصوت خافت، وذقنه على سلاحه: "لا، إنه لا يفر؛ إذ ليس هناك بلشفي لعين يهرب بعيداً".

قال سندر: "يعرف أننا قد رأيناه، لذا سيلجأ إلى الخندق العميق هناك".

قال دانيال وهو يسدد: "لا، لن يفعل".

حدّق غدبراند إلى الدجنة الرمادية - البيضاء. كان هناك ثلج أبيض، وبذلات مموّهة بيضاء، ونار بيضاء. توهّجت الأجواء مجدداً، وظهرت كل أنواع الظلال على الثلج. حدّق غدبراند إلى الأعلى مجدداً: أضواء ساطعة صفراء وحمراء في الأفق، تبعتها عدّة أصوات بعيدة، فكان الأمر يشبه الجلوس في دار عرض، باستثناء أن حرارة المكان أدنى بثلاثين درجة، وليس هناك أحد تضع ذراعك حوله. ربما كان بالفعل هجوماً هذه المرة؟

"أنت بطيء جداً يا غدسون. لقد اختفى". وبصق سندر على الثلج.

قال دانيال بهدوء أكبر وهو يحكم التسديد مراراً وتكراراً: "لا، لم يختفِ".

لم يكن البخار الناتج عن انخفاض درجة الحرارة يخرج من فمه آنذاك.

فجأةً، سُمِع صوت صفير حادّ، وصرخة تحذير، فألقى غدبراند نفسَه إلى قاع الخندق المغطّى بالجليد، ووضع كلتا يديه فوق رأسه. وما هي إلاّ لحظات حتى اهتزّت الأرض، وأمطرت السماء قطعاً بنيّةً متجمدة من التراب ضربت إحداها خوذة غدبراند فانزلقت أمامه. انتظر حتى تأكّد من عدم سقوط قطع أخرى، ثم أعاد خوذته إلى حيث كانت. خيّم الهدوء على المكان مجدداً، وغطّت قشرة رقيقة من الثلج الأبيض وجهه. يقولون إنك لا تسمع أبداً القذيفة التي تصيبك، لكنّ غدبراند كان قد رأى الكثير من القذائف الصوتيّة وهي تنفجر ليعرف أن تلك لم تكن حقيقية. أضاء وهجٌ الخندق، ورأى وجوه الآخرين البيضاء وظلالهم في أثناء زحفهم نحوه. كانوا

قريبين من جدار الخندق ورؤوسهم منخفضة، وتلاشى الضوء تدريجياً. لكن، أين كان دانيال؟ دانيال!

"دانيال!".

قال دانيال وهو لا يزال مستلقياً على حافة الخندق: "نِلتُ منه". لم يستطع غدبراند تصديق أذنيه.

"ماذا قلت؟".

انزلق دانيال إلى داخل الخندق، ونفض عنه الثلج والتراب، فيما بدت على وجهه ابتسامة عريضة.

"لن يستطيع أحمق روسي إطلاق النار على نوبة حراستنا الليلة. لقد ثأرت لتورمود". ودفع عقبيه في حافة الخندق حتى لا ينزلق على الجليد.

سأله سندر مستغرباً: "هل أصبته؟! لم تصبه حقاً يا غدسون؛ فقد رأيتُ الروسي يختفي في الحفرة".

انتقلت عيناه الصغيرتان من رجل إلى آخر؛ وكأنه يسأل إن كان أحدهم يصدّق ما يتباهى به دانيال.

قال دانيال: "هذا صحيح. لكن الضوء سيبزغ بعد ساعتين، وهو يعرف أنّه يجب عليه الخروج قبل ذلك".

أضاف غدبراند بسرعة: "ذلك صحيح؛ لهذا حاول القيام بذلك في أسرع وقت ممكن. إنه على الجانب الآخر، أليس هذا صحيحاً يا دانيال؟".

ابتسم دانيال: "عاجلاً أم آجلاً، سأنال منه على أيّ حال".

قال سندر: "أمّن سلاحك فقط يا غدسون".

هزّ دانيال كتفيه، وتفقّد حجرة القذيفة، ثم رفع سلاحه، واستدار وعلّق السلاح فوق كتفه، ووضع حذاءه على الطرف المتجمد من الخندق، ورفع نفسه إلى الحافة.

"أعطني الرفش من فضلك يا غدبراند".

أمسك دانيال الرفش ووقف. بدا شكله مبهماً في زيّه الشتوي الأبيض تحت السماء السوداء والوهج المعلّق مثل هالة ضوء فوق رأسه.

"بالله عليك، ما الذي تفعله أيها الرجل؟!". كان ذلك إدوارد موسكن قائد قطاعهم، وقلّما كان هذا الجندي الهادئ من ميوندول يرفع صوته على محاربين يتمتعون بالخبرة مثل دانيال، وسندر، وغدبراند. كان الوافدون الجدد يتعرّضون عادة للتوبيخ حين يقترفون الأخطاء، وقد أنقذ التقريع القاسي حياة عدد منهم. كان إدوارد موسكن يحدّق آنذاك إلى دانيال بالعين المفتوحة دائماً التي لا يغمضها أبداً، ولا حتى حين ينام، وكان غدبراند قد

رأى ذلك بنفسه.

قال قائد القطاع: "احتمِ يا غدسون".

لكن دانيال ابتسم ببساطة، واختفى في اللحظة التالية، وبقي البخار الصادر من فمه معلّقاً فوقهم ثانية واحدة، ثم اختفى الوهج خلف الأفق وخيّم الظلام مجدداً.

صرخ إدوارد وهو يتسلق حافة الخندق ويخرج منه: "غدسون! حباً بالله!".

سأل غدبراند: "هل يمكنك رؤيته؟".

"اختفى".

سأل سندر وهو ينظر إلى غدبراند: "ما الذي سيفعله ذلك الأحمق بالرفش؟".

قال غدبراند: "لا أعرف، سيبعد الأسلاك الشائكة حسبما أظن!".

"لماذا قد يرغب في إبعاد الأسلاك الشائكة؟".

"لا أعرف". لم يحب غدبراند عيني سندر الحادّتين؛ فقد ذكّرتاه بفتى آخر من الريف كان معهم، وكان قد أُصيب بالجنون في النهاية، وتبوّل في حذائه في إحدى الليالي قبل أن يذهب في مهمَّة، واضطروا إلى بتر كل أصابع قدميه بعد ذلك. لكنه كان في منزله في النرويج آنذاك؛ لهذا ربما لم يكن مجنوناً في المحصلة. على أيّ حال، كانت عيناه حادّتين بالطريقة نفسها.

قال غدبراند: "ربما ذهب ليتنزه في الأرض التي لا يسيطر عليها أحد!".

"أعرف ما يوجد في الطرف الآخر من الأسلاك الشائكة. أتساءل: ماذا يفعل هناك؟".

قال هالغريم ديل: "ربما أصابته القذيفة في رأسه، فأصبح معتوهاً".

كان هالغريم أصغر الجنود في القطاع، وعمره ثمانية عشر عاماً فقط، ولم يكن أحدٌ يعرف حقاً السبب الذي دفعه إلى التطوّع. ربّما كان السبب حبّ المغامرة، كما ظنّ غدبراند. قال ديل إنه مُعجب بهتلر، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن السياسة. ظنّ دانيال أنه قد ترك فتاةً حاملاً.

قال إدوارد موسكن: "إذا كان الروسي لا يزال حياً، فسيتلقى غدسون رصاصة قبل أن يتجاوز خمسين متراً".

همس غدبراند: "لقد أصابه دانيال".

قال إدوارد وهو يمدّ يده داخل سترته المموّهة ويُخرج لفافة تبغ رفيعة من جيبه: "في تلك الحال سيطلق شخص آخر النار على غدسون،

فالمكان مليء بهم الليلة".

حمل عود الثقاب في يدٍ مضمومة فيما كان يمرّره بقوة على العلبة الخشنة، واشتعل الكبريت في المحاولة الثانية، فأشعل إدوارد لفافة تبغه، ثم سحب نفساً عميقاً، ومرّرها إلى الرجال من دون أن ينبس ببنت شفة. سحب الرجال نفساً عميقاً من لفافة التبغ ببطء فيما كان الواحد منهم يُمرِّرها إلى الشخص المجاور له. لم ينطق أحد بكلمة واحدة، وبدا أنهم قد استغرقوا جميعاً في أفكارهم الخاصة، لكن غدبراند كان يعرف أنهم مثله، يصغون السمع.

انقضت عشر دقائق من دون سماع أيّ صوت.

قال هالغريم ديل: "يقولون إن طائراتٍ ستقصفُ بحيرة لادوغا (أكبر بحيرة مياه عذبة في أوروبا)".

كانوا قد سمعوا جميعاً الشائعات بشأن هروب الروس من لينينغراد عبر البحيرة المتجمدة. والأسوأ من ذلك، أن وجود الجليد كان يعني أيضاً أنّه بمقدور الجنرال جوكوف إدخال إمدادات إلى البلدة المحاصرة.

قال ديل وهو يشير إلى الشرق: "يُفترض أنهم يُصابون بالإغماء في الشوارع بسبب الجوع".

لكن غدبراند كان يسمع منذ أن جاء إلى ذلك المكان؛ أي قبل نحو سنة، أنهم لا يزالون يطلقون النار على أي شخص يطلّ برأسه خارج الخندق. وفي الشتاء الماضي، كان الجنود الروس الفارّون - الذين اكتفوا مما يجري، واختاروا تغيير الجانب الذي يقاتلون إلى جانبه مقابل بعض الطعام والدفء - قد جاءوا إلى الخنادق وأيديهم خلف رؤوسهم. لكنّ عدد الفارّين أصبح الآن قليلاً، وصارت حالات الهرب متباعدة. وكان الجنديان غائرا العينين، اللذان رآهما غدبراند قادمين في الأسبوع الماضي، قد نظرا إليهم غير مصدّقَين حين رأيا أن النرويجيين نحيلون مثلهما تماماً.

قال سندر: "مرّت عشرون دقيقة. لن يعود، لقد أصبح في عداد الأموات".

"اخرس!". تقدم غدبراند خطوة نحو سندر الذي وقف حالاً. وبالرغم من أن سندر كان أضخم منه، إلا أنه لم يكن يرغب في الشجار. فلقد تذكّر على الأرجح الروسي الذي قتله غدبراند قبل بضعة شهور. من كان يظن أن غدبراند اللطيف والرقيق يحتفظ بمثل تلك القسوة في داخله؟! كان الروسي قد تسلل إلى خندقهم بين موقعي المراقبة من دون أن يراه أحد، وقام بذبح كل أولئك النائمين في أقرب مهجعين تحت الأرض، أحدهما

مملوء بجنود دانماركيين والآخر بجنود أستراليين، قبل أن يصل إلى مهجعهم. كان القمل قد أنقذهم.

كان القمل منتشراً في كل مكان، وخاصة في الأماكن الدافئة مثل: تحت الذراعين، في موضع الحزام، وحول منفرج الساقين، وحول الكاحلين. لم يستطع غدبراند، الأقرب إلى الباب النومَ؛ بسبب ما دعوه تقرّحات قملٍ على ساقيه؛ وهي تقرّحات مفتوحة يمكن أن يصبح الواحد منها بحجم قطعة نقود صغيرة، لها حافّة سميكة، والقمل يتغذّى منها. كان غدبراند قد أخرج حربته في محاولة غير ذات جدوى لكشطها عنه حين وقف الروسي عند المدخل مستعداً لإطلاق النار من سلاحه. كان غدبراند قد رأى ظلّه فقط، لكنه عرف حالاً أنه عدو حين شاهد بندقية موسين - ناغانت تُرفع. وباستخدام الحربة المثلّمة فقط استطاع غدبراند حزّ عنق الروسي بمهارة فائقة، وكان قد نزف كل دمه حين حملوه إلى الخارج بعد ذلك.

قال إدوارد وهو يسحب غدبراند إلى جانب الخندق: "اهدأوا يا شباب. يجب أن تنال قسطاً من النوم يا غدبراند، لقد انتهت مناوبتك قبل ساعة".

قال غدبراند: "سأخرج وأبحث عنه".

قال إدوارد: "لا، لن تفعل".

"بلى، سأفعل، أنا -".

"هذا أمر!". هزّ إدوارد كتفه، وحاول غدبراند التحرّر منه، لكن قائد القطاع أمسكه بقبضة محكمة.

أصبح صوت غدبراند أعلى، وارتعش يائساً: "ربما أُصيب! ربما علق في الأسلاك الشائكة!".

ربّت إدوارد على كتفه وقال: "سيبزغ الضوء قريباً، عندها يمكن أن نعرف ما حدث".

ألقى نظرة سريعة على الآخرين الذين كانوا يتابعون المشهد صامتين، ثم بدأوا يضربون أقدامهم بالأرض، وهم يتمتمون في ما بينهم. رأى غدبراند إدوارد يذهب إلى هالغريم ديل ويهمس بضع كلمات في أذنه. أصغى ديل السمع، وحدّق إلى غدبراند الذي عرف جيداً ما يعنيه ذلك. كان إدوارد قد أمر ديل بمراقبته بعناية. كان أحدهم قد نشر قبل بعض الوقت، شائعة مفادها أنه ودانيال أكثر من مجرد صديقين حميمين، ولا يمكن الوثوق بهما. وكان موسكن قد سألهما مباشرة إن كانا يخططان للهرب معاً، فأنكرا ذلك بالطبع. لكن، لا بدّ من أن موسكن يظن الآن

على الأرجح أن دانيال قد استفاد من الفرصة للفرار، وأن غدبراند سوف يبحث عن رفيق سلاحه تنفيذاً لخطّة هربهما إلى الطرف الآخر معاً. جعل ذلك غدبراند يضحك. صحيح أن الحلم بالوعد الرائع بالطعام والدفء والمتعة الذي كانت المكبّرات الروسية تذيعه عبر ساحة المعركة القاحلة بلغة ألمانية مفهومةٍ مُغرٍ، ولكن هل من الممكن أن يصدّقه؟!

"هل نراهن إن كان سيعود أم لا؟". كان ذلك سندر. "ثلاث حصص طعام، ما قولكم؟".

خفض غدبراند ذراعيه إلى جانبيه، وشعر بالحربة تتدلى من الحزام داخل بزّته المموّهة.

"لا تكرّر ذلك، رجاءً!".

استدار غدبراند حول نفسه، ورأى فوق رأسه تماماً وجهاً متورّداً تحت قبعة روسية يبتسم له من حافة الخندق، ثم تأرجح الرجل من فوق الحافة، ونزل على طريقة تيليمارك (قدم أمام الأخرى) إلى الأرض.

صرخ غدبراند: "دانيال!".

غنّى دانيال وهو يرفع القبعة الروسية تحيّة لهم: "دا دا دا دام! دوبري فيشر".

وقف الرجال متسمّرين في أماكنهم وهم يحدّقون إليه.

صرخ دانيال: "مرحباً إدوارد، من الأفضل أن تنسّق جيداً مع أصدقائنا الهولنديين؛ فالمسافة بين مواقع المراقبة هناك خمسون متراً على الأقل".

كان إدوارد صامتاً ومدهوشاً مثل الآخرين.

"هل دفنت الروسي يا دانيال؟". كان وجه غدبراند مشرقاً من شدّة الإثارة.

قال دانيال: "دفنته؟ رددت ما يقال في مثل هذا المقام، هل تعانون مشكلةً في السمع أو خطباً ما؟ أنا واثق من أنهم قد سمعوا ما قلته عند الطرف الآخر".

ثم قفز إلى الحافة الخارجية للخندق، وجلس هناك، ورفع ذراعيه في الهواء وبدأ يغني بصوت عميق ودافئ: "حصن منيع...".

هلل الرجال، وضحك غدبراند كثيراً، حتى إن عينيه ذرفتا الدموع.

هتف ديل: "أيها الشرير دانيال!".

"ليس دانيال... نادوني...". خلع دانيال القبعة الروسية عن رأسه، وقرأ الاسم المكتوب داخل البطانة: "أوريا. إنّه يجيد الكتابة أيضاً! حسناً، حسناً، لكنه بالرغم من ذلك كان بلشفياً".

ثمّ قفز من الحافة إلى الأسفل، ونظر حوله: "لن يعترض أحد على هذا الاسم الشائع، كما آمل؟".

أطبق الصمت لحظة قبل أن ينفجر الجميع ضاحكين، ثم تحرّك أول الرجال ليضربه على ظهره.

لينينغراد. 31 كانون الأول 1942

كان الجو بارداً عند مربض الرشاش، وكان غدبراند يرتدي كل ما لديه من ملابس. لكن، بالرغم من ذلك كانت أسنانه لا تزال تصطك، وقد فقد كل إحساس بأصابع يديه وقدميه. كانت حالة قدميه هي الأسوأ، وبالرغم من أنه ربط خرقاً جديدة حولهما، إلاّ أن ذلك لم ينفعه كثيراً.

حدّق إلى الظلام. لم يكونوا في تلك الأمسية قد سمعوا الكثير من الروس؛ ربما كانوا يحتفلون برأس السنة الجديدة، وربما كانوا يأكلون ما لذّ وطاب كيخنة الضأن، أو أضلع الخروف. كان غدبراند يعلم بالطبع أن الروس لا يملكون أي لحوم، لكنه بالرغم من ذلك لم يستطع التوقف عن التفكير في الطعام. فهم لم يحصلوا على أكثر من حساء العدس والخبز المعتاد. كانت توجد على الأرغفة طبقة خضراء لامعة، لكنهم اعتادوا ذلك. وإذا تعفّنت الأرغفة كثيراً وتفتّتت، كانوا يغلون الحساء والخبز معاً.

قال غدبراند: "على الأقل حصلنا على نقانق في الميلاد".

قال دانيال: "صه".

"لا يوجد أحد هنا في هذه الأمسية يا دانيال. إنهم يجلسون ويتناولون لحم الغزال، مع صلصة طرائد سميكة وبنّيّة اللون، وتوت برّي، وبطاطا لوزّية".

"لا تبدأ بالحديث عن الطعام مجدداً، اسكت وانظر إن كنت تستطيع رؤية شيء ما".

"لا أرَى شيئاً يا دانيال، لا شيء".

اقتربا من بعضهما، وأبقيا رأسيهما منخفضين. كان دانيال يعتمر القبعة الروسية، في حين كانت الخوذة الفولاذية وشارة أس أس إلى جانبه. كان غدبراند يعرف سبب ذلك؛ فقد كان شكل الخوذة يسمح بدخول الثلج البارد من تحت حافتها، ويتسبّب بصفير مستمر ومثير للأعصاب داخلها، ويصبح الأمر سيئاً على وجه الخصوص إذا كنت تقوم بمهمّة في موقع مراقبة.

سأل دانيال: "ما خطب عينيك؟".

"لا شيء، لكن رؤيتي الليلية سيئة جداً".

"هل هذا كل ما في الأمر؟".

"أعاني عمى ألوانٍ جزئيًّا".

"تعاني عمى ألوانٍ جزئيًّا؟!".

"لا أستطيع أن أفرّق بين الأحمر والأخضر. إذ يبدو اللونان متماثلين. لا أرى أي ثمار علّيق مطلقاً حين نذهب إلى الغابة؛ لجمع الزعرور لولائم الأحد...".

"لا مزيد من الحديث عن الطعام، كما قلت!".

التزما الصمت. قعقع رشاش على مسافة بعيدة. وأشار ميزان الحرارة إلى أن درجة الحرارة تبلغ خمساً وعشرين تحت الصّفر. وصلت درجة الحرارة في الشتاء الماضي إلى خمس وعشرين تحت الصفر عدّة ليالٍ متتالية. واسى غدبراند نفسه بفكرة أن القمل يصبح أقل فاعلية في ذلك البرد. لن يبدأ بالحكّ حتى تنتهي مناوبته ويتكوّر تحت البطانية الصوفية في سريره. لكن تلك الحشرات تتحمل البرد أفضل منه. كان قد نفّذ تجربة مرة، إذ ترك ثوبه في الثلج والبرد القارس مدّة ثلاثة أيام متتالية، وعندما أخذ الثوب إلى المهجع مجدداً كان كقطعة جليد. لكن، عندما وضعه في مكان دافئ أمام الموقد نبضت الحشرات بالحياة، فرماه في ألسنة اللهب لأنه شعر باشمئزاز شديد منه.

تنحنح دانيال.

"ماذا كنت تقول عن تناول قطعة اللحم تلك يوم الأحد؟".

لم يكن غدبراند بحاجة إلى تشجيع فقال: "أولاً، كان والدي يقسّم قطعة اللحم بمهابة، في حين كنا نحن الصبية نجلس ساكنين من دون حراك، ونحن نشاهد ما يفعله. ثم تضع والدتي شريحتين في كل طبق، وتسكب على الشرائح كلها صلصة مرق اللحم التي كانت كثيفة جداً فتضطر إلى تحريكها وقتاً كافياً حتى لا تصبح كتلة واحدة. وكان هناك كثير من الملفوف الطازج. يجب أن تضع خوذتك يا دانيال، ماذا إن أصابتك شظية في رأسك واخترقت قبعتك؟".

"تخيّل أن تصيب قذيفة قبعتي. تابع".

أغمض غدبراند عينيه، وارتسمت ابتسامة على فمه.

"وكان لدينا للتحلية خوخ مجفف، أو كعك شوكولاته بالبندق. لم يكن ذلك طعاماً معتاداً بالنسبة إلينا؛ لأن أمي كانت قد أحضرت هذا التقليد من بروكلين".

بصق دانيال على الثلج. كانت مناوبة الحراسة لمدة ساعة واحدة في أثناء فصل الشتاء قاعدة، لكنّ سندر فوك وهالغريم ديل كانا يلازمان سريريهما بسبب ارتفاع حرارتهما، لهذا كان إدوارد موسكن قد قرّر زيادة مدّة مناوبتهما إلى ساعتين حتى يستعيد الرجال المرضى في القطاع كامل

قوّتهم.

وضع دانيال يداً على كتف غدبراند.

"أنت تفتقد إليها، أليس كذلك؟ أعني والدتك".

ضحك غدبراند، وبصق في المكان نفسه على الثلج مثل دانيال، وحدّق إلى النجوم المتجمّدة في السماء. كان هناك صوت حفيف فوق الثلج، فرفع دانيال رأسه، وقال: "ثعلب".

لم يكن تصديق ذلك ممكناً. لكن، حتى هناك؛ حيث تعرّض كل متر مربع للقصف، وحيث الألغام أقرب إلى بعضها من الحصى الموجودة في الشوارع في بوابة كارل يوهانز، كان ثمّة حيوانات تعيش في المكان. وبالرغم من أنها لم تكن كثيرة العدد، إلاّ أن كليهما شاهدا أرانب برّية وثعالب وفأر الخيل الغريب. حاول الجنود إطلاق النار عليها كلما رأوها؛ فقد كان كل ما يوضع في القدر موضع ترحيب. لكن، بعد أن أُصيب أحد الألمان برصاصة حين كان في الخارج يحاول اصطياد أرنب برّي، وضع كبار الضباط ذلك في أذهانهم، وأصبح الروس يطلقون أرانب برّية أمام الخنادق؛ لإغراء الرجال بدخول الأرض التي لا يسيطر عليها أحد. وكأن الروس سيتخلّون عن أرنب برّي من دون مقابل!

وضع غدبراند إصبعه على شفته المتقرّحة ونظر إلى ساعته. بقيت ساعة واحدة فقط حتى المناوبة الآتية. انتابه شك في أن سندر كان يحشو شرجه تبغاً ليرفع درجة حرارته، فقد كان من النوع الذي يمكن أن يفعل ذلك.

سأل دانيال: "لماذا انتقلت من الولايات المتحدة؟".

"بسبب انهيار وول ستريت. خسر والدي وظيفته في المسفن".

قال دانيال: "ها أنت ذا. تلك هي رأسماليتك: الفقراء يكدحون والأثرياء يستفيدون، سواء أكان ذلك زمن ازدهار أم كساد".

"حسناً، تلك هي الحال".

"هذه الحال موجودة حتى الآن. لكن، هناك تغييرات ستحدث. عندما نفوز في الحرب ستكون لدى هتلر مفاجأة للشعب، ولن يقلق والدك بعد ذلك بشأن إيجاد فرصة عمل. يجب أن تنضم إلى ناسونال ساملنغ".

"هل تصدّق حقاً كل ذلك؟".

"ألا تصدقه أنت؟".

لم يكن غدبراند يحب الاختلاف مع دانيال؛ لهذا أجاب بهزّ كتفيه غير مبالٍ، لكن دانيال كرّر السؤال.

قال غدبراند: "بالطبع أصدّقه، لكنني أفكّر كثيراً في النرويج، وفي عدم وجود بلاشفة في البلد. إذا جاءوا، فسنعود بالتأكيد إلى أميركا".

"إلى بلد رأسمالي؟!". كان صوت دانيال قد أصبح أكثر حدّة آنذاك. "ديمقراطية في أيدي الأثرياء، تحكمها المصادفة وقادة فاسدون؟".

"سأفضّل ذلك على الشيوعية".

"لم تعد الديمقراطيات نافعة يا غدبراند. انظر فحسب إلى أوروبا، لقد وصلت إنكلترا وفرنسا إلى الدرك الأسفل قبل وقت طويل من اندلاع الحرب: بطالة، واستغلال. هناك شخصان فقط قويان بما يكفي لإيقاف غرق أوروبا في الفوضى: هتلر وستالين. ذلك هو الخيار الذي لدينا: إما دولة قومية، أو برابرة. ويبدو أن لا أحدَ في الوطن قد فهم أننا محظوظون جداً؛ لأن الألمان جاءوا أولاً، ولم يسبقهم سفّاحو ستالين".

أومأ غدبراند، ولم يكن ذلك بسبب ما قاله دانيال فقط، وإنما بسبب الطريقة التي قاله بها؛ أي بسبب اقتناعه الشديد.

فجأة، فتحت نار الجحيم، وأصبحت كل السماء أمامهما بيضاء من وهج النيران، واهتزت الأرض، وتبع الوميض الأصفر الذي أنار المكان تراب بني وثلج بدا أنهما يتناثران في الهواء حيث تسقط القذائف.

كان غدبراند آنذاك يستلقي في قاع الخندق ويداه فوق رأسه. لكن كل شيء انتهى بالسرعة التي بدأ بها. نظر إلى الأعلى، وهناك خلف الخندق والرشاش، كان دانيال يقهقه.

صرخ غدبراند: "ماذا تفعل؟ أطلِق صفّارة الإنذار! أيقِظ الجميع!".

لكنّ دانيال لم يُعره اهتماماً، بل صرخ ودموع الضحك تسيل من عينيه: "يا صديقي العزيز، كل عام وأنت بخير!".

أشار دانيال إلى ساعته، فتبيّن غدبراند الأمر. كان واضحاً أن دانيال ينتظر تحية السنة الجديدة من الروس؛ لأنه أقحم يده آنذاك في الثلج الذي تم تجميعه حول موقع الحراسة لإخفاء الرشّاش، وصرخ مبتهجاً وهو يرفع قارورة تحتوي على القليل من سائل بني اللون: "لقد ادّخرت هذا الشراب منذ أكثر من ثلاثة شهور، تفضّل".

كان غدبراند قد جلس على ركبتيه وابتسم لدانيال.

صرخ غدبراند: "أنت أولاً".

"أواثق أنت؟".

"أنا واثق تماماً يا صديقي العزيز؛ فأنت من ادّخره. لكن، لا تشربه كله!".

ضرب دانيال جانب السدادة حتى خرجت من مكانها، ثم رفع القارورة عالياً، وهتف وهو يخلع قبعته الروسية: "إلى لينينغراد، سنشرب الأنخاب في الربيع في القصر الشتوي، وسنعود إلى الوطن بحلول الصيف، وسنلقى استقبال الأبطال في النرويج المحبوبة".

وضع القارورة على شفتيه وأرجع رأسه إلى الخلف، فترقرق السائل البني وتمايل في عنق الزجاجة، وتلألأ حين عكس الزجاجُ الضوءَ بفضل الوهج الخافت. سيفكّر غدبراند لاحقاً في السنوات الآتية إنْ كان ذلك الوميض الذي رآه هو القنّاص الروسي. في اللحظة التالية، سمع غدبراند صوتاً حاداً، ورأى القارورة وهي تتحطم بين يدي دانيال. فجأة، تناثرت قطع الزجاج وسال الشراب، فأغمض غدبراند عينيه، وشعر بأن وجهه رطب بسبب الشراب الذي سال على وجنتيه، فأخرج على نحو غريزي لسانه ولعق بضع قطرات لم يكن لها طعم تقريباً. تذوق الشراب وشيئاً آخر؛ شيئاً حلواً ومعدنياً. كانت الكثافة كبيرة؛ بسبب البرد على الأرجح كما فكّر غدبراند، وفتح عينيه مجدداً. لم يستطع رؤية دانيال من الخندق. ففكر في أنّه قد ارتمى خلف الرشاش حين عرف أن الآخر قد رآه. لكنه شعر بقلبه يخفق بقوة.

"دانيال!".

لا جواب.

"دانيال!".

وقف غدبراند على قدميه وخرج من الخندق. كان دانيال مستلقياً على ظهره، وحزام الرصاص تحت رأسه، فيما القبعة الروسية فوق وجهه. كان الثلج ملطخاً ببقع الشراب والدم. أمسك غدبراند القبعة بيديه، وكان دانيال يحدّق بعينين واسعتين إلى السماء المزدانة بالنجوم، وهناك ثقب أسود كبير وسطَ جبينه. كان غدبراند لا يزال يتذوق الطعم المعدني الحلو في فمه، فشعر بالغثيان.

"دانيال".

كانت مجرد همسة صدرت من بين شفتيه الجافتين. ظنّ غدبراند أن دانيال يبدو مثل فتى صغير خلد إلى النوم. نشج وترنّح نحو صفّارة الإنذار وأدار مقبض التدوير، ومع تلاشي الأضواء تدريجياً، انطلق عويل صفّارة الإنذار الحاد نحو السماء.

كل ما استطاع غدبراند قوله: "لم يكن من المفترض أن يحدث ذلك".

وووو - وووو...!

كان إدوارد والآخرون قد خرجوا ووقفوا خلفه. صرخ أحدهم باسم غدبراند، لكنه لم يسمع، وكان يدير المقبض مراراً وتكراراً. في النهاية، ذهب إدوارد إليه وأمسك بالمقبض، فأفلته غدبراند من يده، لكنه لم يستدر إلى الخلف، وبقي في مكانه، وهو يحدّق إلى الخندق والسماء، في حين تجمّدت الدموع على وجنتيه. تلاشى صوت صفّارة الإنذار.

همس: "لم يكن من المفترض أن يحدث ذلك".

لينينغراد. 1 كانون الثاني 1943

كانت هناك بلّورات جليدية تحت أنف دانيال وفي أطراف عينيه وفمه حين نقلوه بعيداً. كانوا يتركونهم غالباً حتى يتيبّسوا تماماً فيصبح نقلهم أسهل، لكن دانيال كان أمام الرشاش؛ لهذا اضطرّ رجلان إلى سحبه إلى جانب جذعِ شجرةٍ بعيدٍ عن الخندق الرئيس، حيث وضعاه على صندوقي ذخيرة يحتفظون بهما للحرق. وكان هالغريم ديل قد ربط كيس خيش حول رأسه حتى لا يضطروا إلى رؤية قناع الموت بتكشيرته البشعة. فيما جهّز إدوارد القبر في القطاع الشمالي وأشار إلى مكان دانيال. لقد وعِدوا بإرسال شخصين لحمل الجثة في وقت ما من الليل. أمر موسكن سندر بالخروج من سريره، وبالانضمام إلى غدبراند في ما تبقّى من نوبة الحراسة، وكان أول شيء عليهما فعله هو تنظيف الرشاش الملطخ بالدماء.

قال سندر: "لقد قصفوا كولن وحوّلوها إلى أنقاض".

استلقيا جنباً إلى جنب على حافة الخندق في الحفرة الضيقة، حيث كان بمقدورهما رؤية الأرض التي لا يسيطر عليها أحد، ولم يكن غدبراند يحب الاقتراب من سندر كثيراً.

"وستالينغراد تُستنزف تماماً".

لم يشعر غدبراند بالبرد؛ وكأن رأسه وجسده كانا محشوّين قطناً. فلم يعد شيء يزعجه، وكل ما كان يشعر به هو المعدن البارد كالجليد الذي يسفع جلده، والأصابع الخدرة التي لا تمتثل له. حاول فكّ الرشّاش مجدداً، فقد كان أخمصه وآلية الزناد موجودين آنذاك على الخرقة الصوفية الموضوعة إلى جانبه على الثلج، لكن فكَّ القطعة الأخيرة كان صعباً. كانوا قد تدرّبوا في سنهايم على فك الرشاش وتركيبه وهم معصوبو الأعين. غير أن سنهايم تقع في الإلزاس الألمانية الجميلة والدافئة. لكن، هنا يصبح الأمر مختلفاً حين لا تشعر بما تفعله أصابعك.

قال سندر: "ألم تسمع؟ سينال الروس منّا، كما فعلوا مع غدسون تماماً".

تذكّر غدبراند نقيباً ألمانياً كان قد ضحك كثيراً حين قال سندر إنه جاء من مزرعة في ضواحي مكان يدعى توتن.

كان النقيب قد ضحك وقال: "توتن؟! لماذا ليست توتنريخ (الهاوية)؟". أفلت قبضته عن المغلاق.

"تباً!". ارتعش صوت غدبراند. "الدم يجعل القطع تلتصق معاً".

وضع فوهة أنبوب زيت الأسلحة الصغير على المغلاق وضغط عليه، وكان البرد قد جعل السائل الأصفر كثيفاً وشديد اللزوجة. كان يعرف أن الزيت يذيب الدم؛ فقد استخدمه حين التهبت أذنه.

مال سندر وعبث بإحدى الرصاصات.

قال: "يا الله!". ثم رفع بصره إلى الأعلى، وكشّر كاشفاً عن البقع البنيّة بين أسنانه. كان وجهه الشاحب غير الحليق قريباً جداً من وجه غدبراند، حتى إن هذا الأخير شمّ رائحة أنفاسه الكريهة التي تصدر عنهم جميعاً بعد تمضيتهم بعض الوقت في ذلك المكان. رفع سندر إصبعاً.

"من كان يظن أن دانيال لديه كل ذلك الدماغ، هه؟!".

استدار غدبراند مبتعداً عنه.

أمعن سندر النظر إلى طرف إصبعه. "لكنه لم يستخدمه كثيراً، وإلا لما عاد من الأرض التي لا يسيطر عليها أحد في تلك الليلة. لقد سمعتكما تتكلمان عن الذهاب إلى هناك. حسناً، كنتما بالتأكيد... صديقين حميمين، أنتما الاثنان، أليس كذلك؟".

لم يسمع غدبراند في البداية، فقد كانت الكلمات بعيدة جداً، ثم وصل صداها إليه، وشعر بالدفء يسري مجدداً في جسده.

قال سندر: "لن يدعنا الألمان ننسحب أبداً؛ سنموت هنا، حتى آخر واحد منا، ولا بدّ من أنك تعرف ذلك. ولا يُفترض بالبلاشفة أن يكونوا قساة مثل هتلر على أشخاص مثلك ومثل دانيال؛ نظراً لرابط الصداقة".

لم يجب غدبراند، وكان آنذاك قد بدأ يشعر بالحرارة في أطراف أنامله.

قال سندر: "فكّرنا في الذهاب إلى هناك الليلة، أنا وهالغريم ديل، قبل فوات الأوان".

ونظر إلى عيني غدبراند وهو يكشر قائلاً:

"لا تتظاهر بالدهشة يا يوهانسن. لماذا تظن أننا قلنا إننا مريضان؟".

كوّر غدبراند أصابعه في نعليه؛ كان يشعر أنها دافئة آنذاك، وبدا أنها دافئة وبخير. كان هناك شيء آخر أيضاً.

القمل! كان دافئاً، لكنه لا يشعر به، وحتى صوت الصفير تحت خوذته كان قد توقف.

سأل سندر: "ألا ترغب في الانضمام إلينا يا يوهانسن؟".

قال غدبراند: "إذاً، أنت من نشر الشائعات".

"أي شائعات؟".

"تكلمتُ ودانيال عن الذهاب إلى أميركا، وليس عن الهروب إلى الروس. ليس الآن، ولكن بعد الحرب".

هزّ سندر كتفيه، ونظر إلى ساعته، ثم جثم على ركبتيه.

قال غدبراند: "سأطلق النار عليك إذا حاولت ذلك".

سأل سندر وهو ينظر إلى قطع السلاح المفكك الموضوعة على الخرقة: "بواسطة ماذا؟". كانت البنادق في المهجع، وكلاهما يعرف أن غدبراند لا يستطيع الوصول إلى هناك والعودة قبل أن يختفي سندر.

"ابقَ هنا ومت إذا أردت يا يوهانسن. انقل تحياتي إلى ديل، وأخبره أن يلحق بي".

مدّ غدبراند يده إلى داخل بزّته وسحب الحربة، فلمع ضوء القمر على النصل الفولاذي الباهت. هزّ سندر رأسه قائلاً:

"الأشخاص مثلك ومثل غدسون حالمون. أبعد ذلك النصل وانضم إلي. فالروس يحصلون الآن على مؤنٍ جديدة عبر بحيرة لادوغا؛ إنهم يحصلون على لحم طازج".

قال غدبراند: "أنا لست خائناً".

نهض سندر.

"إذا حاولت قتلي بتلك الحربة، فسيسمعنا مركز المراقبة الألماني ويطلق إنذاراً. استخدم دماغك. من تظن أنهم سيصدّقون أنه كان يحاول الهرب؟ أنت!؟ مع كل تلك الشائعات حول خططك للفرار، أم أنا عضو الحزب؟

"اجلس يا سندر فوك".

ضحك سندر.

"لستَ قاتلاً يا غدبراند. سأنطلق الآن، اتركني أتجاوز خمسين متراً قبل أن تطلق الإنذار، ولن يُلقي أحدٌ اللوم عليك".

نظر كل منهما إلى عيني الآخر. كانت ندف ثلج صغيرة وخفيفة مثل الريش قد بدأت تهطل. ابتسم سندر: "ضوء قمر وثلج في الوقت نفسه! هذا منظر نادر، أليس كذلك؟".

لينينغراد. 2 كانون الثاني 1943

كان الخندق الذي يقف فيه الرجال الأربعة يبعد كيلومترين شمال قطاعهم من الجبهة، في موقع يلتف فيه إلى الخلف ويكوّن حلقة تقريباً. وقف النقيب أمام غدبراند وأخذ يضرب الأرض بقدميه، وكان الثلج يهطل، وتتجمع طبقة رقيقة وناعمة منه فوق قبعة النقيب. وقف إدوارد موسكن إلى جانب النقيب، وراقب غدبراند بعين واحدة مفتوحة، في حين كانت الأخرى مغلقة تقريباً.

قال النقيب: "إذاً، لقد ذهب إلى الروس، أليس كذلك؟".

قال غدبراند: "نعم".

"لماذا؟".

"لا أعرف".

حدّق النقيب بعيداً، ونظّف أسنانه بلسانه، وضرب الأرض بقدميه، ثم أومأ إلى إدوارد، وتمتم ببضع كلمات إلى قائد الجماعة - العريف الألماني الذي يرافقه - ثم حيَّيا بعضهما. وفي أثناء مغادرتهما المكان صدر عن أقدامهما صوتٌ على الثلج.

قال إدوارد: "انتهى الأمر". وكان لا يزال ينظر إلى غدبراند.

قال غدبراند: "نعم".

"لا مزيد من التحقيق".

"لا".

"من كان يظن ذلك؟!". وحدّقت العين المفتوحة من دون أي انفعال إلى غدبراند.

قال غدبراند: "يهرب الرجال طوال الوقت هنا. لا يمكنهم التحقيق في كل -".

"أعني، من كان يظن أنه سندر؟ من كان يظن أنه سيفعل شيئاً مماثلاً؟!".

قال غدبراند: "نعم، يمكنك قول ذلك".

"في لحظة واحدة فقط، نهض وهرب من المكان".

"صحيح".

"هذا عارٌ على فريق الرشاش". كان صوت إدوارد بارداً وساخراً.

"نعم".

"ولم تستطع مناداة الحرّاس الألمان أيضاً؟".

"صرخت، لكن بعد فوات الأوان. كانت الظلمة حالكة".

"كان القمر مضيئاً!".

واجها بعضهما.

قال إدوارد: "هل تعرف ما أظنه؟".

"لا".

"بلى، تعرف. أستطيع رؤية ذلك على وجهك. لماذا يا غدبراند؟".

"لم أقتله". كانت نظرة غدبراند ثابتة وهو ينظر إلى عين إدوارد المفتوحة. "حاولت التحدث إليه، لكنه أبى أن يصغي إلي، ثم هرب بعيداً. ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟".

كان كلاهما يتنفس بصعوبة، فيما الريح تبدّد البخار الذي يخرج من فميهما.

"أتذكّر آخر مرة ارتسم فيها التعبير نفسه على وجهك يا غدبراند. كان ذلك في الليلة التي قتلتَ فيها الروسي في المهجع".

هزّ غدبراند كتفيه، ووضع إدوارد يده التي تلبس قفازاً متجمداً على ذراع غدبراند: "اسمع. لم يكن سندر جندياً جيداً، وربما لم يكن حتى شخصاً طيباً، لكننا أفرادٌ نتمتع بأخلاق حميدة، ويجب أن نكون قدوة تُحتذى ونحافظ على كرامتنا وسط كل هذا. هل تفهم؟".

"هل يمكنني الذهاب الآن؟".

نظر إدوارد إلى غدبراند. كانت الشائعات عن عدم تحقيق هتلر أي نصر على كل الجبهات قد بدأت تصل إليهم آنذاك. وبالرغم من ذلك، استمر سيل المتطوّعين النرويجيين يكبر، وقد استُبدل بدانيال وسندر آنذاك شابان من تينست، فهناك وجوه شابة جديدة طوال الوقت. كان إدوارد يعرف أن دانيال سيبقى في ذاكرته، تماماً كما كان يعرف قبل وقت طويل من ذلك أن وجه سندر سيُمحى منها ويُزال نهائياً. سينسى إدوارد ما حصل خلال بضعة أيام؛ لذا لم يسترسل في ذلك السياق من الأفكار.

قال إدوارد: "اذهب وأبقِ رأسك منخفضاً".

قال غدبراند: "نعم، سأتأكد بالطبع من إبقاء رأسي منخفضاً".

سأل إدوارد بابتسامة فاترة: "هل تتذكّر ما قاله دانيال؟ قال: إننا إذا مشينا معظم الوقت ونحن نحني ظهورنا فسيصبح كل منا أحدب بحلول الوقت الذي يعود فيه إلى وطنه".

قعقع رشاش في مكان بعيد.

لينينغراد. 3 كانون الثاني 1943

أفاق غدبراند فزعاً، وطرفت عيناه بضع مرات، فلم يرَ إلا مجموعة من الألواح الخشبية في السرير فوقه، وشمّ رائحة خشب وتراب كريهة. هل صرخ؟ أصرّ الرجال الآخرون على أنهم لم يعودوا يستيقظون على صرخاته، فاستلقى هناك، وشعر بأن نبضه يهدأ ببطء، ثم بدأ يحكّ جانبه؛ فالقمل لا ينام أبداً.

كالمعتاد، كان الحلم نفسه هو الذي أيقظه. كان لا يزال يشعر بالمخالب على صدره، ويرى العينين الصفراوين في الظلام، وأنياب الحيوان الضاري البيضاء، والدم الفاسد عليها، واللعاب الذي يسيل ويسيل، ويسمع أصوات الأنفاس المرعبة. هل كانت تلك أنفاسه أم أنفاس الحيوان الضاري؟ كان الحلم كالآتي: يكون نائماً ومستيقظاً في الوقت نفسه، لكنه لا يستطيع الحراك، فيما مخالب الحيوان تكاد تطبق على عنقه. وحين توقظه قعقعة رشاش بجانب الباب، يرى الحيوانَ وقد ارتفع عن البطانية وارتطم بجدار المهجع الترابي؛ وكأن الرصاص مزّقه إرباً، ثم يسود الهدوء، وتتمدّد على الأرض كتلة فرو ملطخة بالدم. وبعدها، ينتقل الرجل الموجود عند المدخل من الظلمة إلى شريط ضوء القمر الضيق جداً، والذي لا ينير إلا نصف وجهه. لكنّ شيئاً ما في الحلم في تلك الليلة كان مختلفاً؛ إذ كان الدخان يخرج من فوهة البندقية كما يحصل في الحقيقة، وكان الرجل يبتسم كما هي الحال دائماً. لكن كان هناك ثقب أسود كبير في جبينه، واستطاع غدبراند رؤية القمر من خلال الفتحة في جمجمته؛ وذلك حين استدار ليواجهه.

شعر غدبراند بنفحة هواء باردة مصدرها الباب المفتوح. أدار وجهه، وتجمّد حين رأى شكل شخص ما يسدّ المدخل. هل كان لا يزال يحلم؟ ثم دخل الشخص الغرفة، لكن الظلام كان حالكاً ولم يرَ غدبراند من هو.

توقف الشخص فجأة.

"هل أنت مستيقظ يا غدبراند؟". كان الصوت عالياً وواضحاً؛ إنّه إدوارد موسكن. سُمِعت همهمات انزعاج صادرة من الأسرّة الأخرى، وجاء إدوارد إلى سرير غدبراند مباشرة.

قال: "يجب أن تنهض".

تأوّه غدبراند. "لم تقرأ اللائحة كما يجب؛ لقد أتيت من المناوبة للتو. إنه دور ديل -".

"لقد عاد".

"ماذا تعني؟".

"جاء ديل الآن وأيقظني. لقد عاد دانيال".

"ما الذي تتكلم عنه؟!".

لم يرَ غدبراند في الظلام إلا البخار الأبيض المتصاعد من فم إدوارد، فخرج من السرير، وأخرج حذاءه من تحت البطانية، حيث كان يحتفظ به هناك عادة حين ينام؛ حتى لا يتجمّد وهو رطب. ارتدى معطفه الذي كان يضعه فوق البطانية الصوفية الرقيقة، وتبع إدوارد إلى الخارج. تلألأت النجوم فوقهما، لكن سماء الليل كانت باهتة في الشرق، واستطاع سماع نشيج فظيع صادر من مكان ما. لكن، في ما عدا ذلك، كان كل شيء آخر ساكناً على نحو غريب.

قال إدوارد: "مجندون ألمان جدد وصلوا أمس، وعادوا الآن من أول رحلة إلى الأرض التي لا يسيطر أحد عليها".

وقف ديل وسط الخندق بوضعية غريبة. إذ كان رأسه مائلاً إلى الجانب، وذراعاه بعيدتين عن جسده. كان قد عقد وشاحه حول عنقه، وجعله وجهه الهزيل وعيناه المغمضتان في محجرين غائرين يبدو مثل متسوّل.

"ديل!". هكذا خرج الأمر الحاد من إدوارد، فاستيقظ ديل.

"أرِنا".

تقدم ديل الرجلين، وشعر غدبراند بأن قلبه يخفق بسرعة. لسع البرد وجنتيه، لكنه بالرغم من ذلك لم يستطع التخلص من الشعور الدافئ والغامض الذي كان قد رافقه حين خرج من السرير. كان الخندق ضيقاً جداً؛ لهذا اضطروا إلى السير في رتل خلف بعضهم، وشعر بعيني إدوارد خلفه.

قال ديل وهو يشير: "هنا".

تسبّبت الريح بصفير خافت تحت حافة الخوذة. كانت قد وُضِعَت على صندوقي الذخيرة جثةٌ تبرز أوصالها المتيبّسة من الجوانب، وكان الثلج الذي انجرف إلى الخندق قد ترك طبقة رقيقة فوق البزّة، فيما رُبط كيس خيش حول رأس الجثة.

قال ديل: "تباً!". وهزّ رأسه وضرب الأرض بقدميه.

لم ينبس إدوارد ببنت شفة، فظنّ غدبراند أنه كان ينتظره.

سأل غدبراند أخيراً: "لماذا لم يأخذه حَمَلة الجثث؟".

قال إدوارد: "في الواقع، لقد أخذوه. لقد كانوا هنا عصر الأمس".

"إذاً، لماذا أعادوه؟". ولاحظ غدبراند أن إدوارد ينظر إليه.

"لا أحد في الهيئة العامة يعرف أي أوامر بشأن إعادته إلى هنا".

قال غدبراند: "أهو سوء فهم؟".

"ربما". أخرج إدوارد من سترته لفافة تبغ رقيقة كان قد استهلك نصفها، وابتعد عن الريح وأشعلها بعود ثقاب بعد أن ضمّ كفّه حوله، ثم مرّرها لهما بعد أن سحب منها نفساً عميقاً بضع مرات.

"يقول الرجال الذين أخذوه إنهم وضعوه في إحدى المقابر الجماعية في القطاع الشمالي".

"إذا كان ذلك صحيحاً، ألا يجب أن يكون مدفوناً؟!".

هزّ إدوارد رأسه.

"لا يُدفنون إلا بعد أن يُحرقوا، ولا يُحرقون إلا في أثناء النهار؛ حتى لا يستفيد الروس من الضوء في الليل. وفي الليل تكون المقابر الجماعية الجديدة مفتوحة ومن دون حراسة. لا بدّ من أن أحداً قد أخذ دانيال من هناك".

قال ديل مجدداً: "تباً!". وتناول لفافة التبغ ودخّن بشراهة.

قال غدبراند: "إذاً، صحيح ما سمعته عن أنهم يحرقون الجثث. لماذا؟ في هذا البرد؟".

قال ديل: "أعرف السبب. لأن الأرض متجمدة، وعندما ترتفع الحرارة في الربيع تدفع الأرض الجثث إلى الأعلى". ثم مرّر لفافة التبغ متردداً. "في الشتاء الماضي دفنّا فوربينز بعيداً خلف خطوطنا، وفي الربيع تعثّرنا به مجدداً. حسناً، ما تركت منه الثعالب شيئاً على أي حال".

قال إدوارد: "السؤال هو كيف انتهى الأمر بدانيال هنا؟".

هزّ غدبراند كتفيه.

"تولّيتَ مهمَّة الحراسة الأخيرة يا غدبراند". أغمض إدوارد إحدى عينيه وحدّق بالأخرى إليه. أخذ غدبراند وقته مع لفافة التبغ، فيما سعل ديل.

قال غدبراند وهو يمرّر لفافة التبغ: "مررتُ بهذا الموقع أربع مرات ولم يكن هنا حينها".

"كان بمقدورك الذهاب إلى القطاع الشمالي في أثناء نوبة حراستك؛ فهناك آثار مزلجة على الثلج".

قال غدبراند: "ربما نقله حَمَلة الجثث".

"الآثار تبدأ من آخر أثر للحذاء، وقلت إنك مررت هنا أربع مرات".

انفجر غدبراند قائلاً: "تباً يا إدوارد! يمكنني أنا أيضاً رؤية دانيال هنا، وضعه أحدهم هنا بالطبع، واستخدم على الأرجح مزلجة. لكن، إذا كنتَ تسمع ما كنتُ أقوله، فيجب أن تفهم أن هناك من أحضره إلى هنا بعد أن مررت بالمكان آخر مرة".

لم يتفوّه إدوارد بكلمة، وبدلاً من ذلك نزع منزعجاً على نحو ظاهر المليمترات القليلة والأخيرة في لفافة التبغ من فم ديل، وحدّق مستنكراً إلى العلامات الرطبة على ورق اللفافة، فأبعد ديل بقايا التبغ عن لسانه وعبس.

سأل: "بالله عليك، لماذا سأفعل شيئاً مثل هذا؟ وكيف يمكنني سحب جثة من القطاع الشمالي إلى هنا من دون أن توقفني الدوريات؟".

"كان بمقدورك الذهاب عبر الأرض التي لا يسيطر أحد عليها".

هزّ غدبراند رأسه غير مصدّق، وقال: "هل تظن أنني قد جننت يا إدوارد؟ ما الذي سأفعله بجثة دانيال؟!".

سحب إدوارد نفسين من لفافة التبغ، وألقى العقب على الثلج وداس عليه بحذائه. كان يفعل ذلك دائماً من دون أن يعرف السبب، لكن لم يكن بمقدوره تحمّل منظر أعقاب لفائف التبغ. صدر عن الثلج صرير حين أدار عقب قدمه عليه.

قال إدوارد: "لا، لا أظن أنك سحبت دانيال إلى هنا؛ لأنني لا أعتقد أنه دانيال".

دهش ديل وغدبراند.

قال غدبراند: "بالطبع إنه دانيال".

قال إدوارد: "أو شخصٌ يتمتع بالبنية نفسها، وشارة الوحدة نفسها على بزّته".

"كيس الخيش...".

قال إدوارد ساخراً وهو ينظر إلى غدبراند: "إذاً، تستطيع أن تلاحظ أن كيس الخيش مختلف، أليس كذلك؟".

قال غدبراند وهو يبتلع ريقه: "إنه دانيال؛ إذ يمكنني تمييز الحذاء".

سأل إدوارد: "إذاً، تظن أننا يجب أن نستدعي حَمَلة الجثث ونطلب منهم نقله بعيداً مجدداً من دون إلقاء نظرة أقرب، أليس كذلك؟ كان ذلك ما تعتمد عليه، أليس هذا صحيحاً؟".

"لتذهب إلى الجحيم يا إدوارد!".

"لست واثقاً من أنه دوري هذه المرة يا غدبراند. انزع كيس الخيش يا ديل".

فغر ديل فمه متعجباً من الاثنين اللذين كانا يحدّقان إلى بعضهما مثل ثورين هائجين.

صرخ إدوارد: "هل تسمعني؟ اقطع كيس الخيش!".

"أفضّل أن لا -".

"إنه أمر. نفّذ حالاًً!".

بقي ديل متردداً. نقل بصره من رجل إلى آخر، ثم نظر إلى الجثة المتيبّسة على صندوقي الذخيرة، وبعد ذلك هزّ كتفيه، وفكّ أزرار سترته ووضع يده في داخلها.

صرخ إدوارد: "انتظر، اسأل غدبراند إن كان بمقدورك استعارة حربته؟!".

كان ديل آنذاك في حيرة من أمره حقاً، ونظر ساخراً إلى غدبراند الذي كان يهزّ رأسه.

سأل إدوارد وهو لا يزال واقفاً وجهاً لوجه أمام غدبراند: "ماذا تعني؟ تقضي الأوامر العسكرية بأن تحمل حربة دائماً، وليست لديك واحدة؟".

لم يجب غدبراند.

"أنت آلة القتل الفتّاكة بواسطة الحربة يا غدبراند، ولن تفقدها ببساطة، أليس كذلك؟".

لم يجب غدبراند بالرغم من ذلك.

"في تلك الحال، نعم، يجب أن تستخدم حربتك يا ديل".

شعر غدبراند برغبة جامحة في تمزيق العين الكبيرة التي تحدّق إليه من رأس قائد الجماعة. روتنفوهرر، ذلك ما كان عليه! أو بالأحرى جرذ - الفوهرر؛ جرذ بعيني جرذ ودماغه. ألم يفهم أي شيء؟

سمعا ضوضاء قويّة خلفهما حين كانت الحربة تمزّق كيس الخيش، ثم شهيق ديل، فاستدار كلا الرجلين بسرعة. هناك، تحت ضوء الفجر الأحمر، حدّق إليهم وجه أبيض، كانت لديه تكشيرة بشعة، وفي جبينه عين سوداء ثالثة. كان دانيال سليماً، ولا شك في ذلك.

وزارة الشؤون الخارجية. 4 تشرين الثاني 1999

نظر برنت براندهوغ إلى ساعته وتجهّم. اثنتان وثمانون ثانية، أي أكثر بسبع ثوانٍ من المعتاد، ثم تجاوز العتبة بخطوة واسعة ليدخل قاعة الاجتماعات، وألقى تحية صباح الخير الودّية، وابتسم ابتسامته البيضاء الشهيرة للوجوه الأربعة التي استدارت نحوه.

كان كورت ميريك، رئيس الاستخبارات السريّة، يجلس إلى أحد جانبي الطاولة مع راكيل التي كانت ترتدي بذلة رسميّة، وقد سرّحت شعرها بطريقة غريبة، فيما بدا وجهها متجهّماً. أدهشه أن بذلتها تبدو غالية الثمن بالنسبة إلى أمينة سرّ، وكان لا يزال متمسكاً بحدسه حول أنها مطلّقة، لكن ربما تزوّجت رجلاً ثرياً، أو كان والداها غنيين. لقد أشارت حقيقةُ أنها جاءت إلى ذلك المكان مجدداً، وتشارك في اجتماع كان براندهوغ قد أشار إلى أن انعقاده يجب أن يتم بسريّة مطلقة، إلى أنها تحتل منصباً في الاستخبارات السريّة أعلى مما افترض في البداية، فعقد العزم على اكتشاف المزيد عنها.

كانت آن ستوركسن تجلس عند الطرف الآخر من الطاولة مع مدير شعبة الجريمة الطويل والنحيل. ما كان اسمه؟ لقد استغرق وصوله إلى قاعة الاجتماعات أكثر من ثمانين ثانية في البداية. والآن، لا يستطيع تذكّر اسم؛ هل بدأ يطعن في السن؟

لم يكن قد أمعن التفكير في ذلك الأمر حين قفزت أحداث الليلة الماضية إلى ذهنه؛ حيث دعا ليز - الشابّة المتدربة في وزارة الخارجية - إلى غداء عمل قصير، وبعد ذلك عرض عليها تناول الشراب في فندق كونتيننتال، حيث خصّصت له وزارة الخارجية غرفة هناك لتكون تحت تصرفه دائماً؛ لعقد اجتماعات تتطلب القليل من السريّة. لم يكن طلب الخروج مع ليز صعباً؛ فقد كانت فتاة طموحة. لكن الأمر جرى على نحو سيئ؛ حدث ذلك مرة واحدة، ربما بسبب الإكثار من تناول الشراب، لكنه بالتأكيد لم يكن قد أصبح عجوزاً بعد؛ لذلك دفع براندهوغ الفكرة إلى مؤخّر ذهنه وجلس.

شرع يقول: "شكراً لكم لأنكم استطعتم المجيء بعد إعلامكم بوقت قصير، ولا حاجة إلى التأكيد على الطبيعة السريّة لهذا الاجتماع بالطبع، لكنني سأفعل ذلك على أي حال؛ نظراً لوجود أشخاص لا يمتلكون خبرة كبيرة في العمل الذي نقوم بالإعداد له".

ألقى نظرة سريعة على الجميع باستثناء راكيل، مما أوضح بأنّ الرسالة موجهة إليها. ثم استدار إلى آن ستوركسن.

"بالمناسبة، كيف حال رَجُلك؟".

نظرت قائد الشرطة إليه ببعض الارتباك.

أسرع براندهوغ بالقول: "رجلك الشرطي؟ هول، أليس هذا اسمه؟".

أومأت آن إلى مولر الذي تنحنح مرتين قبل أن يقول:

"إنّه على ما يرام، نظراً إلى الظروف. لقد هزّته الحادثة بالطبع، لكنه... بخير". هزّ كتفيه في دلالة على أنه لم يبقَ الكثير ليقوله.

رفع براندهوغ حاجبه المشذب قائلاً: "ليس مهزوزاً إلى درجة المخاطرة بتسريب معلومات، كما أرجو؟".

قال مولر: "ماذا؟!". ورأى قائد الشرطة تستدير بسرعة نحوه، وترمقه بنظرة جانبية. "لا أظن ذلك. إنه يعرف طبيعة القضية الحسّاسة. وبالطبع لقد أقسم على كتمان ما حدث".

أضافت آن ستوركسن بابتهاج: "ينطبق الشيء نفسه على ضباط الشرطة الآخرين العاملين في الميدان".

قال براندهوغ: "إذاً، لنأمل أن يبقى هذا تحت السيطرة. سأزوّدكم بآخر المستجدّات عن الوضع. لقد أجريت حديثاً مطولاً مع السفير الأميركي، وأظن أنه بمقدوري القول إننا قد اتفقنا على أهم النقاط بشأن هذه الحادثة المأساوية".

نظر إلى كل واحد منهم تباعاً، وحدّقوا إليه في جوٍّ من التوتر الشديد، وانتظروا ما كان سيخبرهم إيّاه. بدا أن القنوط الذي شعر به قبل ثوانٍ قد زال.

"استطاع السفير إبلاغي أن عميل الاستخبارات السريّة الذي أطلق رجلكما - واستدار نحو مولر وقائد الشرطة - النار عليه عند حاجز الدفع في حالة مستقرة، ولقد تجاوز مرحلة الخطر. لقد تضررت فقرة في ظهره، وهو يعاني نزيفاً داخلياً، لكن السترة المضادة للرصاص أنقذته. يؤسفني أننا لم نستطع اكتشاف هذه المعلومة في وقت مبكر. ولكن، لأسباب مفهومة كنا قد حاولنا إبقاء كل الاتصالات بشأن هذه القضية في أضيق نطاق ممكن. لذا، لم يتم تبادل إلا التفاصيل الأساسية بين عدد صغير من الأطراف ذات الشأن".

سأل مولر: "أين هو؟".

"بصراحة، لا ترغب في أن تعرف ذلك أيها المفتش مولر".

ونظر إلى مولر الذي ظهر على وجهه تعبيرٌ غريبٌ. أطبق صمت تام على الغرفة لوهلة؛ كان الأمر محرجاً قليلاً دائماً حين يُذكَّر أحدهم بأنه غير مسموح له أن يعرف أكثر مما يتطلبه أداء مهمّته. ابتسم براندهوغ ومدّ ذراعيه معتذراً وكأنه يقول: أفهم تماماً طرحك السؤال، لكن الأمر يجري على تلك الحال. فأومأ مولر ونظر نحو الأسفل؛ إلى الطاولة.

قال براندهوغ: "لا بأس، يمكنني إخباركم بالآتي: لقد نُقل جواً بعد العملية إلى قاعدة عسكرية في ألمانيا".

"جيد". وحكّ مولر مؤخّر عنقه. "حسناً...".

انتظرَ براندهوغ.

"أفترض أنه لا ضير في إبلاغ هول ذلك، أعني أن عميل الاستخبارات السريّة يتعافى. سيجعل ذلك الوضع... أسهل بالنسبة إليه".

نظر براندهوغ إلى مولر. كان يواجه صعوبة في فهم ذهنية رئيس شعبة الجريمة.

"لا بأس في ذلك".

"ما الذي اتفقت عليه مع السفير؟". كانت تلك راكيل.

قال براندهوغ بلطف: "سأصل إلى ذلك". في الواقع كانت تلك هي النقطة الآتية، لكنه كان يكره أن يقاطعه أحد بتلك الطريقة. "أولاً، أود أن أمدح مولر وشرطة أوسلو على تقويمهم السريع للموقف في الميدان. فإذا كانت التقارير صحيحة، فإن الأمر لم يستغرق أكثر من اثنتي عشرة دقيقة حتى تلقّى العميل عناية طبية مهنية".

قالت آن ستوركسن: "نقله هول وزميلته إيلين غيلتن إلى مستشفى أكر".

قال براندهوغ: "ردود أفعال سريعة تستحق الإعجاب، وتلك وجهة نظر يشاطرني فيها السفير الأميركي".

تبادل مولر وقائد الشرطة النظرات.

"زيادةً على ذلك، كان السفير قد تكلم مع الاستخبارات السريّة، ولن يتم - بطبيعة الحال - اتخاذ أي إجراءات أخرى من الجانب الأميركي. إنه أمر طبيعي".

أضاف ميريك: "هذا طبيعي".

"اتفقنا أيضاً على أن الخطأ يقع أساساً على كاهل الأميركيين؛ فما كان يجدر بالعميل أن يتواجد هناك قطّ. أعني أن ذلك كان مسموحاً، ولكن، كان يجب عليه إبلاغ ضابط الارتباط النرويجي الموجود في الميدان. إن

الشرطي النرويجي في الموقع الذي دخل منه العميل إلى تلك المنطقة، والذي كان بمقدوره إبلاغ ضابط الارتباط، قد تعرّف الهويةَ التي قدّمها له العميل، وكانت الأوامر الدائمة تقضي بمنح عملاء الاستخبارات السريّة إذناً بالدخول إلى كل المناطق الآمنة؛ لهذا لم يرَ الشرطي سبباً يدعوه إلى تقديم تقرير عن ذلك إلى رئيسه. وفي استعادة لمجريات الأحداث، يمكننا القول إنه كان من واجبه القيام بذلك".

ثم نظر إلى آن ستوركسن، التي لم تصدر عنها أي إشارة على أنها ستعترض على ذلك.

"النبأ الجيد هو أنّه لم يُكشف شيء للعلن في تلك الأزمة على ما يبدو. على أي حال، لم أدعُ إلى هذا الاجتماع لمناقشة ما يجب أن نفعله كأفضل سيناريو للقضية، فالتزامنا الصمت التام بشأن ما جرى لن يجدي نفعاً. وأفترض أننا يجب ألا نفكّر في مثل هذا الأمر. سيكون من السذاجة ألا نفترض أنّ خبر حادثة إطلاق النار تلك لن يتسرب عاجلاً أم آجلاً".

ضمّ برنت براندهوغ راحتي كفّيه وحرّكهما إلى الأعلى والأسفل؛ وكأنه يفصّل الجمل في مقاطع صوتية مناسبة.

"فبالإضافة إلى وجود ما يقارب عشرين شخصاً من الاستخبارات السريّة، والشؤون الخارجية، ومجموعة التنسيق الذين يعرفون هذه القضية، هناك ما يصل إلى نحو خمسة عشر شاهداً من الشرطة عند حاجز الدفع. ولا أرغب في قول كلمة سيئة عن أيٍّ منهم، فأنا واثق من أنهم جميعاً سيلتزمون بالإجراءات السريّة المعتادة. ولكن، بالرغم من ذلك، إنهم أفراد شرطة عاديون لا يمتلكون أي خبرة في درجة السريّة الضرورية في تلك الحالات. وبالإضافة إلى ذلك، هناك موظفون في مستشفى ريكس، والخطوط الجوية، وشركة الحواجز فيلينج أيه - أس، وفندق بلازا؛ الذين لديهم - بحالة أو بأخرى - سبب للشك في ما حدث. ليست هناك ضمانة أيضاً بأنّ الموكب لم يكن مراقَباً عبر مناظير من أحد الأبنية المجاورة، فكلمة واحدة من أي شخص له علاقة بهذا و...". نفخ الهواء من فمه محاكياً انفجاراً.

أطبق الصمت حول الطاولة حتى تنحنح مولر قائلاً:

"ولماذا سيصبح الوضع... حسناً... خطراً جداً إذا انكشف الأمر؟".

أومأ براندهوغ ليؤكد أن ذلك لم يكن أغبى سؤال قد سمعه من قبل؛ مما منح مولر إحساساً فورياً بأنّه كان كذلك فعلاً.

شرع براندهوغ يقول بابتسامة واهنة: "الولايات المتحدة الأميركية أكثر

من مجرد حليف". قال ذلك بالنبرة نفسها التي يستخدمها المرء ليشرح لشخص غير نرويجي أن للنرويج ملكاً، وأن العاصمة أوسلو.

"كانت النرويج في العام 1920 إحدى أفقر الدول الأوروبية. وعلى الأرجح، ربما كانت ستبقى كذلك لولا مساعدة أميركا. انسوا الخطابات السياسية، فقد كانت الهجرة، ومساعدات مارشال، وألفيس، وتمويل التنقيب عن النفط قد حوّلت النرويج إلى واحدة من أشد الدول تأييداً لأميركا في العالم. إنّ الجالسين هنا قد عملوا لسنوات للوصول إلى المناصب التي يحتلونها اليوم في حياتهم المهنية. لكن، إذا وصل إلى مسامع سياسيينا أن شخصاً في هذه الغرفة مسؤول عن تعريض حياة الرئيس للخطر...".

ترك براندهوغ باقي الجملة معلَّقاً في الهواء وجال ببصره حول الطاولة، ثم قال:

"لحسن حظنا، سيحمّل الأميركيون مسؤولية الخلل إلى أحد عملاء استخباراتهم السريّة، لا إلى غياب التنسيق مع أحد أقرب حلفائهم".

قالت راكيل من دون أن ترفع بصرها عن الورقة أمامها: "هذا يعني... أننا لسنا بحاجة إلى كبش فداء نرويجي". ثم رفعت بصرها ونظرت مباشرة إلى برنت براندهوغ. "بل، على العكس تماماً، نحن نحتاج إلى بطل نرويجي، أليس كذلك؟".

استقرت نظرة براندهوغ عليها بمزيج من الدهشة والاهتمام. دُهِش لأنها عرفت ما يرمي إليه بسرعة كبيرة، واهتمّ لأنه كان قد أدرك أنها شخص يمكن بالتأكيد الاعتماد عليه.

قال: "هذا صحيح. يجب أن تكون روايتنا للأحداث جاهزة في اليوم الذي يتسرّب فيه الخبر بأنّ شرطياً نرويجياً قد أطلق النار على عميل استخبارات سريّة. وروايتنا ستكون أنه ليس هناك فشل من جانبنا. فلقد تصرف ضابط ارتباطنا في الموقع وفقاً للتعليمات، واللوم يقع فقط على عميل الاستخبارات السريّة. وهذه رواية يمكن أن نعيش نحن والأميركيون معها. لكنّ التحدّي يكمن في جعل وسائل الإعلام تقتنع بها. ولهذا السبب -".

أضافت قائد الشرطة: "نحتاج إلى بطل".

قال مولر: "عذراً. هل أنا الشخص الوحيد هنا الذي لا يفهم جوهر الموضوع؟". وضحك بصوت خافت.

قال براندهوغ: "كان الضابط حاضر الذهن في ما كان يبدو موقفاً خطراً على الرئيس. فلو كان الشخص في الكشك قاتلاً، وهذا ما كان مُلزماً

بافتراضه تماشياً مع التعليمات الخاصة بهذا السيناريو، لكان قد أنقذ حياة الرئيس. فحقيقة أن الشخص لم يكن قاتلاً لا تغير أي شيء".

قالت آن ستوركسن: "هذا صحيح، حيث تُمنح التعليمات في مثل تلك الظروف الأولويّة على التقويم الشخصي".

لم يقل ميريك شيئاً، لكنه أومأ موافقاً.

قال براندهوغ: "جيد. الجوهر كما دعوته يا بيارني هو إقناع وسائل الإعلام، والمسؤولين، وكل من له أي علاقة بهذه القضية أنه ليس لدينا أدنى شك في أن ضابط ارتباطنا قد تصرف على نحو صحيح. الجوهر هو أننا يجب أن نقول إنه قام بعمل بطولي وفقاً لكل المعايير والأهداف العملية".

استطاع براندهوغ رؤية ذعر مولر.

"إذا لم نكافئ الضابط، فنحن مضطرون إلى الإقرار بأنّه قد ارتكب خطأً في التقدير حين أطلق النار على العميل. وبالتالي، الإقرار بأنّ الإجراءات الأمنية في أثناء زيارة الرئيس لم تكن على المستوى المنشود".

أومأ جميع الجالسين إلى الطاولة برؤوسهم في إشارة إلى موافقتهم على ما يقوله.

قال براندهوغ: "ومن ثَمّ...". كان يحب الكلمة المغطّاة بدرع غير مرئيّة تقريباً؛ لأنها تستند إلى سلطة المنطق: من هذا نصل إلى ذاك.

"ومن ثَمّ، هل نمنحه ميدالية؟". قالت راكيل مجدداً.

أفلتت من براندهوغ زفرة غضب بسبب الطريقة التي قالت بها كلمة ميدالية؛ وكأنهم يكتبون مخطوطة عمل كوميدي، ويتفوّهون بكل أنواع الاقتراحات المسلّية بحماسة، وكأنّ عرضه كان كوميدياً.

قال ببطء مشدّداً على كلامه: "لا، لن نمنحه ميدالية. فالميداليات والأوسمة لا يمكنها إحداث الأثر المطلوب، ولا تمنحنا المصداقية التي نسعى إليها". استرخى على كرسيه، ويداه خلف رأسه. "لنمنح الرجل ترقية، لنجعله مفتشاً".

أطبق صمت طويل.

"مفتّش؟!". حدّق بيارني مولر إلى براندهوغ وهو غير مصدّق. "لأنه أطلق النار على عميل استخبارات سريّة؟!".

"قد يبدو هذا غريباً قليلاً. لكن، أمعن التفكير فيه".

"إنه...". طرفت عينا مولر وبدا أنه على وشك قول الكثير، لكنه قرّر إبقاء فمه مغلقاً.

سمع براندهوغ قائد الشرطة تقول: "لن يكون عليه إنجاز المهمّات

نفسها التي تُسند عادة إلى المفتّشين". خرجت الكلمات من فمها بتردد؛ وكأنها تمرّرُ قطناً في فتحة الإبرة.

ردّ مشدّداً قليلاً على اسمها: "لقد فكّرنا في ذلك أيضاً يا آن". كانت تلك أول مرة يستخدم فيها اسمها الأول. اهتزّ أحد حاجبيها قليلاً، لكنه لم يرَ أي شيء غير ذلك يشير إلى اعتراضها. تابع: "لكنّ المشكلة تكمن في زملاء ضابط الارتباط الذي ضغط على الزناد. فإذا اعتبر هؤلاء الترقيةَ لافتة للنظر، وبدأوا يفكّرون في أن اللقب صوري، فعندها لن نكون قد قطعنا شوطاً طويلاً؛ وبالتالي لم نحقّق أي نتيجة. فإذا اشتبهوا في أن في الأمر كتمان سرّ، فستنتشر الشائعات حالاً، وسنمنح الجميع انطباعاً بأننا حاولنا إخفاء الحقيقة عمداً، وأننا جميعاً، إضافة إلى هذا الشرطي، قد ارتكبنا خطأً. بكلمات أخرى، يجب أن نمنحه موقعاً يبدو معقولاً، حيث لا يستطيع أحد مراقبة ما يفعله. سأقول ذلك بطريقة أخرى: ترقية تترافق مع نقله إلى العمليات السريّة".

"عمليات سريّة! حريّة في التصرف!". رسمت راكيل ابتسامة ساخرة على وجهها. "يبدو أنك تفكّر في إرساله إلينا".

قال براندهوغ: "ما رأيك يا كورت؟".

حكّ كورت ميريك خلف أذنه، وضحك بصوتٍ خافت ثم قال: "نعم. يمكننا دائماً منح مفتش مكاناً بيننا، كما أظن".

حنى براندهوغ رأسه قائلاً: "سيكون ذلك عوناً كبيراً".

"نعم، يجب أن نساعد بعضنا بعضاً حين نستطيع ذلك".

قال براندهوغ بابتسامة عريضة: "رائع". وألقى نظرة على الساعة المعلقة على الجدار مشيراً إلى أن الاجتماع قد انتهى. ثم صدر صرير عن الكراسي.

سانت هانزهوغن. 4 تشرين الثاني 1999

نظرت إيلين إلى توم والر في اللّحظة التي دفع فيها شريطاً إلى داخل آلة التسجيل، ورفع الصوت عالياً، مما جعل لوحة القيادة تهتز. وخز صوت الأمير الحاد عالي الطبقة طبلتي أذنيها.

صرخ توم بصوت يعلو على صوت الموسيقى: "إنّه رائع. أليس كذلك؟". لم تكن إيلين ترغب في إزعاجه لهذا هزّت رأسها ببساطة. لم تكن لديها أي أفكار مُسبقة عن أن إزعاج توم والر أمرٌ سهل، لكنها كانت قد قرّرت عدم السباحة ضد التيار لأطول مدة ممكنة. تمنّت أن تنتهي علاقتها مع توم والر. كان بيارني مولر، رئيس إدارتهما، قد قال إن العلاقة مؤقتة فقط. فالجميع يعرفون أن توم سيحظى بمنصب المفتش الجديد في الربيع.

صرخ توم: "إنّه رعديد أسود، لا يُطاق".

لم تتفوّه إيلين بكلمة. كان المطر يهطل بغزارة، ورغم عمل المسّاحتين بأقصى سرعتهما، إلا أن الماء كوّن طبقة رقيقة على الزجاج الأمامي، وجعل الأبنية في أولفاسفين تبدو مثل بيوت دمى صغيرة تتموّج جيئة وذهاباً. كان مولر قد أرسلهما في ذلك الصباح للعثور على هاري. كانا قد عرّجا آنذاك على شقّته في بوابة صوفيز، لكنهما لم يجداه في منزله، أو أنه لم يرغب في فتح الباب، أو لم يكن يستطيع فتحه. خافت إيلين من الأسوأ. راقبت الناس وهم يحثّون الخطى على الرصيف. كانت أشكالهم مشوّهة وغريبة أيضاً، وكأنها تظهر في مرايا متصدّعة في معرض.

قالت: "انعطف يساراً هنا، وتوقف خارج شرودر. يمكنك الانتظار في السيارة، وأنا سأدخل".

قال ولر: "ذلك يناسبني. السُكارى هم الأسوأ".

رمقته بنظرة جانبية، لكن تعبير وجهه لم يشِ بما كان يفكر فيه. هل يعني عملاء شرودر في الصباح عامة؟ أم هاري خاصة؟ توقف في الخارج في المكان المخصص للحافلات، وعندما خرجت إيلين رأت أن مشرب برنزي قد افتتح فرعاً في الطرف الآخر من الشارع، أو ربما كان هناك منذ وقت طويل لكنها ببساطة لم تلاحظ ذلك. كان هناك شبان يرتدون كنزات مرتفعة الياقة، يجلسون على كراسي المشرب الصغيرة قرب النوافذ وهم يقرأون صحفاً أجنبية، أو يحدّقون إلى المطر، حاملين أكواب قهوة بيضاء كبيرة، ومتسائلين كما يبدو إن كانوا قد اختاروا التخصص الصحيح في الجامعة، أو الأريكة ذات التصميم المناسب، أو الشريك المناسب، أو نادي

كرة القدم الصحيح، أو البلدة الأوروبية المناسبة.

عند مدخل شرودر، كادت تتعثر برجل يرتدي كنزة أيسلندية. كان اللون الأزرق قد اختفى تقريباً من قزحيتيه، فيما بدت يداه الكبيرتان كمقلاتين سوداوين بسبب شدّة اتّساخهما. شمّت إيلين رائحة العرق حين مرّ بجانبها. في الداخل، كان المكان هادئاً في الصباح، وكانت هناك أربع طاولات فقط مشغولة. كانت إيلين قد جاءت إلى هذا المكان من قبل، منذ وقت طويل، وعرفت أن شيئاً لم يتغير. كانت لوحات كبيرة لأوسلو في قرون ماضية معلّقة على الجدران، والطلاء البني والسقف الزجاجي الداكن في الوسط يجعلان المرء يشعر بأنه في مشرب إنكليزي. ولكن، ليكون المرء صادقاً تماماً؛ هذا شعور ضعيف جدًّا. فالطاولات والمقاعد البلاستيكية جعلت المكان يبدو مثل مشرب مدخّنين في معدّية على ساحل مور. في القسم الخلفي من الغرفة، كانت نادلة تضع مئزراً تستند إلى منضدة وهي تدخّن، وتراقب إيلين. كان هاري يجلس في الوسط تماماً قرب النافذة، ورأسه ملقى على الطاولة، وكأس شراب نصف فارغة أمامه.

قالت إيلين وهي تجلس قبالته: "مرحباً".

نظر هاري إلى الأعلى وأومأ؛ وكأنه كان ينتظرها هي، ثم عاد رأسه إلى مكانه مجدداً.

"لقد كنا نحاول العثور عليك. عرّجنا على شقتك".

قال بنبرة فاترة، من دون ابتسامة: "هل كنتُ في المنزل؟".

"لا أعرف. هل أنت في المنزل يا هاري؟". وأشارت إلى الكأس.

هزّ كتفيه.

قالت: "سيعيش".

"لقد سمعت ذلك. ترك مولر رسالة على جهاز المجيب الآلي". كان كلامه واضحاً على نحو مدهش. "لم يقل شيئاً عن مدى سوء إصابته. كانت الأعصاب مشدودة جداً، أليس كذلك؟".

أمال رأسه، لكن إيلين لم تجب.

قال هاري وهو ينقر على كأسه نصف الفارغة: "ربما سيُشلّ فقط، وسيصبح مُقعداً".

قالت: "إجازتك المرضية تنتهي غداً. وغداً نتوقع عودتك إلى العمل".

عندها، رفع رأسه وسألها: "هل أنا في إجازة مرضية؟".

دفعت إيلين نحوه ملفاً بلاستيكياً صغيراً من فوق الطاولة. كان من الممكن رؤية خلفية ورقة وردية في الداخل.

"لقد تكلّمت مع مولر، ود. آن. خذ هذه نسخة عن الإجازة المرضية. قال مولر إنه من الطبيعي أن تحصل على إجازة لعدة أيام لتستعيد توازنك بعد حادثة إطلاق النار في أثناء مهمة عمل. تعال غداً".

انتقل بصره إلى النافذة ذات الزجاج المتموّج والملون؛ لتحجب الرؤية على ما يبدو، حتى لا يستطيع من في الخارج مشاهدة من في الداخل؛ على نقيض مشرب برنري تماماً، كما فكّرت إيلين.

"حسناً! هل ستأتي؟".

"حسناً". نظر إليها بالعينين اللامعتين نفسيهما اللتين تتذكر رؤيتها إيّاهما على هذه الحال في صباح الأيام التي أعقبت عودته من بانكوك. "لن أراهن على ذلك".

"على أيّ حال، حاول أن تأتي. هناك عدد من المفاجآت المدهشة بانتظارك".

"مفاجآت؟". ضحك هاري بصوت خافت قائلاً: "أتساءل ما قد تكون؟ أهي تقاعد مبكّر؟ أم تسريح مشرّف؟ هل سيمنحني الرئيس وسام القلب الأرجواني (وسام الشجاعة)؟".

رفع رأسه كفاية لترى إيلين عينيه المحتقنتين. فتنهّدت إيلين واستدارت نحو النافذة. خلف الزجاج الملون، كانت سيارات مشوّهة الشكل تمر، وكأنها في فيلم مشوّش.

"لماذا تفعل هذا بنفسك يا هاري؟ أنت تعرف، وأنا أعرف، والجميع يعرف أنه لم يكن خطأك! حتى الاستخبارات السرية تقرُّ بأنّه كان خطأهم؛ لأنهم لم يبلّغونا. وأنت تصرفت على نحو مناسب".

تكلم هاري بصوتٍ خافتٍ من دون أن ينظر إليها: "هل تظنين أن أسرته ستنظر إلى الأمر بتلك الطريقة عندما يعود إلى المنزل جالساً على كرسي مدولب؟".

"يا الله يا هاري!". كانت إيلين قد رفعت صوتها هذه المرة، ولاحظت أن المرأة المستندة إلى المنضدة تراقبهما باهتمام متزايد. كان بمقدورها على الأرجح أن تشمّ رائحة خصام مرير يتخمّر.

"هناك دائماً بعض الأشخاص غير المحظوظين، وبعضهم لا ينجون يا هاري. تلك هي الحال. إنه ليس خطأ أحد. هل كنت تعرف أنه في كل سنة تموت 60 بالمئة من كل طيور السيّاج (عصفور أوروبي مغرّد)؟ 60 بالمئة! إذا كنا سنناقش ذلك ونمعن التفكير في معناه، فقبل أن نعرف ما يجري، سينتهي بنا الأمر بأن نصبح من بين تلك النسبة يا هاري".

لم يقل هاري شيئاً، بل جلس وهو يحرّك رأسه إلى الأمام والخلف على غطاء الطاولة المليء بحروق لفائف تبغ سوداء.

"سأكره نفسي لأنني سأقول هذا يا هاري، لكنني سأعتبر مجيئك إلى العمل غداً خدمة شخصيّة لي. تعال وحسب. لن أتكلم معك، ولا تنبس ببنت شفة معي، اتفقنا؟".

وضع هاري إصبعه الصغيرة في أحد الثقوب في غطاء الطاولة القماشيّ، ثم حرّك كأسه حتى غطّت أحد الثقوب الأخرى. انتظرت إيلين.

سأل هاري: "هل والر هو ذاك الذي ينتظر في السيارة في الخارج؟".

أومأت إيلين. كانت تعرف تماماً الحال السيئة التي وصلت إليها العلاقة بين الرجلين. خطرت لها فكرة، تردّدت، ثم جازفت: "لقد راهن بمئتي كرون على أنك لن تأتي مجدداً".

ضحك هاري بصوتٍ خافتٍ مجدداً، ثم وضع رأسه على يديه ونظر إليها.

"أنتِ لا تجيدين الكذب أبداً يا إيلين. لكن، شكراً على المحاولة".

"تباً لك".

سحبت إيلين نفساً، وكانت على وشك قول شيء ما، ولكنها غيّرت رأيها ونظرت إلى هاري لبعض الوقت. ثم سحبت نفساً آخر مجدداً وقالت: "حسناً، في الواقع، يجب أن يخبرك مولر بما يلي، ولكنني سأخبرك به الآن: سيجعلونك مفتشاً في الاستخبارات السرية".

بدا صوت ضحك هاري مثل صوت محرك كاديلاك فليتوود.

"حسناً، مع بعض التدريب، ربما ستجيدين الكذب في نهاية المطاف".

"ما أقوله صحيح".

"هذا مستحيل". ذهبت نظرته إلى خارج النافذة مجدداً.

"لماذا؟ أنت واحدٌ من أفضل محققينا. لقد أثبتَّ أنك شرطي جيد. تقرأ القانون. أنت -".

"أقول لك إن هذا مستحيل. حتى إذا كان شخص ما قد طرح تلك الفكرة الجنونية".

"لكن، لماذا؟".

"لسبب بسيط جداً. ألم تكن النسبة 60 بالمئة من تلك الطيور، كما قلت؟".

سحب الغطاء والكأس فوق الطاولة.

"إنها تدعى طيور السيّاج".

"هذا صحيح. وما سبب موتها؟".

"ماذا تعني؟".

"إنها لا تقع على الأرض وتموت ببساطة، أليس كذلك؟".

"إنها تموت نتيجة الجوع، والبرد، والإرهاق، والاصطدام بالنوافذ ربما، وربّما بسبب الضّواري؛ أي شيء وكل شيء".

"حسناً. أراهن على أن أياً منها لا يتلقى رصاصة في ظهره من شرطي نرويجي لا يحمل إذناً بحمل سلاح؛ لأنه لم يجتز اختبار الرماية. شرطي سيُحاكم عندما يُكتشف ذلك، وعلى الأرجح سيُزجّ به في السجن بين سنة وثلاث سنوات. إنه أساس غير صحيح للترقية إلى منصب مفتش، أليس كذلك؟".

رفع كأسه ورماها على الملف البلاستيكي.

سألته: "أي اختبار رماية؟".

رمقها بنظرة حادّة، فيما بادلته النظرات بثقة.

سألت: "ماذا تعني؟ ليست لدي أي فكرة عمّا تتكلم عنه يا هاري".

"تعرفين جيداً ما -".

"وفقاً لما أعرفه، اجتزت اختبار الرماية هذه السنة، ومولر يشاطرني الرأي نفسه. لقد ذهب إلى مكتب ترخيص حمل السلاح هذا الصباح ليتأكّد من ذلك من مدرب الرماية. راجعا الملفّات، ووفقاً لما رآه، فقد سجّلت نقاطاً أكثر من كافية لاجتياز الاختبار. إنهم لا يعيّنون أشخاصاً يطلقون النار على عملاء آخرين من دون مؤهلات مناسبة كمفتّشين في الاستخبارات السريّة كما تعرف".

أشرق وجهها بابتسامة عريضة وهي تنظر إلى هاري، الذي بدا آنذاك محتاراً أكثر منه ثملاً.

"لكنني لم أحصل على ترخيص بحمل السلاح".

"بلى، لقد حصلت عليه. ولكنك أضعته فقط. ستعثر عليه يا هاري، ستجده".

"اسمعي الآن، أنا...".

توقف عن متابعة الكلام، وحدّق إلى الملف البلاستيكي أمامه على الطاولة. أمّا إيلين فنهضت قائلة:

"أراك عند الساعة التاسعة أيها المفتّش".

كل ما استطاع هاري فعله هو أن يومئ لها بصمت.

راديسون ساس، هولبرغز بلاس. 5 تشرين الثاني 1999

كان شعر بتي أندرسن أشقر وأجعد، مثل دولي بارتون (مغنية وممثلة أميركية)؛ ويبدو أنّه شعر مستعار. ولكنّه لم يكن شعراً مستعاراً على أي حال. وكل أوجه الشبه بينها وبين دولي بارتون كانت مقتصرة على الشعر. أندرسن طويلة ونحيلة، وعندما تبتسم - كما كانت تفعل الآن - كانت فتحة فمها تبدو صغيرة ولا تكاد تكشف عن أسنانها. كانت تلك الابتسامة موجهة إلى الرجل العجوز الواقف عند الطرف الآخر من الطاولة في ركن الاستقبال في فندق راديسون ساس في هولبرغز بلاس. لم تكن طاولة استقبال بالمعنى المعتاد للكلمة، وإنّما هي واحدة من بين عدّة جزر متعددة الاستخدامات وُضِعَت عليها شاشات حواسيب تسمح لهم بخدمة عددٍ من النزلاء في الوقت نفسه.

قالت بتي أندرسن: "صباح الخير". كان ذلك شيئاً تعلّمته في كلية الإدارة الفندقية في ستافنغر؛ أي أن تفرّق بين أوقات مختلفة من اليوم حين تحيّي الناس. ولهذا ستقول بعد ست ساعات: طاب يومكم، وبعدها بساعتين: مساء الخير، ثم ستذهب إلى شقتها المؤلفة من غرفتين في تورشوف وتتمنى أن يكون هناك شخص يمكن أن تقول له عمت مساءً.

"أود رؤية غرفة في أعلى مكان ممكن".

حدّقت بتي أندرسن إلى معطف الرجل العجوز المبتلّ بالماء. كان المطر يهطل غزيراً في الخارج، وكانت هناك قطرة ماء تهتز على طرف قبعته.

"هل قلت إنك تود رؤية غرفة؟".

لم تتغير ابتسامة بتي أندرسن. كانت قد تدرّبت وفقاً لمبدأ تتقيد به تماماً؛ وهو أنه يجب معاملة كل شخص كنزيل حتى يثبت العكس على نحو لا يقبل الشك. لكنها كانت تعرف جيداً أيضاً أن الشخص الواقف أمامها مثال عن نوع من الرجال؛ فهو رجل عجوز يزور العاصمة ويرغب في رؤية المنظر من فندق ساس من دون أن يدفع. كانوا لا يزالون يأتون إلى هذا المكان، في الصيف خاصة. ولم يكن الهدف الوحيد هو رؤية المشهد. في إحدى المرات، طلبت امرأة رؤية الجناح الملكي في الطابق الحادي والعشرين، حتى تستطيع وصفه لصديقاتها وإخبارهنّ أنها قد نزلت فيه. كانت قد عرضت على بتي خمسين كروناً لتسجّل لها اسمها في دفتر النزلاء حتى تستطيع الاستفادة منه بوصفه دليلاً.

سألت بتي: "هل تريد غرفة مفردة أم مزدوجة؟ هل أنت مدخّن أم

غير مدخّن؟". عادة، يبدأ معظمهم بالتلعثم عند هذه النقطة.

قال الرجل العجوز: "لا يمثّل ذلك أي فرق. أهم شيء هو المنظر. أود رؤية الجزء الجنوبي الغربي".

"نعم، يمكنك رؤية البلدة كلها من هناك".

"هذا ممتاز. ما هي أفضل غرفة لديك؟".

"الأفضل من دون شك هو الجناح الملكي. لكن، تمهّل لحظة، هل أتأكّد من توفّر غرفة عادية؟".

طقطقت على لوحة المفاتيح، وانتظرت حتى ترى إن كان سيقع في الشرك. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً.

"أودُّ رؤية الجناح".

بالطبع تودّ ذلك، كما فكّرت. ألقت نظرة على الرجل العجوز. لم تكن بتي امرأة غير عقلانية. ولكن، إذا كانت أعظم أمنيات الرجل العجوز أن يرى المنظر من فندق ساس، فلن تقف في طريقه.

قالت وهي ترسم أبهى ابتساماتها على وجهها، وهي ابتسامة تحتفظ بها عادة للنزلاء الدائمين: "لنذهب لإلقاء نظرة".

وفي المصعد، سألت بتهذيب: "هل تزور أحداً هنا في أوسلو؟".

قال الرجل العجوز: "لا". كان حاجباه أبيضين وكثيفين مثل حاجبي والدها. ضغطت بتي على الزر، فأُغلقت الأبواب وارتفع المصعد. لم تعتد على ذلك قطّ؛ كان الأمر يشبه شفط المرء إلى السماء. فُتحت الأبواب مجدداً، وبدا عالم جديد ومختلف. شعرت كما شعرت الفتاة في فيلم ساحر أوز (فيلم موسيقي أميركي). لكنه كان دائماً العالم القديم نفسه. مشيا عبر الأروقة، وشاهدا أوراق جدران وسجّادات متطابقة، ولوحات فنية غالية الثمن على الجدران. وضعت بطاقة المفتاح في قفل الجناح، ثم قالت: "تفضّل، من بعدك". وأمسكت الباب من أجل الرجل الذي دخل، وارتسمت على وجهه نظرة فسّرتها بأنها نظرة توقّع.

قالت بتي: "مساحة الجناح الملكي 105 أمتار مربعة. وهو يضمّ غرفتي نوم؛ في كل منهما سرير ذو حجم كبير، وحمّامين في كل منهما جاكوزي وهاتف".

دخلت الغرفة، ونظرت إلى الرجل العجوز الذي كان قد وقف إلى جانب النافذة.

قالت وهي تمرّر يدها فوق الزجاج الرقيق على الطاولة الصغيرة: "صمم بول هنريكسن، وهو مصمم دانماركي، الأثاث. ربما تودّ رؤية

الحمّامين؟".

لم يجبها الرجل العجوز. لم يكن قد نزع بعد قبعته المبللة بالماء، وفي الصمت الذي أعقب ذلك سمعت بتي قطرة ماء تهبط على الأرضية المصنوعة من خشب الكرز. وقفت إلى جانبه. كان بمقدورهما من هناك رؤية كل ما يستحق المشاهدة: دار البلدية، والمسرح الوطني، والقصر، والبرلمان النرويجي - ستورتنغ - وغابة أكرشوس. كانت حدائق القصر تحتهما، حيث تتطاول الأشجار نحو سماء رمادية مكفهرّة مثل أصابع معوجّة سوداء.

قالت بتي: "يجب أن تأتي إلى هنا في يوم ربيعي جميل".

استدار الرجل العجوز ورمقها بنظرة تشير إلى عدم فهمه ما قالته، فأدركت بتي ما كانت قد قالته حالاً. ربما كان بمقدورها أن تضيف أيضاً: لأنك جئت إلى هنا لتشاهد المنظر فقط.

تجاوزت ذلك بابتسامة واسعة قدر المستطاع. "حين تكون الأعشاب خضراء والأشجار مزدانة بالأوراق في حدائق القصر، يكون المنظر جميلاً جداً".

أمعن النظر إلى وجهها، لكنّ أفكاره بدت في مكان آخر.

قال أخيراً: "أنت محقة. الأشجار مغطّاة بالأوراق. لم أفكّر في ذلك".

أشار إلى النافذة: "هل يمكن فتح هذه؟".

قالت بتي مرتاحة لتغيير الموضوع: "قليلاً. يجب أن تدير المقبض هناك".

"لماذا قليلاً فقط؟".

"في حال خطرت لأي شخص أفكار سخيفة".

"أفكار سخيفة؟".

رمقته بنظرة سريعة. هل كان الرجل العجوز خرفاً قليلاً؟

قالت: "فكرة أن يقوم بنزهة؛ أعني ينتحر. هناك الكثير من البائسين الذين...". أشارت بيدها لتوضّح ما يفعله البائسون.

"إذاً، تلك فكرة سخيفة، أليس كذلك؟". فرك الرجل العجوز ذقنه. هل لاحظت أثر ابتسامة بين التجاعيد؟ "حتى إذا كنت بائساً؟".

قالت بتي بتصميم: "نعم. على الأقل، في هذا الفندق، وحين أعمل".

"حين تعملين". ضحك الرجل العجوز بصوتٍ خافت. "كانت تلك جملة جيدة يا بتي أندرسن".

أفزعها ذكره اسمها. كان قد قرأه بالطبع على اللوحة التي تحمل اسمها. إذاً، لم يكن هناك خطب في بصره، فقد كانت حروف اسمها

صغيرة، في حين كانت حروف موظفة استقبال كبيرة. تظاهرت بأنها تختلس النظر إلى الساعة الجدارية.

قال: "نعم. لديك على الأرجح أشياء أهم لتفعليها".

قالت: "أظن ذلك".

قال الرجل العجوز: "سأحجزها".

"عفواً؟".

"سأحجز الغرفة. ليس الليلة، لكن -".

"ستحجز الغرفة؟".

"نعم. إنها شاغرة ومن الممكن حجزها، أليس كذلك؟".

"حسناً، نعم إنها كذلك، لكن... إنها مكلفة جداً".

"أفضّل الدفع مسبقاً".

أخرج الرجل العجوز محفظة من جيبه الداخلي، وسحب منها رزمة من الأوراق النقدية.

"لا، لا. لم أعنِ الأمر على هذا النحو. لكن إيجارها هو 7000 كرون لليلة واحدة. ألا تفضّل رؤية -؟".

قال الرجل العجوز: "أعجبتني هذه الغرفة. أعدّيها لي من فضلك".

حدّقت بتي إلى الأوراق النقدية من فئة ألف كرون التي لوّح بها أمامها.

قالت: "يمكننا قبول الدفعة حين تأتي. حسناً، متى تودّ أن...؟".

"كما اقترحتِ يا بتي. يوماً ما في فصل الربيع".

"حسناً. هل هناك يوم محدد؟".

"طبعاً".

مقر قيادة الشرطة. 5 تشرين الثاني 1999

تنهّد بيارني مولر وحدّق خارج النافذة. تجوّلت أفكاره بحرّية كما كانت تفعل في الآونة الأخيرة. كان المطر قد توقف، بالرغم من أن السماء الرمادية المكفهرّة كانت لا تزال على حالها فوق مقر قيادة الشرطة في غرونلاند. هرول كلب على المرج البني المقفر في الخارج. كان هناك منصب شاغر في شعبة الجريمة في بيرغن، والموعد النهائي لتقديم الطلبات في الأسبوع التالي. كان قد سمع من زميل له هناك أن المطر يهطل في بيرغن مرتين فقط كل خريف: من أيلول إلى تشرين الثاني، ومن تشرين الثاني إلى رأس السنة الجديدة. كان أهل بيرغن يبالغون دائماً. لقد ذهب إلى هناك وأعجبته المدينة الصغيرة، البعيدة كثيراً عن السياسيين في أوسلو. كانت المدن الصغيرة تُعجبه.

"ماذا؟". استدار مولر ورأى تعبير وجه هاري البائس.

"كنت تخبرني أن الانتقال سيكون مفيداً لي".

"آه؟".

"إنها كلماتك أيها المدير".

"آه، نعم. نعم، هذا صحيح. يجب أن نتأكّد من عدم استسلامنا للرتابة، بعاداتنا وروتيننا القديم. يجب أن نمضي قدماً ونتطوّر؛ ينبغي أن نتقدّم".

"هناك انطلاقة وابتعاد. الاستخبارات السرية فوقنا بثلاثة طوابق فقط".

"أعني الابتعاد عن كل شيء. يظن ميريك رئيس الاستخبارات السرية أنك ستكون مناسباً للموقع الذي سيعيّنك فيه هناك".

"ألا يجب أن يُحاط المرء علماً بمثل تلك الوظائف؟".

"لا تقلق بشأن هذا يا هاري".

"لا؟ لكن، هل يُسمح لي بأن أستغرب؟ بالله عليك، هل تريدني أن أعمل في المراقبة؛ هل أبدو ممن يحبون العمل خفية؟".

"لا، لا".

"لا؟".

"أعني بلى. ليس نعم بالضبط، لكن، حسناً... لِمَ لا؟".

"لِمَ لا؟".

حكّ مولر مؤخر رأسه بغضب. كان وجهه قد أصبح شديد الاحمرار.

"بالله عليك يا هاري! نعرض عليك العمل كمفتش، مع ما يرافق هذا

العمل من زيادة كبيرة في الراتب، وإلغاء المناوبات الليلية، والحصول على احترام أكبر من المبتدئين اللعينين. هذا أمر جيد يا هاري".

"أحب المناوبات الليلية".

"لا أحد يحب المناوبات الليلية".

"لماذا لا تمنحني منصب المفتش الشاغر هنا؟".

"هاري! أسدني معروفاً ووافق فحسب".

حرّك هاري كوبه الورقي بعصبية، وقال: "أيها المدير، منذ متى نعرف بعضنا؟".

رفع مولر إصبعه محذّراً: "لا تحاول ذلك معي. اختبارنا الحلو والمر معاً...".

"إنها سبع سنوات. وطوال سبع سنوات قابلت أشخاصاً في هذه المدينة هم على الأرجح أغبى المخلوقات التي تمشي على قدمين. ولكن، بالرغم من ذلك، لم ألتقِ كاذباً أسوأ منك. ربما أنا غبي، لكن لا تزال لدي بعض الخلايا الدماغية التي تبذل قصارى جهدها، وهي تقول لي إن سجلّي لا يمكن أن يكون قد منحني ذلك المنصب؛ أو أنني سجّلت فجأة - يا للدهشة! - واحدة من أفضل نتائج القسم في اختبار الرماية السنوي. إنها تقول لي إن إصابة عميل الاستخبارات السرية قد تكون لها علاقة بذلك. ولستَ بحاجة إلى قول شيء أيها المدير".

فتح مولر فمه، ثم أغلقه مجدداً، ووضع ساقاً فوق الأخرى على نحو يلفت الانتباه.

تابع هاري: "أعرف أنك لست مسؤولاً عمّا يجري. حتى إذا لم يكن بمقدوري رؤية الصورة كلها، فأنا أتمتع ببعض الخيال، ويمكنني تخمين الباقي. إذا كنت محقاً، فهذا يعني أن رغباتي الخاصة في ما يتعلق بخيارات أخرى في سيرتي المهنية في الشرطة ليست ذات شأن. لهذا أجبني فقط عن الآتي: هل لدي أي خيار؟".

طرفت عين مولر، وبقيت ترمش. كان يفكّر في بيرغن مجدداً؛ في فصول الشتاء من دون ثلج، وفي الخروج أيام الأحد مع زوجته وابنيه إلى جبل فلوين، وفي توفّر مكان لائق ليترعرع فيه ولداه، وفي بضع دعابات لطيفة، وفي قليل من الاسترخاء بعيداً عن العصابات أو المراهقين الذين يبلغون من العمر أربعة عشر عاماً ويتناولون جرعات مفرطة من العقاقير. مخفر شرطة بيرغن. نعم، حسناً.

قال: "لا".

قال هاري: "حسناً، لم أكن أظن ذلك". كوّر الكوب الورقي بقبضته، وسدّد على سلّة المهملات بدقّة. "هل قلت زيادة كبيرة في الراتب؟".

"نعم، وسيكون لديك مكتب خاص بك".

"مفصول تماماً عن الآخرين، كما أتخيل". رمى الكوب بحركة ذراع بطيئة ومتأنية. "هل سيكون هناك وقت إضافي؟".

"ليس في ذلك المنصب".

"إذاً، يجب أن أسرع بالعودة إلى المنزل عند الساعة الرابعة". سقط الكوب الورقي على الأرض بعيداً مسافة نصف متر عن السلّة.

قال مولر وهو يحاول الابتسام: "أنا واثق من أنه لا ضير في ذلك".

حدائق القصر. 10 تشرين الثاني 1999

كانت أمسية باردة وصافية. كان أول شيء أثار انتباه الرجل العجوز حين خرج من محطة قطار الأنفاق هو العدد الكبير من الأشخاص الذين لا يزالون في الشارع. كان قد تخيّل أن وسط المدينة سيكون مهجوراً تقريباً، لكن سيارات الأجرة في بوابة كارل يوهانز كانت تنطلق ذهاباً وإياباً تحت أضواء النيون. وكانت حشود من الناس تتحرك في كلا الاتجاهين على الأرصفة. وقف في ممر المشاة مع مجموعة من الشبان داكني البشرة الذين كانوا يثرثرون بلغة أخرى، وانتظر تغيّر لون الضوء في إشارة المرور إلى اللون الأخضر. خمّن أنهم باكستانيون، أو ربما عرب. قاطع تغيّرُ الأضواء أفكارَه، فمشى بحرص على الطريق، وصعد التلة نحو واجهة القصر المضاءة. حتى هناك كان يوجد أشخاص، معظمهم شبان، في طريقهم من وإلى مكان لا يعلمه إلا الله. توقف على التلة ليلتقط أنفاسه، أمام تمثال لكارل يوهان وهو على صهوة حصانه، ويحدّق حالماً إلى ستورتنغ، والسلطة التي كان قد حاول نقلها إلى القصر خلفه.

لم يكن المطر قد هطل منذ أكثر من أسبوع، وخشخشت الأوراق الجافة حين استدار الرجل العجوز يميناً بين الأشجار في الحديقة. مال إلى الخلف، وأمعن النظر في الأغصان العارية التي تبرز تحت السماء المزدانة بالنجوم. وخطر له بيت شعر من قصيدة:

دردار وحور، بتولا وسنديان،

عباءة مسودّة، كالحة ومميتة.

فكّر في سرّه أن الوضع كان سيصبح أفضل في حال عدم ظهور القمر هذا المساء. ومن ناحية أخرى، كان ذلك يسهّل العثور على ما يبحث عنه: شجرة السنديان الضخمة التي كان قد أراح رأسه عليها في اليوم الذي عرف فيه أن حياته تقترب من نهايتها. جال ببصره على الجذع وصولاً إلى قمة الشجرة. كم عمرها؟ هل عمرها مئتا سنة؟ أم ثلاثمئة سنة؟ ربما كانت الشجرة كاملة النمو حين توّج كارل يوهان ملكاً على النرويج. رغم ذلك، لكل حياة نهاية: حياته، حياة الشجرة، نعم، حتى حياة الملوك. وقف خلف الشجرة بحيث لا يستطيع أحد رؤيته من الدرب، وأنزل الحقيبة التي كان يحملها على ظهره. ثم جثم على الأرض، وفتح الحقيبة وأخرج المحتويات: ثلاث قوارير من محلول غليفوسات الذي كان موظف المبيعات في متجر خردوات في كيركفين قد دعاه مبيد أعشاب، ومحقنة خاصة بالخيول لها

طرف فولاذي قوي اشتراها من متجر يبيع مواد كيميائية. كان قد قال إنه سيستخدم المحقنة في الطهي؛ لزرق الدهن في اللحم. لكن ذلك لم يكن ضرورياً، لأن الموظف كان قد رمقه فقط بنظرة ملل، ونسيه على الأرجح قبل أن يخرج من الباب.

نظر الرجل العجوز حوله بسرعة، قبل أن يغرز الطرف الفولاذي الطويل في فوهة إحدى القوارير، ويسحب الدافعة ببطء حتى ملأ السائل اللامع المحقنة. تحسّس بأصابعه جذع الشجرة حتى وجد ثقباً في القشرة وغرز الإبرة فيه. لم تجرِ الأمور بالسهولة التي كان قد تخيّلها. كان عليه أن يدفع بقوة حتى تخترق المحقنة الخشب القاسي. لن يكون لها أي تأثير إذا حقن الطبقة الخارجية؛ ولهذا كان عليه الوصول إلى القلب؛ إلى النسيج الخلوي بين لحاء الشجرة وخشبها، إلى لب الشجرة وأعضائها المفعمة بالحياة. ضغط أكثر على المحقنة. اهتزت الإبرة. تبًّا! يجب ألا يكسرها، فليس لديه غيرها. اندفع الرأس إلى الداخل، لكنه توقف تماماً بعد بضعة سنتيمترات. بالرغم من البرد القارس كان يتصبّب عرقاً. أمسك بالمحقنة بقوة وكان على وشك أن يدفعها مجدداً حين سمع أوراقاً تخشخش إلى جانب الدرب. أفلت المحقنة من يده. أصبح الصوت أقرب. أغمض عينيه وحبس أنفاسه. سمع صوت الخطوات تقترب منه، وعندما فتح عينيه مجدداً، لمح شكلين يختفيان خلف الشجيرات، إلى جانب مركز الحراسة قرب بوابة فريدريكس. أطلق زفيراً، وركّز اهتمامه على المحقنة مجدداً. عقد العزم على أن يجازف بكل شيء ويدفع الإبرة بكل ما أوتي من قوة. وفيما كان يدفع الإبرة عميقاً وهو يتوقع سماع صوتها وهي تنكسر، دخلت في الجذع. مسح الرجل العجوز جبينه. كان الباقي سهلاً.

بعد عشر دقائق، كان قد حقن قارورتين من مبيد الأعشاب في جذع الشجرة، وعلى وشك استخدام الثالثة حين سمع أصواتاً تقترب. خرج شخصان من بين الشجيرات الموجودة قرب مركز الحراسة، وافترض أنهما الشخصان نفساهما اللذان كان قد رآهما من قبل.

قال له أحدهما: "مرحباً". وكان الصوت صوت رجل.

تصرف الرجل العجوز على نحو فطريّ. فقد شدّ قامته، ووقف أمام الشجرة، وجعل معطفه يحجب المحقنة التي كانت لا تزال في الجذع. في اللحظة التالية، أعمى بصره ضوء قويّ فوضع يديه أمام وجهه.

وسمع صوت امرأة تقول: "أبعد الضوء يا توم".

اختفى الوهج، ورأى مخروط ضوء يتراقص بين الأشجار في الحدائق.

جاء الاثنان إليه، ورفعت المرأة التي كانت في بداية العقد الثالث من عمرها، وجذّابة الملامح، بطاقة قرب وجهه فاستطاع حتى في ضوء القمر الضعيف رؤية صورتها، التي كان من الواضح أنها التُقطت حين كانت أصغر قليلاً، ومتجهمة. كما استطاع قراءة اسم إيلين بوضوح ولكنه لم يتمكن من قراءة اسم عائلتها.

قالت: "نحن من الشرطة. أعتذر إذا أخفناك".

سأل الرجل: "ماذا تفعل هنا في منتصف الليل، أيها الجد؟". كان كلاهما يرتديان ملابس بسيطة، ورأى تحت قبعة الرجل الصوفية السوداء شاباً وسيماً، كانت عيناه الزرقاوان تحدّقان إليه.

قال الرجل العجوز متمنياً ألا يكون الارتعاش في صوته واضحاً: "كنت أمشي في الهواء الطلق".

فقال الذي يدعى توم: "هكذا إذاً؟ تقف خلف شجرة في المتنزه، وأنت ترتدي معطفاً طويلاً. هل تعرف ماذا نسمّي ذلك؟".

قالت المرأة وهي تستدير إلى الرجل العجوز: "توقف يا توم! مجدداً، أعتذر إليك. وقع هجوم هنا في الحدائق قبل بضع ساعات. تعرض فتى إلى ضرب مبرّح. هل رأيت أو سمعت شيئاً؟".

قال الرجل العجوز وهو يركّز على المرأة لتفادي النظر إلى عيني الرجل اللتين تتفحّصانه: "لقد وصلت إلى هنا حالاً. لم أرَ شيئاً باستثناء الدب الأكبر والدب الأصغر". وأشار إلى السماء. "آسف لسماع ذلك. هل تأذى كثيراً؟".

"على نحو سيئ تماماً. نرجو المعذرة على الإزعاج". ثم ابتسمت قائلة: "أتمنى لك أمسية سعيدة".

انطلقا مبتعدين، فأغمض الرجل العجوز عينيه، واستند إلى جذع الشجرة. وفي اللحظة التالية، شعر بشخص يمسك به من سترته ويقرّبه منه قائلاً:

"إذا أمسكت بك هنا مجدداً، فسأمزّقك إرباً. هل تسمع؟ أكره الأشخاص أمثالك".

ثمّ تركت اليدان سترته واختفتا.

انهار الرجل العجوز، وشعر بالرطوبة الباردة تتسلل من الأرض إلى جسده عبر ملابسه. وداخل رأسه سمع صوتاً يهمهم ببيت الشعر نفسه مراراً وتكراراً:

دردار وحور، بتولا وسنديان،

عباءة مسودّة، كالحة ومميتة.

بيتزا هربرت. ساحة يونغ. 12 تشرين الثاني 1999

دخل سفير أولسن المطعم وأومأ إلى الرجال الجالسين إلى الطاولة في الزاوية، ثم اشترى شراباً وتوجّه إلى إحدى الطاولات الموجودة في الزاوية؛ إلى طاولته. كانت تلك طاولته منذ أكثر من سنة؛ منذ أن ضرب الأحوص في دينيس للكباب ضرباً مبرّحاً. جاء باكراً، لذا لم يكن أحد آخر يجلس في تلك اللحظة هناك: لكن، سرعان ما سيمتلئ مطعم البيتزا الصغير الذي يقع في زاوية تورغاتا قرب ساحة يونغ. كان يوم العمل الخيري. ألقى نظرة على الرجال الجالسين في الزاوية، حيث كان ثلاثة من الرجال الأشدّاء يجلسون هناك، لكنه لم يكن يتكلم معهم في ذلك الوقت. كانوا ينتمون إلى الحزب الجديد - ناسونال اليانسن؛ أي حزب التحالف الوطني - ويمكن أن يقول المرء إن هناك اختلافات إيديولوجية في الآراء بينهم. كان يعرفهم منذ ذلك الوقت الذي أمضاه في منظمة شبيبة حزب الوطن (فدرلاندسبارتيت)، وكانوا وطنيين كفاية، لكنهم أصبحوا الآن على وشك الانضمام إلى صفوف مجموعة منشقّة. كان روي كفينست حليق الرأس تماماً، ويرتدي كالمعتاد جينزاً ضيقاً باهت اللون، وقميصاً تائياً أبيض عليه شعار ناسونال اليانسن بالأحمر والأبيض والأزرق. أمّا هالي فقد انضمّ مؤخّراً إلى المجموعة، وقد صبغ شعره باللون الأسود، واستخدم زيتاً لجعله أملسَ. كان واضحاً أن الشارب هو أكثر ما يزعج الناس؛ لذا كان شاربه الأسود الصغير مشذّباً بأناقة، ويعدّ نسخة طبق الأصل عن شارب الفوهرر. كان قد توقف عن ارتداء السراويل المخصصة لركوب الخيل، وكذلك عن انتعال الأحذية المخصّصة لذلك الغرض، وصار يرتدي بزّات عسكرية خضراء. كان غريغرسن الوحيد الذي يبدو مثل شاب عادي؛ إذ إنّه يرتدي سترة قصيرة، ويضع نظارة شمسية على رأسه، ولحيته مشذّبة. كان من دون شك الأذكى بين الثلاثة.

جال سفير ببصره في المكان. كانت هناك فتاة وفتى يأكلان البيتزا بنهم. لم يكن قد رآهما من قبل، لكنهما لم يبدوا كشرطيين متخفيين، أو صحفيَّين. هل كانا من صحيفة مونيتور المناهضة للفاشية؟ كان قد كشف غبياً يعمل في مونيتور في الشتاء الماضي؛ رجلاً تردّد على المكان كثيراً، وتظاهر بأنه ثمل، وتبادل أطراف الحديث مع بعض العملاء الدائمين. كان سفير قد شمّ رائحة غدر في الجو، فأخذوه إلى الخارج ومزّقوا كنزته. كان يضع لاقط تسجيل، وقد اعترف بأنه من مونيتور قبل أن يلحقوا به الأذى. إن موظفي مونيتور حفنة من الأشخاص الجبناء والسخيفين. عند التفكير في

الأمر، يتضح أن تلك المراقبة الطوعية لعناصر فاشية أمر خطر وبالغ الأهمية، وأنهم مثل عملاء الاستخبارات السرية؛ فحياتهم في خطر دائم. نعم، حسناً، في ما يتعلق بذلك، كان عليه أن يُقرّ بأنهم ليسوا مختلفين كثيراً عن بعض الأفراد في صفوف حزبه. على أيّ حال، كان الغبي واثقاً من أنهم سيقتلونه، وخاف كثيراً إلى درجة أنه بلّل نفسه؛ بالمعنى الحرفي للكلمة. كان سفير قد لاحظ الخط الداكن الذي تعرّج نزولاً على ساق سرواله وفوق الإسفلت، وكان ذلك أكثر ما يتذكّره من تلك الأمسية؛ الجدول الصغير من البول الذي يلمع في أثناء انتقاله إلى أكثر الأماكن انخفاضاً في الزقاق الخلفي المعتم.

قرّر سفير أولسن بعد أن دقّق النظر إليهما أنهما مجرّد شخصين يافعَين جائعَين عرّجا على المكان مصادفة. كانت السرعة التي يأكلان بها تشير إلى أنهما قد أدركا آنذاك طبيعة العملاء ويرغبان في الخروج في أسرع وقت ممكن. كان هناك رجل عجوز يعتمر قبعة ويرتدي معطفاً يجلس قرب النافذة. ربما كان مدمناً على الشراب، بالرغم من أن ملابسه توحي بشيء مختلف. لكنهم يبدون غالباً على تلك الحال في الأيام القليلة الأولى التي تلي قيام جيش الخلاص بكسوتهم؛ أي بتزويدهم بمعاطف وبذلات جميلة مستعملة انتهى موسمها. عندما كان يراقبه، رفع الرجل العجوز بصره فجأة ونظر مباشرة إلى عينيه. لم يكن رجلاً مدمناً على الشراب بالتأكيد. كانت عينا الرجل العجوز زرقاوين ومفعمتين بالحيوية، فأشاح سفير ببصره بعيداً بشكل تلقائيّ. كيف يجرؤ هذا الوغد العجوز على التحديق إليه!؟

ركّز سفير على شرابه. كان الوقت قد حان لكسب بعض النقود. ترك شعره ينمو ويطول ليخفي الوشم على عنقه، وارتدى قميصاً طويل الردنين، وجاء إلى ذلك المكان. هناك أعمال كثيرة، لكنها ثانوية. كان السود يسيطرون على كل الوظائف الجيدة ذات الرواتب العالية.

"هل يمكنني الجلوس؟".

رفع سفير ناظريه. كان الرجل العجوز يقف قربه. ولم يكن سفير قد لاحظ أن الرجل قد جاء إليه.

رفض سفير السماح له بالجلوس قائلاً: "هذه طاولتي".

"أرغب فقط في إجراء حديث قصير معك". وضع الرجل العجوز صحيفة على الطاولة بينهما وجلس على الكرسي المقابل. فراقبه سفير بحذر.

قال: "استرخِ، أنا واحدٌ منكم".

"واحدٌ ممن؟".

"أحد الأشخاص الذين يأتون إلى هنا. أقصد الاشتراكيين الوطنيين".

"آه، هل هذا صحيح؟".

بلّل سفير شفتيه ووضع الكأس على فمه، فيما جلس الرجل العجوز هناك ساكناً من دون حراك، وهو يراقبه بهدوء؛ وكأن لديه كل الوقت في العالم. وربما كان لديه فعلاً، فقد بدا في السبعين من عمره، على الأقل. هل يعقل أن يكون أحد المتطرّفين القدامى من حزب زورن 88 النازي؟ أو أحد الممولين المستترين الذين كان سفير قد سمع عنهم لكنه لم يرَ أحداً منهم قطّ؟

"أحتاج إلى معروف". تكلم الرجل العجوز بصوت خافت.

قال سفير: "آه، صحيح؟". لكنه كان قد خفّف حدّة كلامه قليلاً، فهو لم يكن يعرف ما الذي يحصل.

قال الرجل العجوز: "السلاح".

"ماذا عن السلاح؟".

"أريد واحداً. هل يمكنك مساعدتي؟".

"لماذا سأفعل ذلك؟".

"افتح الصحيفة، عند الصفحة الثامنة والعشرين".

سحب سفير الصحيفة وبقي يراقب الرجل العجوز في أثناء تقليبه أوراقها. وعلى الصفحة الثامنة والعشرين كان هناك مقال عن النازيين الجدد في إسبانيا. رجل المقاومة اللعين ذاك، إيفن جول. شكراً جزيلاً. كانت صورة بالأبيض والأسود لشاب يحمل لوحة الجنرال فرانكو محجوبة بورقة نقدية من فئة ألف كرون.

قال الرجل العجوز: "إذا كان بمقدورك مساعدتي...".

هزّ سفير كتفيه.

"... ستكون هناك تسعة آلاف غيرها".

"آه، هل هذا صحيح؟". تناول سفير جرعة أخرى، ونظر في أرجاء القاعة. كان الشابان قد ذهبا، لكن هالي، وغريغرسن، وكفينست كانوا لا يزالون يجلسون في الزاوية. وسرعان ما سيأتي الآخرون، وعندها سيكون مستحيلاً إجراء حديث سرّي. عشرة آلاف كرون.

"ما نوع السلاح؟".

"بندقية".

"يمكنني العمل على ذلك".

هزّ الرجل العجوز رأسه.

"بندقية ماركلين".

سأل سفير: "ماركلين؟ كما في القطارات المصغّرة؟".

فُتحت ثغرة في الوجه المتغضّن تحت القبعة. لا بدّ من أن العجوز غريب الأطوار قد ابتسم.

"إذا لم يكن بمقدورك مساعدتي، فأخبرني الآن. يمكنك الاحتفاظ بالمال، ولن نتكلم عن الأمر أكثر من ذلك. سأغادر ولن يرى أحدنا الآخر مجدداً أبداً".

شعر سفير باندفاعة أدرينالين قصيرة. لم يكن الأمر بمثابة حديث يومي يدور حول فؤوس، أو بنادق صيد، أو إصبع ديناميت؛ كان الأمر حقيقياً، والرجل يتكلم بجديّة.

فُتح الباب. نظر سفير من فوق كتفه إلى الرجل الذي دخل المكان. لم يكن أحد الرفاق، وإنما هو المدمن على الشراب الذي يرتدي كنزة أيسلندية حمراء. كان يصبح مزعجاً عندما يُسرف في الشرب، لكنه بخلاف ذلك مسالم تماماً.

قال سفير وهو يمسك الورقة النقدية من فئة ألف كرون: "سأرى ما يمكنني فعله".

لم يرَ سفير ما حدث بعد ذلك. فلقد ضربت يد الرجل العجوز يده مثل مخلب نسر، وثبّتتها فوق الطاولة.

كان الصوت حازماً وبارداً، مثل قطعة جليد وهو يقول: "لم أسأل عن ذلك".

حاول سفير إبعاد يده، لكنه لم يستطع. لم يكن بمقدوره تحرير يده من قبضة رجل عجوز خرف!

"سألتك إن كان بمقدورك مساعدتي. وأريد جواباً، نعم أم لا. هل هذا مفهوم؟".

شعر سفير بأن غضب صديقه العجوز وخصمه يزداد. وفي الوقت نفسه، لم يستطع أن يمحو من ذهنه فكرة حصوله على عشرة آلاف كرون. كان هناك شخص يستطيع مساعدته، وهو رجل مميز حقاً. لن يكون ذلك رخيصاً، لكنه شعر أن العجوز غريب الأطوار لن يساوم في السعر.

"أنا... يمكنني مساعدتك".

"متى؟".

"بعد ثلاثة أيام. هنا. وفي الوقت نفسه".

"هذا هراء! لن تحصل على بندقية مثل تلك في غضون ثلاثة أيام".

أفلت الرجل العجوز يده وتابع قائلاً: "لكنك ستذهب إلى الشخص الذي يمكنه مساعدتك، واطلب منه أن يذهب إلى الشخص الذي يمكنه مساعدته، ثم سنلتقي هنا بعد ثلاثة أيام حتى نستطيع الاتفاق على وقت التسليم ومكانه".

كان بمقدور سفير رفع 120 كيلوغراماً على آلة التمرين. كيف يمكن لهذا العجوز الهزيل...؟

"أخبرني، هل يجب عليّ أن أدفع ثمن البندقية نقداً عند التسليم؟ ستحصل على ما تبقى من مالك بعد ثلاثة أيام".

"نعم؟ ماذا إن أخذت المال فحسب؟".

"عندها، سأعود وسأقتلك".

فرك سفير معصمه. ولم يسأل عن أي تفاصيل أخرى.

عصفت ريح جليدية باردة فوق الرصيف خارج كشك الهاتف الذي يقع إلى جانب حمّامات تورغاتا حين ضغط سفير أولسن على الأرقام بأصابع مرتعشة. كان البرد قارساً جداً، وكانت هناك ثقوب في مقدمة كلا نعليه أيضاً. رُفعت السمّاعة عند الطرف الآخر.

"نعم؟".

ابتلع سفير أولسن ريقه. لماذا كان الصوت يجعله يضطرب دائماً؟

"إنه أنا. أولسن".

"تكلم".

"أحدهم يحتاج إلى بندقية. ماركلين".

لا رد.

أضاف سفير: "كما في القطارات المصغّرة".

"أعرف ما هي الماركلين يا أولسن". كان الصوت عند الطرف الآخر فاتراً وغامضاً، واستطاع سفير أن يشعر بالازدراء فيه. لم يعلّق، وبالرغم من أنه كان يكره الرجل الذي يتحدّث في الطرف الآخر، إلا أن رعبه منه كان أكبر؛ ولم يكن خجلاً من الإقرار بذلك. فقد عُرف عن هذا الرجل أنه خطر. بضعة أشخاص فقط كانوا قد سمعوا عنه، حتى ضمن حلقة سفير الذي لم يكن يعرف اسمه الحقيقي، لكنه كان قد أنقذ سفير ورفاقه من ورطات أكثر من مرة. كل ذلك من أجل القضية طبعاً، وليس لأنه يحب سفير أولسن. لو كان سفير يعرف شخصاً آخر يمكنه تزويده بما يسعى إليه، لاتّصل به.

الصوت: "من يسأل ولماذا يريدها؟".

"إنّه رجل عجوز. لم أره من قبل قطّ. يقول إنه واحد منا. ولنقل إنني لم أسأله تحديداً من يريد أن يقتل بها. ربما لا أحد، وربما يريدها فقط...".

"اخرس يا أولسن. هل كان يبدو ممن يملكون المال؟".

"كان يرتدي ملابس جيدة، وأعطاني ألف كرون لأخبره فقط إن كان بمقدوري مساعدته أم لا".

"أعطاك ألفاً لتبقي فمك مغلقاً، ولكي لا تجيب عن أي أسئلة".

"هذا صحيح".

"هذا مثير للاهتمام".

"سألتقيه مجدداً بعد ثلاثة أيام. يريد أن يعرف عندها إن كان بمقدورنا توفيرها له".

"نحن؟".

"نعم، حسناً...".

"تعني إذا كان بمقدوري أنا توفيرها له".

"طبعاً، لكن...".

"كم سيدفع لك مقابل هذا؟".

صمت سفير قليلاً ثم قال: "عشرة آلاف".

"سأحصل على مثلها؛ أي عشرة آلاف، إذا نجحت الصفقة. هل فهمت؟".

"فهمت".

"إذاً، لماذا سيدفع لك عشرة آلاف؟".

"لأبقي فمي مغلقاً".

وحين وضع سفير سمّاعة الهاتف في مكانها، لم يكن يشعر بأصابع قدميه. كان بحاجة إلى حذاء جديد. وقف ساكناً من دون حراك وهو يمعن النظر إلى علبة لفائف تبغ فارغة كانت الريح قد رفعتها في الجو، وصارت تطير بين السيارات في اتجاه ستورغاتا.

بيتزا هربرت. 15 تشرين الثاني 1999

ترك الرجل العجوز باب مطعم بيتزا هربرت يُغلق خلفه، ووقف على الرصيف وانتظر. تجاوزته امرأة باكستانية تغطي رأسها بوشاح وتدفع أمامها عربة أطفال. ثم مرّت سيارات بسرعة أمامه، ورأى انعكاس صورته يتموّج على نوافذها، وعلى الألواح الزجاجية الكبيرة في مطعم البيتزا خلفه. إلى يسار المدخل، كان هناك رمز نصارى أبيض كبير ملصقٌ على النافذة التي يبدو أن أحداً قد حاول كسرها من الخارج. كان شكل الشقوق البيضاء في الزجاج يبدو مثل شبكة عنكبوت. ومن خلف الزجاج استطاع رؤية سفير أولسن وهو لا يزال جالساً إلى الطاولة حيث كانا قد اتفقا على التفاصيل: بعد خمسة أسابيع، عند مرفأ الحاويات، على الرصيف 4، عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، كلمة السر: أنجل ساوند؛ عنوان أغنية شعبية على الأرجح، لم يكن قد سمعها قطّ، لكن العنوان كان مناسباً. لسوء الحظ، لم يكن السعر مناسباً جداً: 750,000 كرون نرويجي، لكنه لن يناقش ذلك. كان السؤال آنذاك: هل سيلتزمون بالصفقة أم سيسرقونه في ميناء الحاويات؟ كان قد اعتمد على شعور الشاب النازي الجديد بالولاء بعد أن أخبره أنه قاتل على الجبهة الشرقية، لكنه لم يكن واثقاً إن كان قد صدّقه، أو إن كان ذلك يمثّل أي فرق. كان قد لفّق قصة عن المكان الذي خدم فيه تحسباً من طرح الشاب الأسئلة، لكن هذا الأخير لم يفعل ذلك.

مرّت عدّة سيارات أخرى. كان سفير أولسن قد بقي في مطعم البيتزا، لكن شخصاً آخر كان قد نهض ومشى متثاقلاً نحو الباب في تلك اللحظة. تذكّره الرجل العجوز، فقد كان موجوداً هناك في المرّة الماضية أيضاً، وقد راقبهما في ذلك اليوم طوال الوقت. فُتح الباب. انتظر. توقفت حركة السير، وسمع ذلك الرجل يتوقف خلفه، ثم يتكلم.

"حسناً، هذا أنت؟".

كان الصوت خشناً وذا نبرة خاصة جداً لا تنجم إلا عن سنوات من الإدمان على الشراب، والتدخين، وقلّة النوم.

سأل الرجل العجوز من دون أن يستدير: "هل أعرفك؟".

"أظن ذلك، نعم".

أدار الرجل العجوز رأسه إلى الخلف، ونظر إليه بتمعّن، ثم أشاح وجهه بعيداً.

"لا يمكنني القول إنني أعرفك".

"يا الله! أليس بإمكانك أن تتعرّف إلى رفيق سلاح قديم؟".

"أي سلاح؟".

"قاتلنا من أجل القضية نفسها، أنا وأنت".

"إذا كان هذا ما تقوله. ماذا تريد؟".

سأل السكّير، وإحدى يديه خلف أذنه: "ماذا؟".

كرّر الرجل العجوز بصوتٍ أعلى هذه المرة: "سألتك ماذا تريد؟".

"آه، هناك غائب ومفقود. لا شيء غير معتاد في إجراء محادثة مع معارف قدامى، أليس كذلك؟ معارف لم ترهم منذ وقت طويل، وظننت أنهم أموات على وجه الخصوص".

استدار الرجل العجوز إلى الخلف قائلاً: "هل أبدو ميتاً؟".

حدق الرجل الذي يرتدي كنزة أيسلندية حمراء إليه بعينين زرقاوين لامعتين جداً بدتا مثل كرتي مرمر فيروزيتين. كان من المستحيل تخمين عمره؛ هل هو في العقد الرابع أم في العقد الخامس؟ لكن الرجل العجوز كان يعرف عمر السكّير بالضبط. وإذا ركّز، فقد يكون بمقدوره تذكّرَ تاريخ ميلاده. في أثناء الحرب كانوا يهتمّون كثيراً بذكرى ميلاد كلّ منهم.

تقدّم السكّير خطوة منه قائلاً: "لا، لا تبدو ميتاً. تبدو مريضاً نعم، لكنك لست ميتاً".

مدّ يداً ضخمة ومتسخة نحوه، وميّز الرجل العجوز رائحة العرق، والبول، والقيء الكريهة.

"ما الأمر؟ ألا تريد أن تصافح يد رفيق سلاح قديم؟". بدا صوته مثل حشرجة موت.

قال: "هكذا إذاً. سنتصافح الآن. إذا لم يكن هناك شيء آخر تتساءل عنه، فسأمضي في طريقي".

"آه، أتساءل، نعم". تمايل السكّير إلى الأمام والخلف، فيما كان يحاول التركيز على الرجل العجوز. "كنت أتساءل عمّا يفعله رجل مثلك في جحر مثل هذا. ليس غريباً جداً أن أتساءل عن هذا، أليس كذلك؟ حين شاهدتك هنا في المرة الماضية فكرت في أنك ضائع. لكنك جلست إلى طاولة ذلك الرجل الشرير الذي ينهال على الناس بمضرب كرة القاعدة، وتكلمت معه. وكنت جالساً هناك اليوم أيضاً...".

"نعم؟".

"كنت أفكر في أنني سأسأل أحد الصحفيين الذين يأتون إلى هنا عادة،

كما تعرف، إذا كانوا يعرفون ما يفعله رجل محترم مثلك مع مثل تلك الرفقة. إنهم يعرفون كل شيء. وما لا يعرفونه، يكتشفونه. مثلاً، كيف يُعقل أن يكون رجل ظنّ الجميع أنه مات في أثناء الحرب لا يزال حياً. باستطاعتهم الحصول على المعلومات بسرعة كبيرة. يعجبني ذلك".

حاول طقطقة أصابعه، ولكنه فشل.

"وهذا مذكور في الوثائق، كما تعرف".

تنهّد الرجل العجوز قائلاً: "هل هناك شيء يمكنني أن أساعدك على القيام به؟".

"هل أبدو أنني بحاجة إلى شيء ما؟". فتح السكّير ذراعيه وكشّر، فبدا فمه خالياً من الأسنان.

قال الرجل العجوز وهو ينظر حوله: "فهمت. لنمشِ قليلاً. لا أحب المشاهدين".

"نعم؟".

"لا أحب المشاهدين".

"أنت محقّ".

وضع الرجل العجوز يده برفق على كتف السكّير.

"لنذهب من هنا".

همهم السكّير بصوتٍ أجشٍ وهو يضحك: "تولَّ القيادة يا رفيق السلاح".

عبرا المدخل المقنطر إلى جانب بيتزا هربرت، حيث كان صف من الصناديق البلاستيكية الرمادية الكبيرة المدولبة المملوءة بالقمامة يحجب الرؤية من الشارع.

"لم تذكر لأحد أنك قد رأيتني، أليس كذلك؟".

"هل أنت مجنون؟ ظننت أنني أرى أشياءَ في البداية؛ ظننت أنني أرى شبحاً في وضح النهار، في هربرت!". انفجر ضاحكاً، لكن ذلك سرعان ما تحوّل إلى سعال رطب وقرقرة. فانحنى إلى الأمام، وأسند نفسه إلى الجدار حتى هدأ السعال، ثم شدّ قامته ومسح مادة لزجة عن طرفي فمه. "لا، لحسن الحظ، وإلا كانوا سيوصدون عليّ الأبواب".

"ما السعر المناسب لصمتك؟".

"آه، السعر المناسب، همم، نعم. رأيت القرد يأخذ ألفاً من صحيفتك...".

"نعم؟".

"بضعة آلاف منها ستفي بالغرض، هذا مؤكد".

"كم؟".

"حسناً، كم لديك؟".

تنهّد الرجل العجوز، ونظر حوله مرة أخرى ليتأكد من عدم وجود شهود، ثم فكّ أزرار معطفه ومدّ يده إلى داخله.

تجاوز سفير أولسن ساحة يونغ بخطوات واسعة وهو يحمل كيساً بلاستيكياً أخضر. كان قبل عشرين دقيقة يجلس في هربرت وهو مفلس تماماً، وهناك ثقوب في نعليه. وها هو الآن يمشي منتعلاً حذاءً عسكرياً جديداً لامعاً، فيه اثنتا عشرة حلقة معدنية على كل جانب، اشتراه من توب سيكرت في بوابة هنريك آبسنز. إضافة إلى ذلك، كان لديه مغلف لا يزال يحتوي على ثمانية آلاف كرون جديدة، وسيحصل على عشرة أخرى في المستقبل القريب. كان غريباً كيف تتغير الأمور بين لحظة وأخرى. ففي الخريف، كان على وشك تمضية ثلاث سنوات في السجن، إلى أن أدرك محاميه أن السيدة البدينة مستشارة القاضي كانت قد أقسمت في المكان الخطإ.

كان مزاج سفير جيداً إلى درجة أنه قرّر دعوة هالي، وغريغرسن، وكفينست إلى طاولته. سيشتري لهم شراباً، وسيرى كيف ستكون ردود أفعالهم. نعم، سيفعل ذلك بالتأكيد!

تجاوز بوابة بلونس، ومرّ من أمام امرأة باكستانية تدفع عربة أطفال، فابتسم لها بكل بساطة. في طريقه إلى باب مطعم هربرت فكّر في قرارة نفسه أنه لا فائدة ترجى من حمل كيس بلاستيكي يحتوي حذاءً بالياً. عبر المدخل المقنطر، ورفع غطاء أحد صناديق القمامة المدولبة ورمى الكيس البلاستيكي فيه. وفي أثناء مغادرته أثارت انتباهه ساقان تبرزان من بين صندوقين في الخلف. نظر حوله. لا أحد في الشارع. لا أحد في الزقاق. من هذا؟ أهو مدمن على الشراب؟ أم هو مدمن ممنوعات؟ اقترب منه. كانت الصناديق قد جُمّعت قرب بعضها حيث تبرز الساقان. شعر بنبضه يتسارع؛ إذ يصبح مدمنو الممنوعات مزعجين جداً إذا عكّرت عليهم صفوهم. تراجع سفير خطوات إلى الخلف وركل أحد الصناديق الجانبية.

"آه، تباً".

لم يكن قد سبق لسفير أولسن، الذي كاد أن يقتل شخصاً يوماً أن رأى ميتاً من قبل فشعر بأن ساقيه تكادان تنهاران تحته؛ وهذا أمر غريب. كان الرجل الذي يستند إلى الجدار، وكل واحدة من عينيه تحدّق

إلى اتجاه، ميتاً بالتأكيد، وكان سبب الوفاة واضحاً. فلقد أشار الجرح الأحمر في عنقه إلى أنّ أحدهم قد حزّ حنجرته. وبالرغم من أن الدم كان يسيل ببطء آنذاك، إلا أنه نزف بغزارة في البداية؛ لأن كنزة الرجل الأيسلندية الحمراء كانت مبللة ولزجة. شمّ سفير رائحة النفايات والبول الكريهة والقوية، وتذوّق طعم الصفراء (عصارة الكبد المرّة) والبيتزا. بعد ذلك، وقف مستنداً إلى الصناديق، ثم تقيّأ على الإسفلت. أصبحت مقدمة حذائه الجديد صفراء من القيء، لكنه لم يلاحظ ذلك. كانت عيناه ثابتتين على الجدول الأحمر الصغير الذي يلمع في الظلام في طريقه إلى أكثر الأماكن انخفاضاً في الزقاق الخلفي.

لينينغراد. 17 كانون الثاني 1944

جأرت مقاتلة ياك - 1 الروسية فوق رأس إدوارد موسكن حين كان يجري على طول الخندق، وهو ينحني كثيراً.

عموماً، لم تكن المقاتلات تُحدث ضرراً كبيراً، وبدا أن القنابل قد نفدت من الروس. كان آخر ما سمعه هو أنهم قد زوّدوا الطيّارين بقنابل يدوية، وأن هؤلاء يحاولون إلقاءها على الخنادق في أثناء طيرانهم فوقها.

كان إدوارد في القطاع الشمالي، وقد توجّه إلى هناك لإحضار الرسائل للرجال، ولمعرفة آخر الأنباء. كان الخريف كله سلسلة واحدة وطويلة من تقارير محبطة عن خسائر وتقهقر على طول الجبهة الشرقية. فقد استردّ الروس كييف في تشرين الثاني، وفي تشرين الأول تفادى الجيش الألماني بشق الأنفس حصاراً شمالي البحر الأسود. لم يكن الوضع سيصبح أسهل مع إرسال هتلر المزيد من القوات إلى الجبهة الغربية، لكن ما سمعه إدوارد في ذلك اليوم أثار في نفسه قلقاً عميقاً. قبل يومين، كان الفريق غوسيف قد شنّ هجوماً شرساً من أورانينباوم على الطرف الجنوبي للخليج الفنلندني. تذكّر إدوارد أورانينباوم؛ لأنها كانت رأس جسر صغير اجتازوه في طريقهم إلى لينينغراد. كانوا قد تركوا الروس يحتفظون بها؛ لأنها لم تكن ذات أهمية استراتيجية. استطاع الروس آنذاك حشد جيش كامل حول جبهة كرونستاد سراً، ووفقاً للتقارير، كانت مدافع الكاتيوشا تقصف دون هوادة مواقع ألمانية. أصبحت غابات الصنوبر الكثيفة سابقاً حطباً، وصحيح أنهم كانوا يسمعون الموسيقى من مدفعية ستالين بعيدة منذ عدّة أيام، لكن لم يخمّن أحد أن الأمور سيئة إلى هذا الحدّ.

كان إدوارد قد انتهز الفرصة في أثناء الرحلة للذهاب إلى المستشفى الميداني لزيارة أحد رجاله الذي كان قد فقد قدمه بسبب لغم أرضي في الأرض التي لا يسيطر أحد عليها، لكن الممرضة، وهي امرأة أستونية ضئيلة الحجم، يظهر الألم في عينيها الزرقاوين الداكنتين مما يجعلها تبدو وكأنها تضع قناعاً، كانت قد هزّت رأسها فقط وقالت الكلمة الألمانية التي تدرّبت عليها كثيراً على ما يبدو: "موت".

لا بدّ من أن إدوارد بدا بائساً؛ لأنها حاولت التخفيف عنه وأشارت إلى سرير آخر كان عليه مريض نرويجي.

وقالت مبتسمة: "حياة". لكن الأسى كان لا يزال بادياً في عينيها.

لم يعرف إدوارد الرجل النائم في السرير. لكنه عندما لمح السترة

الجلدية البيضاء اللامعة المعلّقة فوق الكرسي، عرف من يكون: إنه قائد السرية ليندفيغ نفسه، من فوج نورج؛ أي النرويج. إنه أسطورة، وها هو يقبع هنا الآن. قرّر ألا ينقل هذا النبأ إلى الرجال.

جأرت مقاتلة أخرى فوق رؤوسهم. من أين كانت كل تلك الطائرات تأتي فجأة؟ في السنة الماضية بدا أن الروس ليس لديهم أي طائرة.

دار حول زاوية، ورأى هالغريم ديل يقف منحنياً وظهره إليه.

"ديل!".

لم يتحرك ديل. فبعد أن أفقدته قذيفة في تشرين الثاني الماضي وعيه، لم يعد هيل يسمع جيداً. ولم يعد يتكلم كثيراً أيضاً، وكان يبدو شارداً وانطوائياً مثل كل الرجال الذين يُصابون بصدمة قذائف. في البداية، كان ديل قد اشتكى من صداع، لكن الممرض الذي فحصه قال إنهم لا يستطيعون فعل الكثير، وإن بمقدورهم فقط الانتظار لرؤية ما إن كان سيتعافى. فقد كان النقص في الرجال المقاتلين كبيراً جداً من دون إرسال الأصحاء منهم إلى المستشفى الميداني.

وضع إدوارد ذراعه حول كتف ديل. فاستدار ديل فجأة، وبقوة كبيرة جعلت إدوارد يفقد توازنه على الجليد الذي كان قد أصبح رطباً وزلقاً في الشمس. إنه شتاء معتدل على الأقل؛ فكّر إدوارد. كان عليه أن يضحك حين استلقى هناك على ظهره، لكن الضحكة تلاشت حين نظر نحو الأعلى إلى ماسورة بندقية ديل.

صرخ ديل: "كلمة السر!". رأى إدوارد عيناً مفتوحة تبدو من فوق البندقية.

"مهلاً، هذا أنا، ديل".

"كلمة السر!".

"أبعد تلك البندقية! بالله عليك، هذا أنا، إدوارد!".

"كلمة السر!".

"كومة فحم (غلوتهوفن)".

ازداد شعور إدوارد بالخوف حين رأى إصبع ديل تتكوّر حول الزناد. ألا يسمع؟

صرخ بكل القوة في رئتيه: "غلوتهوفن! غلوتهوفن".

"هذا خطأ! سأقتلك!".

يا الله! كان الرجل مجنوناً! في لحظة ما أدرك إدوارد أنهم قد غيروا كلمة السر في ذلك الصباح، بعد أن ذهب إلى القطاع الشمالي. زادت إصبع

ديل الضغط على الزناد، لكنه لم يفعل أكثر من ذلك. كان هناك تغضن غريب فوق عينه. ثم حرّر قفل الأمان وضغط على زناد البندقية مجدداً. هل كان الأمر سينتهي على تلك الحال؟ كان قد نجا حتى ذلك الوقت، لكن هل سيموت برصاصة يطلقها جنديّ أصابته قذيفة بصدمة. حدّق إدوارد إلى الماسورة السوداء، وانتظر شعلة الإطلاق. هل سيراها حقاً؟ يا للهول! تجاوز بصره البندقية إلى السماء الزرقاء فوقهما حيث كانت مقاتلة روسية تطير عالياً. كانت عالية جداً بحيث لا يستطيعان سماعها، ثم أغمض عينيه.

صرخ شخص قربهما: "أنجل ساوند (إنغلستم)".

فتح إدوارد عينيه ورأى ديل يرمش مرتين. كان غدبراند قد وضع رأسه إلى جانب رأس ديل وصرخ في أذنه: "إنغلستم!".

أخفض ديل بندقيته، ثم كشّر في وجهه وأومأ، وكرّر: "إنغلستم!".

أغمض إدوارد عينيه مجدداً وتنفّس الصعداء.

سأل غدبراند: "هل هناك أي رسائل؟".

كافح إدوارد للوقوف على قدميه وسلّم غدبراند الرزمة. كان ديل لا يزال يحتفظ بتلك التكشيرة على شفتيه، لكن عينيه الخاويتين كانتا لا تزالان على حالهما. أمسك إدوارد ماسورة بندقية ديل ووقف أمامه.

"هل هناك أحد في الديار يا ديل؟".

كان يقصد أن يقول ذلك بصوته العادي، لكن كل ما خرج من فمه كان همساً أجشّ.

قال غدبراند، وهو يقلّب الرسائل: "إنه لا يسمع".

قال إدوارد وهو يلوّح بيده أمام وجه ديل: "لم أكن أدرك أنه مريض جداً".

"يجب أن لا يكون هنا. هذه رسالة من أسرته. أرِه إياها، وسترى عندها ما أعنيه".

أمسك إدوارد الرسالة ورفعها أمام وجه ديل، لكنها لم تُثر لديه أي رد فعل باستثناء ابتسامة عابرة. ثم استغرق في دهشته الأبديّة، أو أياً كان ذاك الذي يلفت انتباهه هناك.

قال: "أنت محق. إنه غارق في تلك الحالة".

مرّر غدبراند رسالة إلى إدوارد، وسأل: "كيف هي الأمور في الوطن؟".

قال إدوارد وهو يحدّق إلى الرسالة: "أوه، أنت تعرف...".

لم يكن غدبراند يعرف؛ لأنه وإدوارد لم يتكلما مع بعضهما منذ الشتاء

الماضي. كان ذلك غريباً، لكن حتى هناك، في تلك الظروف، كان بمقدور شخصين تفادي بعضهما بعضاً بسهولة إذا رغبا في ذلك. لم يكن ذلك يعني أن غدبراند يكره إدوارد؛ وإنما على العكس من ذلك، كان يحترم هذا الرجل القادم من ميوندال ويعتبره شخصاً ذكياً، وجندياً شجاعاً، وسنداً للرجال اليافعين الجدد في القطاع. في الخريف، كانوا قد منحوا إدوارد رتبة شارفوهرر، التي توازي رتبة رقيب في الجيش النرويجي، لكن مسؤولياته بقيت على حالها. حينها، قال إدوارد مازحاً إنه حصل على الترقية لأن كل الآخرين قد لقوا حتفهم، لهذا كان لديهم الكثير من قبعات الرقباء الإضافية.

كان غدبراند قد فكّر دائماً في أنه في ظل ظروف مختلفة ربما كانا سيصبحان صديقين حميمين. على أي حال، كان ما حدث في الشتاء الماضي - فرار سندر، وظهور جثة دانيال مجدداً على نحو غامض - قد بقي قضية عالقة بينهما.

حطّم صوت انفجار بعيد مكتوم الصمتَ، تبعه صوت قعقعة رشّاشات.

قال غدبراند بصيغة سؤال أكثر من كونه بياناً: "المقاومة تشتد؟".

قال إدوارد: "نعم. إنه هذا الطقس المعتدل اللعين. تعلق شاحنات إمداداتنا في الطين".

"هل سنضطر إلى الانسحاب؟".

دفع إدوارد كتفيه إلى الأمام قائلاً: "ربما بضعة كيلومترات، لكننا سنعود".

حجب غدبراند عينيه بيده ونظر إلى الجنوب. لم تكن لديه رغبة في العودة. أراد أن يعود إلى منزله ليرى إن كانت لا تزال لديه حياة هناك.

سأل: "هل رأيت اللافتة النرويجيّة الموجودة عند التقاطع خارج المستشفى الميداني، التي رُسِم عليها صليب أحمر، وذراع تشير نحو الطريق إلى الشرق، وكُتب عليها: لينينغراد خمسة كيلومترات؟".

أومأ إدوارد.

"هل تتذكر ما كتب على الذراع التي تشير إلى الغرب؟".

قال إدوارد: "أوسلو. 2611 كيلومتراً".

"إنها طريق طويلة".

"نعم، إنها طريق طويلة".

كان ديل قد ترك بندقيته مع إدوارد، وجلس على الأرض، ويداه مطمورتان في الثلج أمامه. كان رأسه متدلياً مثل هندباء ذابلة بين كتفيه

الهزيلتين. سمعوا انفجاراً آخر، أقرب هذه المرة.
"شكراً جزيلاً".
قال غدبراند بسرعة: "لا داعي للشكر".
قال إدوارد: "رأيت أولاف ليندفيغ في المستشفى". لم يعرف لماذا قال ذلك. ربما لأن غدبراند كان الشخص الوحيد في القطاع، بالإضافة إلى ديل، الذي بقي هناك وقتاً طويلاً مثله.
"هل هو...؟".
"إنه مصاب بجرح طفيف، كما أظن. رأيت بزّته البيضاء".
"إنه رجل جيد، كما سمعت".
"نعم، لدينا الكثير من الرجال الجيدين".
وقفا وهما ينظران إلى بعضهما بصمت.
سعل إدوارد ودفع يده في جيبه. "حصلت على بعض لفائف التبغ الروسية من القطاع الشمالي. إذا كانت لديك أعواد ثقاب...".
أومأ غدبراند، وفكّ أزرار سترته المموهة، ثم أخرج أعواد الثقاب وأشعل واحداً على الورق المرمّل. وعندما رفع بصره إلى الأعلى، كان أول ما رآه هو عين إدوارد الواسعة. كانت تحدّق من فوق كتفه، ثم سمع الصياح.
صرخ إدوارد: "انبطحا!".
في اللحظة التالية، كانوا مستلقين على الجليد، وجأرت السماء فوقهم بصوتٍ يصم الآذان. لمح غدبراند الجزء الخلفي من مقاتلة روسية كانت تحلّق على ارتفاع منخفض جداً فوق الخنادق، حتى إن الثلج تطاير من حولهم نحو الأعلى، ثم اختفت بعد ذلك، وساد الهدوء مجدداً.
همس غدبراند: "حسناً، أنا...".
تأوه إدوارد وهو يستدير إلى جانبه ويبتسم لغدبراند: "يا للهول!".
"رأيت الطيّار. لقد فتح النافذة وأخرج جسده من القمرة. لقد جُنّ الروس". كان يلهث من شدّة الضحك. "الأمر يصبح مثل الأيام الماضية".
حدّق غدبراند إلى عود الثقاب المكسور الذي لا يزال يمسكه في يده، ثم بدأ يضحك أيضاً.
تابع ديل: "ها، ها". ونظر إلى الرجلين الآخرين من حيث يجلس عند طرف الخندق. "هي، هي".
نظر غدبراند إلى عين إدوارد وبدأ كلاهما يقهقهان. ضحكا كثيراً حتى صارا يلهثان طلباً للهواء. في البداية، لم يسمعا الصوت الغريب وهو يقترب

منهما.

تك... تك...

بدا أن أحداً يضرب بتأنٍ الجليد بمجرفة.

تك...

ثم سمعا صوتاً ناجماً عن ارتطام معدن بمعدن آخر. وحين استدار غدبراند وإدوارد شاهدا ديل يقع فوق الثلج وقد أغمي عليه.

شرع غدبراند بالقول: "ماذا...".

صرخ إدوارد: "قنبلة يدوية!".

تصرف غدبراند على نحو فطريّ بعد سماعه صرخة إدوارد، فتكوّر فوق الثلج. لكن عندما استلقى هناك، رأى مسمار الأمان الذي كان يدور على بعد متر عنه. كانت هناك كتلة معدنية متصلة بأحد طرفيه. شعر بجسده يتجمّد في الجليد حين أدرك ما كان على وشك أن يحدث.

صرخ إدوارد خلفه: "ابتعد من هنا!".

كان ذلك حقيقياً. فقد كان الطيّارون الروس يلقون فعلاً قنابل يدوية من الطائرات. استلقى غدبراند على ظهره، وحاول الابتعاد عن المكان، لكن ذراعيه وساقيه كانت تنزلق فوق الجليد الرطب.

"غدبراند!".

كان الصوت الغريب صادراً عن قنبلة يدوية راحت تثب فوق الجليد إلى أن استقرّت في قاع الخندق. لا بدّ من أنها قد أصابت ديل في الخوذة مباشرة!

"غدبراند!".

دارت القنبلة اليدوية حول نفسها، قفزت وتدحرجت مجدداً، ولم يستطع غدبراند أن يشيح ناظريه عنها. هناك أربع ثوانٍ بين نزع مسمار الأمان وحصول الانفجار، ألم يكن ذلك ما تعلّموه في سنهايم؟ قد تكون القنابل اليدوية الروسية مختلفة. ربما كانت ست؟ أو ثمانٍ؟ رسمت القنبلة اليدوية دوائر حول نفسها، مثل الحلقات الحمراء الكبيرة التي كان والده قد صنعها له في بروكلين. كان غدبراند يجعلها تدور، فيما يقف سوني وشقيقه الأصغر وهما يراقبان، ويعدّان المرات التي يكرّر فيها تلك الحركة: "إحدى وعشرون، اثنتان وعشرون...". نادت الأم من النافذة في الطابق الثاني لتقول إن العشاء جاهز. كان يجب عليهم أن يدخلوا المنزل، فوالدهم سيعود في أي لحظة. صرخ: "دقيقة فقط، الحلقات تدور!". لكنها لم تسمع؛ لأنها كانت قد أغلقت النافذة حينها. لم يعد إدوارد يصرخ آنذاك، وأطبق

السكون فجأة.

22

عيادة الطبيب بوير. 22 كانون الأول 1999

نظر الرجل العجوز إلى ساعته. كان يجلس آنذاك في غرفة الانتظار منذ ربع ساعة. لم يسبق له قطّ أن انتظر كونراد بوير؛ إذ لم يكن كونراد يستقبل مرضى أكثر مما يمكن له معاينتهم في الوقت المخصص لكل منهم.

كان هناك رجلٌ يجلس في الطرف الآخر من الغرفة. إنّه إفريقي داكن البشرة. كان يقلّب أوراق مجلة أسبوعية، وعرف الرجل العجوز أنّه بمقدوره من تلك المسافة قراءة كل حرف في الصفحة الأولى. إنه شيء عن الأسرة المالكة. هل كان ذلك ما يقرأه هذا الإفريقي في أثناء جلوسه؟ هل يقرأ مقالاً عن الأسرة المالكة النرويجية؟ كانت الفكرة سخيفة.

قلب الإفريقي الصفحة. كان لديه شارب من النوع الذي يتدلّى عند طرفيه، مثل المهرّب الذي كان الرجل العجوز قد التقاه في الليلة الماضية. كان اجتماعاً قصيراً، فقد وصل المهرّب إلى ميناء الحاويات بواسطة سيارة فولفو؛ مستأجرة على الأرجح. كان قد توقف، وانخفضت النافذة بسرعة وقال كلمة السر: أنجل ساوند. قال مباشرة إن السلاح ليس معه في السيارة لأسباب أمنية، لكنهما سينتقلان إلى مكان ما للحصول عليه. كان الرجل العجوز قد تردّد، ثم فكّر: لو أنهم أرادوا سرقته لكانوا قد فعلوا ذلك في ميناء الحاويات؛ لهذا صعد إلى السيارة، وانطلقا إلى فندق راديسون ساس، من بين كل الأماكن في هولبرغز بلاس. كان قد رأى بتي أندرسن خلف المنضدة في أثناء مرورهم بمنطقة الاستقبال، لكنها لم تكن قد نظرت في اتجاههما.

كان المهرّب قد عدّ النقود الموجودة في الحقيبة وهو يغمغم بالألمانية، ثم طرح عليه الرجل العجوز سؤالاً. كان المهرّب قد قال إن والديه جاءا من مكان ما في الألزاس، وردّ عليه الرجل العجوز قائلاً إنه كان هناك في سنهايم. سرت القشعريرة في جسده.

بعد أن كان قد قرأ الكثير من المعلومات عن بندقية ماركلين عبر شبكة الإنترنت في مكتبة الجامعة، لم يعد السلاح نفسه يثير اهتمامه كثيراً. بدت مثل بندقية صيد عادية، لكنها أكبر قليلاً. كان المهرّب قد علّمه كيفيّة تجميعها وتفكيكها، ودعاه السيد أوريا كما طلب منه. ثم وضع الرجل العجوز البندقية المفكّكة في حقيبة كبيرة تُحمل على الكتف، واستقل المصعد نزولاً إلى منطقة الاستقبال. كان قد فكّر للحظة وجيزة في أن يذهب إلى بتي أندرسن ويجعلها تطلب له سيارة أجرة. سرت في جسده

قشعريرة أخرى.

"مرحباً!".

رفع الرجل العجوز ناظريه.

"أظن أننا يجب أن نُجري لك اختبار سمع أيضاً".

وقف د. بوير عند المدخل، وحاول رسم ابتسامة بشوشة على وجهه، ومشى أمامه إلى العيادة. كان الانتفاخان تحت عيني الطبيب قد أصبحا أكبر حجماً.

"ناديت اسمك ثلاث مرات".

نسيت اسمي. فكّر الرجل العجوز في سرّه. نسيت كل أسمائي. استنتج الرجل العجوز من يد الطبيب التي امتدت لتساعده أن هناك أنباء سيئة.

قال بسرعة، قبل أن يستقر على كرسيه: "حسناً، لقد حصلت على نتائج العيّنات التي أخذناها". كان يبدو أنه يريد أن يخبره بالأنباء السيئة وينتهي من ذلك في أسرع وقت ممكن. "وأخشى أنه قد انتشر".

قال الرجل العجوز: "لقد انتشر طبعاً. أليس ذلك ما تفعله خلايا السرطان؟ تنتشر؟".

"نعم، هذا صحيح". مسح د. بوير بقعة غير مرئية من الغبار عن الطاولة.

قال الرجل العجوز: "السرطان مثلنا، يفعل ما يجب أن يفعله".

قال د. بوير: "نعم". بدا مسترخياً بطريقة متكلّفة في وضعية جلوسه المترهّلة.

"تعجبني أيها الطبيب؛ فأنت تفعل ما يجب عليك فعله".

"أنت محق، محق تماماً". ابتسم د. بوير ووضع نظارته. "لا نزال نفكّر في المعالجة الكيميائية. ستُضعفك، لكنها قد تطيل...".

"حياتي؟".

"نعم".

"كم من الوقت بقي لي من دون علاج كيميائي؟".

تحرّكت تفاحة آدم بوير صعوداً وهبوطاً. "أقل قليلاً مما كنا قد قدّرنا في بادئ الأمر".

"يعني؟".

"يعني أن السرطان قد انتشر من الكبد عبر مجرى الدم إلى -".

"بالله عليك، هلاّ أخبرتني عن المدة فحسب".

حدّق د. بوير إليه من دون أي انفعال.

قال الرجل العجوز: "أنت تكره هذا العمل، أليس كذلك؟".

"عفواً؟".

"لا شيء. حدّد وقتاً، من فضلك".

"مستحيل أن -".

قفز د. بوير عن كرسيه حين ضربت قبضة الرجل العجوز سطح الطاولة بقوة جعلت سمّاعة الهاتف تقفز من مكانها. فتح فمه ليقول شيئاً، لكنه توقف حين رأى سبّابة الرجل العجوز ترتعش. ثم تنهّد، وخلع نظارته ومرّر يداً متعبة فوق وجهه.

"هذا الصيف. في شهر حزيران، وربما أقرب. آب على أبعد تقدير".

قال الرجل العجوز: "رائع. سيكون هذا كافياً. والألم؟".

"قد ينتابك في أي وقت. ستحصل على دواء".

"هل سيكون بمقدوري العمل؟".

"من الصعب معرفة هذا؛ فهذا الأمر يعتمد على الألم".

"يجب أن أحصل على دواء يجعلني قادراً على العمل. هذا مهم. هل تفهم؟".

"كل المسكّنات -".

"يمكنني تحمل ألم فظيع. أحتاج ببساطة إلى شيء يبقيني واعياً؛ حتى أفكّر وأتصرف بعقلانية".

ميلاد سعيد. كان ذلك آخر شيء قاله د. بوير. وقف الرجل العجوز على الدرج. لم يفهم في البداية لماذا تمتلئ المدينة بالناس. لكن، حين تذكّر هذه المناسبة الوشيكة رأى الهلع في عيون الناس الذين يندفعون على طول الأرصفة؛ بحثاً عن الهدايا في اللحظة الأخيرة. كان بعض المتسوقين قد تجمّعوا حول فرقة موسيقية تعزف في ساحة إيغر. كان هناك رجل يرتدي بزّة جيش الخلاص يطوف عليهم حاملاً علبة لجمع المال. داس مدمن ممنوعات على قدمه في الثلج، وكانت عيناه تلمعان مثل شمعتين على وشك أن تنطفئا. تجاوزته مراهقتان متورّدتا البشرة تشبكان ذراعاً بذراع، وتسردان قصصاً عن فتية، وتتوقعان كيف سيكون مستقبلهما. كانت هناك شموع قرب كل نافذة لعينة. رفع وجهه إلى سماء أوسلو، ورأى قبة ذهبية من ضوء ينعكس من المدينة. يا الله! كم يشتاق إليها. فكّر في سرّه: الميلاد على الأبواب، سنحتفل معاً في مناسبات الميلاد الآتية، يا عزيزتي.

القسم الثالث

مستشفى رودولف الثاني، فيينا. 7 حزيران 1944

مشت هيلينا لانغ بخطوات سريعة وهي تدفع عربة نحو الجناح 4. كانت النوافذ مفتوحة فاستنشقت الهواء حتى ملأت رئتيها ورأسها برائحة العشب النضر الذي جُزّ حديثاً. لم تكن هناك رائحة موت ودمار في ذلك اليوم. مرّت سنة منذ أن قُصفت فيينا للمرة الأولى. كانوا يتعرضون للقصف كل ليلة في الأسابيع الأخيرة، عندما كان الطقس صافياً. وبالرغم من أن مستشفى رودولف الثاني كان يبعد بضعة كيلومترات عن وسط المدينة، ويرتفع عالياً في غابات فيينا الخضراء، إلا أن رائحة الدخان الكريهة الناجمة عن النيران المشتعلة في المدينة كانت قد طغت على كل روائح الصيف الأخرى.

انعطفت هيلينا عند الزاوية، وابتسمت للدكتور بروكهارد، الذي بدا أنه يرغب في التوقف والحديث معها، ثم حثّ الخطى. كان بروكهارد، بعينيه القاسيتين اللتين تحدّقان دائماً إلى المرء من خلف النظارة، يجعلها دائماً عصبية ومضطربة عندما يلتقيان وجهاً لوجه. كان ينتابها إحساس بين الحين والآخر أن تلك اللقاءات في الرواق لم تكن بمحض المصادفة. كانت والدتها ستواجه على الأرجح مشكلات تنفسية لو رأت الطريقة التي تتفادى بها هيلينا الطبيب الشاب الواعد، خاصة وأن بروكهارد ينحدر من أسرة مرموقة في فيينا. على أيّ حال، لم تكن هيلينا تحب بروكهارد أو أسرته، ولا محاولات والدتها لاستخدامها كتذكرة للعودة إلى الدوائر المخملية في المجتمع. ألقت والدتها اللومَ على الحرب في ما كان قد حدث. كان عليها أن تلوم والد هيلينا، هنريك لانغ، الذي خسر مُقرضيه اليهود على نحو مفاجئ، ومن ثَمّ لم يعد قادراً على تسديد المال لدائنيه وفقاً لما هو متفق عليه. كانت الأزمة المالية قد جعلته يرتجل حلولاً، فجعل مصرفييه اليهود ينقلون ملكية سنداتهم التي كانت الدولة النمساوية قد صادرتها إليه. والآن، أصبح هنريك لانغ في السجن؛ لأنه تآمر مع اليهود؛ أعداء الدولة.

كانت هيلينا، بخلاف والدتها، تفتقد إلى والدها أكثر مما تفتقد إلى الحالة الاجتماعية التي كانت أسرتها تنعم بها. فهي لم تفتقد إلى الحفلات، وسن المراهقة، والأحاديث السطحية، والمحاولات المستمرة لتزويجها من أحد الفتيان الأثرياء المدلّلين.

نظرت إلى ساعة معصمها وحثّت الخطى. كان من الواضح أن عصفوراً صغيراً قد دخل المبنى من إحدى النوافذ المفتوحة، وها هو يجلس بهدوء

على أحد المصابيح نصف الدائرية التي تتدلى من السقف العالي مغرّداً.

كانت هيلينا في بعض الأيام تجد صعوبة في تصديق أن حرباً تستعر في الخارج! وقد يكون ذلك بسبب الغابة التي تحجب، بصفوفها المتزاحمة من أشجار الصنوبر، رؤية كل الأشياء التي لا يرغبون في مشاهدتها. على أيّ حال، إذا ذهبت إلى الأجنحة، فستعرف بسرعة أن السلام مجرد وهم؛ حيث كان الجنود الجرحى بأجسادهم المشوّهة ونفسياتهم المحطّمة ينقلون الحرب إليهم. كانت في البداية قد استمعت إلى قصصهم، واقتنعت تقريباً أنها بقوتها الذهنية وإيمانها يمكن أن تساعدهم على التغلب على تعاستهم.

ولكن، بدا أنهم جميعاً يسردون الكابوس نفسه، ويخبرونها أن الإنسان يمكن أن يتحمّل، ويجب عليه ذلك، كما يخبرونها عن الانحطاط الذي تنطوي عليه ببساطة الرغبة في العيش. وحدهم الموتى لا يصابون بأذى؛ لهذا توقفت هيلينا عن الإصغاء إليهم. تظاهرت بأنها تستمع في أثناء تغيير الضمادات، وتفقّد الحرارة، ومنحهم الدواء أو الطعام. وعندما كانوا ينامون، كانت تحاول ألا تنظر إليهم؛ لأن وجوههم تستمر حينها في سرد قصصهم. كان بمقدورها رؤية المعاناة على الوجوه الصبيانية الشاحبة، والوحشية على الوجوه القاسية، والرغبة في الموت في ملامح رجل يعتصر الألم وجهه؛ إذ كان قد اكتشف آنذاك أنهم سيبترون قدمه.

وبالرغم من ذلك، كانت تمشي في ذلك اليوم بخطوات سريعة ورشيقة؛ ربما لأنه فصل الصيف، وربما لأن طبيباً أخبرها أنها تبدو جميلة جداً في ذلك الصباح، أو ربما لأن المريض النرويجي في الجناح 4 سيقول لها قريباً صباح الخير (غتن مورغن) بلغته الألمانية، ثم سيتناول طعام الفطور وهو يراقبها عن كثب في أثناء انتقالها من سرير إلى آخر، وهي تخدم المرضى الآخرين، وتقول بضع كلمات تشجيع لكل منهم. كانت تلقي نظرة إلى الخلف نحوه بعد أن تمرّ على خمسة أسرّة أو ستة أسرّة. وإذا ابتسم لها كانت تبتسم له بسرعة، وتتابع عملها وكأن شيئاً لم يحدث. لا شيء، لكنها كانت تشعر بكلّ شيء. كانت ذكرى تلك اللحظات القصيرة هي التي تجعلها تمضي قدماً آنذاك، وهي التي جعلتها تضحك حين سأل النقيب هادلر - المصاب بحروق شديدة ويقبع في سرير إلى جانب الباب - مازحاً إن كانوا سيرسلون له قريباً أعضاءه الحسّاسة من الجبهة الشرقية.

فتحت باب الجناح 4. كان ضوء الشمس الذي يغمر الغرفة يجعل كل شيء أبيض لامعاً: الجدران، والسقف، والملاءات.

"غتن مورغن، هيلينا".

ابتسمت له. كان يجلس على كرسي إلى جانب السرير وهو يقرأ كتاباً.

سألته ببشاشة: "هل نمت جيداً يا أوريا؟".

قال: "مثل دب".

"دب؟!".

"نعم. في... ماذا تقولون بالألمانية حين تنام الدببة كل الشتاء؟".

"آه، سُبات".

"نعم، سُبات".

ضحك كلاهما. كانت هيلينا تعرف أن المرضى الآخرين يراقبونهما. لم يكن يُفترض بها أن تقضي وقتاً معه أكثر من الآخرين.

"ورأسك؟ إنه الآن يتحسّن قليلاً كل يوم، أليس كذلك؟".

"نعم، بالفعل. إنه يتحسّن شيئاً فشيئاً. سأعود يوماً ما وسيماً كما كنت سابقاً، وسترين ذلك".

تذكّرت حين أحضروه إلى المستشفى. فقد بدا الأمر حينها مخالفاً لقوانين الطبيعة؛ إذ لا يمكن لأي شخص النجاة من ثقب أُصيب به في جبينه. أمسكت كوب الشاي الخاص به مع الإبريق، وكاد يقع منها.

"واو!". ضحك. "هل كنت ترقصين حتى وقت متأخر مساءَ أمس؟".

رفعت بصرها، ثم غمزها.

قالت: "نعم". وارتبكت لأنها كانت تكذب بشأن شيء سخيف.

"ماذا ترقصون هنا في فيينا؟".

"أعني، لا، لم أكن أرقص. لقد أويت إلى السرير في وقت متأخر".

"أنت ترقصين الفالس على الأرجح، أليس كذلك؟ فالس فيينا وغيره".

قالت، وهي تركّز على ميزان الحرارة: "نعم، أظن ذلك".

قال وهو ينهض: "هكذا". ثم بدأ يغني. نظر إليه الآخرون من أسرّتهم. كانت الأغنية بلغة غير مألوفة، لكن صوته كان رخيماً وجميلاً. ابتهج المرضى الذين يتماثلون إلى الشفاء، وضحكوا حين رقص في المكان بخطوات فالس صغيرة وحذرة، واهتز رداء المستشفى الفضفاض معه في أثناء ذلك.

صرخت بحزم: "عد إلى هنا يا أوريا، وإلا سأرسلك مباشرة إلى الجبهة الشرقية".

عاد مذعناً وجلس. لم يكن اسمه أوريا، وإنما كان الاسم الذي أصرّ على أن ينادوه به.

سأل: "هل تعرفين بولكا رينلاند؟".

"بولكا رينلاند؟!".

"إنها رقصة كنا قد اقتبسناها من الراين. هل أُريك كيف؟".

"اجلس هناك بهدوء، ومن دون حراك حتى تتعافى مجدداً".

"وعندها سأصطحبك في نزهة في فيينا، وأعلّمك كيف ترقصين بولكا رينلاند".

كانت الساعات التي أمضاها تحت أشعة شمس الصيف على الشرفة في الأيام الماضية قد منحته بشرة صحية. وكانت أسنانه البيضاء تتلألأ آنذاك في وجهه البشوش.

ردّت عليه: "أظن أنك بصحة جيدة كي تُعاد إلى الجبهة الآن". لكنها لم تستطع الحؤول دون تورّد وجنتيها. كانت تقف مستعدة لإكمال جولتها حين شعرت بيده على يديها.

همس: "قولي نعم".

دفعته بعيداً عنها وهي تضحك، ثم ذهبت إلى السرير الذي يلي سريره وقلبها ينشد في صدرها مثل عصفور صغير.

* * *

قال د. بروكهارد: "حسناً؟". ورفع بصره عن الأوراق حين دخلت مكتبه، ولم تعرف كالمعتاد إن كانت كلمة حسناً تلك سؤالاً، أو مقدمة لحديث أطول، أو إن كانت ببساطة طريقته في الكلام. لهذا توقفت إلى جانب الباب.

"هل طلبت رؤيتي أيها الطبيب؟".

"لماذا تصرّين على أن تكوني رسمية جداً معي يا هيلينا؟". تنهّد بروكهارد وهو يبتسم، ثم قال: "يا الله! نحن نعرف بعضنا منذ أن كنا طفلين، أليس كذلك؟".

"ما الذي كنت تريده مني؟".

"لقد قرّرت القول إن النرويجي في الجناح 4 جاهز للخدمة".

"فهمت".

احتفظت برباطة جأشها. لم لا؟ المرضى يأتون إلى هنا ليتعافوا، وبعد ذلك يغادرون. كان البديل هو الموت، وتلك هي الحياة في مستشفى.

"قدّمت التقرير إلى الجيش (فيرماخت) قبل خمسة أيام. لقد وصلنا موقعه الجديد".

"كان ذلك سريعاً". كان صوتها ثابتاً وهادئاً.

"نعم، إنهم بأمسّ الحاجة إلى مزيد من الرجال. نحن نخوض حرباً،

كما تعرفين".

قالت: "نعم". لكنها لم تقل ما كانت تفكّر فيه: نحن نخوض حرباً، وأنت تجلس هنا بعيداً مئات الكيلومترات عن الجبهة، عمرك اثنان وعشرون عاماً، وتقوم بعمل يستطيع شخص عمره سبعة عشر عاماً إنجازه، وكلّ ذلك بفضل السيد بروكهارد الأب.

"فكّرت في أن أطلب منكِ نقل أوامري إليه؛ لأنكما تبدوان على وفاق معاً".

شعرت بأنه يمعن النظر إليها؛ لمعرفة ردّ فعلها.

"بالمناسبة، ما الذي أعجبك فيه كثيراً يا هيلينا؟ ما الذي يميزه عن الجنود الآخرين البالغ عددهم أربعمئة جندي الموجودين هنا في المستشفى؟".

كانت على وشك أن تحتج، لكنه سبقها.

"آسف يا هيلينا، هذا ليس من شأني طبعاً. إنها طبيعتي الفضولية. أنا...". أمسك قلماً كان أمامه ووضعه بين طرفي سبابتيه، ثم استدار ونظر إلى خارج النافذة. "... أتساءل ببساطة: ماذا ترين في متصيّد ثراء أجنبي يخون وطنه من أجل التزلّف إلى الجيش الغازي. إذا كنت تفهمين ما أعنيه؟ بالمناسبة، كيف حال والدتك؟".

ابتلعت هيلينا ريقها قبل أن تجيب.

"لا داعي للقلق بشأن والدتي أيها الطبيب. إذا أعطيتني الأوامر فسأنقلها إليه".

استدار بروكهارد ليواجهها، ورفع الرسالة عن الطاولة.

"أُرسل إلى الفرقة المدرّعة الثالثة في هنغاريا. أنت تعرفين ما أعنيه، كما أظن؟".

عبست. "الفرقة المدرّعة الثالثة؟ لقد تطوّع في قوات أس أس. لماذا جُنّد في الجيش العادي؟".

هزّ بروكهارد كتفيه غير مبالٍ.

"في هذه الأوقات يجب أن ننجز ما نستطيع إنجازه، ويجب أن نؤدي المهمّات المنوطة بنا، أم أنك لا توافقين على ما أقوله يا هيلينا؟".

"ماذا تعني؟".

"إنه في المشاة، أليس كذلك؟ بكلمات أخرى، يجب أن يجري خلف المركبات القتالية، لا أن يجلس فيها. أخبرني صديق لي كان في أوكرانيا أنهم يطلقون النار كل يوم على الروس حتى تصبح رشاشاتهم ساخنة، وتتكدّس

الجثث أمامهم، لكنهم يتابعون هجومهم وكأنهم سيلٌ لا ينقطع".

استطاعت بصعوبة أن تمنع نفسها من انتزاع الرسالة من بروكهارد وتمزيقها إلى قطع صغيرة.

"ربما يجدر بشابة مثلك أن تكون واقعية قليلاً، وألا تكوّن عروة وثيقة جداً مع رجل لن تراه على الأرجح أبداً مجدداً. بالمناسبة، هذا الشال يناسبك حقاً يا هلينا. هل هو تراث أسري؟".

"أنا مدهوشة وسعيدة لسماع كلماتك اللطيفة أيها الطبيب، لكنني أؤكّد لك أنها في غير محلها تماماً. لا أكنُّ أي مشاعر خاصة تجاه هذا المريض. يجب تقديم الوجبات الآن؛ لهذا إذا سمحت لي أيها الطبيب...".

"هيلينا، هيلينا...". هزّ بروكهارد رأسه وابتسم قائلاً: "هل تظنين حقاً أنني أعمى؟ هل تظنين أنني أستطيع رؤية الألم الذي يسببه لك ذلك بقلب قاسٍ؟ تجعلني الصداقة الوثيقة بين أسرتينا أشعر بأن هناك ما يجمعنا معاً يا هيلينا، وإلا ما كنت لأتكلم معك على هذا النحو الخاص. أرجوك سامحيني، لكن لا بد من أنك قد لاحظت أنني أكنُّ مشاعر إعجاب قوية تجاهك، و -".

"توقف!".

"ماذا؟".

كانت هيلينا قد أغلقت الباب خلفها ورفعت صوتها آنذاك.

"أنا متطوّعة هنا يا بروكهارد، لست واحدة من ممرضاتك اللواتي يمكن أن تتلاعب بهن كما تشاء. أعطني تلك الرسالة وقل ما تريد قوله. وبخلاف ذلك، سأخرج من هنا مباشرة".

"عزيزتي هيلينا"، ارتسم على وجه بروكهارد تعبير الاهتمام، "ألا تفهمين أن هذا يتوقف عليك؟".

"يتوقف عليّ؟!".

"إن وضع تقرير حول الشفاء الكامل شيء معقّد جداً، خاصة في ما يتعلق بإصابة في الرأس من ذلك النوع".

"فهمت".

"يمكنني تزويده بشهادة طبية؛ لتمضية ثلاثة شهور أخرى. ومن يعرف إن كانت الجبهة الشرقية ستبقى بعد هذا الوقت؟".

نظرت إلى بروكهارد، محتارة.

"أنت تقرئين الكتاب المقدّس دائماً يا هيلينا، وتعرفين قصة الملك داوود، أليس كذلك؟ ذاك الذي رغب في الزواج بباتشيبا".

"وما علاقة هذا بذاك؟".

"لا شيء، لا شيء يا هيلينا. لن أحلم بإرسال شخص عزيز على قلبك إلى الجبهة إذا لم يكن جاهزاً كفاية، أو أي شخص آخر. ونظراً إلى أنك تعرفين حالة هذا المريض الصحية مثلي على الأقل، فقد ظننت أنه بمقدوري استشارتك قبل أن أتخذ قراراً نهائياً. إذا كنت تعدينه غير لائقٍ كفاية، فسأضطر ربما إلى إرسال شهادة طبية أخرى إلى فيرماخت".

بدأت طبيعة الموقف تتضح ببطء.

"ما رأيك يا هيلينا؟".

لم يكن بمقدورها تصديق أذنيها. لقد أراد استخدام أوريا ليشق طريقه إلى فراشها. كم قضى من الوقت وهو يفكّر في ذلك؟ هل كان يخطط منذ أسابيع بانتظار اللحظة المناسبة؟ وكيف كان يريدها في الواقع؛ زوجة أم عشيقة؟

سأل بروكهارد: "حسناً؟".

كانت الأفكار تتسارع في رأسها وهي تحاول العثور على طريقة للخروج من تلك المتاهة، لكن المخارج كانت كلها مغلقة. هذا شيء طبيعي. لم يكن بروكهارد رجلاً غبياً. فإن كان سيمنح أوريا شهادة صحيّة تفيد بأنه لم يتعافَ بعد - كمعروف لها - فستضطر إلى تلبية كل نزواته. سيؤجل القرار، لكن حين يذهب أوريا لن يكون لبروكهارد أي سلطة عليها. سلطة؟ يا الله! إنها لا تكاد تعرف الرجل النرويجي. وليست لديها أدنى فكرة كيف يشعر تجاهها.

شرعت تقول: "أنا...".

"نعم؟".

كان قد انحنى إلى الأمام متشوقاً. أرادت أن تتابع، ورغبت في أن تقول ما تعرف أنه يجب عليها قوله لتتحرّر من ذلك المأزق، لكن شيئاً ما أوقفها. استغرق الأمر منها ثانية لتفهم ماهيته. كان كلّ ذلك أكاذيب: كذبة أنها تريد أن تصبح حرّة، وكذبة أنها لا تعرف شعور أوريا تجاهها، وكذبة أنه يجب علينا دائماً أن نخضع لغيرنا ونحطّ من قدرنا لننجو بأنفسنا؛ كانت كل تلك أكاذيب. عضّت على شفتها السفلية حين شعرت بأنها بدأت ترتعش.

بيسلت. ليلة رأس السنة 1999

كان الوقت ظهراً حين ترجّل هاري هول من الترام عند فندق راديسون ساس في بوابة هولبرغز، ورأى شمس الصباح المنخفضة وهي تنعكس لمدة وجيزة على نوافذ المبنى السكني في مستشفى ريكس (مستشفى جامعة أوسلو) قبل أن تختفي مجدداً خلف الغيوم. كان سيذهب إلى مكتبه للمرة الأخيرة ليتأكد من أنه قد جمع كل شيء يخصه؛ كان هذا ما قاله لنفسه. لكن مقتنياته الخاصة قليلة، وقد وجد لها مساحة كافية في كيس متجر كان قد أخذه من كيوي قبل يوم. لم يكن هناك غير المناوبين فقط؛ فالباقون في منازلهم يستعدّون للحفلة الأخيرة في الألفية. كانت هناك قصاصة ورقية طويلة على ظهر كرسيه، ذكّرته بحفلة الوداع الصغيرة التي نظّمتها إيلين من أجله أمس. لم تكن كلمات بيارني مولر اللطيفة في حفلة الوداع في مرتبة مناطيد إيلين الزرقاء الصغيرة، وكعكتها الهشّة المزيّنة بالشموع، لكن الخطاب القصير كان لطيفاً كفاية على أيّ حال. وكان رئيس شعبة الجريمة يعرف على ما يبدو أن هاري لن يصفح عنه أبداً إذا أكثر من الكلام أو العواطف؛ لهذا أقرّ هاري بأنه شعر بالفخر حين هنأه مولر على ترقيته إلى منصب مفتش، وتمنّى له التوفيق في الاستخبارات السرية. لم تُفسد ابتسامة توم والر الساخرة تلك المناسبة، ولا حتى مصافحة رئيس المفتشين الفاترة عند الباب.

كان الهدف من زيارته المكتب الجلوس هناك للمرة الأخيرة؛ على الكرسي المكسور الذي يُصدر صريراً، في الغرفة التي كان قد أمضى فيها نحو سبع سنوات. ارتعش هاري، وتساءل: هل كان كل ذلك الكلام العاطفي علامة أخرى على ما ينتظره؟

تجاوز هاري بوابة هولبرغز، وانعطف يساراً إلى بوابة صوفيز. كانت معظم الأبنية في ذلك الشارع الضيق تتكوّن من شقق عمّالية تعود إلى مطلع القرن، وهي ليست في أفضل حالاتها. لكن، بعد أن ارتفعت أسعار الشقق، وانتقل إليها يافعون من الطبقة الوسطى لا يستطيعون تحمّل تكاليف المعيشة في ماجورستون، حظيت المنطقة ببعض الاهتمام. ولم يكن هناك آنذاك سوى بناء واحد فقط لم يهتم أحد بواجهته. إنه المبنى رقم 8؛ مبنى هاري. لكن ذلك لم يكن يزعجه إطلاقاً.

دخل المبنى، وفتح صندوق البريد الموجود في الرواق، فوجد عرضاً على البيتزا ومغلّفاً من بلدية مدينة أوسلو. افترض مباشرة أنه يحتوي على ورقة

لتذكيره بدفع مخالفة لوقوفه في مكان ممنوع في الشهر الماضي. تفوّه بشتيمة وهو يصعد الدرج. كان قد اشترى فورد إسكورت عمرها خمسة عشر عاماً بثمن بخس من عمٍّ لا يعرفه بكل معنى الكلمة. كانت صدئة قليلاً، والقابض (الدبرياج) بالياً. ولكن، كانت توجد فيها فتحة سقف أنيقة، حتى ذلك الوقت. على أيّ حال، كانت هناك مخالفات لوقوفه في مكان ممنوع وفواتير مرأب أكثر من الشعر على رأسه. إضافة إلى ذلك، لم يكن محرك كومة الركام تلك يدور؛ لهذا كان عليه أن يتذكر رَكْنها في قمة تلة ليدفعها إلى الأسفل إذا أراد تشغيلها.

فتح الباب الأمامي. كانت الشقة مؤلفة من غرفتين. وهي نظيفة ومرتّبة، وأثاثها بسيط، ولا يوجد سجاد على الأرضية الخشبية اللامعة. كانت الزينة الوحيدة على الجدران عبارة عن صورة لوالدته وشقيقته، ولوحة العرّاب التي كان قد سرقها من دار عرض سيمرا حين كان في السادسة عشرة من عمره. لم تكن هناك نباتات، أو شموع. كان قد علّق مرة لوحة إعلانات ظنّ أنه قد يستخدمها للبطاقات البريدية، أو الصور، أو أي كلمات حكم قد يعثر عليها، فقد رأى في منازل أشخاص آخرين لوحات مثلها. وعندما أدرك أنه لم يتلقَ قطّ بطاقات بريدية، وأنه لا يلتقط صوراً أساساً، كتب عليها اقتباساً من بيورنبوي نيز؛ وهو كاتب نرويجي:

وهذا التسارع في إنتاج القدرة الحصانية هو مجدداً تعبير عن ازدياد سرعة فهمنا لما يدعى قوانين الطبيعة. هذا الفهم = قلق.

عرف هاري بنظرة واحدة أنه لا توجد رسائل على المجيب الآلي؛ وهذا استثمار آخر غير ضروري. فكّ أزرار قميصه، ووضعه في سلّة الغسيل، ثم أخرج واحداً من مجموعة مرتبة في خزانة الملابس.

أبقى هاري جهاز المجيب الآلي في وضعية التشغيل؛ إذ ربّما سيتصل شخص ما من منظمة غالوب النرويجية؛ وهي منظمة تنظّم استطلاعات رأي ثم أوصد الباب وغادر مجدداً.

اشترى هاري من دون أي تأثر عاطفي الصحف الأخيرة في الألفية من متجر علي، ثم انطلق إلى دوفرغاتا. كان الناس يحثّون الخطى عند بوابة والدمار ثرينز في طريقهم إلى منازلهم من أجل تمضية تلك الليلة المميزة. بقي هاري يرتعش بالرغم من ارتدائه معطفه إلى أن دخل شرودر، وشعر بالدفء. كان المكان ممتلئاً تقريباً، لكنه رأى أن طاولته المفضّلة على وشك أن تصبح شاغرة فاتجه نحوها. ارتدى الرجل العجوز الذي كان قد نهض من خلف الطاولة معطفه، ورمق هاري بنظرة سريعة من تحت حاجبين

كثّين أبيضين، ثم أومأ له بصمت، وغادر. كانت الطاولة تقع إلى جانب النافذة، وهي إحدى الطاولات القليلة في الغرفة المعتمة التي يصلها ضوء كافٍ للقراءة في أثناء النهار. وما إن جلس حتى كانت ماجا إلى جانبه.

"مرحباً هاري". ضربت على غطاء الطاولة بمنفضة غبار رمادية ثم قالت: "هل تريد طبق اليوم الخاص؟".

"إذا كان الطاهي ممتازاً".

"إنه كذلك. هل تريد شراباً؟".

"لقد بدأنا نتكلم الآن". رفع بصره إلى أعلى. "ما الذي توصين به اليوم؟".

"حسناً". وضعت يداً على حجرها وقالت بصوت عالٍ وواضح: "يوجد فعلاً في هذه المدينة، بخلاف ما يظنه معظم الناس، أنقى مياه شرب في البلاد، ويمكن العثور على الأنابيب الأقل سمّية في الأبنية التي شُيّدت في مطلع القرن، مثل هذا البناء".

"ولمن تقولين هذا يا ماجا؟".

"لك أنت على الأرجح، يا هاري". كانت ضحكتها قوية ونابعة من القلب. "بالمناسبة، يلائمك الإقلاع عن الشراب". قالت ذلك همساً، ثم سجّلت طلبه وابتعدت.

كانت الصحف الأخرى مليئة بأخبارٍ عن الألفية؛ لهذا اختار هاري داغسافيسن. وقعت عيناه في الصفحة السادسة على صورةٍ لافتة طرقية خشبية كبيرة يظهر عليها صليب أحمر. كان قد كُتِب على أحد ذراعيها أوسلو 2611 كلم، وعلى الآخر لينينغراد 5 كلم.

كان المقال تحتها منسوباً إلى أستاذ التاريخ إيفن جول، وكان العنوان الثانوي مختصراً: أوضاع الفاشية في ضوء ازدياد البطالة في أوروبا الغربية.

كان هاري قد قرأ اسم جول في الصحف من قبل. فهو يعدُّ مرجعاً مهمًّا في ما يتعلق باحتلال النرويج وناسونال ساملنغ. تصفّح باقي الصحيفة لكنه لم يجد شيئاً مثيراً للاهتمام، ثم عاد إلى مقال جول، الذي كان تعليقاً على تقرير سابق عن التنظيم القوي الذي أنشأته النازية الجديدة في السويد. وضّح جول كيف أن النازية الجديدة، التي شهدت تراجعاً كبيراً في سنوات الوفرة الاقتصادية في التسعينيات، تعود الآن إلى الظهور بحيوية متجددة. وكتب أيضاً أن إحدى الصفات المميزة للموجة الجديدة هي قاعدتها الإيديولوجية المتينة. فلقد كانت النازية في الثمانينيات ترتكز على الأزياء، وأشياء تحدد هوية المجموعة التي ينتمون إليها: الزي الموحّد،

والرؤوس الحليقة، والشعارات القديمة مثل تحية النصر (سيج هايل). في حين أن الموجة الجديدة أفضل تنظيماً. كانت هناك شبكة دعم مالية لا تستند إلى قادة ورعاة أثرياء بالدرجة نفسها. إضافة إلى ذلك، كتب جول أن الحركة الجديدة لم تكن مجرد ردّ فعل على عوامل في الوضع الاجتماعي السائد، مثل البطالة والهجرة، وأنها تريد تقديم بديل للديمقراطية الاجتماعية. كان الشعار هو إعادة التسلّح أخلاقياً، وعسكرياً، وعرقياً. وكان تراجع النصرانية مثالاً على التفسّخ الأخلاقي، إضافة إلى انتشار الإيدز، والزيادة في تعاطي الممنوعات. وكانت صورة العدو قد توسّعت قليلاً إلى مدى جديد؛ فهم أبطال الاتحاد الأوروبي الذين يحطّمون الحدود الوطنية والعرقية، ومسؤولو الناتو الذين يمدّون يداً إلى روسيا، والسلافيون الأدنى مرتبة، والرأسماليون الآسيويون الجدد الذين حلّوا محلّ اليهود بوصفهم مصرفيي العالم.

وصلت ماجا مع الغداء.

سأل هاري: "هل هذه زلابية (كرات عجين مخبوزة)؟". وحدّق إلى الكتل الرمادية التي تغمرها الصلصة.

قالت ماجا: "إنها وصفة شرودر، وهي من بقايا أمس. أتمنى لك سنة سعيدة".

أبعد هاري الصحيفة حتى يتمكّن من الأكل، وكان قد تناول أول قضمة من الزلابية حين سمع صوتاً يقول:

"أقول إنه فظيع".

نظر هاري خلف الصحيفة. كان هندي أحمر (الموهوك) يجلس إلى الطاولة المجاورة، وينظر إليه مباشرة. ربما كان يجلس هناك طوال الوقت، لكن هاري لم يره بالتأكيد حين دخل المكان. كانوا ينادونه الموهوك؛ لأنه على ما يبدو الأخير من نوعه. كان بحّاراً في أثناء الحرب، وأغرقت الطوربيدات سفينتين كان على متنهما، مات كلّ رفاقه منذ وقت طويل. وهذا ما نقلته ماجا إلى هاري. كانت لحيته الطويلة غير المشذّبة تتدلّى في كأسه، وهو يجلس هناك مرتدياً معطفه - كما يفعل دائماً في الصيف والشتاء على حدٍّ سواء - ووجهه النحيل جداً يُبرز شكل جمجمته، وتظهر فيه شبكة من العروق مثل خطوط قرمزية على خلفية بيضاء ناصعة. حدّقت العينان الحمراوان الدامعتان إلى هاري من خلف طبقة من الطيّات الجلدية المتغضّنة.

"هذا فظيع!".

كان هاري قد سمع تُرّهات سكارى في حياته بما فيه الكفاية؛ لهذا لم يكن يولي عناية خاصة لما يقوله عملاء شرودر الدائمون، لكن ذلك كان مختلفاً. ففي كل السنوات التي اعتاد فيها الذهاب إلى هناك، كانت تلك أولى الكلمات المفهومة التي ينطقها الموهوك. فحتى بعد تلك الليلة من الشتاء الماضي، حين عثر هاري على الموهوك نائماً قرب جدار منزل في دوفرغاتا، وأنقذه على الأرجح من التجمّد حتى الموت، لم يكن الموهوك يحييه بأكثر من إيماءة في المناسبات التي يلتقيان فيها. يبدو أن الموهوك قد قال ما يريده آنذاك؛ لأن شفتيه بقيتا مغلقتين بإحكام، وهو ينظر بتركيز إلى كأسه مجدداً. نظر هاري حوله قبل أن ينحني نحو طاولة الموهوك.

"هل تتذكّرني يا كونراد آسنس؟".

تأفف الرجل العجوز وحدّق إلى الفراغ من دون أن يجيب.

"وجدتك نائماً على كومة ثلج في الشارع في الشتاء الماضي. كانت الحرارة ثماني عشرة درجة تحت الصفر".

حرّك الموهوك عينيه.

"لم تكن هناك إضاءة في الشارع؛ لهذا كان من الممكن أن أغفل عنك بسهولة. كنت ستلقى حتفك يا آسنس".

رفع الموهوك أحد حاجبيه، ورمق هاري بنظرة متفحّصة بعينيه الحمراوين قبل أن يرفع كأسه.

"نعم، أودّ أن أشكرك على ذلك".

شرب قليلاً، ثم وضع كأسه على الطاولة ببطء، وبدا أنه من المهمّ بالنسبة إليه أن يضع الكأس في المكان نفسه.

قال: "لا بدّ من إعدام أفراد العصابات أولئك".

"حقاً؟ من؟".

أشار الموهوك بإصبع ملتوية نحو صحيفة هاري الذي قلب الصفحة نحوه. كانت تتصدّر الصفحة الأولى صورة كبيرة لنازي سويدي جديد حليق الرأس.

"أمام جدار!". ضرب الموهوك راحة كفه على الطاولة، فاستدارت بضعة وجوه نحوه. أشار له هاري بيده لكي يهدأ.

"إنهم يافعون يا آسنس. استرخِ واستمتع الآن، إنها عشية رأس السنة".

"هم يافعون؟ ماذا تظن أننا كنا؟ لم يوقف ذلك الألمان. كان كيل في التاسعة عشرة، وأوسكار في الحادية والعشرين من العمر. اقتلهم قبل أن

يزداد عددهم. إنهم وباء، ويجب أن تعالجه باكراً".

أشار بإصبع ترتعش إلى هاري.

"كان أحدهم يجلس حيث تجلس أنت الآن. إنهم لا ينقرضون! أنت شرطي؛ ولهذا يجب أن تخرج وتعتقلهم!".

سأل هاري مدهوشاً: "كيف تعرف أنني شرطي؟!".

"أنا أقرأ الصحف. أطلقتَ النار على شخص ما في مكان ما جنوباً. كان ذلك جيداً. لكن، ماذا عن إطلاق النار على بعض الأشخاص هنا أيضاً؟".

"أنت تتكلم كثيراً اليوم يا آسنس".

صمت الموهوك ورمق هاري بنظرة حادة أخيرة قبل أن يستدير نحو الجدار، ويمعن النظر في لوحةٍ لساحة يونغ. لوّح هاري - الذي فهم أن الحديث قد انتهى - إلى ماجا لتأتيه بكوب قهوة، ونظر إلى ساعته. كانت ألفية جديدة على الأبواب، وسيغلق مطعم شرودر عند الساعة الرابعة صباحاً؛ بسبب حفلة رأس السنة الجديدة؛ وذلك وفقاً لإعلان معلّق على باب المدخل. ألقى هاري نظرة على الوجوه المألوفة في الغرفة، ووفقاً لما رآه، كان كل الضيوف قد وصلوا.

مستشفى رودولف الثاني، فيينا. 8 حزيران 1944

كان الجناح 4 ممتلئاً بالنائمين. وكانت تلك الليلة أكثر هدوءاً من المعتاد، فلا أحد يئن ألماً أو يستيقظ وهو يصرخ؛ بسبب كابوس. لم تسمع هيلينا أيضاً تحذيراً من حصول غارة جوية في فيينا. تمنّت أن يصبح كل شيء أسهل إذا لم يقصفوا المدينة في تلك الليلة. تسللت إلى المهجع، ووقفت عند طرف السرير ونظرت إليه. كان يجلس هناك منهمكاً جداً في قراءة الكتاب الذي يحمله، تحت ضوء المصباح الموضوع قرب سريره، حتى إنه لم يلاحظ أي شيء آخر. وقفت بعيداً، في الظلام، وهي تدرك تماماً ما يجري حولها.

لاحظ وجودها حين كان على وشك أن يقلب الصفحة، فابتسم ووضع كتابه جانباً في الحال.

"مساء الخير يا هيلينا. لم أكن أظن أنك تعملين الليلة".

وضعت سبابتها على شفتيها واقتربت منه.

همست: "ماذا تعرف عن المناوبات الليلية؟".

ابتسم قائلاً: "لا أعرف شيئاً عن الآخرين، وإنما أعرف مواعيد عملك أنت فقط".

"هل هذا صحيح؟".

"الأربعاء، والجمعة، والأحد. ثم الاثنين، والثلاثاء. ثم الأربعاء، والجمعة، والأحد مجدداً. لا تخافي، إنه إطراء. لا يوجد شيء آخر يعمل عليه الدماغ هنا. أعرف أيضاً الوقت الذي يتلقى فيه هادلر حقنته الشرجية".

ضحكت برقّة.

"لكنك لا تعرف أن صحّتك صارت جيّدة، وصرت مستعدًّا للخدمة مجدّداً، أليس كذلك؟".

حدق إليها مندهشاً.

همست: "ستذهب إلى هنغاريا، وستنضم إلى الفرقة المدرّعة الثالثة".

"الفرقة المدرّعة؟! لكنّ الفرقة المدرّعة في الجيش! ولا يمكنهم تجنيدي فيه؛ فأنا نرويجي".

"أعرف".

"وما الذي يُفترض بي أن أفعله في هنغاريا؟ أنا...".

"صه، ستوقظ الآخرين. أوريا، لقد قرأت الأوامر. أخشى أننا لا نستطيع فعل الكثير بشأن ذلك".

"لكن، لا بدّ من أنها غلطة. إنها...".

أوقع عَرضاً الكتاب على الأرض، فسقط محدثاً ضجة. انحنت هيلينا والتقطته. كان يوجد على الغلاف، وتحت عنوان مغامرات التوت الفنلندي (مارك توين) رسمٌ لفتى يرتدي أسمالاً وهو يجلس على متن طوف خشبي. ومن الواضح أن أوريا قد استشاط غضباً.

قال عبر شفتين شبه مغلقتين: "هذه ليست حربي".

همست وهي تضع الكتاب في حقيبته تحت الكرسي: "أعرف ذلك أيضاً".

همس: "ماذا تفعلين؟".

"يجب أن تصغي إليّ يا أوريا، فالوقت قصير".

"الوقت؟!".

"ستقوم الممرضة المناوبة بجولتها بعد نصف ساعة، ويجب أن تقرّر قبل ذلك".

قرّب المصباح ليراها في الظلام على نحو أفضل، ثم سألها: "ماذا يجري يا هيلينا؟".

ابتلعت ريقها.

سأل: "ولماذا لا ترتدين زيّك اليوم؟".

كان ذلك أكثر ما تخشاه. لم تخشَ الكذب على والدتها والقول لها إنها ذاهبة إلى منزل شقيقتها في سالزبورغ لبضعة أيام، أو إقناع ابن مراقب الأحراج - الذي كان ينتظر آنذاك على الطريق خارج البوابة - بإيصالها إلى المستشفى، أو حتى توديع ممتلكاتها، ودار العبادة، وحياتها الآمنة في غابات فيينا؛ وإنّما خافت من إخباره بكل شيء: إخباره أنها أحبّته، وأنها ستخاطر طواعية بحياتها ومستقبلها من أجله. ربما هي مخطئة، ليس بشأن شعوره نحوها - فقد كانت واثقة من ذلك - وإنما بشأن شخصيته؛ فهل ستكون لديه الشجاعة والحافز ليفعل ما ستقترحه؟ كان واضحاً على الأقل أنها ليست حربه، تلك التي يخوضونها ضد الجيش الأحمر في الجنوب.

قالت وهي تضع يدها فوق يده: "كان يجب أن نحظى بوقت أطول؛ لنعرف بعضنا على نحو أفضل". أمسك يدها بإحكام.

قالت، وهي تضغط على يده: "لكن، ليس لدينا ذلك الترف. هناك قطار سيغادر إلى باريس بعد ساعة. لقد اشتريت تذكرتين؛ فمعلّمي يعيش هناك".

"معلّمك؟!".

"إنها قصة طويلة ومعقدة، لكنه سيستقبلنا".

"ماذا تعنين بقولك إنّه سيستقبلنا؟".

"يمكننا أن نقيم عنده، فهو يعيش وحيداً. ووفقاً لما أعرفه، ليس لديه أصدقاء. هل لديك جواز سفر؟".

"ماذا؟ نعم...".

بدا أنه يبحث عن الكلمات المناسبة؛ وكأنه يتساءل: هل نام في أثناء قراءة الكتاب الذي يتحدث عن الفتى الذي يرتدي أسمالاً؟ وهل كل ما يحصل مجرد حلم؟

"نعم، لدي جواز سفر".

"جيد. الرحلة تستغرق يومين. لدينا مقعدان، وقد اشتريت الكثير من الطعام".

أخذ نفساً عميقاً.

"لماذا باريس؟".

"إنها مدينة كبيرة يمكن أن نختفي فيها. اسمع، لقد جلبت بعض ملابس والدي، إنها في السيارة. يمكنك أن ترتدي ثياباً مدنية هناك. قياس حذائه -".

"لا". رفع يده، وتوقف سيل كلماتها الواهنة المتلاحق في تلك اللحظة. حبست أنفاسها وركّزت على وجهه الكئيب.

كرّر همساً: "لا. هذا سخيف".

"لكن...". وشعرت في تلك الأثناء أنّ هناك كتلة جليد في معدتها.

قال: "من الأفضل أن أسافر بالبزّة الرسمية؛ إذ سيثير مظهر شاب يرتدي ملابس مدنية الشبهات".

كانت سعيدة جداً حتى إنها لم تستطع أن تنطق بأيّ كلمة، وضغطت على يده بقوة أكبر. تهلل قلبها فرحاً، وكان عليها أن تأمره بالتزام الصمت.

قال، وهو يُخرج ساقيه من السرير: "وهناك شيء آخر بعد".

"ماذا؟".

"هل تحبينني؟".

"نعم".

"جيد".

كان قد ارتدى معطفه آنذاك.

الاستخبارات السرية، مقر قيادة الشرطة.
21 شباط 2000

ألقى هاري نظرة في الأرجاء، وحدّق إلى الرفوف المرتّبة والمنظمة جيداً التي تحمل ملفاتٍ معروضة بأناقة في ترتيب زمني. كانت هناك شهادات تقدير معلّقة على الجدران، وصورة بالأبيض والأسود للشاب كورت ميريك في بزّته الرسمية برتبة رائد وهو يحيّي الملك أولاف معلّقة على الجدار خلف المكتب، بحيث تلفت انتباه أي شخص يدخله. كانت تلك هي الصورة التي جلس هنري وهو يمعن النظر إليها حين فُتح الباب خلفه.

"أعتذر عن جعلك تنتظر يا هول. ابقَ جالساً".

كان ذلك ميريك، لكن هاري لم يكن يحاول الوقوف.

قال ميريك وهو يجلس خلف مكتبه: "حسناً، كيف كان أسبوعك الأول معنا؟".

جلس ميريك على كرسيه وهو يشدّ قامته، وكشف عن صفٍّ من أسنان صفراء كبيرة، بطريقة تجعل المرء يظن أنه قد بالغ في التدرّب على الابتسام في حياته.

قال هاري: "إنّه ممل جداً".

"مهلاً، مهلاً. لم يكن بذلك السوء، أليس كذلك؟". بدا ميريك مدهوشاً.

"حسناً، لديكم قهوة أفضل مما لدينا في الأسفل".

"تعني أفضل مما لدى شعبة الجريمة؟".

قال هاري: "آسف. يستغرق الأمر وقتاً للاعتياد عليه، وأنّ نحن تعني الاستخبارات السرية الآن".

"نعم، يجب أن نتحلى بالصبر، وينطبق ذلك على عدد من الأمور. أليس كذلك يا هول؟".

أومأ هاري موافقاً. لم تكن هناك فائدة ترجى من مهاجمة الطواحين الهوائية على أيّ حال، وخاصة في الشهر الأول. خُصص له مكتب في نهاية رواق طويل كما كان متوقعاً، مما يعني أنه لن يرى عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين يعملون هناك إذا لم يكن ذلك ضرورياً جداً. كانت وظيفته عبارة عن قراءة تقارير من مكاتب الاستخبارات السرية الفرعية، وبكل بساطة، تقويم ما إذا كانت قضايا يجب رفعها إلى مستوى أعلى في النظام. كانت تعليمات ميريك واضحة تماماً: يجب رفع كل شيء، إن لم يكن تُرّهات. بكلمات أخرى، كانت مهمّة هاري العمل كمَرْشَحٍ للقضايا.

وصلته ثلاثة تقارير في الأسبوع الماضي. حاول قراءتها ببطء، لكن مدة بقائها لديه كانت محدودة. كان أحد التقارير من تروندهايم، ويتكلم عن معدّات المراقبة الإلكترونية الجديدة التي لا يعرف أحد طريقة تشغيلها بعد أن ترك خبير المراقبة لديهم العملَ. رفع هاري التقرير. تكلّم التقرير الثاني عن رجل أعمال ألماني في بيرغن أعلنوا آنذاك أنه ليس مشتبهاً فيه؛ لأنه كان قد سلّم شحنة سكك الستائر التي قال إنه موجود هناك لتسليمها. رفع هاري ذلك التقرير أيضاً. وكان الثالث من منطقة أوستلاند، من مخفر الشرطة في سكاين. كانوا قد تلقّوا بعض الشكاوى من مالكي شاليه في سيلجان سمعوا إطلاق نار في أسبوع سابق. ونظراً إلى أنهم لم يكونوا في موسم صيد، فقد ذهب ضابط للتحقيق في الأمر واكتشف خراطيش فارغة في إحدى الغابات. كانوا قد أرسلوا الخراطيش إلى قسم الطب الشرعي في كريبوس، أي إلى إدارة الأمن الجنائي النرويجية التي أعدّت تقريراً يقول إن الذخيرة مخصصة على الأرجح لبندقية ماركلين، وهي سلاح مميز جداً.

كان هاري قد رفع التقرير، ولكن ليس قبل أن يحتفظ بنسخة لنفسه.

"حسناً. إن ما أردت الحديث إليك بشأنه هو ملصق وقع في أيدينا، حيث يخطط نازيون جدد لافتعال مشاجرات في أوسلو في 17 أيار. هناك مناسبة دينية يتغيّر موعدها ستحلّ في السابع عشر من أيار هذا العام، ويرفض عدد كبير من الآباء الأجانب السماح لأبنائهم بالمشاركة في استعراض يوم الاستقلال؛ لأنهم يريدون منهم المشاركة في تلك المناسبة الدينيّة".

"إنّه احتفال!".

"عفواً؟".

"إنّه احتفال بيوم خاصّ ومهم لديهم. وهو مثل الاحتفال بالميلاد".

"إذاً، أنت تعرف هذه الأمور؟".

"لا، لكن جاري دعاني إلى العشاء في السنة الماضية. فلقد ظنّ أن بقائي وحيداً في ذلك اليوم أمر سيئ جداً".

"حقاً؟!". وضع ميريك نظارة المفتش ديريك.

"الملصق لدي هنا. لقد كُتِبَ عليه: إنها إهانة لبلدك المضيف أن تحتفل بأي شيء يختلف عن ذكرى الاستقلال النرويجي في 17 أيار. ويقولون إن السود سعداء بطلب الإعانات، لكنهم يتهرّبون من كل واجبات المواطن النرويجي".

قال هاري وهو يخرج علبة لفائف التبغ: "إنهم يريدون أن يكون

الأجانب مطيعين، وأن يصرخوا مرحى للنرويج في أثناء مرور موكب الاستعراض". كان قد لاحظ منفضة السجائر على سطح خزانة الكتب، وأومأ ميريك رداً على إشارة هاري المستفسرة. أشعل هاري اللفافة، وسحب الدخان إلى رئتيه، وحاول أن يتخيّل الأوعية الدموية في جدار الرئة وهي تمتص النيكوتين بنهم. كانت الحياة تصبح أقصر، وملأته فكرة أنه لن يقلع عن التدخين أبداً بالرضا. قد لا يكون تجاهل التحذير المكتوب على علبة لفائف التبغ التمرّد الأكثر تميّزاً الذي يمكن لإنسان ما القيام به، لكنه على الأقل شيءٌ يقوى عليه.

قال ميريك: "انظر ماذا يمكنك أن تكتشف".

"لا بأس. لكنني أحذّرك من أنني أغضب بسرعة من حليقي الرؤوس".

"ها، ها". أظهر ميريك أسنانه الصفراء الكبيرة مجدداً، وأدرك هاري ما يذكره ذلك به؛ إنه يذكّره بالحصان الراقص.

"ها، ها".

قال هاري: "هناك شيء آخر. بشأن التقرير عن الخراطيش التي عُثر عليها في سيلجان، تلك الخاصة ببندقية ماركلين".

"أتذكر على نحو مبهم أنني سمعت شيئاً عن ذلك. نعم؟".

"لقد كنت أتابع الأمر بمفردي".

"أوه؟!".

لاحظ هاري نبرة صوتٍ باردة.

"تفقّدت السجل الوطني للأسلحة النارية الخاص بالسنة الماضية. لم يتم تسجيل بنادق ماركلين في النرويج".

"هذا لا يفاجئني. لا بدّ من أن أشخاصاً هنا قد تفقّدوا اللائحة بعد أن رفعت التقرير يا هول. تلك ليست مهمّتك، كما تعرف".

"ربما لا، لكنني أردت التثبت من أن الذي تابع الموضوع قد تفقّد تقارير الإنتربول عن تهريب الأسلحة".

"الإنتربول؟! لماذا يجب أن نفعل ذلك؟".

"لا أحد يستورد هذه الأسلحة إلى النرويج. لذا، لا بدّ من أنّ هذه البندقية قد هُرِّبت إلى هنا".

أخرج هاري ورقة مطبوعة من جيبه قائلاً: "هذه لائحة بالبضائع التي عثر عليها الإنتربول في أثناء غارة قام بها على تاجر يبيع أسلحة غير قانونية في جوهانسبرغ في تشرين الثاني. انظر إلى هنا. بندقية ماركلين، وهنا المقصد: أوسلو".

"حسناً! من أين حصلت على هذه؟".

"من ملف الإنتربول على الإنترنت. إنه متوافر لأي شخص في الاستخبارات السرية، ولكل من يهتم به".

"حقاً؟". استقرَّ بصر ميريك على هاري للحظة قبل أن يتفحّص الورقة المطبوعة عن كثب، ثم قال:

"لا بأس بهذا كله. لكن تهريب الأسلحة ليس عملنا يا هول. إذا كنت تعرف عدد الأسلحة غير القانونية التي صادرتها الشرطة في سنة واحدة...".

قال هاري: "ستمئة وأحد عشر سلاحاً".

"هل هذا هو الرقم؟".

"هذا هو العدد في السنة الماضية. وكان هذا نتيجة عمل شرطة أوسلو فقط. يُصادر سلاحان من أصل ثلاثة أسلحة من مجرمين، وهي أسلحة صغيرة أساساً، وبنادق صيد متنوّعة. وتُصادر بندقية واحدة كل يوم تقريباً، وقد تضاعف الرقم في التسعينيات".

"حسناً. إذاً، أنت تفهم أننا في الاستخبارات السرية لا يمكننا منح الأولوية لبندقية غير مرخّصة في بوسكرود".

كان ميريك يكافح للحفاظ على رباطة جأشه. نفث هاري الدخان من فمه، وأمعن النظر إليه وهو يرتفع نحو السقف، ثم قال: "سيلجان ليست في بوسكرود".

كانت عضلات فك ميريك مشدودة.

"هل تكلمت هاتفياً مع إدارة الجمارك والرسوم يا هول؟".

"لا".

نظر ميريك إلى ساعته الفولاذية القديمة وغير الأنيقة، التي خمّن هاري أنها مُنحت له لخدمته الطويلة والمخلصة.

"إذاً، أقترح أن تفعل ذلك. فأنت مُكلّف بهذه القضية. والآن، لدي أمور...".

"هل تعرف ما هي بندقية ماركلين يا ميريك؟".

شاهد هاري حاجبي مدير الاستخبارات السرية يتحرّكان صعوداً وهبوطاً، وتساءل إن كان الأوان قد فات. شعر بهسهسة طواحين الهواء.

"بالمناسبة يا هول، ليس هذا من شأني أيضاً. من الأفضل أن تناقش ذلك مع...".

بدا أن كورت ميريك قد أدرك فجأة أنه كان مدير هاري المباشر

والوحيد.

قال هاري: "بندقية ماركلين هي بارودة صيد ألمانية، نصف آلية، تستخدم رصاصات 16 ملم، وأكبر من أي بندقية أخرى، وهي مُعدّة للاستخدام في صيد طرائد كبيرة، مثل جواميس الماء أو الفيلة. صُنعت أول بندقية منها في العام 1970، لكن لم يُنتج منها إلا ثلاثمئة فقط قبل أن تحظر السلطات الألمانية بيع السلاح في العام 1973. والسبب في ذلك أنّ هذه البندقية أصبحت، مع ملحقاتها البسيطة ومنظارها بعيد المدى، السلاح الأول في العالم الذي يسعى إلى اقتنائه قتلة مأجورون بهدف تنفيذ الاغتيالات منذ العام 1973. ومن بين ثلاثمئة بندقية، وقعت مئة منها على الأقل في أيدي قتلة محترفين ومنظمات إرهابية مثل بادر مينهوف (منظمة ألمانية)، والألوية الحمراء (مجموعة إيطالية)".

"حسناً! هل قلت مئة؟". أعاد ميريك الورقة المطبوعة إلى هاري قائلاً: "هذا يعني أن اثنين من أصل ثلاثة يستخدمون البندقية للهدف المعدّة له، وهو الصيد".

"هذه البندقية ليست سلاحاً لاصطياد ظبي أو أي نوع آخر من الطرائد المعروفة في النرويج".

"حقاً؟ لِمَ لا؟".

تساءل هاري: ما الذي يثير اهتمام ميريك؟ ولماذا لم يطلب منه إنهاء لفافة التبغ والانصراف؟ ولماذا كان هو نفسه عازماً على إثارة مثل ردّ الفعل ذاك؟ ربما لم يكن هناك شيء، وربما كان يتقدم في السن ويصبح نكداً. وبغض النظر عن السبب، كان ميريك يتصرف مثل جليس أطفال يحصل على أجر جيد، ولا يجرؤ على مس الولد المزعج. راقب هاري العمود الطويل من الرماد ينحني نحو الأرض.

"أولاً، الصيد ليس رياضة أصحاب الملايين في النرويج. فثَمن بندقية ماركلين مع منظار بعيد المدى يبلغ نحو 150,000 مارك ألماني؛ أي بكلمات أخرى، ثمن سيارة مرسيدس جديدة. وسعر كل خرطوشة 90 ماركاً. ثانياً، يبدو ظبي أصابته رصاصة 16 ملم وكأن قطاراً قد صدمه، وهذا شيء سيئ جداً".

"نعم، نعم". كان واضحاً أن ميريك قد قرّر تغيير التكتيك. فلقد استرخى إلى الخلف، ويداه خلف رأسه اللامع، في إشارة إلى أنه لن يمانع قيام هول بتسليته لبعض الوقت. نهض هاري، وجلب المنفضة عن الرف العلوي، ثم عاد إلى كرسيه.

"طبعاً، ربما تعود الخراطيش إلى جامع أسلحة متعصّب كان قد اختبر بندقيته الجديدة، ويعلّقها الآن في خزانة زجاجية في منزل كبير في مكان ما في النرويج، ولن تُستخدم أبداً مجدداً. لكن، هل نجرؤ على افتراض ذلك؟".

هزّ هاري رأسه. "أقترح أن أقوم برحلة إلى سكاين وأزور ذلك المكان. إضافة إلى ذلك، أشك في أنه محترف".

"حقاً؟".

"المحترفون ينظّفون خلفهم، وترك الخراطيش الفارغة أشبه بترك بطاقة شخصية. لكن، إذا كان هناك هاوٍ يحمل بندقية ماركلين، فهذا لا يجعلني أشعر بالطمأنينة".

تمتم ميريك بضع كلمات، ثم أومأ.

"لا بأس. وأخبرني إذا وجدت شيئاً عن خطط النازيين الجدد بشأن يوم الاستقلال".

أطفأ هاري لفافة التبغ. كان قد كتب على جانب المنفضة المصنوعة على شكل جندول البندقية، إيطاليا.

لينز. 9 حزيران 1944

ترجلّت أسرة مؤلفة من خمسة أفراد من القطار، حيث كانت تحجز كل المقصورة لها. فجلست هيلينا آنذاك على مقعد إلى جانب النافذة عندما ابتعدوا ببطء، ولم تستطع رؤية الكثير في الظلام، باستثناء أشكال مبانٍ قريبة من القطار. جلس قبالتها وأمعن النظر إليها، وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه.

قال: "أنتم النمساويون بارعون في التعتيم؛ إذ لا يمكنني رؤية ضوء واحد".

تنهّدت: "نحن بارعون في ما يجب القيام به".

نظرت إلى ساعتها، وكانت تشير إلى الثانية من بعد منتصف الليل تقريباً.

قالت: "البلدة الآتية هي سالزبورغ. إنها قريبة من الحدود الألمانية، ثم...".

"ميونيخ، وزيوريخ، وبازل، وفرنسا، وباريس. لقد قلنا ذلك ثلاث مرات سابقاً".

انحنى إلى الأمام وضغط على يدها.

"سيكون كل شيء على ما يرام، وسترين ذلك. اجلسي هنا".

تحرّكت من دون أن تترك يده، ووضعت رأسها برفق على كتفه. بدا مختلفاً جداً آنذاك في بزّته العسكرية.

"إذاً، لقد أرسل بروكهارد ذاك شهادة طبية أخرى، صالحة لمدّة أسبوع؟".

"نعم، قال إنه سيرسلها بريدياً بعد ظهر أمس".

"لماذا التمديد قصير جداً؟".

"حسناً، حتى يسيطر على الوضع - وعليَّ - على نحو أفضل. كان يجب في كل مرة أن أمنحه سبباً جيداً لتمديد إجازتك المرضية. هل تفهم؟".

قال: "نعم، أفهم ذلك". ورأت عضلات فكّه تتوتر.

قالت: "دعنا لا نتحدث عن بروكهارد بعد الآن. اسرد لي قصة".

ربتت على وجنته، فأخذ نفساً عميقاً وقال: "أي قصة تودّين أن تسمعي؟".

"أي شيء تحبّه".

القصص؛ كانت تلك هي الطريقة التي أثار فيها انتباهها في مستشفى رودولف الثاني. فقد كانت قصصه مختلفة جداً عن القصص التي يسردها جنود آخرون. كانت قصص أوريا تتحدث عن الشجاعة، والرفقة، والأمل، كما حدث حين عاد من مناوبته، واكتشف أن ابن عرس يجثم على صدر أعز أصدقائه، وهو جاهزٌ لتمزيق حنجرته في أثناء نومه. كانت المسافة عشرة أمتار تقريباً، والظلام حالكاً في المهجع ذي الجدران الترابية السوداء. لكن، لم يكن لديه خيار، فوضع بندقيته على خدّه واستمر في إطلاق النار حتى فرغ مخزن الذخيرة. وقد أكلوا ابن عرس على وجبة العشاء في اليوم اللاحق.

كانت هناك عدّة قصص مثل تلك. لم تستطع هيلينا أن تتذكّرها كلها، لكنها تذكّرت أنها قد بدأت تصغي السمع إليه. كانت قصصه مفعمة بالحيوية ومسلّية، ولم تكن تثق بأنها تستطيع تصديق بعضها. أرادت ذلك طبعاً؛ لأنها كانت ترياقاً لمواجهة تلك القصص الأخرى عن المصير المحتوم، والموت الخالي من أي معنى.

عندما اهتزّ القطار المعتم وشقّ طريقه في الليل على السكة المرمّمة حديثاً، أخبرها أوريا عن الحادثة التي قتل فيها قنّاصاً روسياً في الأرض التي لا يسيطر أحد عليها، وكيف أنه جازف بالخروج من مكانه؛ ليدفن البلشفي.

ضحكت: "حقاً؟".

ضمّها أوريا إليه وغنّى برقة في أذنها:

انضموا إلى حلقة الرجال حول النار، حدّقوا إلى المشاعل الذهبية واللامعة جداً،

حثّوا الجنود على استنهاض الهمم، وعلى المراهنة بحياتهم للمواجهة والقتال

في ألسنة اللهب المتوهّجة المتراقصة، شاهدوا النرويج خاصتنا في الأيام الخوالي،

شاهدوا شعبها ينبعث من الرماد، وشاهدوا أقرباءكم في السلم والحرب.

شاهدوا آباءكم يعملون من أجل الحرية، ويعانون خسارة نساء ورجال.

شاهدوا الآلاف ينهضون لدحر الأعداء، ويضحون بكل شيء في قتالهم من أجل أرضهم.

شاهدوا الرجال في الخارج فوق الثلج كل ساعة، فخورين وسعداء بالصراع والكفاح،

القلوب تضطرم رغبة وقوة، وتقف ثابتة على تراب أسلافنا.

شاهدوا أسماء الإسكندنافيين تظهر، وتعيش في ملاحم من كلمات متألقة،

مَنْ غير القرون الغابرة لا يزال هنا، تبقى في الذاكرة من الجبال إلى الممرات البحرية.

لكن الإنسان كان قد رفع على السارية راية حمراء وصفراء عظيمة،

نحييك يا قائدنا الغاضب: أيها الخائن، يا حاكم الجنود والدولة.

أطبق الصمت على أوريا بعد ذلك، وحدّق إلى خارج النافذة. كانت هيلينا تعرف أن أفكاره في مكان بعيد، فحثّته على البقاء معها، بأن وضعت ذراعها حول صدره.

را - تا - تا - تا - را - تا - تا - تا - را - تا - تا - تا.

بدا أن أحدهم كان يجري في الأسفل، وأن شخصاً ما يحاول القبض عليهما.

خافت، ليس بسبب الأرض المجهولة التي تقع أمامهما، وإنما بسبب الرجل الغامض الذي كانت تدنو منه طلباً للحماية. وبعد أن أصبح قريباً جداً منها آنذاك، بدا أن كل ما كانت قد رأته واعتادت عليه من بعيد قد اختفى.

أصغت السمع إلى دقّات قلبه، لكن ضوضاء القطار الذي كان يسير فوق السكة الحديدية كان عالياً جداً؛ لهذا كان عليها أن تتأكد من وجود قلب هناك. ابتسمت لنفسها وشعرت بموجات من السعادة تسري في جسدها. يا لها من حماقة رائعة ومدهشة! لم تكن تعرف شيئاً عنه، ولم يكن قد أخبرها إلا القليل عن نفسه، وسرد لها تلك القصص فقط.

كانت رائحة العفن تفوح من بزّته العسكرية، وخطر لها لثانية واحدة فقط أنها على الأرجح رائحة بزّة جندي بقي ممداً في ساحة المعركة لبعض الوقت ظنًّا أنه ميت، أو أنه قد دُفن. لكن، من أين جاءت تلك الأفكار؟ لقد كانت تشعر بالتوتر منذ مدة طويلة، وأدركت عندها فقط كم هي متعبة.

قال استجابة لأفكارها: "أنت بحاجة إلى النوم".

قالت: "نعم". تذكّرت على نحو مبهم سماعها صفّارة تنذر بحصول غارة جوية في مكان بعيد حين كان العالم حولها ينكمش.

"ماذا؟".

سمعت صوتها، وشعرت بأوريا يهزّها، فأفاقت مذعورة. كان أول شيء

خطر لها حين رأت الرجل ببزّته الرسمية عند المدخل أنهما اعتُقلا.

"أريد أن أرى التذكرتين من فضلكما".

قالت: "آه". وحاولت أن تتمالك نفسها، وشعرت بعيني الجابي تتفحّصانها حين كانت تبحث بانفعال في حقيبتها. أخيراً عثرت على التذكرتين الكرتونيتين الصفراوين اللتين كانت قد اشترتهما في فيينا وأعطت الجابي إياهما. أمعن النظر إلى التذكرتين في حين كان يهزّ عقبيه في انسجام مع القطار. استغرق الأمر وقتاً أطول من اللازم بالنسبة إلى هيلينا.

سأل: "هل أنتما ذاهبان إلى باريس معاً؟".

قال أوريا: "بالضبط".

كان الجابي رجلاً عجوزاً، ونظر إليهما.

"لستَ من النمسا، كما يبدو".

"لا، أنا نرويجي".

"آه، النرويج! لقد سمعت أنها جميلة".

"نعم، شكراً لك. يمكنك قول ذلك".

"إذاً، لقد تطوّعت من تلقاء نفسك للقتال من أجل هتلر؟".

"فعلت ذلك. لقد كنت على الجبهة الشرقية، في الشمال".

"حقاً؟ أين في الشمال؟".

"أمام لينينغراد".

"همم! وأنت ذاهب الآن إلى باريس. مع...؟".

"حبيبتي".

"حبيبتك، بالتأكيد. في إجازة؟".

"نعم".

ثقب الجابي تذكرتيهما.

ثم سأل هيلينا وهو يعيد التذكرتين: "من فيينا؟". فأومأت.

قال مشيراً إلى رمز النصارى الديني الذي تضعه في سلسلة فوق كنزتها: "أرى أنكِ كاثوليكية، وزوجتي كذلك".

مال إلى الخلف ونظر إلى الرواق، ثم استدار إلى أوريا وسأله: "هل أرتك حبيبتك دار عبادة سانت ستيفان في فيينا؟".

"لا، لقد كنت في المستشفى؛ لهذا لم تسنح لي الفرصة لرؤية المدينة".

"حسناً. هل هو مستشفى كاثوليكي؟".

"نعم، رود -".

قاطعته هيلينا: "نعم، إنّه مستشفى كاثوليكي".

"همم!".

تساءلت هيلينا: لماذا لم يذهب بعيداً؟

تنحنح الجابي مجدداً.

قال أوريا أخيراً: "نعم؟".

"هذا ليس من شأني. لكن، آمل أن تكون لديك وثائق تثبت أنك في إجازة".

فكّرت هيلينا: وثائق؟ كانت قد زارت فرنسا مرتين مع والدها، ولم يكن قد خطر لها مطلقاً أنهما قد يحتاجان إلى أي شيء باستثناء جواز السفر.

"نعم، إنها ليست مشكلة بالنسبة إليك يا آنسة (فراولين)، لكنها مشكلة بالنسبة إلى صديقك هنا ببزّته العسكرية، فمن الضروري أن يحمل أوراقاً تثبت الموقع الذي كان فيه والمكان الذي يقصده".

صرخت: "طبعاً لدينا وثائق. أنت لا تتخيل أننا سنسافر من دونها بالتأكيد".

ردّ الجابي بسرعة: "لا، لا، بالطبع لا. أردت فقط أن أذكّركما. قبل بضعة أيام...". نقل اهتمامه إلى النرويجي. "اعتقلوا شاباً لم تكن لديه وثائق للذهاب إلى المكان الذي يقصده، ومن ثَمّ عاملوه كفارٍّ من الجندية، فأخذوه إلى الرصيف وأطلقوا عليه النار".

"أنت لا تعني ذلك بالتأكيد!".

"أخشى أن الأمر كذلك. لا أقصد إخافتكما، لكن الحرب حرب. ولن تواجها أي مشكلات مادامت لديكما وثائق رسمية حين نصل إلى الحدود بعد أن نغادر سالزبورغ مباشرة".

اهتزّت العربة، وكان على الجابي أن يمسك بإطار الباب. نظر الأشخاص الثلاثة إلى بعضهم بصمت.

سأل أوريا أخيراً: "إذاً، هناك يوجد أوّل مركز تفتيش؟ بعد سالزبورغ؟".

أومأ الجابي.

قال أوريا: "شكراً لك".

تنحنح الجابي: "لدي ابن في مثل عمرك. لقي حتفه على الجبهة، قرب دنرب".

"آسف لسماع ذلك".

"حسناً، آسف لأنني أيقظتكما يا آنسة ويا سيد".

حيّاهما ثم غادر المكان.

تأكدت هيلينا من إغلاق الباب بإحكام، ثم أخفت وجهها بيديها، وبكت وهي تقول:

"كيف تسنّى لي أن أكون بمثل تلك السذاجة؟!".

قال وهو يضع ذراعه حول كتفها: "لا تبكي الآن. كان يجب أن أفكّر في الوثائق. بالمحصلة، كنت أعرف أنني لا أستطيع التجول بحرّية".

"لكن، ماذا إن قلت لهم إنك في إجازة مرضية وترغب في الذهاب إلى باريس؟ فهي جزء من الرايخ الثالث. إنها...".

"عندها سيتصلون هاتفياً بالمستشفى، وسيقول لهم بروكهارد إنني هربت".

مالت نحوه ونشجت في حجره، فداعب شعرها البني الأملس.

قال: "بالإضافة إلى ذلك، كان يجب أن أعرف أن هذا ليس حقيقياً. أعني أن أكون برفقة حبيبتي هيلينا في باريس؟".

استطاعت تمييز السخرية في صوته.

"لا، سأستيقظ على سريري في المستشفى قريباً، وأفكّر في أنه كان مجرد حلم، وأنتظر بفارغ الصبر أن تجلبي لي طعام الفطور. على أيّ حال، أنت تعملين في المناوبة الليلية غداً. لم تنسي ذلك بالتأكيد. أليس هذا صحيحاً؟ وعندها، يمكنني إخبارك كيف سرق دانيال عشرين حصة طعام من الوحدة السويدية".

رفعت إليه وجهاً بللته الدموع، وقالت: "قبّلني يا أوريا".

سيلجان، تيلمارك. 22 شباط 2000

تفقّد هاري ساعته مجدداً، وضغط بقدمه على دوّاسة الوقود بحرص. كان الموعد عند الساعة الرابعة. وإذا وصل بعد الغسق، فستكون الرحلة كلها مضيعة للوقت. سحقت العجلات البالية الثلج تحتها، وبدا أن عدّة ساعات قد انقضت منذ أن خرج عن الطريق الرئيسة، بالرغم من أنه لم يكن قد قطع أكثر من أربعين كيلومتراً على الدرب الجليدي الممتلئ بالمنعطفات. لم تنفعه النظارة الشمسية الرخيصة التي كان قد اشتراها من محطة الوقود كثيراً، ووخزته عيناه من الضوء الساطع الذي انعكس عن الثلج.

رأى أخيراً سيارة الشرطة وعليها رقم تسجيل سكاين تقف عند حافة الطريق. ضغط على المكابح بحذر، وتوقف هناك، ثم أنزل من حمّالة على سقف السيارة مِزلَجين كانا من إنتاج صانعٍ في تروندهايم أفلس قبل خمسة عشر عاماً. لا بدّ من أنه قد وضع الشحم عليهما منذ ذلك الوقت تقريباً، فقد أصبحت هناك كتلة رمادية قاسية تحت المِزلَجين. عثر على المسلك الذي يصل الطريق بالشاليه وفقاً للوصف الذي حصل عليه. بقي المِزلَجان على الدرب وكأنهما ملصقان عليه بالغراء، ولم يكن بمقدوره التحرّك جانبياً إذا أراد ذلك. كانت الشمس تلامس قمم أشجار الصنوبر حين وصل إلى مقصده، حيث يجلس على درج شاليه خشبي أسود فتىً مع رجلين يرتدي كل منهما سترة فرائية ذات قلنسوة. خمّن هاري، الذي لم يعرف أي مراهقين في حياته أنّ عمر الفتى ما بين اثنتي عشرة سنة وست عشرة سنة.

سأل هاري: "أوف برتلسن؟". كان يلهث.

قال أحد الرجلين وهو يقف ليصافحه: "هذا أنا، وهذا الضابط فولدال".

حنى الرجل الثاني رأسه قليلاً.

افترض هاري أن الفتى هو الذي عثر على أغلفة الخراطيش.

قال برتلسن: "إنّه أمرٌ رائع أن تبتعد عن هواء أوسلو، كما أتخيل".

أخرج هاري علبة لفائف التبغ وقال: "الأكثر روعة هو أن تبتعد عن هواء سكاين، كما أظن".

خلع فولدال قبعته وشدّ ظهره.

ابتسم برتلسن وقال: "بخلاف ما يقوله الناس، الهواء في سكاين أنظف

منه في أي بلدة نرويجية أخرى".

ضمّ هاري كفيّه حول عود الثقاب وأشعل لفافة التبغ.

"هل هذا صحيح؟ سأتذكر ذلك. هل وجدتما أي شيء؟".

"هناك".

وضع الثلاثة الآخرون أقدامهم في مزالجهم، وتقدّمهم فولدال. مشوا مجهدين على دربٍ إلى أن وصلوا إلى فسحةٍ في الغابة. أشار فولدال بعصاه إلى صخرة سوداء تبرز على ارتفاع عشرين سنتيمتراً فوق الثلج.

"عثر الفتى على الخراطيش على الثلج إلى جانب تلك الصخرة. أظن أن صياداً ما كان يتدرب هناك. يمكنك رؤية آثار المِزلَجين بالقرب منها. لم يهطل الثلج منذ أكثر من أسبوع؛ لهذا قد تكون تلك آثاره. يبدو أنه كان ينتعل مِزلَجي تيلمارك عريضين".

جثم هاري في المكان، ومرّر إصبعه على طول الصخرة حيث تلتقي بآثار المِزلَج العريض.

"أو أنهما مِزلَجان خشبيان قديمان".

"آه، ماذا؟!".

رفع هاري شظية خشبية صغيرة.

قال فولدال وهو ينظر إلى برتلسن: "غير معقول!".

استدار هاري إلى الفتى الذي كان يرتدي سروال صيد فضفاضاً، فيه جيوب في كل مكان، ويعتمر قبعة صوفية تغطي رأسه جيداً.

"على أي جانب من الصخرة وجدت الخراطيش؟".

أشار الفتى باتجاه الصخرة. خلع هاري مِزلَجيه، ومشى حول الصخرة، واستلقى على ظهره فوق الثلج. كانت السماء زرقاء فاتحة آنذاك، كما هي الحال في أيام الشتاء الصافية قبل أن تغرب الشمس. استدار على جنبه، ونظر من فوق الصخرة نحو الفسحة في الغابة التي كانوا قد جاءوا منها، فرأى أربع شجرات جذوعها مقطوعة.

"هل وجدتما أي رصاصات، أو أي آثار تدلّ على حصول إطلاق نار؟".

حكّ فولدال مؤخر عنقه وقال: "هل تسألنا إن كنا قد فحصنا كل جذع شجرة في شعاع نصف كيلومتر؟".

وضع برتلسن يده المكسوة بقفّاز على فم فولدال، فيما نفض هاري رماد لفافة التبغ، وأمعن النظر إلى طرفها المتوهّج.

"لا. أعني هل تفقّدتما جذوع الأشجار هناك؟".

سأل فولدال: "ولماذا يجب أن نتفقّد تلك الجذوع خاصة؟".

"لأن بندقيّة ماركلين أثقل بندقية في العالم. ولا يُعتَبر سلاحٌ وزنه خمسون كيلوغراماً خياراً جذاباً لإطلاق عيار ناري من وضعية الوقوف. لهذا سيكون طبيعياً افتراض أنه وضعها على هذه الصخرة للتسديد. تقذف بنادق ماركلين غلاف الرصاصة إلى اليمين، ونظراً إلى أن الأغلفة المستخدمة وُجدت إلى يمين هذه الصخرة، فلا بد من أنه كان يسدّد في الاتجاه الذي كنا قد جئنا منه؛ لهذا لن يكون افتراض أنه وضع شيئاً على أحد جذوع الأشجار ليسدّد عليه مخالفاً للمنطق؛ أليس كذلك؟".

نظر برتلسن وفولدال إلى بعضهما. "حسناً، الأفضل أن نتفقّد ذلك".

قال برتلسن بعد ثلاث دقائق: "إن لم يكن هذا خنفساء لحاء شجرة كبيرة... فإنه ثقب رصاصة كبيرة".

جثا فوق الثلج، ودفع إصبعه في أحد جذوع الأشجار قائلاً: "تباً، لقد اندفعت الرصاصة بعيداً، ولا يمكنني مسّها".

قال هاري: "انظر إلى الداخل".

"لماذا؟".

أجاب هاري: "لترى إن كانت قد اخترقت الجذع".

"أيعقل أن تكون قد اخترقت شجرة الصنوبر الضخمة تلك!؟".

"ألقِ نظرة فحسب، وتأكّد إن كنت ترى ضوء النهار".

سمع هاري فولدال يتأفف خلفه، فيما وضع برتلسن عينه على الثقب.

"يا الله!".

صرخ فولدال: "هل ترى شيئاً؟".

"أرى نصف مجرى نهر سيلجان اللعين فقط".

استدار هاري نحو فولدال الذي كان قد أدار ظهره إليه ليبصق.

وقف برتلسن على قدميه، وقال: "لن تنفع كثيراً السترة المضادة للرصاص إذا أُصبت بإحدى تلك الرصاصات".

قال هاري: "لن تنفع إطلاقاً. الشيء الوحيد الذي ينفع هو درع مصفّحة". أطفأ لفافة التبغ في جذع الشجرة وصحح قوله: "أقصد درعاً مصفّحة سميكة".

وقف على مِزلَجيه، وحرّكهما في الثلج إلى الأمام والخلف.

قال برتلسن: "يجب علينا أن نتكلم مع الناس في الشاليهات المجاورة، فربما يكونون قد رأوا أو سمعوا شيئاً، أو قد يعترف أحدهم بأنه اقتنى هذه البندقية".

شرع فولدال يقول: "بعد السماح باقتناء الأسلحة في السنة الماضية...".

لكنه غيّر رأيه حين حدّق إليه برتلسن.

سأل برتلسن هاري: "هل من شيء آخر يمكننا فعله لمساعدتك؟".

قال هاري، وهو ينظر إلى الطريق عابساً: "حسناً، يمكنكما مساعدتي على تشغيل السيارة، أليس كذلك؟".

مستشفى رودولف الثاني. 23 حزيران 1944

كان الأمر مثل حلم بالنسبة إلى هيلينا؛ النوافذ مفتوحة، وشمس الصيف الدافئة تملأ الرواق برائحة العشب الذي جُزّ حديثاً. كانت هناك غارات جوية كل ليلة طوال أسبوعين، لكنها لم تلاحظ شيئاً، ولا حتى رائحة الدخان. كانت تحمل رسالة في يدها؛ رسالة رائعة! ولم تستطع رئيسة الممرضات سيئة الطبع إلا أن تبتسم حين صاحت هيلينا: صباح الخير (غتن مورغن).

رفع د. بروكهارد بصره عن الأوراق مدهوشاً حين اندفعت هيلينا إلى مكتبه، وقال: "حسناً؟".

خلع نظارته، ووجّه نظرته الصارمة نحوها. ألقت نظرة خاطفة إلى اللسان الرطب الذي كان يمصّ طرفي النظارة، ثم جلست.

شرعت تقول: "كريستوفر"، ولم تكن قد استخدمت اسمه الأول منذ أن كانا صغيرين. "لديّ شيء أخبرك به".

قال: "جيد. هذا بالضبط ما كنت أنتظره".

كانت تعرف ما ينتظره. فهو ينتظر تفسيراً لعدم استجابتها لرغباته، ولعدم ذهابها إلى شقته في البناء الرئيس، بالرغم من حقيقة أنه كان قد مدّد شهادة أوريا الطبية مرّتين. كانت قد ألقت اللومَ على القصف، وقالت إنها لا تجرؤ على الخروج من المبنى، ثم عرض عليها زيارتها في منزل والدتها الصيفي، لكنها رفضت ذلك تماماً.

قالت: "سأخبرك كل شيء".

سأل بابتسامة صغيرة: "كل شيء؟".

فكّرت: حسناً، كل شيء تقريباً.

"في الصباح الذي اختفى فيه أوريا...".

"اسمه ليس أوريا يا هيلينا".

"في الصباح الذي اختفى فيه وأطلقت الإنذار، هل تتذكّر ذلك؟".

"بالتأكيد".

وضع بروكهارد نظارته على الطاولة، في موازاة الأوراق أمامه. "فكّرت في إبلاغ الشرطة العسكرية عن اختفائه. على أيّ حال، ظهر مجدداً فجأة، وسرد قصّة عن تجوّله في الغابة في منتصف الليل".

"لم يكن في الغابة، وإنما على متن القطار القادم من سالزبورغ".

"حقاً؟". استرخى بروكهارد على كرسيه، وعلى وجهه تعبيرٌ قاسٍ، مما

أشار إلى أنه لم يكن رجلاً يحب أن يُصاب بالدهشة.

"سافر قبل منتصف الليل على متن القطار من فيينا، ووصل إلى سالزبورغ حيث انتظر ساعة ونصف الساعة قبل أن يستقل مجدداً القطار عائداً. وصل إلى المحطة المركزية (هوبتباهنهوف) عند الساعة التاسعة صباحاً".

"حسناً!". ركّز بروكهارد على القلم الذي كان يحمله بين إصبعيه، وسألها: "وماذا قال عن سبب قيامه بتلك الرحلة الغبية؟".

قالت هيلينا، وهي لا تدرك أنها تبتسم: "حسناً! قد تتذكّر أنني في ذلك الصباح قد تأخرت أيضاً".

"نعم...".

"كنت عائدة من سالزبروغ أنا أيضاً".

"هل هذا صحيح؟!".

"إنه صحيح".

"أظن أنّه عليك توضيح ذلك يا هيلينا".

شرحت هيلينا ما جرى فيما كانت تحدّق إلى إصبعي بروكهارد، وكانت نقطة دم قد سالت من تحت رأس القلم.

قال بروكهارد حين أنهت كلامها: "فهمت. ظننتِ أنه بمقدورك الذهاب إلى باريس. وإلى متى كنت تظنين أنك تستطيعين الاختباء هناك؟".

"واضح تماماً أننا لم نمعن التفكير في الأمر. فقد ظن أوريا أننا يجب أن نذهب إلى أميركا؛ إلى نيويورك".

ضحك بروكهارد بجفاء: "أنت فتاة مرهفة الإحساس يا هيلينا. أرى أن هذا المنشقّ قد أعماك بأكاذيبه الخادعة عن أميركا. لكن، هل تعرفين أمراً؟".

"ماذا؟".

"أنا أسامحك".

وعندما رآها تحدّق إليه، تابع: "نعم، أسامحك. ربما يجب أن تُعاقبي، لكنني أعرف مدى تقلّب أفئدتكن أيتها الشابات".

"ليس الصفح ما...".

"كيف حال والدتك؟ لا بدّ من أن بقاءك وحيدة الآن صعب عليها. هل حُكم على والدك بالسجن ثلاث سنوات؟".

"بل حكم عليه بأربع سنوات. هلاّ أصغيت السمع من فضلك يا كريستوفر؟".

"أرجوكِ، لا تفعلي أو تقولي أي شيء قد تندمين عليه يا هيلينا. ما أخبرتني إيّاه لا يغير شيئاً، ولا يزال الاتفاق ساري المفعول".

"لا!". وقفت هيلينا بسرعة كبيرة جعلت كرسيها ينقلب، وضربت الطاولة بالرسالة التي كانت تطويها في يدها.

"انظر بنفسك! لم يعد لك أي سلطان عليّ، أو على أوريا".

ألقى بروكهارد نظرة على الرسالة، لكن المغلّف البني المفتوح لم يكن يعني له شيئاً. أخرج الرسالة، ووضع نظارته، وبدأ يقرأ.

قوات أس أس

برلين، 22 حزيران

لقد تلقينا طلباً من قائد الشرطة النرويجية، جوناس لاي، بتسليمك مباشرة إلى الشرطة في أوسلو لتأدية الخدمة فيها. ونظراً إلى أنك مواطن نرويجي، فإننا لا نرى سبباً يدعونا إلى الرفض. لهذا السبب، يلغي هذا الأمر الأوامرَ السابقة بانضمامك إلى الجيش. ستصلك تفاصيل تتعلق بمكان الالتحاق والتوقيت من سلطات الشرطة النرويجية.

هاينريش هيملر

القائد الأعلى لقوات الأمن الخاصة (أس أس)

كان على بروكهارد أن ينظر إلى التوقيع مرّتين. هاينريش هيملر نفسه! ثم رفع الرسالة إلى الضوء.

قالت هيلينا: "يمكن أن تتأكّد منها إذا أردت. لكن، أؤكّد لك أنها صحيحة".

كان بمقدورها سماع عصافير تغرّد في الحديقة من خلال النافذة المفتوحة. تنحنح بروكهارد مرتين قبل أن يتكلم: "إذاً، كتبتِ رسالة إلى قائد الشرطة في النرويج؟".

"أوريا كتب له، في حين أرسلتها أنا عبر البريد".

"أنتِ أرسلتها عبر البريد؟".

"نعم، أو لا في الواقع. لقد أرسلتها كبرقيّة".

"وثيقة كاملة؟ لا بدّ من أن ذلك قد كلّف...".

"كانت عاجلة".

قال، لنفسه أكثر منها: "هاينريش هيملر...!".

"آسفة يا كريستوفر".

ضحك ضحكته الجافة مجدداً. "حقاً؟ ألم تحققي ما كنتِ تريدينه بالضبط يا هيلينا؟".

أرغمت نفسها على الابتسام.

"أريد أن أطلب منك معروفاً يا كريستوفر؟".

"آه؟".

"يريد مني أوريا أن أذهب معه إلى النرويج، وأحتاج إلى توصية من المستشفى حتى أستطيع الحصول على إذن بالسفر".

"وتخشين الآن أن أضع العصا في العجلة؟".

"والدك في مجلس الحكم".

"نعم، يمكن أن أسبّب لك المتاعب". فرك ذقنه. كانت النظرة الثاقبة قد ثبّتت نفسها على نقطة ما في جبينها.

"مهما يحدث يا كريستوفر، فلن توقفنا. أنا وأوريا نحب بعضنا، هل تفهم؟".

"لماذا يجب أن أقدّم معروفاً إلى جندي حقير؟".

فغرت هيلينا فمها دهشة. كانت الكلمة مهينة جداً، حتى لو كانت من شخص تزدريه، ويتكلم بانفعال. لكن قبل أن ترد، كان وجه بروكهارد قد تغضّن؛ وكأنه الشخص الذي تلقّى الإهانة.

"سامحيني يا هيلينا. أنا... تباً!". أدار فجأة ظهره لها. أرادت هيلينا أن تنهض وتغادر، لكنها لم تعثر على الكلمات التي يمكن أن تجعلها تغادر المكان. كان صوته مجهداً حين أضاف: "لم أقصد أن أؤذيك يا هيلينا".

"كريستوفر...".

"أنت لا تفهمين. لا أقول هذا غطرسة، لكنني أتمتع بسجايا أعرف أنها ستُعجبكِ مع مرور الوقت. ربما أكون قد تماديت. لكن، تذكّري أنني تصرفت دائماً بما يتناسب مع أفضل مصالحك".

حدّقت إلى ظهره. كان معطف الطبيب أكبر بكثير من حجم كتفيه الهزيلتين. تذكّرت كريستوفر الذي كانت قد عرفته صغيراً. كان شعره أسود وأجعد، ويرتدي بذلة حقيقية بالرغم من أنه كان في الثانية عشرة فقط من عمره. كانت قد أحبّته في أحد فصول الصيف، ألم تفعل؟

أطلق زفيراً طويلاً ومتقطّعاً. مشت خطوة نحوه، ثم غيّرت رأيها. لماذا يجب أن تشعر بالتعاطف مع هذا الرجل؟ نعم، كانت تعرف السبب؛ لأن قلبها كان يمتلئ سعادة بالرغم من أنها لم تكن قد فعلت الكثير لتحصل عليها، لكن كريستوفر بروكهارد، الذي حاول في كل يوم من حياته اكتساب السعادة، سيبقى دائماً رجلاً وحيداً.

"كريستوفر، يجب أن أذهب الآن".

"نعم، طبعاً. عليك أن تفعلي ما يجب القيام به يا هيلينا".
وقفت ومشت باتجاه الباب.
قال: "وعليَّ أن أفعل ما يجب عليّ القيام به".

مقر قيادة الشرطة. 24 شباط 2000

أطلق رايت لعنة. كان قد جرّب كل ما يعرفه عن جهاز عرض الصور (المسلاط) لتوضيح الصورة، لكن عبثاً حاول؛ فكل ذلك كان من دون جدوى.

سعل أحدهم.

"أظن أن الصورة نفسها ليست واضحة أيها الملازم. أعني أن المشكلة ليست في المسلاط".

قال رايت وهو يحجب عينيه بيده حتى يرى الحاضرين: "حسناً، على أيّ حال، هذا هو أندرياس هوشنر". لم تكن الغرفة تحتوي على أيّ نوافذ. لهذا عندما تُطفأ الأضواء، كان يغمرها ظلام دامس كما حدث آنذاك. ووفقاً لما قيل لرايت، كانت حصينة؛ فلا يمكن لأحد أن يتنصّت إلى ما يدور فيها، بغض النظر عمّا يعنيه ذلك.

لم يكن يوجد في الغرفة بالإضافة إلى أندرياس رايت، الملازم في الاستخبارات العسكرية، إلا ثلاثة أشخاص آخرين: الرائد بارد أوفسن من الاستخبارات العسكرية، وهاري هول؛ الرجل الجديد من الاستخبارات السرية، ورئيس الاستخبارات السرية كورت ميريك. كان هول هو من أرسل إليه فاكساً يحمل اسم تاجر الأسلحة في جوهانسبرغ. وقد أزعجه يومياً للحصول على المعلومات منذ ذلك الوقت. لم يكن هناك شك في أن عدداً كبيراً من الأشخاص في الاستخبارات السرية يظنون أن الاستخبارات العسكرية مجرد قسم من الاستخبارات السرية، ومن الواضح أنهم لم يكونوا قد قرأوا الأنظمة التي تقول إنهما منظمتان متماثلتان تعملان بالتنسيق في ما بينهما. لكنّ رايت فعل ذلك. لهذا، كان في النهاية قد شرح للرجل الجديد أن القضايا التي لا تتمتع بأولوية يجب أن تنتظر. غير أن ميريك اتّصل به بعد نصف ساعة ليقول إن قضيته قد أصبحت أولوية قصوى. لماذا لم يقولوا ذلك منذ البداية؟

كانت الصورة المشوّشة بالأبيض والأسود لرجلٍ يغادر مطعماً. وبدا أنها قد التُقطت من نافذة سيارة. كان وجه الرجل عريضاً، وتبدو عليه ملامح القسوة، وكانت عيناه داكنتين، وأنفه كبيراً يعلو شارباً كثيفاً أسود يتدلى من فوق فمه من الطرفين.

قرأ رايت من ورقة مطبوعة كان قد أحضرها معه: "أندرياس هوشنر، ولد عام 1954 في زيمبابوي، لأبوين ألمانيين. مرتزق سابق في الكونغو

وجنوب إفريقيا، ومتورط على الأرجح في تهريب الأسلحة منذ منتصف الثمانينيات. وحين كان في التاسعة عشرة من عمره، اتُّهِم مع ستة رجال بقتل فتى أسود في كينشاسا، لكنه بُرّئ لنقص الأدلة. تزوج مرتين وطلّق. يشتبه في أن صاحب عمله في جوهانسبرغ كان خلف تهريب صواريخ مضادة للطائرات إلى الشرق الأوسط، وشراء أسلحة كيميائية من العراق. يُزعم أنه قد باع بنادق خاصة إلى كرادزيتش في أثناء الحرب البوسنية، وأنه قد درّب قنّاصين في أثناء حصار سراييفو، لكن ذلك لم يوثّق بعد".

قال ميريك وهو ينظر إلى ساعته: "تجاوز التفاصيل من فضلك". كان الوقت يمرّ بطيئاً دائماً.

قال رايت وهو يقلّب باقي الأوراق: "حسناً. نعم، هنا. كان أندرياس هوشنر أحد أربعة أشخاص اعتُقلوا في أثناء غارة على تاجر أسلحة في جوهانسبرغ في كانون الأول، وعُثر على لائحة طلبيات مرمّزة في ذلك الوقت. كانت إحدى القطع المطلوبة بندقية ماركلين، ووجهتها أوسلو، بتاريخ 21 كانون الثاني. هذا كل شيء".

أطبق الصمت عليهم، ولم يعد يُسمَع إلا أزيز مروحة المسلاط. حجب رايت عينيه.

سأل أوفسن: "كيف يمكن أن نتأكّد من أن هوشنر هو الشخص المحوري في قضيتنا؟".

جاء صوت هاري هول من الظلام وهو يقول: "تكلمت مع المفتش آسايا بورني في جوهانسبرغ، واستطاع أن يخبرني أنهم فتّشوا شقق المتورّطين بعد اعتقالهم، وعثروا على جواز سفر مثير للاهتمام في منزل هوشنر. كانت الصورة له، لكن الاسم مختلف تماماً".

قال أوفسن: "وجود تاجر سلاح باسم مزوّر ليس... أمراً مفاجئاً".

"كنت أفكّر أكثر في إحدى التأشيرات التي وجدوها على جواز السفر: أوسلو، النرويج، 10 كانون الثاني".

قال ميريك: "إذاً، فقد كان في أوسلو. هناك نرويجي على لائحة عملاء الشركة، وقد عثرنا على خراطيش فارغة لهذه البندقية المميزة. لقد جاء أندرياس هوشنر إلى النرويج، ويمكن أن نفترض أن الصفقة أُنجزت. لكن، من هو ذلك النرويجي على اللائحة؟".

قال هاري: "لسوء الحظ، لم يُذكَر على اللائحة اسمٌ كاملٌ أو عنوان. لكن، ذُكِر أن العميل في أوسلو هو أوريا، ولا بدّ من أنه اسم زائف. ووفقاً لبورني في جوهانسبرغ، فإن هوشنر ليس مهتماً جداً بالحديث".

قال أوفسن: "كنت أظنّ أن الشرطة في جوهانسبرغ لديها أساليب فاعلة في الاستجواب".

"هذا محتمل. لكن، من المرجّح أن الخطر الذي يتهدّد هوشنر إذا تكلّم أكبر، ممّا لو أبقى فمه مغلقاً. إنها لائحة طويلة من العملاء...".

قال رايت: "لقد سمعت أنهم في جنوب إفريقيا يستخدمون الكهرباء في التعذيب؛ تحت القدمين، وعلى الحلمتين و... حسناً. ذلك مؤلم حقاً. هل يستطيع أحد تشغيل الضوء رجاءً؟".

هاري: "في قضية تنطوي على شراء أسلحة كيميائية، تصبح رحلة عمل إلى أوسلو مع بندقية أمراً غير ذي شأن. أظن، لسوء الحظ، أن الإفريقيين الجنوبيين يحتفظون بكهربائهم لقضايا أكثر أهمية، إذا صحّ القول. وفضلاً على ذلك، ليس من المؤكد أن هوشنر يعرف هوية أوريا. ويجب، في غياب أي معلومات عن أوريا، أن نتساءل: ما خططه؟ أهي اغتيال؟ أم إرهاب؟".

قال ميريك: "أو سرقة".

قال أوفسن: "مع بندقية ماركلين؟! سيكون ذلك أشبه بإطلاق النار من مدفع على عصافير الدوري".

اقترح رايت: "أو ربما كان هدفه قتل تاجر ممنوعات؟".

قال هاري: "حسناً، كان مسدسٌ كافياً لاغتيال الشخص الذي يتمتع بأفضل حماية في السويد، ولم يُلقَ القبض على قاتل أولاف بالم قطّ. لهذا ما الحاجة إلى بندقية تكلّف أكثر من نصف مليون كرون لقتل شخص ما هنا؟".

"ربما الهدف ليس نرويجياً، إذ ربما كان يريد اغتيال شخص من الخارج؛ شخص يُعدُّ هدفاً دائماً للإرهابيين، لكنه محمي بقوة في بلادهم، ولا يمكن أن تنجح عملية اغتياله هناك، أو شخص يظنّون أن بمقدورهم قتله بسهولة أكبر في بلد صغير ومسالم؛ حيث يقدّرون أن الإجراءات الأمنية ليست على المستوى المطلوب".

سأل أوفسن: "لكن، من؟ لا يوجد أحد في البلاد ينطبق عليه هذا الوصف".

أضاف ميريك: "وليس هناك أحد قادم".

قال هاري: "ربما سيتم ذلك على المدى البعيد".

قال أوفسن: "لكن السلاح وصل قبل شهرين. ولا يبدو منطقياً أن يأتي إرهابيون أجانب إلى النرويج قبل شهرين من تنفيذهم المهمّة".

"ربما ليسوا أجانب، ولكنّهم نرويجيون".

قال رايت، وهو يتلمّس طريقه إلى المفتاح الكهربائي على الجدار: "ليس هناك أحد في النرويج يستطيع القيام بما تقوله".

قال هاري: "بالضبط. هذا هو القصد".

"القصد؟!".

"تخيّلوا إرهابياً أجنبياً معروفاً يريد اغتيال شخص ما في بلده، وهذا الشخص سيذهب إلى النرويج. ستراقب الاستخبارات السرية في البلد الذي يعيش فيه كل خطواته؛ لهذا بدلاً من المخاطرة بنفسه سيتصل بمجموعة من الأشخاص الذين يتفقون معه في الرأي في النرويج. وتمثّل حقيقة أنهم قد يكونون هواة أفضلية في الواقع؛ لأن الإرهابي يعرف أن تلك المجموعة لن تثير انتباه الشرطة".

ميريك: "نعم، فالخراطيش التي تركوها خلفهم تشير إلى أنهم هواة".

"يتفق الإرهابي والهاوي على أن يقوم الإرهابي بتمويل شراء بندقية غالية الثمن، ثم قطع كل الروابط بينهما بعد ذلك؛ بحيث لا يوجد ما يمكن تعقّب أثره إلى الإرهابي. وبهذه الطريقة يكون قد حرّك العملية من دون أن يخاطر إلا ببعض المال".

سأل أوفسن: "لكن، ماذا إن لم يكن هذا الهاوي قادراً على تنفيذ تلك المهمّة؟ أو قرّر بيع البندقية والفرار بالمال؟".

"الأمر ينطوي بالطبع على بعض المخاطرة. لكن، يجب أن نفترض أن الإرهابي يعرف أن لدى الهاوي حافزاً كبيراً. وربما يكون لديه أيضاً حافز شخصي يدفعه إلى المخاطرة بحياته من أجل تنفيذ المهمّة".

قال أوفسن: "إنها نظرية مثيرة للاهتمام، كيف ستثبتها؟".

"لا يمكن ذلك. أتكلم عن رجل لا نعرف عنه شيئاً، ولا نعرف كيف يفكر، ولا يمكننا الاعتماد على أنه سيتصرّف بعقلانية".

قال ميريك: "هذا رائع. هل لدينا أي نظريات أخرى عن السبب الذي جعل هذا السلاح يظهر في النرويج؟".

قال هاري: "العشرات منها، لكن هذا أسوأ سيناريو محتمل".

تنهّد ميريك: "حسناً. مهمّتنا أن نطارد أشباحاً. لهذا من الأفضل أن نرى إن كنا نستطيع إجراء حديث مع هوشنر هذا. سأجري بعض الاتصالات... آه!".

كان رايت قد عثر على المفتاح الكهربائي وغمر ضوء أبيض ساطع الغرفة.

منزل أسرة لانغ الصيفي، فيينا. 25 حزيران 1944

وقفت هيلينا وهي تنظر إلى نفسها في مرآة غرفة النوم. وكانت تفضّل أن تفتح النافذة حتى تستطيع سماع وقع الخطوات على الدرب المفروش بالحصى، لكن والدتها كانت صارمة جداً بشأن التعتيم. تأمّلت صورةَ والدها على الخزانة، وكان يدهشها دائماً كم يبدو يافعاً وبريئاً في اللوحة.

عقصت شعرها بدبّوس كما تفعل دائماً. هل يجب أن تفعل ذلك على نحو مختلف؟ عدّلت بياترس فستان والدتها القطني الأحمر ليتناسب مع جسد هيلينا الطويل والنحيل. كانت والدتها ترتدي هذا الثوب عندما التقت والدها، وبدت الفكرة غريبة وشاذّة عن المألوف، وبطريقة ما مؤلمة جداً. كان الأمر كذلك؛ فعندما أخبرتها والدتها عن ذلك الوقت، بدا أنها تتكلم عن شخصين مختلفين، شخصين جذّابين سعيدين ظنّا أنهما يعرفان إلى أين يمضيان.

رفعت هيلينا الدبّوس، وهزّت شعرها البني حتى تدلّى حول وجهها. رنّ جرس الباب، وسمعت وقع خطوات بياترس في الردهة، فاستلقت على السرير على ظهرها، وشعرت بمعدتها تتقلّص. لم تستطع تمالك نفسها؛ شعرت بأنها في الرابعة عشرة من عمرها يضنيها الحب في علاقة غرامية صيفية. سمعت حديثاً خافتاً في الأسفل، وصوت والدتها الحاد والثاقب، وطقطقة المشجب حين علّقت بياترس معطفه عليه في خزانة الملابس. فكّرت هيلينا: معطف! لقد ارتدى معطفه بالرغم من أن هذه الأمسية كانت إحدى أمسيات الصيف الدافئة والرطبة التي لا يشهدون مثلها عادة قبل آب.

انتظرت مطوّلاً، ثم سمعت صوت والدتها ينادي: "هيلينا!".

نهضت عن السرير، ووضعت دبّوس الشعر في مكانه، ثمّ نظرت إلى يديها، وكرّرت لنفسها: يداي ليستا كبيرتين، يداي ليستا كبيرتين، ثم ألقت نظرة أخيرة إلى المرآة - كانت فاتنة! - وأخذت نفساً متقطّعاً، وخرجت من الباب.

"هيل...".

توقفت الأم عن الصراخ حين ظهرت هيلينا في أعلى السلالم. وضعت الشابة قدمها بحرص على الدرجة العليا، وبدا الكعبان العاليان، اللذان تنزل بهما السلالم بسرعة عادة، غير ثابتين فجأة.

قالت والدتها: "لقد وصل ضيفك".

ضيفك! كانت هيلينا في سياق آخر ستنزعج على الأرجح من اختيار والدتها كلمةً تؤكّد فيها أنها لا تعتبر الجندي الأجنبي الوضيع ضيف المنزل، لكن هذا اليوم كان مميّزاً، وأرادت هيلينا أن تقبّل والدتها؛ لأنها لم تكن أكثر تشدّداً. كانت على الأقل قد استقبلته قبل أن تلتقيه هيلينا.

نظرت هيلينا إلى بياترس، فابتسمت مدبّرة المنزل، لكن ظهرت في عينيها مسحة الحزن نفسها التي تظهر على وجه والدتها. نقلت هيلينا بصرها إليه. لمعت عيناه، وشعرت أن الحرارة فيهما تحرق وجنتيها. نزلت ببصرها إلى الحنجرة البنية الحليقة، والياقة التي تحمل حرفي "أس"، والبزّة العسكرية الخضراء التي كانت متغضّنة جداً على متن القطار، لكنها الآن مكوية حديثاً. كان يحمل باقة من الأزهار في يده، وهي تعرف أن بياترس قد عرضت عليه من دون شك وضعها في "مزهرية"، لكنه شكرها وطلب منها الانتظار حتى تتمكن هيلينا من رؤيتها أولاً.

نزلت درجة أخرى، واستقرت يدها بلطف على "الدرابزين"، وأصبح الأمر أسهل آنذاك. رفعت رأسها وأحاطت الثلاثة جميعاً بنظرة واحدة، وأدركت فجأة بطريقة غريبة أن تلك أجمل لحظة في حياتها. كانت تعرف ما يرونه، وكيف يمعنون التفكير فيه.

كانت والدتها ترى نفسها بشبابها الضائع وأحلامها وهي تنزل السلالم، فيما بياترس ترى الفتاة التي ربّتها وكأنها ابنتها، وهو يراها المرأة التي يحبّها كثيراً، ولم يكن يستطيع إخفاء ذلك خلف إحراج إسكندنافي وأخلاق حميدة.

قالت بياترس: "تبدين رائعة". وغمزتها هيلينا بالمقابل، ثم وصلت إلى الأسفل.

ابتسمت لأوريا: "إذاً، لقد وجدت الطريق؛ حتى في الظلام الحالك؟".

أجاب بصوت عالٍ وواضح: "نعم". وتردّد صداه في القاعة العالية المكسوّة بالآجر، وكأنه في دار عبادة.

تكلمت الأم بصوتها الحاد والثاقب، في حين دخلت بياترس غرفة الطعام وخرجت منها مثل شبح ودود. لم تستطع هيلينا إبعاد ناظريها عن السلسلة المرصّعة بالألماس التي تضعها والدتها حول عنقها، وهي أغلى قطعة حلي لديها، ولا تتزين بها إلا في المناسبات الخاصة فقط.

تركت الأم بشكل استثنائي الباب المؤدي إلى الحديقة مفتوحاً قليلاً. كان غطاء الغيوم منخفضاً جداً، وقد لا يتعرضون لأي قصف في هذه الليلة. جعل الهواء الذي دخل من الباب المفتوح نيران الشموع تهتز، والظلال

تتراقص على صور رجال ونساء وقورين يحملون اسم أسرة لانغ. كانت الأم قد أوضحت له بتكلّف هوية هؤلاء الأشخاص، وما كانوا قد حقّقوه، ومن أي أسر اختاروا أزواجهم. أصغى أوريا السمع، وارتسمت على وجهه ما ظنّت هيلينا أنها ابتسامة ساخرة صغيرة، لكن كان يصعب التثبت من ذلك في العتمة. كانت الأم قد شرحت له أنهنّ يشعرن بالمسؤولية في زمن الحرب، ولذلك يسعين إلى توفير الكهرباء، وكان طبيعياً ألا تذكر ظروف الأسرة الاقتصادية آنذاك، وأن بياترس هي آخر خادمة باقية من فريق كان يتألف من أربعة أشخاص.

وضع أوريا شوكته جانباً وتنحنح. كانت الأم قد أجلستهما في أحد طرفي طاولة الطعام الكبيرة، وجهاً لوجه، في حين جلست هي في الطرف الآخر.

"إنّ هذا الطعام لذيذ سيدة لانغ".

كانت وجبة عادية؛ ليست بسيطة بحيث يمكن اعتبارها إهانة، لكنها ليست فاخرة بحيث تمنحه سبباً للاعتقاد أنه ضيف شرف.

قالت هيلينا بدفء: "هذا الطعام من صنع بياترس. إنها تحضّر أفضل شرائح لحم العجل في النمسا. هل تذوقتها من قبل؟".

"مرة واحدة فقط وفقاً لما أذكر، ولا يمكن مقارنتها بهذه".

قالت الأم: "شفاين. لم تكن تلك الوجبة التي تناولتها مصنوعة من لحم العجل. لا نأكل في هذا المنزل إلا لحم العجل، وفي حال عدم توافره نأكل الديك الرومي".

قال مبتسماً: "لا أتذكر أي لحم، وأظن أنها كانت مصنوعة من بيض وفتات خبز".

ضحكت هيلينا برقّة، فرمقتها والدتها بنظرة سريعة.

كان الحديث قد توقّف بضع مرات في أثناء تناول الطعام. لكن، بعد مضي بعض الوقت، أخذ أوريا يجاري هيلينا ووالدتها في الحوار. كانت هيلينا قد قرّرت قبل أن تدعوه إلى العشاء ألا تدع ما تفكّر فيه والدتها يزعجها. كان أوريا مهذّباً، لكنه رجل من بيئة زراعية بسيطة، ويفتقر إلى رقّة الطبع وأنماط السلوك التي ترافق التنشئة في منزل راقٍ. كان على هيلينا أن تقلق كثيراً على أيّ حال، لكنها دُهشت من سلوك أوريا غير المتكلّف، وخبرته في الحياة.

سألت الأم وهي تضع آخر قطعة بطاطا في فمها: "أنت تخطط على الأرجح للعمل حين تنتهي الحرب؟".

أومأ أوريا، وبينما كانت السيدة لانغ تُنهي المضغ، انتظر بصبرٍ السؤال الآتي حتماً.

"وماذا سيكون ذلك العمل، إذا سمحت لي بالسؤال؟".

"ساعي بريد. على الأقل، وُعِدت بهذه الوظيفة قبل أن تندلع الحرب".

"إيصال البريد؟! ألا تفصل مسافات بعيدة جدًّا منازل الناس عن بعضها في بلدك؟".

"ليس الأمر سيئاً جداً. فنحن نستقر حيث نستطيع: على طول الممرات البحرية، وفي الوديان، وفي أماكن أخرى محمية من الريح والعواصف. وبالطبع هناك بعض البلدات وأماكن أكبر أيضاً".

"لا حاجة إلى متابعة الكلام. هذا مثير للاهتمام. هل لي أن أسأل إن كنت رجلاً موسراً؟".

"أمي!". حدّقت هيلينا إلى والدتها غير مصدّقة.

"نعم يا عزيزتي؟". مسحت الأم فمها بمنديل، ولوّحت إلى بياترس لكي ترفع الأطباق.

"تجعلين الأمر يبدو مثل استجواب".

قالت الأم وهي ترفع كأسها، وتبتسم بسعادة لأوريا: "نعم، هذا استجواب".

رفع أوريا كأسه وقابل الابتسامة بمثلها.

"أفهمك يا سيدة لانغ، فهي ابنتك الوحيدة. أنت محقة تماماً. حسناً، سأقول إنه من واجبك أيضاً أن تكوني واثقة تماماً بالرجل الذي اختارته".

كانت شفتا السيدة لانغ الرفيعتان قد امتدتا إلى الأمام لتشرب، لكن كأس الشراب لم تتحرك وتسمّرت في الهواء.

تابع أوريا: "لست ثرياً، لكنني متحمّس للعمل. لدي رأس جيد، وسأتمكّن من توفير قوت لنفسي ولهيلينا ولعدّة أشخاص آخرين من دون شك. أعدك أن أعتني بها بأفضل ما أستطيع يا سيدة لانغ".

شعرت هيلينا برغبة جامحة في القهقهة، وبمتعة غريبة في الوقت نفسه.

هتفت الأم، ووضعت كأسها مجدداً: "آه، يا الله! أنت تستبق الأمور قليلاً الآن أيها الشاب، أليس كذلك؟".

"نعم". تناول أوريا جرعة وحدّق إلى الكأس. "ويجب أن أقول مجدداً: إن هذا شراب جيد حقاً يا سيدة لانغ".

حاولت هيلينا أن تركل ساقه، لكنها لم تستطع الوصول إليها تحت

طاولة السنديان العريضة.

"هذه أوقات غريبة حقاً، وهي لا تدوم طويلاً". وضع كأسه جانباً، لكنه استمر في النظر إليها. كانت شبه الابتسامة التي ظنّت هيلينا أنها رأتها قد اختفت.

"لقد تحدّثت إلى رفاق السلاح في أمسيات مثل هذه يا سيدة لانغ، عن كل الأشياء التي سنفعلها في المستقبل، وكيف ستكون النرويج الجديدة، وعن كل الأحلام التي سنحققها، كبيرها وصغيرها. وبعد بضع ساعات لقوا حتفهم في ساحة المعركة، من دون أي مستقبل".

رفع عينيه ونظر مباشرة إلى السيدة لانغ.

"أتحرّك بسرعة؛ لأنني وجدت امرأة أريدها وتريدني. الحرب مستعرة، وكل ما يمكن أن أخبركِ به عن خططي المستقبلية هراء. لدي ساعة أعيش حياتي فيها يا سيدة لانغ، وربما هذا كل ما لديكِ أنت أيضاً".

ألقت هيلينا نظرة سريعة على والدتها، التي بدت مدهوشة.

"تلقيت اليوم رسالة من الشرطة النرويجية. يجب أن أذهب إلى المستشفى الميداني في مدرسة سنسن في أوسلو لإجراء فحص. سأغادر في غضون ثلاثة أيام، وكنت أفكّر في اصطحاب ابنتك معي".

حبست هيلينا أنفاسها. سُمِع صوت تكتكة الساعة الجدارية في الغرفة، ولمع ألماس الأم حين توتّرت عضلاتها تحت عنقها المجعّد واسترخت. جعلت الريح التي دخلت من باب الحديقة نيران الشموع تتراقص، والظلال تقفز بين الأثاث الداكن، وبدا أن ظل بياترس فقط عند باب المطبخ بقي ساكناً تماماً من دون حراك.

قالت الأم وهي تلوّح لبياترس: "أحضري فطيرة التفاح الخاصّة بفيينا".

قال أوريا: "أودّ أن تعرفي أنني أتطلع بشوق إلى ذلك".

قالت الأم، وهي ترسم على وجهها ابتسامة ساخرة أخرى: "نعم، يجب أن تكون كذلك؛ فهي مصنوعة من تفاح حديقتنا".

جوهانسبرغ. 28 شباط 2000

يقع مركز شرطة هيلبرو وسطَ جوهانسبرغ، ويبدو مثل حصن بوجود أسلاك شائكة في أعلى الجدران، وشِباكٍ فولاذيةٍ أمام النوافذ التي كانت صغيرة جداً مثل كوّات المدافع.

قال الضابط آسايا بورني، حين كان هاري يتقدّم عبر متاهة من الممرات ذات الجدران البيضاء التي تقشّر طلاؤها: "قُتل رجلان أسودان في الليلة الماضية، في منطقة مركز الشرطة هذا وحده. هل رأيت فندق كارلتون الكبير؟ إنه مغلق. يقيم البيض في الضواحي منذ وقت طويل؛ لهذا لم يعد هناك الآن إلا أبناء جلدتنا لنطلق النار عليهم".

شدّ آسايا سرواله. كان طويلاً، وبديناً بعض الشيء، وكانت ساقاه ملتويتين نحو الداخل، أمّا بشرته فكانت سوداء. كان يرتدي قميصاً أبيض ظهرت عليه بوضوح تحت الإبطين دائرتان داكنتان من العرق.

قال: "كنّا قد وضعنا أندرياس هوشنر في سجن ندعوه مدينة الآثام خارج المدينة كالمعتاد، لكننا أحضرناه إلى هنا اليوم؛ من أجل تلك المقابلات".

سأل هاري: "هل هناك آخرون غيري؟".

قال آسايا وهو يفتح الباب على مصراعيه: "لقد وصلنا". دخلا غرفة يقف فيها رجلان يضمان ذراعيهما إلى صدريهما، وهما يحدّقان عبر الزجاج إلى غرفة معتمة.

آسايا: "إنها مرآة ثنائية الاتجاه. لا يمكنه رؤيتنا".

أومأ الرجلان إلى آسايا وهاري، وتحرّكا بعيداً.

نظر هاري إلى الغرفة الصغيرة المعتمة التي تحتوي على كرسي واحد، وطاولة صغيرة عليها منفضة مليئة بأعقاب لفائف التبغ، وميكروفون على مسند. كان للرجل الجالس على الكرسي عينان داكنتان، وشارب أسود كثّ يتدلى فوق طرفي فمه. عرفه هاري مباشرة بفضل صورة رايت المشوّشة.

همهم أحد الرجلين وهو يشير برأسه نحو هاري: "هل هذا هو النرويجي؟". أومأ آسايا موافقاً.

فقال الرجل وهو يستدير إلى هاري، ولكن من دون أن تغفل عينه عن الرجل الجالس إلى الطاولة: "لا بأس، إنه لك أيها النرويجي. لديك عشرون دقيقة".

"قال الفاكس...".

"تباً للفاكس أيها النرويجي! هل تعرف عدد الدول التي تريد استجواب هذا الرجل، أو تسليمها إياه؟".

"حسناً، لا".

قال الرجل: "كن سعيداً لأن بمقدورك التكلم إليه الآن".

"لماذا وافق على التكلم معي؟".

"كيف لنا أن نعرف؟ اسأله بنفسك".

حاول هاري أن يتنفس بهدوء حين دخل غرفة المقابلة الضيقة والخانقة. كانت هناك ساعة على الجدار، حيث توجد خطوط حمراء ناتجة عن الصّدإ. وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. كان ذهن هاري مشغولاً بالشرطي؛ الحارس اليقظ الذي يراقبه، مما جعل يديه رطبتين. كان الشخص الجالس على الكرسي قد حنى ظهره، وعيناه نصف مغمضتين.

"أندرياس هوشنر؟".

فكرّر الرجل الجالس على الكرسي ما قاله هاري همساً: "أندرياس هوشنر؟". ورفع إليه ناظريه، ثم قال: "لا، إنه في المنزل يضرب أمك".

جلس هاري حذراً. كان بمقدوره سماع قهقهات الضحك من الطرف الآخر للمرآة السوداء.

قال برقّة: "أنا هاري هول من الشرطة النرويجية. لقد وافقت على التكلم معنا".

قال هوشنر متشككاً بعض الشيء: "النرويج؟". انحنى إلى الأمام وتفحّص بطاقة الهوية التي يحملها هاري، ثم ابتسم بارتباك قليلاً.

"آسف يا هول، لم يخبروني أنه دور النرويج اليوم. لقد كنت أنتظرك".

"أين محاميك؟". وضع هاري حقيبة الأوراق على الطاولة، ثم فتحها وأخرج منها ورقة كتب عليها عدة أسئلة، ودفتر ملاحظات.

"انسَ أمره، فأنا لا أثق بالرجل. هل يعمل الميكروفون؟".

"لا أعرف، هل هذا مهم؟".

"لا أريد أن يسمعنا السود، وأرغب في عقد اتفاق معك، ومع النرويج".

رفع هاري بصره عن ورقة الأسئلة. كانت الساعة على الجدار فوق رأس هوشنر تُتكتك. مضت ثلاث دقائق. أنبأه شيء ما بأنه لن يحظى بالوقت المخصص له.

"أي نوع من الاتفاقيات؟".

همس هوشنر من بين أسنانه: "هل لاقط الصوت يعمل؟".

"أي نوع من الاتفاقيات؟".

حرّك هوشنر عينيه، ثم انحنى إلى الأمام فوق الطاولة وقال همساً وبسرعة: "تنتظرني في جنوب إفريقيا عقوبة الإعدام بسبب الأشياء التي يقولون إنني قمت بها. هل تفهم ما أعنيه؟".

"ربما، تابع".

"يمكنني إخبارك أشياء معينة عن الرجل في أوسلو إذا طلبت حكومتك من حكومة الزنوج العفو عني؛ لأنني ساعدتكم. رئيسة وزرائكم كانت هنا، أليس كذلك؟ هي ومانديلا عانقا بعضهما. حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في السلطة الآن، وهم يحبون النرويج؛ فأنتم تدعمونهم. قاطعتمونا حين أرادت جماعات السود مقاطعتنا. سيصغون إليكم، أليس كذلك؟".

"لماذا لا تعقد الاتفاق نفسه بمساعدة الشرطة هنا؟".

"حباً بالله!". ضربت قبضة هوشنر على الطاولة بقوة كبيرة جعلت المنفضة تقفز، وأعقاب لفائف التبغ تتناثر منها. "ألا تفهم شيئاً، أيها اللعين! إنّهم يظنون أنني قتلت أطفالاً سوداً".

أمسكت يداه طرف الطاولة، وحدّق إلى هاري بعينين واسعتين، ثم تغضّن وجهه، وتجعّد مثل كرة قدم رثّة، وما لبث أن أخفى وجهه بين يديه.

"يريدون أن يروني وأنا أتأرجح فحسب. هذا كل ما في الأمر!".

سمع تنهيدة مريرة. أمعن هاري النظر إليه، وتساءل كم ساعة كان هذان الرجلان قد أبقيا هوشنر مستيقظاً وهما يمطرانه بالأسئلة قبل وصوله؟ سحب نفساً عميقاً، ثم انحنى فوق الطاولة، وأمسك لاقط الصوت بإحدى يديه وفكّ السلك بالأخرى.

"اتفقنا يا هوشنر. لدينا عشر ثوانٍ، من هو أوريا؟".

راقبه هوشنر من بين أصابعه. "ماذا؟".

"بسرعة يا هوشنر. سيكونون هنا في أي لحظة!".

"إنه... رجل عجوز، عمره أكثر من سبعين سنة بالتأكيد. لم ألتقِهِ إلا مرة واحدة فقط، عند التسليم".

"كيف يبدو؟".

"إنّه عجوز، كما قلت".

"صِفه!".

"كان يرتدي معطفاً ويعتمر قبعة. قابلته عند منتصف الليل في ميناء معتم. عيناه زرقاوان، كما أظن أنه متوسط الطول...".

"ما الذي تكلمتا عنه؟ بسرعة!".

"هذا وذاك. تكلمنا بالإنكليزية أولاً، لكننا غيّرنا اللّغة حين أدرك أنني أتكلم الألمانية. أخبرته أن والديّ جاءا من الألزاس، فقال إنه كان هناك، في مكان ما يدعى سنهايم".

"ما هدفه؟".

"لا أعرف، لكنه هاوٍ. تكلم كثيراً. وعندما حصل على البندقية، قال إنها المرة الأولى التي يحمل فيها سلاحاً منذ أكثر من خمسين سنة. قال إنه يكره...".

فُتح باب الغرفة بقوة.

صرخ هاري: "يكره ماذا؟".

في تلك اللحظة، شعر بيدٍ تشتد حول عظمة الترقوة، وسمع صوتاً أجشّ قريباً من أذنه يقول له: "بالله عليك، ماذا تفعل؟".

نظر هاري إلى هوشنر حين كانوا يجرّونه إلى الخلف نحو الباب. كانت عينا هوشنر لامعتين، وحنجرته تصعد وتهبط. رأى هاري شفتيه تتحرّكان، لكنه لم يسمع ما قاله.

أُغلق الباب بقوة أمامه.

فرك هاري ذقنه حين كان آسايا ينقله إلى المطار، وانقضت عشرون دقيقة قبل أن يتكلم الأخير.

"لقد بقينا نعمل على هذه القضية ست سنوات، ولائحة شحنات الأسلحة تشمل عشرين بلداً. كنا قلقين بالتحديد مما حدث اليوم؛ من أن يتكلم شخص ما عن تقديم مساعدة دبلوماسية له مقابل الحصول على معلومات".

هزّ هاري كتفيه.

"وماذا في ذلك؟ لقد اعتقلته وأدّيت واجبك يا آسايا. كل ما تبقّى هو الحصول على أوسمة، ولا علاقة لك بأي اتفاقيات يعقدها أي شخص بين هوشنر والحكومة".

"أنت شرطي يا هاري، وتعرف كيف يكون الشعور حين ترى المجرمين وهم ينجون من العقاب. إنهم أشخاص لا يرف لهم جفن حين يقتلون، وتعرف أنهم سيتابعون عملهم من حيث انتهوا حين يخرجون إلى الشوارع مجدداً".

لم يتفوّه هاري بكلمة.

"أنت تعرف، أليس كذلك؟ هذا جيد. يبدو أنك حصلت على ما تريده

من اتفاقك مع هوشنر، وهذا يعني أن التزامك بالاتفاق يعود إليك. أو يمكنك أن تغض الطرف عنه. أليس كذلك؟".

"أنا أقوم بعملي فقط يا آسايا، ويمكنني الاستفادة من هوشنر في وقت ما بصفته شاهداً. آسف".

ضرب آسايا المقود بقوة كبيرة جعلت هاري يقفز.

"دعني أخبرك شيئاً يا هاري. قبل الانتخابات، في العام 1994، عندما كانت الأقلية البيضاء لا تزال في الحكم، أطلق هوشنر النار على فتاتين سوداوين، كلتيهما في الحادية عشرة من عمرهما، خارج باحة مدرسية في منطقة للسود تدعى ألكساندرا. نظن أن شخصاً من الحرس الشعبي (أفريكانر فولكسواغ)، حزب الفصل العنصري، خلف ذلك. كانت هناك بعض الخلافات بشأن تلك المدرسة؛ لأن فيها ثلاثة تلاميذ بيض. استخدم رصاصات مجنّحة، من النوع نفسه المستخدم في البوسنة، وهي تفتح أجنحتها بعد مئة متر، وتخترق كل ما يقف في طريقها، مثل مثقاب. أُصيبت كلتا الفتاتين في العنق مرة واحدة. ولم يكن مهماً أن الأمر تطلّب من سيارات الإسعاف - كالمعتاد - أكثر من ساعة لتصل إلى منطقة تابعة للسود".

ظلّ هاري صامتاً.

"لكنك مخطئ إذا كنت تظن أننا نسعى إلى الانتقام يا هاري. لقد فهمنا أننا لا نستطيع بناء مجتمع يقوم على الانتقام. لهذا السبب، أنشأت أول حكومة أغلبية سوداء لجنةً للكشف عن الاعتداءات والانتهاكات في أثناء الفصل العنصري. لم يكن الأمر يتعلق بالانتقام، وإنما بالاعتراف بالأخطاء والغفران. كان ذلك قد عالج الكثير من الجروح، وأفاد المجتمع كله. إننا في الوقت نفسه نخسر الحرب ضد الجريمة، هنا في جوبورغ خاصةً؛ حيث يخرج كل شيء عن السيطرة. نحن أمة يافعة وضعيفة يا هاري. وإذا أردنا تحقيق أي تقدّم يجب أن نثبت أن النظام والقانون يعنيان شيئاً؛ لأنه يمكن استخدام الفوضى كذريعة لارتكاب الجرائم. يتذكر الجميع جريمة القتل التي حصلت في العام 1994، ويتابعون القضية في الصحف الآن. ولهذا السبب، هذه القضية أكثر أهمية من برنامجك أو برنامجي يا هاري".

شدّ قبضته وضرب المقود مجدداً.

"لا نريد أن نكون قضاة موت وحياة، وإنما نريد إعادة الثقة بالعدالة إلى الأشخاص العاديين. يتطلب الأمر أحياناً إنزال عقوبة الإعدام بأحدهم؛ لمنحهم تلك الثقة".

أخرج هاري لفافة تبغ من العلبة، وفتح النافذة قليلاً، وحدّق إلى

المشهد الكئيب.

"إذاً، ماذا تقول يا هاري؟".

"يجب أن تضغط بقدمك على دواسة الوقود إذا كنت تريد أن ألحق بتلك الرحلة يا آسايا".

ضرب آسايا المقود بقوة كبيرة، ودُهش هاري لأنّه بقي سالماً.

حديقة حيوانات لاينز، فيينا. 27 حزيران 1944

جلست هيلينا على المقعد الخلفي في سيارة أندريه بروكهارد السوداء المرسيدس بمفردها. وتحرّكت السيارة ببطء بين أشجار كستناء الحصان((1)) التي تحيط بجانبي الشارع العريض. كانت في طريقها إلى الإسطبلات في حديقة حيوانات لاينز.

نظرت إلى الخارج نحو المساحات الخضراء. ارتفعت سحابة من الغبار خلف السيارة التي كانت تسير فوق الدرب المفروش بالحصى. وبالرغم من أن النافذة كانت مفتوحة، إلا أن الحرارة في السيارة كانت لا تُطاق تقريباً.

رفع قطيع من الخيول رؤوسه عند مرور السيارة قربه. كانت الخيول تتغذّى في الظل عند حافة غابةٍ من أشجار الزان.

كانت هيلينا تحب حديقة حيوانات لاينز. وقبل الحرب، كانت تمضي أيام الآحاد غالباً في المنطقة الحرجيّة الكبيرة الواقعة إلى الجنوب من غابات فيينا، وهي تتنزه مع والديها، أو عمّاتها وأعمامها، أو تتسلّى مع صديقاتها.

كانت على استعداد لكل شيء عندما أخبرتها رئيسة الممرضات في وقت باكر من ذلك الصباح أن أندريه بروكهارد يرغب في الحديث إليها، وأنه سيرسل إليها سيارة قبل الغداء. كانت تشعر بسعادة غامرة منذ أن حصلت على التوصية من المستشفى وعلى إذن السفر. وأول شيء فكّرت فيه هو أنها ستنتهز الفرصة لتشكر والد كريستوفر على المساعدة التي كان مجلس الحكم قد قدّمها لها. غير أنها كانت تفكر في أنه من غير المحتمل أن يكون أندريه بروكهارد قد استدعاها ليسمع شكرها.

قالت هيلينا لنفسها: اهدئي، لا يمكنهم إيقافنا الآن. سنغادر في صباح الغد.

كانت في اليوم السابق قد حزمت بعض ملابسها ومقتنياتها الثمينة في حقيبتين. وكان رمز النصارى الدينيّ الذي تضعه عادة فوق سريرها آخر شيء وضعته في حقيبتها. كانت علبة الموسيقى التي اشتراها لها والدها لا تزال على منضدة التزيّن؛ كانت من بين الأشياء التي لم تكن تظن قطّ أنها ستفارقها بسهولة. لكن الغريب آنذاك هو أنها لم تعد تعني لها الكثير. كانت بياترس قد ساعدتها، وتكلّمتا عن الأيام الخوالي في أثناء استماعهما إلى خطوات الأم على الأرضية تحتهما. سيكون الوداع صعباً ومربكاً. كانت آنذاك تتطلع بشوق إلى حلول المساء، فقد قال أوريا إنّ الأمر سيكون مخجلاً جداً إن لم يرَ أي شيء من فيينا قبل الرحيل؛ ولهذا دعاها إلى العشاء

خارج المنزل. أين؟ لم تكن تعرف. كان ببساطة قد غمزها خفية وسألها إن كان بمقدورهما استعارة سيارة مراقب الأحراج.

قال السائق وهو يشير إلى النافورة حيث ينتهي الشارع العريض: "لقد وصلنا يا آنسة لانغ". كان هناك تمثال لكيوبيد مطليّ بالذهب ينتصب على قدم واحدة فوق كرة حجرية وسط الماء، وبدا منزل كبير مشيّد من الحجارة الرمادية خلفه. كان هناك بناءان طويلان وقليلا الارتفاع يتصلان بجانبي المنزل الرّئيس، ويشكّلان مع منزلٍ حجري الفناء الخلفيّ.

أوقف السائق السيارة، ثم خرج وفتح الباب لهيلينا.

كان أندريه بروكهارد يقف على الدرج أمام المنزل. تقدم آنذاك نحوها، وحذاؤه المصقول يلمع تحت أشعة الشمس. كان في منتصف العقد الخامس من عمره، لكن خطواته بدت حيوية مثل شاب يافع. كان قد فكّ أزرار سترته الصوفية الحمراء، مدركاً تماماً أن جذعه الرياضي سيلفت الانتباه إليه. كان السروال الذي يرتديه؛ والمخصّص لركوب الخيل مشدوداً بإحكام على فخذين قويتين، وبدا بروكهارد الأب مثل ابنه تقريباً.

"هيلينا!". كان الصوت ودّياً، كما هي الحال مع الرجال الذين يتمتعون بنفوذ واسع جداً، ويقرّرون متى يكون الوضع ودياً. انقضى وقت طويل منذ أن رأته للمرة الأخيرة، لكنه بدا على حاله: شعر أبيض، وقامة مشدودة، وعينان زرقاوان تنظران إليها من جانبي أنف كبير ومهيب. أوحى الفم الذي كان على شكل قلب أن للرجل جانباً رقيقاً، لكنّ ذلك شيءٌ يجب إثباته.

قال وهو يمدّ يده إليها ليصافحها: "كيف حال والدتك؟ آمل أنني لم أكن مزعجاً جداً لأنني أبعدتك عن عملك على هذا النحو؟!". تابع من دون أن ينتظر رداً: "كان يجب أن أتبادل معك أطراف الحديث، وظننت أنه لا يمكن تأجيل ذلك". تحرك نحو المنزل. "لقد جئت إلى هنا من قبل، أليس كذلك؟".

قالت هيلينا، وهي تنظر إليه مبتسمة: "لا".

"لا؟! ظننت أن كريستوفر قد أحضرك إلى هنا. كنتما مقرّبين كثيراً وأنتما يافعان".

"لا بدّ من أن ذاكرتك تخدعك يا سيد بروكهارد. كنت وكريستوفر نعرف بعضنا جيداً، لكن...".

"حقاً؟ يجب في هذه الحال أن أُريكِ المكان. لننزل إلى الإسطبلات". وضع يده بلطف على ظهرها، وقادها باتجاه الأبنية الخشبية.

وخشخشت الحصى حين مشيا عليها.

"ما حدث لوالدك مؤسف يا هيلينا. أنا آسف حقاً. أتمنى لو كان هناك شيء يمكنني فعله لك ولوالدتك".

فكّرت هيلينا: كان بمقدورك دعوتنا إلى حفلة الميلاد في الشتاء الماضي جرياً على عادتك. لكنها لم تقل شيئاً. كانت سعيدة بما حصل؛ لأنها لم تضطر إلى مقاومة إصرار والدتها على الذهاب.

نادى بروكهارد فتى أسود الشعر واقفاً تحت أشعة الشمس وهو يلمّع السرج: "جانجيك! اذهب وأحضر فينزيا".

ذهب الفتى إلى الإسطبل في حين وقف بروكهارد ساكناً من دون حراك، وهو يضرب بسوطه على ركبته بلطف، ويحرّك كعبي حذائه. ألقت هيلينا نظرة على ساعة معصمها.

"أخشى أنني لا أستطيع البقاء هنا طويلاً يا سيد بروكهارد. مناوبتي...".

"لا، بالطبع، أفهم ذلك. دعيني أدخل في صلب الموضوع".

سمعا صهيلاً قوياً من داخل الإسطبل، ثم صوت حوافر حصان يسير فوق الألواح الخشبية.

"كنت ووالدك نقوم ببعض الأعمال معاً، قبل الإفلاس المؤسف طبعاً".

"أعرف".

"نعم، تعرفين أيضاً على الأرجح أن والدك كان مديناً بمبالغ كبيرة. كان ذلك - على نحو غير مباشر - السببَ في ما حدث. أعني هذه...". بحث عن الكلمة المناسبة، ووجدها. "... العلاقة المؤسفة بحيتان القروض اليهود كانت بالطبع ضارّة جداً بالنسبة إليه".

"تعني جوزيف برنشتاين؟".

"لا أتذكر أسماء هؤلاء الأشخاص".

"يجب أن تتذكره؛ فقد دُعِي إلى حفلة الميلاد التي أقمتها".

"جوزيف برنشتاين؟". ابتسم أندريه بروكهارد، لكن الابتسامة لم تصل إلى عينيه، ثم قال: "لا بدّ من أن ذلك كان قبل سنوات عديدة".

"في الميلاد عام 1938، قبل الحرب".

أومأ بروكهارد وألقى نظرة على باب الإسطبل.

"ذاكرتك جيدة يا هيلينا، وهذا رائع. يمكن أن يستفيد كريستوفر من عقل راجح؛ أعني أنه يفقد عقله أحياناً. وباستثناء ذلك فإنه فتى صالح، وسترين هذا".

شعرت هيلينا أن قلبها بدأ يخفق بقوة. هل وقع خطب ما؟ كان

بروكهارد الأب يتكلم معها وكأنها كنّته المستقبلية. وبدلاً من الشعور بالرعب، تملّكها الغضب. كانت تقصد أن تبدو لطيفة عندما تكلمت مجدداً، لكن الغضب كان قد أمسك بخناقها وجعل صوتها يبدو قاسياً وصلباً.

"آمل ألا يكون هناك سوء فهم يا سيد بروكهارد".

لا بدّ من أن بروكهارد قد لاحظ نبرة صوتها؛ إذ اختفى ذلك الدفء الذي كان قد استقبلها به حين قال: "في تلك الحال لنوضّح سوء الفهم ذاك. أودّ منك إلقاء نظرة على هذه".

سحب ورقة من جيب سترته الحمراء الداخلي، وشدّ قامته، وأعطاها إياها.

كانت قد كُتبت في أعلى ما بدا أنه عقد كلمة كفالة (بورغشافت). مرّت عيناها على النص الطويل، ولم تفهم الكثير مما كان مخطوطاً باستثناء أن المنزل في غابات فيينا مذكور فيها، وأن اسمي والدها وأندريه بروكهارد مكتوبان في الأسفل مع توقيعيهما. رمقته بنظرة ساخرة.

"يبدو أن هذه كفالة".

أقرّ: "إنها كفالة. عندما ظنّ والدك أن الوقت قد حان لتسديد قروض اليهود، وقروضه أيضاً، اتصل بي وسألني إن كان بمقدوري تقديم ضمانة لقرض إعادة تمويل ضخم في ألمانيا، وهو شيء كنت - لسوء الحظ - طيب القلب كفاية لأفعله. كان والدك شخصاً مغروراً، ولكي لا تظهر الكفالة كصدقة، أصرّ على استخدام المنزل الصيفي الذي تعيشين فيه الآن مع والدتك كضمانة له".

"لماذا استخدمه ككفالة ولم يستخدمه كقرض؟".

دُهش بروكهارد.

"إنّه سؤال وجيه. والجواب هو أن قيمة المنزل لم تكن تكفي لتكون قرضاً. فالمبلغ الذي كان والدك بحاجة إليه كبيرٌ".

"لكن توقيع أندريه بروكهارد كان كافياً؟".

ابتسم ومرّر يده على عنقه القويّ الذي كانت تغطيه آنذاك، في الحرّ، طبقة لامعة من العرق.

"أنا أمتلك عقاراً في فيينا".

كان ذلك تواضعاً كبيراً؛ فالكل يعرف أن أندريه بروكهارد يمتلك حصتين كبيرتين من أسهم شركتين صناعيتين نمساويتين كبيرتين. كانت الشركتان بعد الضّم (أنشلوس) - احتلال هتلر في 1938 - قد حوّلتا إنتاجهما من الدمى والآلات الصناعية إلى إنتاج أسلحة لقوات المحور، وقد أصبح بروكهارد

ملياردير اً. وها قد عرفت هيلينا الآن أنه يمتلك أيضاً المنزل الذي تسكن فيه. شعرت بكتلة كبيرة تنمو في معدتها.

قال بروكهارد، وقد عاد الدفء فجأة إلى صوته: "لا تقلقي كثيراً يا عزيزتي هيلينا. لم أكن أفكّر في أخذ المنزل من والدتك".

لكن الكتلة في معدة هيلينا استمرت في النمو. ربما كان بمقدوره أن يضيف أيضاً: "أو من كنّتي".

صرخ: "فينزيا!".

استدارت هيلينا نحو باب الإسطبل، حيث خرج السائس من الظلال وهو يقود فرساً بيضاء رائعة. وبالرغم من أن إعصاراً من الأفكار كان يعصف في ذهنها، إلا أن المنظر جعل هيلينا تنسى كل شيء للحظة. كانت أجمل من أي فرس رأتها من قبل، وبدت كمخلوقٍ خارقٍ للطبيعة يقف أمامها.

قال بروكهارد: "ليبزانر، أفضل سلالة خيل مدرّبة في العالم. استوردها ماكسميليان الثاني من إسبانيا عام 1562. لا بدّ من أنكِ ووالدتكِ قد شاهدتماها في البلدة، أليس كذلك؟".

"نعم، بالطبع".

"إنّ مشاهدتها مثل مشاهدة الباليه. أليس كذلك؟".

أومأت هيلينا، ولم يكن بمقدورها إبعاد ناظريها عن الفرس.

"إنها تمضي إجازتها الصيفية هنا في محمية (لاينزر تايرغارتن) حتى نهاية آب. لسوء الحظ، لا يُسمح لأحد بامتطائها إلا فرسان مدرسة الفروسية الإسبانية. إذ نخاف من أن يعوّدها أشخاص غير مدرّبين العادات السيئة، ومن ثَمّ ستضيع سنوات من التدريب على الرقص سدى".

كان هناك سرج على ظهر الفرس. أمسك بروكهارد الرسن، وابتعد السائس، فيما وقفت الفرس ساكنة تماماً.

"يعتبر بعضهم أن تعليم الخيول خطوات راقصة أمرٌ قاسٍ. ويقولون إن الحيوانات تعاني لأنها تضطر إلى فعل أشياء تخالف طبيعتها. الناس الذين يقولون مثل هذه الأشياء لم يروا الخيول في التدريب، لكنّني رأيتها. وصدّقيني؛ إن الخيول تحب ذلك. هل تعرفين السبب؟".

ضرب خطم الفرس.

"لأنّ هذا هو نظام الطبيعة. يجب أن تنظري فقط إلى الأطفال والراشدين، وإلى النساء والرجال. حتى في ما يدعى دولاً ديمقراطية، يتخلّى الضعفاء عن السلطة طواعية إلى نخبة أقوى وأكثر حكمة منهم".

"لجعلها سعيدة؟".

"بالضبط يا هيلينا. أنت حكيمة بالنسبة... إلى امرأة شابة".

لم تستطع أن تحدّد بالضبط أي من الكلمتين شدّد عليها أكثر.

"معرفة المكانة أمر مهم لكلٍّ من الأسمى والأدنى. إذا رفضتِ ذلك، فلن تكوني سعيدة أبداً على المدى الطويل".

ربت على عنق الفرس، ونظر إلى عيني فينزيا البنيتين الكبيرتين.

"أنتِ لست من النوع الذي يرفض، أليس كذلك؟".

كانت هيلينا تعرف أن السؤال موجّه إليها، فأغمضت عينيها في حين كانت تحاول أن تتنفس بعمق وهدوء. كانت تدرك أن ما ستقوله آنذاك، أو ما لن تقوله، قد يكون فاصلاً في حياتها، ولم يكن في وسعها أن تترك الغضب الذي تشعر به في هذه اللحظة يصبح عاملاً حاسماً.

"أليس كذلك؟".

صهلت فينزيا فجأة وهزّت رأسها إلى الجانب، مما جعل بروكهارد ينزلق ويفقد توازنه، فتعلّق بالرسن تحت عنق الفرس، واندفع السائس لمساعدته. لكن، قبل أن يصل إلى هناك، كان بروكهارد قد كافح - حيث احمر وجهه وتصبّب منه العرق - ليقف على قدميه، ولوّح له غاضباً لكي يبتعد. لم تستطع هيلينا أن تُخفي ابتسامتها، وربما رآها بروكهارد. على أيّ حال، رفع سوطه نحو الفرس، قبل أن يستعيد رشده ويخفضه مجدداً. تلفّظ بفمه الذي يشبه القلب، ببضع كلمات جعلت هيلينا أكثر سعادة. توجّه نحوها، ووضع يده برفق وغطرسة على ظهرها مجدداً: "لقد رأينا ما فيه الكفاية، لديك عمل مهم ينتظرك يا هيلينا. اسمحي لي بمرافقتك إلى السيارة".

وقفا إلى جانب الدرج المؤدي إلى المنزل، بانتظار السائق الذي صعد إلى السيارة وقادها إلى الأمام.

قال وهو يصافحها: "آمل أن نرى بعضنا مجدداً وقريباً يا هيلينا؛ وأفترض ذلك. بالمناسبة، لقد طلبت مني زوجتي أن أنقل تحياتها إلى والدتك. أظن حقاً أنها ستدعوكما قريباً في إحدى عطلات نهاية الأسبوع. لا أتذكر التوقيت، لكنها ستدعوكما قريباً".

انتظرت هيلينا حتى خرج السائق وفتح الباب لها قبل أن تقول: "هل تعرف لماذا رمتك الفرس على الأرض يا سيد بروكهارد؟".

استطاعت أن ترى في عينيه أن غضبه يزداد مجدداً.

"لأنك نظرت إلى عينها مباشرة يا سيد بروكهارد. تعتبر الفرس النظر

إلى عينها استفزازاً؛ كأنها ومكانتها في القطيع غير جديرتين بالاحترام. إذا لم تستطع تفادي ذلك، فستتصرف بطريقة مختلفة؛ كأن تتمرد مثلاً. لن تحقق شيئاً في أثناء تدريب الخيول إذا لم تُظهر احترامك لها، بغض النظر عن سمو نوعك. يستطيع أي مدرّب حيوانات إخبارك بذلك. هناك حصان بري في جبال الأرجنتين، إذا حاول أي إنسان امتطاءه فسيقفز عن أقرب جرف إليه. الوداع يا سيد بروكهارد".

جلست على المقعد الخلفي للمرسيدس، وسحبت أنفاساً عميقة مرتعشة حين كان باب السيارة يُغلق بهدوء خلفها. وعندما كانت السيارة تقلّها على طول شارع حديقة حيوانات لاينز، أغمضت عينيها، ورأت شكل أندريه بروكهارد الصارم يختفي وراء سحابة الغبار.

1 مصدر هذه الشجرة هو القسطنطينية في القرن السادس عشر . اليوم توجد في نصفي الكرة الأرضية وقد أطلق عليها الهنود الحمر اسم buckeyes .

فيينا. 28 حزيران 1944

"مساء الخير سيدي (غتن آبند، ماين هيرشافتن)".

حنى النادل ضئيل الحجم رأسه الصغير كثيراً، وقرصت هيلينا ذراع أوريا لأنه لم يستطع التوقف عن الضحك. كانا يضحكان طوال الطريق من المستشفى بسبب الفوضى التي كانا يثيرانها. تبيّن أن أوريا سائق فظيع. لهذا السبب كانت هيلينا تطلب منه التوقف كلما التقيا سيارة على الطريق الضّيّقة المؤدية إلى هاوبتشتراس. كان أوريا قد اعتمد على البوق بدلاً من ذلك، فنجم عن ذلك انحراف السيارات التي تدنو منهما إلى الحافة، أو توقفها. لحسن الحظ، لم يكن هناك عدد كبير من المركبات على الطريق في فيينا؛ لهذا وصلا سالمين إلى فابورغاس في وسط المدينة قبل الساعة السابعة والنصف.

ألقى رئيس النُّدُل نظرة سريعة على بزّة أوريا العسكرية قبل أن يتفقّد دفتر الحجز مقطباً جبينه. نظرت هيلينا من فوق كتفه. كانت الفرقة الموسيقية لا تكاد تحجب ضوضاء الأحاديث والضحك تحت ثريات الكريستال التي تتدّلى من السقوف الصفراء المقنطرة والمرتكزة على أعمدة كورنثية (مزدانة بزخارف ورقية).

تأملت المطعم بسعادة. إذاً، هذا هو مطعم الفرسان الثلاثة. بدا الأمر وكأن ثلاث خطوات قد نقلتهما من مدينة دمّرتها الحرب إلى عالمٍ ليست القنابلُ والمحنُ ذات شأن فيه. لا بدّ من أن ريتشارد شتراوس (موسيقي ألماني) وأرنولد شونبيرغ (موسيقي نمساوي) كانا زبونين دائمين هناك؛ لأنه المكان الذي يلتقي فيه أثرياء فيينا، ومثقفوها، ومفكّروها الأحرار. لا بدّ من أن التفكير الحر لم يخطر في بال والدتها قطّ؛ لهذا لم تصطحب الأسرة إلى هذا المكان.

تنحنح رئيس النُّدُل، وأدركت هيلينا أن رتبة نائب عريف (فيزكوربورال) التي يحملها أوريا لم تعجبه، وأنه قد استغرب الاسم الأجنبي الغريب المكتوب على الدفتر.

قال بابتسامة متكلّفة وهو يأخذ لائحتي طعام في طريقه: "طاولتكما جاهزة، اتبعاني من فضلكما". كان المطعم مزدحماً.

"هذه هي".

ابتسم أوريا لهيلين قانعاً بذلك؛ فقد كانت طاولتهما من دون غطاء، وإلى جانب باب المطبخ.

قال رئيس النُّدُل: "سيكون نادلكما معكما بعد ثوانٍ". وتبخّر في الهواء.

نظرت هيلينا حولها وبدأت تضحك بصوت خافت.

قالت: "انظر، كانت تلك طاولتنا الأصلية".

استدار أوريا. كانت محقة تماماً؛ إذ كان نادلٌ يعدُّ آنذاك طاولة مخصصة لشخصين أمام الفرقة الموسيقية.

قال: "آسف. أظن أنه كان يفترض بي أن أضع كلمة رائد قبل اسمي حين اتصلت للحجز. كنت أعتمد على تألقك للتعويض عن افتقاري إلى الرتبة".

أمسكت يده، وفي تلك اللحظة عزفت الفرقة الموسيقية لحن رقصة هنغارية بهيجة.

قال: "لا بدّ من أنهم يعزفون من أجلنا".

"ربما يفعلون ذلك". خفضت عينيها. "إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنّه لا يهم. إنهم يعزفون موسيقى غجرية، وهي رائعة حين يعزفها الغجر. هل ترى أحداً منهم؟".

هزّ رأسه، وأمعنت عيناه النظر إلى وجهها؛ وكأن تسجيل كل تعبير، وكل ثنية جلد، وكل خصلة شعر مهم جداً.

قالت: "لقد رحلوا جميعاً. هل تظن أن الشائعات صحيحة؟".

هزّ كتفيه.

"تنتشر كل أنواع الشائعات في أثناء الحرب. بالنسبة إلي، سأشعر بالأمان في قبضة هتلر".

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف لحن أغنية غريبة، وغنّى عدد من الحضور معها.

سأل أوريا: "ما هذا اللحن؟!".

قالت هيلينا: "فيربونكوس. إنّه نوع من أغاني الجنود، مثل الأغنية النرويجية التي أنشدتها على متن القطار. إنّها أغانٍ لتجنيد شباب هنغاريين من أجل حرب راكوكزي (أسرة هنغارية نبيلة) لنيل الاستقلال. ما الذي يضحكك؟".

"كل الأشياء الغريبة التي تعرفينها. هل تفهمين أيضاً ماذا يغنون؟".

"قليلاً، توقف عن الضحك". ضحكت بصوت خافت. "بياترس هنغارية، وكانت تغني لي. إنها أغنية عن الأبطال والمُثل العليا المنسية".

"منسية". ضغط على يدها. "كما ستصبح هذه الحرب يوماً ما".

كان هناك نادل قد وصل إلى طاولتهما من دون أن يلاحظاه، وسعل

قليلاً؛ ليعلن عن وجوده.

"هل أنت مستعد للطلب يا سيّدي؟".

قال أوريا: "أظن ذلك. بِمَ تنصح اليوم؟".

"هاهنشن".

"الدجاج، يبدو جيداً. هيلينا، هل يمكنك انتقاء شراب فاخر لنا؟".

تفحّصت عينا هيلينا اللائحة، وسألت: "لماذا الأسعار ليست مكتوبة على اللائحة؟".

"بسبب الحرب يا آنسة. إنها تختلف من يوم إلى آخر".

"وما تكلفة هاهنشن؟".

"يبلغ ثمن هذا الطبق خمسين شلناً".

رأت بطرف عينها لون أوريا يمتقع.

قالت: "نريد حساء لحم العجل. لقد تناولنا طعامنا اليوم، وسمعت أن أطباقكم الهنغارية لذيذة جداً. ألا تحب أن تتذوقها أيضاً يا أوريا؟ لكن، ليس صحياً تناول وجبتي عشاء في يوم واحد".

شرع أوريا يقول: "أنا...".

قالت هيلينا: "ولتحضر لنا شراباً خفيفاً".

سأل النادل وهو يرفع حاجبه: "تريدان طبقين من حساء لحم العجل وشراباً خفيفاً؟".

"أنا واثقة من أنك تفهم ما أعنيه"، سلّمته لائحة الطعام ورسمت ابتسامة عريضة على وجهها ثم تابعت قائلة: "أيها النادل".

نظرت وأوريا إلى بعضهما حتى اختفى النادل خلف باب المطبخ، ثم راحا يقهقهان.

قال ضاحكاً: "أنتِ مجنونة".

"أنا؟ لم أكن أنا من حجز في مطعم الفرسان الثلاثة مع أقل من خمسين شلناً في جيبي!".

سحب منديلاً وانحنى فوق الطاولة. قال وهو يحاول أن يجفف دموعها الناجمة عن الضحك: "هل تعرفين أمراً يا آنسة لانغ؟ أحبك، حقاً".

في تلك اللحظة، دوّت صفّارة معلنة عن غارة جوّية.

عندما تستعيد هيلينا ذكرى تلك الأمسية يكون عليها دائماً أن تسأل نفسها إن كانت تتذكّرها بدقّة، وما إن كانت القنابل قد سقطت قربهما كما تتذكّر، وإن كان الجميع قد التفتوا إليهما حين سارا على طول ممر دار العبادة الكبيرة والطويلة سانت ستيفان. وبالرغم من أن ليلتهما الأخيرة

في فيينا بقيت مغلّفة بالوهم، إلا أن تلك الذكرى كانت تبعث الدفء في قلبها. وعندما تفكّر في تلك اللحظة نفسها، كانت تنفجر ضاحكة، وتذرف دموعاً في ما بعد، من دون أن تفهم السبب.

عندما دوّت الصّفارة معلنة عن غارة جوّية، توقفت كل الأصوات الأخرى. بدا أن كل المطعم قد تجمّد ثانيةً من الزمن، ثم تردّدت أصداء اللعنات الأولى تحت السقف المقنطر المطلي بالذهب.

"إنهم كلاب".

"تبًّا! إنها الساعة الثامنة فقط!".

هزّ أوريا رأسه، وقال: "لا بدّ من أن الإنكليز قد فقدوا عقولهم؛ فالظلام لم يحلّ بعد".

شغل النُّدُل أنفسهم بالطاولات مباشرة، في حين صرخ رئيسهم بأوامر مقتضبة إلى الزبائن.

قالت هيلينا: "انظر، سيتحول هذا المطعم أيضاً إلى أنقاض قريباً، وكل ما يهتمون به هو جعل الزبائن يسدّدون فواتيرهم قبل أن يهربوا إلى ملجإ".

قفز رجل يرتدي بذلة سوداء إلى المنصة، حيث كان أعضاء الفرقة الموسيقية يجمعون أدواتهم.

صرخ: "اسمعوا! يُطلب من كل أولئك الذين دفعوا فواتيرهم الذهاب فوراً إلى أقرب ملجإ تحت الأرض قرب فابورغاس 20. أرجوكم اصمتوا وأصغوا السمع! انعطفوا يميناً حين تغادرون، ثم امشوا مئتي متر. ابحثوا عن الرجال الذين يضعون أربطة حمراء على أذرعهم، وسيرشدونكم إلى أين تذهبون، وحافظوا على الهدوء. لن تصل الطائرات إلى هنا قبل مضي بعض الوقت".

في تلك اللحظة، سمعوا دوي أولى القنابل التي سقطت. حاول الرجل الواقف على المنصة أن يقول شيئاً آخر، لكن الأصوات والصرخات تعالت آنذاك. فاستسلم، ورسم على صدره رمز النصارى الدينيّ، ثم قفز إلى الأسفل وشق طريقه إلى الملجإ.

كان هناك اندفاع نحو المخرج، حيث تجمّع حشد من الأشخاص الخائفين. كانت هناك امرأة تقف في غرفة الإيداع المخصصة لحفظ المعاطف والقبعات وهي تصرخ: "مظلّتي!". لكن لم يكن من الممكن رؤية المسؤولين عن الحجرة في أي مكان. سُمِع المزيد من الدويِّ، وكان الصوت أقرب هذه المرة. نظرت هيلينا إلى الطاولة الشاغرة إلى جانبهما، حيث يقعقع كأسا

الشراب وهما يصطدمان ببعضهما، فيما تهتز الغرفة كلها بانسجام معهما. كانت شابتان يرافقهما رجل رشيق يشبه الفقمة يندفعون نحو المخرج، وكان رُدْنا قميص الشاب مرفوعين، وابتسامة مرحة ترتسم على شفتيه.

أصبح المطعم شاغراً خلال دقائق، وأطبق صمت غريب على المكان. كل ما كان بمقدورهما سماعه هو نشيج خافت من غرفة الإيداع، حيث كانت المرأة قد توقفت عن المطالبة بمظلّتها، ووضعت جبينها على المنضدة. كانت هناك وجبات لم تؤكل بعد، وقوارير مفتوحة على أغطية الطاولات البيضاء. كان أوريا لا يزال يمسك يد هيلينا. جعل دويّ جديد الثريات تهتز، وخرجت المرأة من غرفة الإيداع وهي تصرخ.

قال أوريا: "نحن بمفردنا أخيراً".

اهتزت الأرض تحتهما، وظهر في الهواء غبار جصّي ناعم من السقف المطلي بالذهب. فوقف أوريا ومدّ يده.

"لقد أصبحت أفضل طاولة جاهزة يا آنسة. إذا لم تمانعي...".

أمسكت يده، ثم وقفت ومشيا معاً إلى المنصة. سمعت الصفير بصعوبة. كان صوت الانفجار الذي تبع ذلك يصمّ الآذان، وتحول الجص الموجود على الجدران إلى عاصفة رملية، وتحطّمت النوافذ التي تطلّ على فابورغاس، وانطفأت الأضواء.

أشعل أوريا الشموع في الشمعدان الموجود على الطاولة، وسحب لها الكرسي، ثم رفع المنديل المطوي بإبهامه وسبابته وفتحه، ووضعه برفق على حجرها.

سأل وهو يبعد بحذر شظايا الزجاج عن كل من الطاولة، وأطباق العشاء، وشعرها: "دجاج وشراب فاخر".

ربما كانت الشموع والغبار الذهبي الذي يلمع في الهواء حين أطبق الظلام في الخارج هي التي جعلت الجوّ رائعاً وربما كان الهواء المنعش المتسلل من النوافذ المفتوحة أو ربما كان ببساطة قلبها الذي بدا أن الدم يجري فيه مسرعاً عبر عروقها في محاولة لاختبار تلك اللحظات بقوة أكبر. تتذكّر سماعها الموسيقى، ولم يكن ذلك ممكناً؛ لأن الفرقة الموسيقية جمعت أدواتها وهربت. هل كانت تحلم بتلك الموسيقى؟ أدركت بعد سنوات عديدة، قبل أن تلد ابنتها، مصدر الموسيقى. فقد كان والد طفلتها قد علّق فوق المهد الجديد قطعاً معدنية مع كرات زجاجية ملوّنة، وفي إحدى الأمسيات، مرّرت يدها فوق القطع وعرفت مباشرة الصوت، ومن أين جاء. كانت ثريات الكريستال في مطعم الفرسان الثلاثة هي التي عزفت لهما،

فسمعت رنين الثريات الواضح والرقيق في أثناء تأرجحها مع وقع خطواتهما على الأرض، دخل أوريا المطبخ، وخرج منه حاملاً طبق حلويات نمساويًّا وثلاث قوارير من شراب هيورايجر وعثر أيضاً على أحد الطهاة جالساً في الزاوية وهو يحمل قارورة. لم يحرّك الطاهي ساكناً ليمنع أوريا من أخذ القوارير، بل على العكس، كان قد أومأ برأسه تعبيراً عن موافقته حين أراه أوريا الشراب الذي اختاره.

بعد ذلك، وضع أوريا أربعين شلناً التي كان يحملها تحت الشمعدان، وخرجا إلى مساء حزيران المعتدل. كان الصمت مطبقاً على فابورغاس، لكنّ الهواء مفعم برائحة الدخان، والغبار، والتراب.

قال أوريا: "لنذهب في نزهة".

ومن دون أن ينبس أي منهما ببنت شفة عن المكان الذي سيقصدانه، استدارا يميناً، وسارا في شارع كرانتنر، ووقفا فجأة أمام ستيفانزبلاتز المعتم والمهجور.

قال أوريا: "يا الله!". كانت دار العبادة الكبيرة والطويلة أمامهما تحجب جزءاً من سماء أول الليل.

سألت: "سانت ستيفان؟".

"نعم". أعادت هيلينا رأسها إلى الخلف وتبع بصرها، برج دار العبادة الأخضر المسودّ، صعوداً نحو السماء، حيث كانت أولى النجوم قد ظهرت آنذاك.

الشيء الآخر الذي تتذكره هيلينا هو أنهما كانا يقفان داخل دار العبادة الكبيرة والطويلة، وتحيط بهما وجوهٌ بيضاء لأشخاصٍ كانوا قد لجأوا إليها، وأصوات أطفال يبكون، وموسيقى أرغن. مشيا نحو المذبح، ذراعاً بذراع، هل حدث ذلك حقاً؟ أم أنها حلمت به فقط؟ هل أمسكها فجأة بين ذراعيه وقال إنها ستكون له؟ ألم تهمس له قائلة: نعم، نعم، نعم، ونقل الفراغ في دار العبادة صدى كلماتها وصعد بها إلى السقف المقنطر حيث رُدّدت الكلمات مراراً وتكراراً حتى أصبحت حقيقة؟ سواء أحدث ذلك أم لا، كانت الكلمات أصدق من تلك التي كانت قد حملتها معها منذ حديثها مع أندريه بروكهارد.

"لا يمكنني الذهاب معك".

كانت قد قالتها. لكن، متى وأين؟

كانت قد أخبرت والدتها بعد ظهيرة ذلك اليوم نفسه أنها لن ترحل، بالرغم من أنها لم توضّح السبب. كانت والدتها قد حاولت مواساتها، لكن

هيلينا لم تستطع تحمّل صوتها الحاد، وأوصدت على نفسها باب غرفة نومها. ثم جاء أوريا، وطرق البابَ. كانت قد قرّرت ألا تفكر في شيء، وأن تدع نفسها تسقط من دون أي خوف، ومن دون أن تتخيل شيئاً. ربما كان قد شاهد ذلك حين فتحت الباب، وربما كان الاثنان اللذان وقفا في الرواق قد توصلا إلى اتفاق ضمني بأن يعيشا باقي حياتهما في الساعات التي لديهما قبل أن يغادر القطار.

"لا يمكنني الذهاب معك".

كان طعم اسم أندريه بروكهارد مريراً على لسانها، وقد بصقته مع ما تبقى: الكفالة، والأم التي تواجه خطر إلقائها في الشارع، والأب الذي يريد حياة لائقة يعود إليها، وبياترس التي ليست لديها أسرة أخرى. نعم، لقد قيل كل ذلك، لكن متى؟ هل أخبرته كل شيء في دار العبادة الكبيرة والطويلة؟ أم بعد أن ركضا في الشوارع حتى وصلا إلى شارع فيلهارمونيكر؟ كانت الأرصفة ممتلئة بالآجر، وشظايا الزجاج. وكانت ألسنة اللهب الصفراء تظهر من خلال النوافذ في متجر الحلويات القديم (كونديتوري)، وقد أضاءت طريقهما إلى ردهة الفندق الفخمة، لكن المعتمة والمهجورة آنذاك، فأشعلا عود ثقاب، وأخذا مفتاحاً كيفما اتفق من على الجدار، وأسرعا بالصعود على السلالم التي تغطّيها سجادات سميكة تكتم أي ضوضاء، وانتقلا بسرعة مثل شبحين عبر الأروقة بحثاً عن الغرفة 342. بعد ذلك، أصبحا بين ذراعي بعضهما، وشعرت بأنفاسه الحارة على جلدها، وخدشته حتى نزف، ووضعت شفتيها على الجروح بعد ذلك. وهي تكرر الكلمات: "لا يمكنني الذهاب معك".

وعندما دوّت الصفّارة، معلنة انتهاء القصف في ذلك الوقت، كانا يستلقيان متعانقين على الملاءات الملطّخة بالدم، وبكت وانتحبت.

اندمج كل شيء في ما بعد في دوّامة من أجسادٍ، ونومٍ، وأحلام. لم تعرف متى كانا يتغازلان، ومتى كانت تحلم. كانت قد استيقظت عند منتصف الليل على صوت المطر، وعرفت على نحو فطريّ أنه لم يكن إلى جانبها. ذهبت إلى النافذة، وحدقت إلى الأسفل؛ إلى الشوارع المغسولة والنظيفة. كان الماء يجري آنذاك فوق حواف الرصيف، واندفعت مظلة مفتوحة لا يمسكها أحد على طول الشارع نحو الدانوب. عادت إلى السرير، وعندما استيقظت مجدداً كان الضوء ساطعاً في الخارج، والشوارع جافة، وكان يستلقي إلى جوارها حابساً أنفاسه. نظرت إلى الساعة الموجودة على الطاولة إلى جانب السرير؛ بقيت ساعتان حتى يغادر القطار. ضربت جبينه.

همست: "لماذا لا تتنفس؟".
"لقد استيقظت الآن، وأنتِ لا تتنفسين أيضاً".
"إذاً، نحن ميتان من دون شك".
قال: "نعم".
"هل ذهبتَ إلى مكان ما؟".
"نعم".
شعرت بأنه يرتعش. قالت: "لكنك عدت الآن".

القسم الرابع

ميناء الحاويات، بيورفيكا. 29 شباط 2000

ركن هاري سيارته إلى جانب كوخ للعمال على قمة التلة الوحيدة المنبسطة التي وجدها في منطقة ميناء بيورفيكا. كان اعتدال الطقس فجأة لمدة من الوقت قد جعل الثلج يذوب ويبدو لامعاً، وببساطة كان يوماً رائعاً. مشى بين الحاويات المكدّسة فوق بعضها مثل قطع ليغو عملاقة، والتي كانت تلقي بظلال مثلّمة على الإسفلت تحت أشعة الشمس. أوضحت الحروف والرموز أنها جاءت من أماكن بعيدة مثل تايوان، وبيونس آيرس، وكيب تاون. وقف هاري على حافة رصيف الميناء، وأغمض عينيه، وتخيّل نفسه هناك في حين كان يستنشق مزيجاً من ماء البحر، وقطران سفعته الشمس، والديزل. وعندما فتح عينيه مجدداً، ظهرت المعدّية إلى الدانمارك في مجال رؤيته، وبدت مثل ثلاجة تنقل الأشخاص ذاتهم في رحلة استجمام.

كان يعرف أن الوقت قد فات للعثور على أي أدلّة عن الاجتماع الذي حصل في هذا المكان بين هوشنر وأوريا. لم يكن مؤكداً أساساً أن هذا هو ميناء الحاويات الذي التقيا فيه، والذي قد يكون فيليبستاد أيضاً. بالرغم من ذلك، كانت لا تزال لديه آمال بأن المكان سيخبره شيئاً ما، ويمنح خياله الحافز الضروري.

ركل عجلة كانت تبرز من فوق حافة الرصيف. ربما يجب أن يشتري مركباً ليخرج فيه مع والده وشقيقته إلى عرض البحر في الصيف؟ كان والده بحاجة إلى نزهة. لقد أصبح الرجل، الذي كان اجتماعياً جداً في ما مضى، وحيداً منذ أن توفيت زوجته قبل ثماني سنوات مضت. وبالرغم من أن شقيقته لم تكن تمضي بعيداً من دون مساعدة، إلا أنه كان ينسى غالباً أنها مصابة بمتلازمة داون (اضطراب المورثات).

هبط عصفور يزقزق بين الحاويات. كانت إيلين قد أخبرته أن سرعة القُرقف (القُرقب) الأزرق يمكن أن تصل إلى ثمانية وعشرين كيلومتراً في الساعة، في حين تطير البطّة البرية بسرعة تصل إلى اثنين وستين كيلومتراً في الساعة. كان كلاهما يتدبران أمرهما جيداً. لا، لم تكن شقيقته تمثّل مشكلة بالنسبة إليه، وكان أكثر اهتماماً بوالده.

حاول هاري أن يركّز. كان قد كتب في تقريره كل ما قاله هوشنر، كلمة كلمة، لكنه ركّز على تذكّر وجه الرجل، وحاول أن يتذكر ما لم يكن قد قاله. كيف كان أوريا يبدو؟ لم يستطع هوشنر أن يقول الكثير. لكن، عندما يتوجب عليك أن تصف شخصاً ما فأنت تبدأ عادة بالملامح الأكثر

وضوحاً، والقسمات البارزة. وأول شيء كان هوشنر قد ذكره بشأن أوريا هو أن عينيه زرقاوان. وإن لم يكن هوشنر قد ظنّ أن تينك العينين الزرقاوين أمر استثنائي على وجه الخصوص، فإن ذلك يشير إلى افتقار أوريا إلى أي علامة مميزة. تكلم كلاً من الألمانية والإنكليزية، وذهب إلى مكان في ألمانيا يدعى سنهايم. راقب هاري المعدّية الدانماركية، التي كانت تبحر بسلاسة إلى درورباك. تساءل: هل عمل أوريا في البحر؟ كان هاري قد بحث عنها في المصوّر الجغرافي، حتى في نسخة ألمانية منه، لكنه لم يعثر على أي مكان يدعى سنهايم. ربما كان هوشنر يختلق الأمر، لكن ذلك على الأرجح غير مهم.

قال هوشنر إن أوريا كان يمتلئ كراهية. لهذا ربما كان ما خمّنه صحيحاً؛ أي أن الشخص الذي كانوا يبحثون عنه يعمل بدافعٍ شخصي. لكن، ما الذي كان يكرهه؟

اختفت الشمس خلف جزيرة هوفدويا، وشعر حالاً بالنسيم البارد قبالة فيورد أوسلو. تدثّر هاري بمعطفه جيّداً، ومشى عائداً إلى سيارته. ونصف المليون؟ هل أخذها أوريا من السيد الكبير، أم أن ذلك كان عملاً منفرداً موّله بنفسه؟

أخرج هاتفه الخلوي. كان جهاز نوكيا، صغيراً جداً. وقد اشتراه قبل أسبوعين فقط. كان قد امتنع عن شرائه لمدة طويلة. لكن، في النهاية أقنعته إيلين بشرائه. اتصل بها.

"مرحباً إيلين، أنا هاري، هل أنتِ وحدك؟ لا بأس. أريدك أن تركّزي. نعم، هذه لعبة صغيرة. هل أنتِ مستعدة؟".

كانا قد لعبا كثيراً من قبل. تبدأ اللعبة حين يقول لها تلميحات لفظية، من دون تفاصيل وافية، أو أدلّة تشير إلى ما يقصده، وإنما يقدّم لها نذراً يسيراً فقط من المعلومات - من خمس كلمات على الأقلّ - بأي ترتيب. كان نجاح هذه الطريقة قد استغرق منهما بعض الوقت، والقاعدة الأهم هي ضرورة وجود خمس معلومات على الأقل؛ لكن ليس أكثر من عشر. كان هاري قد خرج بالفكرة حين راهن إيلين على أنها لا تستطيع تذكّر ترتيب البطاقات في حزمة ما بعد رؤيتها لمدة دقيقتين. كان قد خسر ثلاث مرات قبل أن يستسلم. كانت قد أخبرته بعد ذلك عن الطريقة التي تستخدمها، وهي أنها لا تفكر في البطاقات على أنها بطاقات، وإنما تربط شخصاً أو فعلاً بكل بطاقة وتبتكر قصة تتوافق مع ترتيبها. كان قد حاول بعدئذ استخدام مهارات الربط التي تتمتع بها في العمل، وكانت النتائج

مدهشة أحياناً.

قال هاري ببطء: "رجل، في السبعين، نرويجي، ونصف مليون كرون، حانق، عينان زرقاوان، بندقية ماركلين، يتكلم الألمانية، قوي البنية، تهريب أسلحة في ميناء حاويات، تدرّبٌ على الرماية في سكاين. هذا كل شيء".

صعد إلى السيارة.

"لا شيء؟ هذا ما ظننته. لا بأس. أظن أن الأمر كان يستحق المحاولة. شكراً، على أيّ حال. اهتمي بنفسك".

كان هاري يقف عند التقاطع المرتفع - المعروف محلياً بآلة السير - أمام مركز البريد حين خطرت له فجأة فكرة، فاتصل بإيلين مجدداً.

"إيلين؟ إنه أنا مجدداً. لقد نسيت شيئاً. ألا تزالين معي؟ لم يحمل سلاحاً منذ أكثر من خمسين سنة. أكرّر: لم يحمل... نعم، أعرف أنها أكثر من خمس كلمات. لا شيء؟ تباً، لقد تجاوزت المنعطف الآن! أتصل بك لاحقاً يا إيلين".

وضع هاتفه الخلوي على مقعد الراكب وركّز على القيادة. كان قد تجاوز المنعطف حين رنّ هاتفه.

"هاري يتكلم، ماذا؟ ما الذي جعلك تفكّرين في ذلك؟ صحيح، صحيح، لا تغضبي الآن يا إيلين. أنسى أحياناً أنك لا تعرفين ما تضعينه في وعائك، أقصد في دماغك؛ في دماغك الكبير والرائع والجميل والمنتفخ يا إيلين. نعم، الأمر كما تقولين الآن هذا واضح. شكراً جزيلاً".

وضع الهاتف جانباً، وتذكر في تلك اللحظة أنه يدين لها بثلاث مناوبات ليلية. لكن، بما أنه لم يعد يعمل في شعبة الجريمة الآن، يجب أن يجد شيئاً آخر. فكّر في ما يمكن أن يفعله زُهاء ثلاث ثوانٍ.

آيرشفاين. 1 آذار 2000

فُتح الباب، وحدّق هاري إلى عينين زرقاوين ثاقبتين في وجه متغضّن.

قال: "هاري هول من الشرطة. اتصلت هذا الصباح".

"هذا صحيح".

كان شعر الرجل العجوز الأشيب ممشّطاً بأناقة فوق جبينه العالي، وكان يضع ربطة عنق تحت سترة صوفية. وكُتِب على علبة البريد خارج مدخل منزله الأحمر المؤلَّف من طابقين في الضاحية الفخمة والهادئة شمال أوسلو: إيفن وسيغني جوول.

"ادخل من فضلك أيها المفتش هول".

كان صوته هادئاً وحازماً. وكان هناك شيءٌ ما في سلوك الأستاذ جوول يجعله حقاً يبدو أكثر شباباً مما هو عليه. قام هاري ببحث عنه، وعرف أن أستاذ التاريخ كان في حركة المقاومة. وبالرغم من أن إيفن جوول قد تقاعد، إلاّ أنه كان لا يزال يُعتبر خبير النرويج الأبرز في تاريخ الاحتلال الألماني وناسونالساملنغ.

انحنى هاري ليخلع حذاءه. على الجدار أمامه مباشرة كانت قد عُلِّقت صورٌ قديمةٌ، وباهتةٌ قليلاً، بالأبيض والأسود في أُطرٍ صغيرة، وتظهر في أحدها شابة ترتدي زي ممرضة، وفي آخر شاب يرتدي معطفاً أبيض.

ذهبا إلى غرفة المعيشة حيث توقف كلب ضخم من نوع أرديل رمادي اللون عن النباح، وشمّ بدلاً من ذلك قدمي هاري قبل أن يبتعد عنه ويستلقي إلى جانب كرسي جوول.

قال هاري بعد أن جلسا: "لقد كنت أقرأ بعض مقالاتك عن الفاشية والاشتراكية الوطنية في داغسافيسن".

ابتسم جوول قائلاً: "يا الله! إذاً، هناك من يقرأ داغسافيسن؟".

"تبدو متحمساً لتحذيرنا من النازية الجديدة اليوم".

"أنا لا أحذّر، وإنما أشير فقط إلى بعض المقارنات التاريخية. إن مهمّة المؤرخ هي أن يكشف ما يجري، لا أن يُصدر حكماً". أشعل غليونه. "يظن كثير من الناس أن الصواب والخطأ حقيقتان ثابتتان. هذا غير صحيح، فهما يتغيران بمرور الوقت. مهمّة المؤرخ أساساً هي العثور على الحقيقة التاريخية، والنظر إلى ما تقوله المصادر، وعرضها على نحو موضوعي وخالٍ من العاطفة. إذا نصّب المؤرخون أنفسهم قضاة وحكموا على أخطاء البشرية، فسيبدو عملنا بالنسبة إلى الأجيال القادمة مثل مستحاثات أو بقايا

معتقدات قديمة في الزمن الذي يعيشون فيه".

ارتفع عمود من الدخان أزرق اللون في الهواء. "لكنك لم تأتِ لتسأل عن هذا، أليس كذلك؟".

"نتساءل إن كان بمقدورك مساعدتنا في العثور على رجل؟".

"ذكرتَ ذلك عبر الهاتف. مَنْ هو هذا الرجل؟".

"لا نعرف. لكننا استنتجنا أن عينيه زرقاوان، وهو نرويجي عمره سبعون سنة، ويتكلم الألمانية".

"و؟".

"هذا كل شيء".

ضحك جوول. "حسناً، عدد هؤلاء قليل".

"صحيح. هناك 158,000 رجل في هذا البلد قد تخطّوا سنّ السبعين، وأظن أن نحو 100,000 منهم عيونهم زرقاء، ويتكلمون الألمانية".

رفع جوول حاجباً، وابتسم هاري مرتبكاً.

"هذا وفقاً لمكتب الإحصائيات العامة. لقد تفقّدتُ الأرقام؛ للتسلية".

"إذاً، كيف تظن أن بمقدوري المساعدة؟".

"سأصل إلى ذلك. قال هذا الشخص إنه لم يمسك سلاحاً منذ أكثر من خمسين سنة. ظننت، أعني أن زميلتي ظنّت أنها أكثر من خمسين، لكنها أقل من ستين".

"هذا منطقي".

"نعم، إنها... حسناً، منطقية. إذاً، لنفترض أنّ هذا حصل قبل خمس وخمسين سنة. سيعيدنا ذلك إلى منتصف الحرب العالمية الثانية. حينها كان في العشرين من عمره ويستخدم سلاحاً. حينها كان يتوجب على كل النرويجيين الذين يمتلكون أسلحة خاصة أن يسلموها إلى الألمان. إذاً، أين كان حتى تمكّن من حمل السلاح؟".

عدّ هاري على ثلاث أصابع. "إما أنه انضمّ إلى صفوف المقاومة، أو فرّ إلى إنكلترا، أو كان على الجبهة الشرقية يقاتل مع الألمان. يتكلم الألمانية أفضل من الإنكليزية. من ثَمّ...".

سأل جوول: "إذاً، استنتجت زميلتك تلك أنه كان يقاتل على الجبهة، أليس كذلك".

"نعم".

قال: "في ذلك الوقت، كان يجب على الكثير من أفراد المقاومة تعلّم الألمانية؛ بهدف التسلل، والتنصّت، وأشياء كهذه. وأنت تنسى النرويجيين في

الشرطة السويدية".

"إذاً، الاستنتاج ليس صحيحاً؟".

قال جوول: "حسناً، دعني أفكّر في الأمر قليلاً. تطوّع نحو خمسة عشر ألف نرويجي للخدمة على الجبهة، استُدعي سبعة آلاف منهم، وسُمح لهم باستخدام السلاح. هذا الرقم أكبر بكثير من عدد أولئك الذين هربوا إلى إنكلترا وانضموا إلى الجيش هناك. وبالرغم من أن عدد الرجال في المقاومة كان أكبر مع نهاية الحرب، إلا أن قليلين منهم حملوا أسلحة".

ابتسم جوول.

"لنفترض حالياً أنك على حق. من الواضح أن الرجال الذين قاتلوا على الجبهة الشرقية ليست أسماؤهم مدرجة في دليل الهاتف على أنهم أفراد سابقون من قوات الأمن الخاصة أس أس، لكنني أتخيل أنك عرفت أين تبحث".

أومأ هاري.

"نعم، لقد بحثت في أرشيف الخونة. إنّه مصنّف وفق الاسم، وفيه كل البيانات من قضايا المحاكم. لقد راجعتها في الأيام القليلة الماضية. كنت آمل أن يكون عدد كبير منهم قد لقوا حتفهم ليصبح العدد الإجمالي معقولاً، لكنني كنت مخطئاً".

ضحك جوول قائلاً: "نعم، إنهم أشبه بطيور مسنّة ولكنها قوية".

"وهكذا أصل إلى السبب الذي جعلنا نتصل بك. تعرف خلفية هؤلاء الجنود أفضل من أي شخص آخر. أودّ أن تساعدنا على فهم طريقة تفكير أشخاص مثل هؤلاء، وما الذي يحفّزهم".

"شكراً على ثقتك أيها المفتش، لكنني مؤرخ ولا أعرف أكثر من أي شخص آخر عن الحافز الشخصي. كما تعرف، ربما، لقد كنت في المقاومة، في حركة المقاومة النرويجية (ميلورغ)، ولا يؤهلني هذا الأمر لفهم ما يجول في ذهن شخص تطوّع للقتال على الجبهة الشرقية".

"على أي حال، أظن أنك تعرف الكثير يا سيد جوول".

"هل هذا صحيح؟".

"أظن أنك تعرف ما أعنيه. لقد كان بحثي شاملاً".

دخّن جوول غليونه ونظر إلى هاري. أدرك هاري في الصمت الذي تلا ذلك أن شخصاً ما كان يقف عند مدخل غرفة المعيشة، فاستدار ورأى امرأة عجوز. كانت عيناها الهادئتان تنظران إلى هاري.

قال إيفن جوول: "نحن نتبادل أطراف الحديث يا سيغني".

أومأت سيغني إلى هاري بوجهٍ بشوش، وفتحت فمها لتقول شيئاً، لكنها امتنعت عن ذلك حين نظرت إلى عيني إيفن. ثم أومأت مجدداً، وأغلقت الباب بهدوء وغادرت.

سأل جوول: "إذاً، أنت تعرف؟".

"نعم. كانت ممرضة على الجبهة الشرقية، أليس كذلك؟".

"قرب لينينغراد. منذ عام 1942 وحتى الانسحاب في آذار من عام 1944". وضع غليونه جانباً. "لماذا تطارد هذا الرجل؟".

"لأكون صادقاً، لا نعرف ذلك أيضاً. لكن، قد تكون هناك مكيدة اغتيال".

"حسناً!".

"إذاً، ما الذي يجب أن نبحث عنه؟ هل نبحث عن رجل غريب الأطوار؟ أو عن رجل لا يزال ملتزماً بالنازية؟ أو مجرم؟".

هزّ جوول رأسه.

"قضى معظم الرجال على الجبهة أحكامهم في السجن، ثم اندمجوا في المجتمع. أبلى كثير منهم حسناً على نحو مدهش، حتى بعد أن صُنّفوا كخائنين. ربما لم يكن ذلك مدهشاً جداً. يتضح دائماً أن الموهوبين هم الذين يتخذون القرارات في مواقف حاسمة؛ مثل الحرب".

"إذاً، الشخص الذي نبحث عنه قد يكون أيضاً أحد أولئك الذين أبلوا حسناً".

"بالتأكيد".

"ربما يكون ركيزة في المجتمع".

"ربما كان الباب المؤدي إلى مواقع ذات أهمية وطنية في عالمي المال والسياسة قد أُغلق دونه".

"لكن، قد يكون رجل أعمال مستقلاً؛ مقاولاً، أو شخصاً كان بالتأكيد قد كسب أموالاً كافية لشراء سلاح يبلغ ثمنه نصف مليون. من الشخص الذي قد يستهدفه؟".

"هل لهذا بالضرورة علاقة بقتاله على الجبهة؟".

"ينتابني شعور خفي بوجود مثل تلك العلاقة".

"إذاً، ربما كان السبب حافز الانتقام؟".

"هل هذا غير منطقي؟".

"لا، على الإطلاق. يرى كثير من الأشخاص الذين كانوا على الجبهة أنفسهم أبطالاً حقيقيين في الحرب. وهم يظنون أنهم، نظراً إلى ما كان

العالم يبدو عليه في العام 1940، قد تصرّفوا وفقاً لما تمليه عليهم مصالح الأمة. وفي الحقيقة، إنهم يعتبرون أنّ سجنهم بوصفهم خونة مهزلة قضائية بحتة".

"إذاً؟".

حكّ جوول مؤخر رأسه.

"حسناً، معظم القضاة الذين حاكموهم قضوا نحبهم الآن. والأمر نفسه ينطبق على السياسيين الذين وضعوا أسس تلك المحاكمات. تبدو نظرية الانتقام ضعيفة".

تنهّد هاري. "أنت محق. أحاول فحسب تأليف صورة بِقِطَع الأحجية القليلة التي لدي".

نظر جوول بسرعة إلى ساعته. "أعدك بأنني سأفكّر في الأمر قليلاً، لكنني لا أعرف حقاً إن كنت أستطيع مساعدتك".

قال هاري وهو ينهض: "شكراً على أيّ حال". ثم تذكر شيئاً، فسحب كومة أوراق مطوية من جيب سترته. "بالمناسبة، لديّ نسخة عن تقريري عن مقابلة أجريتها مع شاهد في جوهانسبرغ. إذا كان بمقدورك إلقاء نظرة، وتحديد إن كان هناك شيء مهم فيه؟".

قال جوول: "نعم". لكنه هزّ رأسه وكأنه يعني لا.

وعندما كان هاري ينتعل حذاءه في الردهة، أشار إلى صورة الرجل الذي يرتدي معطفاً أبيض. "هل هذا أنت؟".

"نعم، في النصف الأول من القرن الماضي". ضحك جوول. "التُقطت هذه الصورة في ألمانيا قبل الحرب. كان يُفترض بي أن أتبع خطوات والدي وجدّي وأدرس الطب هناك. لكن، عندما اندلعت الحرب عدت إلى الديار، ووضعت يديّ في الواقع على أول كتب التاريخ على متن المركب. كان الوقت قد فات بعد ذلك؛ فلقد علقت".

"إذاً، تخلّيت عن الطب؟".

"يعتمد الأمر على الطريقة التي تنظر فيها إليه. أردت أن أحاول العثور على تفسير للطريقة التي يستطيع بها شخص واحد وإيديولوجية واحدة أخذ ألباب عدد كبير جداً من الناس، وربما إيجاد ترياق أيضاً". ضحك ثم قال: "كنت يافعاً جداً".

مركز فوكس للرشاقة، آيلا. 2 آذار 2000

كان هاري يجري على البساط السيّار ويتصبب عرقاً. وكانت القاعة الرياضة تحتوي على ثماني عشرة درّاجة للتمارين حديثة جداً، ومزوّدة بأجهزة لقياس الجهد العضلي، ويشغَلها جميعها مدنيون؛ أي أنهم أشخاص جذّابون يحدّقون إلى شاشات صامتة تتدلّى من السقف. كان هاري يشاهد إليزا في رحلة روبنسون وهي تقول إنها لا تتحمّل بوب وكان هو يعرف ذلك؛ فقد كانت حلقة معادة.

لا يؤثّر ذلك فيّ كثيراً! صدر هذا الكلام بصوت عالٍ من مكبرات الصوت.

لا، حسناً، هناك مفاجأة، كما فكّر هاري الذي لم يكن يحب الموسيقى العالية أو الأصوات الحادّة التي يشعر بأنها تخرج من مكان ما في رئتيه. كان بمقدوره أن يتمرّن في قاعة الألعاب في مقر قيادة الشرطة، لكن إيلين كانت قد أقنعته بالانضمام إلى مركز فوكس. اعتاد على ذلك، لكنه رفض حين حاولت جعله ينضم إلى صف أيروبيك. كان يبدو لهاري أن أداء حركات متزامنة على وقع أنغام موسيقى مبتذلة مع مجموعة من الأشخاص الذين يحبون جميعاً الموسيقى، وهناك مدرّب يبتسم لهم ويشجّعهم على بذل جهد أكبر بكلمات حصيفة مثل من دون ألم لا تحقق شيئاً، أسلوب مبهم من إذلال النفس طواعية. ووفقاً له، فإن أكبر فائدة يقدّمها له فوكس هي أن بمقدوره التمرّن ومشاهدة رحلة روبنسون من دون أن يكون في الغرفة نفسها مع توم والر الذي بدا أنه يمضي معظم وقت فراغه في قاعة الألعاب في مقر الشرطة. ألقى هاري نظرة سريعة حوله، وتثبّت من أنه كان، كالمعتاد، أكبر الأشخاص سناً في تلك الليلة. كان معظم الموجودين في القاعة فتيات يحملن أجهزة ووكمان متصلة بآذانهن، ويسترقن النظر إلى حيث يتمرّن في أوقات متباعدة. لم يفعلن ذلك لينظرن إليه؛ وإنما لأن أشهر كوميدي في النرويج كان يتمرّن إلى جانبه، وهو يعتمر قلنسوة رمادية من دون أن تظهر قطرة عرق واحدة على جبهته. ومضت رسالة على عدّاد سرعة جهاز هاري: أنت تتمرّن جيداً.

لكن ملابسك سيئة، فكّر هاري في سرّه وهو ينظر نحو الأسفل إلى سرواله الفضفاض الذي يجب عليه أن يشدّه إلى الأعلى؛ بسبب الهاتف الخلوي المعلّق في الحزام. ولم يكن حذاؤه الرياضي من نوع أديداس جديداً كفاية ليكون عصرياً، أو قديماً كفاية ليكون أنيقاً. وكان يرتدي قميص جوي

ديفيجن - وهي فرقة موسيقية إنكليزية - الذي انتشر يوماً في الشوارع، مما يشير إلى أنه لم يتابع ما كان يجري على الساحة الموسيقية طوال عدد من السنين. لم يشعر هاري بأنه مرهق تماماً إلا بعد أن بدأ الهاتف يرنّ، ولاحظ أن سبعة عشر زوجاً من العيون، ومن بينها عينا الكوميدي، تتجه إليه. نزع الآلة المزعجة السوداء الصغيرة من حزامه.

"هول".

لا يؤثر ذلك فيّ كثيراً! مجدداً.

"أنا جوول. هل أزعجك؟".

"لا، إنها الموسيقى".

"إنك تتنفس بصعوبة مثل فَظ. اتصل بي حين يكون الوقت مناسباً".

"الوقت مناسب الآن، أنا في قاعة الرياضة".

"حسناً، لدي خبر سار. لقد قرأت تقريرك من جوهانسبرغ. لماذا لم تقل إنه كان في سنهايم؟".

"أوريا؟ هل ذلك مهم؟ لم أكن واثقاً من أن الاسم صحيح. بحثت عنه في خريطة ألمانيا، لكنني لم أعثر على أي سنهايم".

"الجواب عن سؤالك هو نعم، إنه مهم. إذا كان لديك أي شك في أنه حارب على الجبهة، يمكن أن تطمئن الآن. هذا صحيح مئة بالمئة. سنهايم مكان صغير، والنرويجيون الوحيدون الذين سمعت أنهم قد ذهبوا إلى هناك فعلوا ذلك في أثناء الحرب. إنه معسكر تدريب قبل الانتقال إلى الجبهة الشرقية. وسبب عدم عثورك على سنهايم في ألمانيا هو أنها ليست هناك، وإنما هي في الألزاس الفرنسية".

"نعم، لكن...".

"كانت تابعية الألزاس قد تنقّلت بين الفرنسيين والألمان طوال تاريخها؛ لهذا يتكلمون الألمانية هناك. تقلِّل حقيقة ذهاب رجلنا إلى سنهايم عددَ المرشحين المحتملين كثيراً. فوحدهم الرجال من المقاطعة النرويجية فوجَيْ نوردلاند ونورج تلقوا تدريبهم هناك. لديّ شيء أفضل لك؛ يمكنني أن أزوّدك باسم شخص ذهب إلى سنهايم وسيكون على استعداد من دون شك لمساعدتك".

"حقاً؟".

"إنّه جندي من فوج نوردلاند قاتل على الجبهة، وانضم إلينا في المقاومة بصفة متطوع في العام 1944".

"يا الله!".

"ترعرع في مزرعة نائية مع والديه وشقيقيه الأكبر منه سناً. كانوا جميعاً أعضاء متعصّبين في ناسونالساملنغ، وأُرغم على التطوّع للخدمة على الجبهة. لم يكن قطّ نازياً ملتزماً، وفرّ في العام 1943 قرب لينينغراد. بقي لمدة وجيزة في سجن روسي، وقاتل إلى جانب الروس قبل أن يستطيع العودة إلى النرويج عبر السويد".

"هل تثق بجندي من الجبهة الشرقية؟".

ضحك جوول: "بالتأكيد".

"لماذا تضحك؟".

"إنها قصة طويلة".

"لدي وقت طويل".

"أمرناه بقتل أحد أفراد أسرته".

توقف هاري عن الجري، وتنحنح جوول.

"لم نصدق في البداية قصته عندما عثرنا عليه في نوردماركا، شمال أولفالستر. ظننا أنه متسلل وفكّرنا في قتله. كانت لدينا علاقات مع أشخاص يعملون في شرطة أوسلو، مما يعني أننا كنا نستطيع التوثّق من روايته، وتبين أن اختفاءه من الجبهة صحيح. افترضوا هناك أنه قد فرّ. تأكّدنا من خلفية أسرته، وكانت لديه وثائق تثبت هويته. كان هناك احتمال بأن يكون الألمان قد لفقّوا كل ذلك بالطبع؛ لهذا قررنا اختباره".

صمت.

"و؟".

"وضعناه في كوخ، بعيداً عنا وعن الألمان. اقترح أحدهم أننا يجب أن نأمره بقتل أحد شقيقيه في ناسونال ساملنغ؛ إذ كانت الفكرة الأساسية معرفة ما سيكون عليه ردّ فعله. لم ينبس ببنت شفة حين أصدرنا له الأوامر. لكن، حين ذهبنا إلى كوخه في اليوم اللاحق كان قد اختفى. كنا واثقين من أنه قد انسحب، لكنه ظهر مجدداً بعد يومين، وقال إنه قد ذهب إلى مزرعة الأسرة في غدبراندسدالن. تلقينا تقارير بعد عدّة أيام من أشخاص لنا هناك، قالوا فيها إنّه عُثِر على أحد الشقيقين في زريبة الأبقار، وعلى الآخر في الحظيرة، والوالدين على أرضية غرفة المعيشة".

قال هاري: "يا الله! لا بدّ من أن الرجل قد فقد عقله".

"كنا جميعاً كذلك على الأرجح، فقد كانت حرباً. إضافة إلى ذلك، لم نتكلم عن الأمر قطّ، لا في ذلك الوقت ولا بعده. ويجب عليك أنت أيضاً ألا...".

"بالطبع لا. أين يعيش؟".

"هنا في أوسلو، في هوملنكولن على ما أظن".

"واسمه؟".

"فوك، سندر فوك".

"رائع، سأتصل به. شكراً يا سيد جوول".

كانت هناك على شاشة التلفاز لقطة مقرّبة لبوب وهو يبعث تحيّة دامعة إلى المنزل. تأكّد هاري من وضع الهاتف الخلوي في المكان المخصص له على حزام سروال بدلته الفضفاضة، الذي رفعه إلى الأعلى، ثم خرج من قاعة الأثقال.

لم يبدُ على شانيا تواين أي انفعال.

39

قسم ملابس الرجال، هيغدهاوغسفين. 2 آذار 2000

قالت البائعة في المتجر وهي تمسك سترة البذلة للرجل العجوز: "إنها من الصوف الممتاز، قياس 110. إنه الأفضل. فهو خفيف ولا يبلى بسهولة".

قال الرجل العجوز مبتسماً: "سأرتديها مرة واحدة فقط".

قالت مرتبكة قليلاً: "آه! حسناً، لدينا بعض الأنواع الأرخص...".

أمعن النظر إلى نفسه في المرآة ثم قال: "هذه البذلة مناسبة".

أكّدت البائعة في المتجر: "تفصيل كلاسيكي، والأكثر تقليدية لدينا".

نظرت بدهشة إلى الرجل العجوز، الذي انحنى كثيراً.

"هل أنت مريض؟ هل يجب...؟".

"لا، كان هذا ألماً بسيطاً، وسيزول". شدَّ الرجل العجوز قامته. "متى تستطيعين إنهاء تقصير السروال؟".

"بحلول الأربعاء من الأسبوع القادم، إذا لم تكن على عجلة من أمرك. هل تحتاج إلى البذلة لمناسبة خاصة؟".

"نعم، لكن يوم الأربعاء مناسب".

دفع نحوها أوراقاً نقدية من فئة 100 كرون.

قالت عندما كان يعدّها: "حسناً، يمكنني القول إنك ستحظى ببذلة لما تبقى من حياتك".

ظلت ضحكته تدوّي في أذنيها بعد وقت طويل من مغادرته.

هولمنكولن. 3 آذار 2000

وجد هاري، في هولمنكولفن في بسرود، رقم المنزل الذي كان يبحث عنه في الظلام، على بيت خشبي أسود كبير أسفل بعض أشجار التنوب الطويلة جداً. كان درب مفروش بالحصى يؤدي إلى المنزل، فقاد هاري سيارته إلى منطقة ممهدة. كانت الفكرة أن يركنها على منحدر. لكن، حين وضع ناقل الحركة على المسنن الأول صدر عن السيارة صوت قوي وانطفأ المحرك. أطلق هاري لعنة وأدار مفتاح التشغيل، لكن محرّك الإقلاع (ستارتر موتر) أصدر صريراً فحسب.

خرج من السيارة ومشى إلى المنزل، فرأى امرأة تخرج من الباب. كان واضحاً أنها لم تسمعه حين جاء، إذ وقفت على الدرج وهي تبتسم مستفسرة.

قال هاري وهو يومئ نحو السيارة: "صباح الخير. تلك الخردة تحتاج إلى... بعض الدواء".

"دواء؟!". كان صوتها ودّياً وعميقاً.

"نعم، أظن أنها أُصيبت بالإنفلونزا المنتشرة هذه الأيام".

اتسعت ابتسامتها. بدت المرأة في الثلاثين من عمرها، وكانت ترتدي معطفاً أسودَ من النوع الأنيق وغير المزخرف، الذي يعرف هاري أنه مكلف جداً.

قالت المرأة: "كنت سأغادر المنزل. هل أنت قادم إلينا؟".

"أظن ذلك. سندر فوك؟".

قالت: "تقريباً، لكنك تأخرت بضعة شهور؛ فقد انتقل والدي إلى المدينة".

اقترب هاري منها ورأى أنها جذّابة. كان هناك شيء في طريقتها اللطيفة في الكلام، وطريقتها في النظر مباشرة إلى عينيه، يشير إلى أنها واثقة من نفسها أيضاً. خمّن أنها امرأة عاملة، في مجال يتطلّب ذهناً صافياً وعقلاً. ربما كانت سمسارة عقارات، أو رئيسة قسم في مصرف، أو سياسية، أو شيئاً من ذلك القبيل. إنها ميسورة على أي حال، ولم يستنتج ذلك من المعطف والمنزل الضخم خلفها فقط، وإنما من سلوكها وترفّعها الأرستقراطي. نزلت على الدرجات وكأنها تمشي على خط مستقيم، وبدا ذلك سهلاً بالنسبة إليها. فكّر هاري في دروس الباليه.

"هل يمكنني مساعدتك؟".

كانت تنطق الحروف الساكنة بوضوح، مع التشديد على ضمير المتكلم بطريقة مميزة جداً إلى درجة أنّ الأمر بدا مسرحياً.

"أنا من الشرطة". بدأ يبحث في جيوب سترته عن بطاقة هويته، لكنها أشارت إليه بيدها ألا يفعل.

"نعم، حسناً، كنت أودّ إجراء حديث مع والدك".

لاحظ هاري ساخطاً أن نبرة صوته أصبحت بشكل لا إراديّ أكثر جدّية مما كانت عليه عادة.

"لماذا؟".

"نبحث عن شخص، وكنت آمل أن يستطيع والدك مساعدتنا".

"من الذي تبحثون عنه؟".

"أخشى أنني لا أستطيع الإفصاح عن ذلك".

"لا بأس". أومأت؛ كأنه اختبارٌ نجح هاري فيه.

قال هاري وهو يحجب عينيه: "لكن، إذا كنتِ تقولين إنه لا يعيش هنا...". يداها الصغيرتان جعلتا هاري يفكر في دروس البيانو. وكانت هناك تغضّنات تظهر حول عينيها حين تضحك؛ لهذا ربما كان عمرها بالمحصلة أكثر من ثلاثين؟

قالت: "إنه لا يعيش هنا. انتقل إلى ماجورستون، 18 بوابة فايبز. ستجده هناك، أو في مكتبة الجامعة، كما أظن".

مكتبة الجامعة. نطقت الكلمتين بوضوح بالغ مع التشديد على كل مقطع صوتي.

"18 بوابة فايبز. فهمت".

"جيد".

"نعم".

أومأ هاري، واستمر في فعل ذلك وكأنّه كلب. ابتسمت وهي تزمّ شفتيها، ورفعت كلا حاجبيها، وكأنها تقول إن ذلك كل شيء، وإذا لم تكن هناك أسئلة أخرى فإن اللقاء قد انتهى.

كرّر هاري: "فهمت".

كان حاجباها سوداوين، وفكّر هاري في أنهما على الأرجح معتنى بهما جيّداً، لكن على نحو ليس ظاهراً للعيان.

قالت: "يجب أن أذهب الآن. الترام...".

قال هاري مرة ثالثة من دون أن يتحرك ليغادر: "فهمت".

"آمل أن تجده. أقصد والدي".

"سنفعل ذلك".
"مع السلامة". صرّ الحصى تحت كعبيها حين بدأت تبتعد.
قال هاري: "حسناً... لديّ مشكلة صغيرة...".
"شكراً لك على مساعدتك".
قالت: "العفو، هل أنت واثق من أن الطريق ليست بعيدة بالنسبة إليك".
قال هاري وهو يسترق النظر إلى القفازين الجلديين الأنيقين والمكلفين جداً بالتأكيد، واللذين أصبحا آنذاك رماديين متسخين من دفع سيارته إسكورت: "بالتأكيد لا، أنا ذاهب في الطريق نفسها. السؤال هو هل ستجتاز السيارة المسافة؟".
قالت وهي تشير إلى الثقب في لوحة القيادة، وإلى كومة بارزة من الأسلاك الحمراء والصفراء، حيث يجب أن يكون المذياع: "يبدو حقاً أن لها ماضياً حافلاً".
قال هاري: "الدخول عنوة؛ لهذا السبب إنّ الباب لا يُغلق. لقد حطّموا القفل أيضاً".
"إذاً، هي مشاع للجميع الآن؟".
"نعم، هذا ما يؤول إليه الأمر حين تكبرين كفاية".
ضحكت. "حقاً؟".
رمقها بنظرة سريعة. ربما كانت من أولئك الفتيات اللواتي لا يتغير مظهرهنّ مع تقدم الزمن، وتبدو في الثلاثين من سنّ العشرين وحتى الخمسين. أحب شكلها، وملامحها الرقيقة، وجلدها النضر الذي يتورّد على نحو طبيعي، لا ذلك الاسمرار الجاف الباهت الذي تحب النساء أن يكتسبنه في شباط. كانت قد أغلقت أزرار معطفها كلها، ولم يستطع رؤية شيء إلا عنقها النحيل والطويل. لاحظ يديها وهما تستقران برفق في حجرها.
قالت بهدوء: "إنها حمراء".
ضغط هاري على المكابح بشكل لا إراديّ، وقال: "آسف".
ما الذي كان يفعله؟ أينظر إلى يديها ليكتشف إن كانت تضع خاتم زواج؟ يا للهول!
نظر حوله وأدرك فجأة أين كانا.
سألت: "هل من خطب ما؟".
"لا، لا". تغير الضوء إلى الأخضر فانطلق بالسيارة. "لدي ذكريات سيئة

عن هذا المكان".

قالت: "وأنا أيضاً؛ إذ مررت من هنا على متن قطار قبل بضع سنوات، بعد أن تجاوزت سيارة شرطة السكة الحديدية واصطدمت بالجدار هناك". أشارت. "كان ذلك مروّعاً. رأيت شرطياً معلقاً على عمود السياج، وكأنه مصلوب. لم أنم عدّة ليالٍ بعد ذلك. قيل إن الشرطي الذي كان يجلس خلف المقود كان ثملاً".

"من قال ذلك؟".

"شخص من كلية الشرطة، كنت أدرس معه".

تجاوزا فروين، وأضحت فيندرن خلفهما. قال هاري في قرارة نفسه إنها طريق طويلة.

سأل: "إذاً، ذهبت إلى كلية الشرطة؟".

"لا، هل أنت مجنون؟!". ضحكت مجدداً، وأحب هاري صوت ضحكتها. "درست الحقوق في الجامعة".

قال: "أنا أيضاً. متى كنتِ هناك؟".

أنت بارعٌ جداً يا هول.

"تخرّجت في العام 92".

أجرى هاري الحساب، واكتشف أنها في الثلاثين على الأقل.

"وأنت؟".

قال هاري: "عام 90".

"هل تتذكر العربة مع راجا روكرز (فرقة روك نرويجية) في أثناء احتفال الحقوق في العام 88؟".

"نعم، بالطبع. كنت هناك، في الحديقة".

"أنا أيضاً. ألم تكن رائعة!". نظرت إليه وعيناها تلمعان.

فكّر: أين؟ أين كنتِ؟

"نعم، كانت رائعة". لم يتذكر هاري الكثير من الحفلة الموسيقية، لكنه تذكّر فجأة كل نساء الطرف الغربي الرائعات، اللواتي كن يظهرن حين تعزف راجا روكرز.

قالت: "إذاً، درسنا في الجامعة في الوقت نفسه، ولا بدّ من أن لدينا الكثير من المعارف المشتركين".

"أشك في ذلك. كنت شرطياً حينها، ولم أختلط بالطلاب".

عبرا إندوستريغاتا بصمت.

قالت: "يمكنك إنزالي هنا".

"هل هذا هو المكان الذي تقصدينه؟".

"نعم، هذا مناسب".

توقف عند قارعة الطريق، واستدارت نحوه. كانت خصلة شعر عالقة على وجهها، ونظرتها رقيقة وشجاعة. خطرت له مباشرة فكرة غير متوقعة: أراد أن يقبّلها.

قالت مبتسمة: "شكراً لك".

دفعت مقبض الباب إلى الأسفل، لكن شيئاً لم يحدث.

قال هاري وهو ينحني نحوها ويشم عطرها: "آسف، القفل...". دفع الباب بإبهامه بقوة فانفتح، وشعر بأنه يغرق. "ربما سنرى بعضنا مجدداً؟".

"ربما".

كانت لديه رغبة ملحّة في أن يسألها إلى أين ستذهب؟ وأين تعمل؟ وهل تحب عملها؟ وماذا تحب غير ذلك؟ وهل لديها حبيب؟ وهل تحب الذهاب إلى حفلة موسيقية حتى إذا لم تكن لفرقة راجا؟ لحسن الحظ، كان الوقت على أي حال قد فات. فقد كانت تسير آنذاك بخطوات الباليه تلك على طول الرصيف في سبورفيزغاتا.

تنهّد هاري. كان قد التقاها قبل نصف ساعة، ولم يعرف اسمها حتى. لا بدّ من أنه كان يعاني سنَّ اليأس باكراً. ثم نظر إلى المرآة، وقاد سيارته عائداً من حيث جاء. كانت بوابة فايبز قريبة.

بوابة فاييز، ماجورستون. 3 آذار 2000
وقف رجل عند الباب مبتسماً ابتسامة عريضة وهو ينتظر وصول هاري الذي صعد الدرج لاهثاً حتى وصل إلى الطابق الثالث.
قال الرجل وهو يمدّ يده: "آسف بشأن الدرج. سندر فوك".
كانت عيناه لا تزالان تنبضان بالحياة. لكن، بخلاف ذلك، بدا وجهه وكأنه قد خاض حربين عالميتين، على الأقل. كان ما بقي من شعره الأبيض ممشّطاً إلى الخلف، ويرتدي قميص حطّاب أحمر تحت سترة صوفية نرويجية مفتوحة، وكانت مصافحته وديّة وقوية.
قال: "لقد حضّرت بعض القهوة، وأعرف ما تريده".
ذهبا إلى غرفة المعيشة التي حُوّلت إلى مكتب مع منضدة وحاسوب. تناثرت أوراقٌ في كل مكان، وغطّت أكداسُ كتب ومجلات الطاولات والأرضية، إضافة إلى الجدران.
شرح وهو يفسح المجال لهاري على الأريكة: "لم يتسنَّ لي الوقت لترتيب هذه الأشياء بعد".
أمعن هاري النظر في أرجاء الغرفة. لم تكن هناك لوحات على الجدران، وإنما فقط تقويم متجر مع صور لنوردماركا.
"أعمل على مشروع ضخم، وآمل أن يصبح كتاباً عن الحرب".
"ألم يؤلف أحدهم كتاباً من هذا القبيل؟".
ضحك فوك بصوتٍ عالٍ، ثم قال: "نعم، يمكنك قول هذا بالتأكيد. لكنهم لم يؤلفوا كتبهم بعد كما يجب. وهذا الكتاب سيكون عن حربي".
"آ... ها! لماذا تؤلفه؟".
هزّ فوك كتفيه.
"أخاطر في أن أبدو مغروراً؛ حيث يقع على كاهل أولئك الذين تورّطوا منا عبءُ توثيق تجاربهم للأجيال القادمة قبل أن نغادر هذه الحياة. على أي حال، هكذا أرى الأمر".
ذهب فوك إلى المطبخ وصرخ كي يسمعه هاري الذي كان يجلس في غرفة المعيشة: "اتصل بي إيفن جوول، وقال إنني سأستقبل زائراً؛ من الاستخبارات السرية، كما فهمت".
"نعم، لكن جوول أخبرني أنك تعيش في هولمنكولن".
"لست على اتصال وثيق مع إيفن، وقد احتفظت برقم هاتفي؛ لأن انتقالي مؤقت، حتى أُنهي هذا الكتاب".

"حسناً، ذهبت إلى هناك، والتقيت ابنتك التي زوّدتني بهذا العنوان".

"إذاً، كانت في المنزل؟ حسناً، لا بدّ من أنها كانت في إجازة".

ممَّ؟ كان هاري على وشك أن يسأل، لكنه قرّر أن ذلك سيبدو شديد الوضوح.

عاد فوك حاملاً إبريقاً كبيراً من القهوة يتصاعد منه البخار، وكوبين.

"من دون سكر؟". وضع أحد الكوبين أمام هاري.

"رائع".

"جيد؛ لأنه لا خيار لديك". ضحك فوك، وكاد يريق القهوة وهو يسكبها.

فكّر هاري في أن الطريقة التي يذكّره فيها فوك بابنته جديرة بالملاحظة؛ إذ لم يكن يتكلم بطريقتها المهذّبة، أو يتصرف مثلها، أو لديه ملامحها، أو بشرتها الداكنة. كان جبينه فقط يشبه جبينها؛ فهو عريض، وهناك عِرق أزرق عريض يبدو ظاهراً فيه.

قال بدلاً من ذلك: "لديك منزل كبير هناك".

أجاب فوك وهو يتذوق القهوة ويتلمّظ استحساناً: "أعمال الصيانة وإزالة الثلج لا تنتهي. إنه معتم، وكئيب، وبعيد جداً عن كل شيء. لا أحتمل هولمنكولن. أضف إلى كل ذلك، لا يعيش المتعجرفون هناك، ولا مكان هناك لمهاجر مثلي من غدبراندسدالن".

"إذاً، لماذا لا تبيعه؟".

"أظن أن ابنتي تحبّه. لقد ترعرعت هناك، بالطبع. أردتَ أن تتكلم عن سنهايم، كما فهمت".

"ابنتك تعيش هناك وحدها؟".

كان بمقدور هاري أن يمسك لسانه. شرب فوك جرعة من كوبه، واستغرق وقتاً طويلاً حتى ابتلع ما شربه.

"إنّها تعيش هناك مع الفتى، يُدعى أوليغ".

كانت عيناه خاويتين، وقد فارقته الابتسامة.

استنتج هاري بضعة أشياء بسرعة؛ وبسرعة كبيرة ربما. لكن، إذا كان محقاً فإن أوليغ أحد الأسباب التي تدفع سندر فوك إلى العيش في ماجورستون. على أي حال، انتهى الأمر. إنها تعيش مع أحدهم، ولا فائدة من التفكير في الأمر بعد ذلك، بالطريقة نفسها.

"لا يمكنني إخبارك الكثير يا سيد فوك. أنا واثق من أنك تفهم، نحن نعمل...".

"أفهم".
"جيد. أودّ أن أسمع ما تعرفه عن النرويجيين في سنهايم".
"أووه! كان هناك كثيرون منا، كما تعلم".
"أولئك الذين لا يزالون أحياء اليوم".
أرغم فوك نفسه على الابتسام.
"لا أقصد أن أكون خبيثاً، لكن هذا يجعل الأمر أسهل بكثير. سقط رجال مثل الذباب على الجبهة. بالمعدل، مات نحو 60 بالمئة من أفراد سريتي كل سنة".
"لم أكن أدري... معدل موت السيّاج هو...".
"ماذا؟".
"آسف، تابع من فضلك".
حدّق هاري، مرتبكاً، إلى كوب قهوته.
قال فوك: "المغزى هو أن التعلّم عن طريق التجربة في الحرب باهظ الثمن. إذا نجوت في الشهور الستة الأولى، تصبح فرص النجاة أكبر بعدّة أضعاف. فأنت لا تطأ على ألغام، وتخفض رأسك في الخنادق، وتستيقظ حين تسمع صوت بندقية موسين ناغانت. وتعرف أنه لا يوجد مجال للأبطال، وأن الخوف أعزّ أصدقائك. وهكذا، بعد ستة شهور، كنت بين مجموعة صغيرة من النرويجيين الذين أدركوا أنهم قد ينجون من الحرب، وكان معظمنا في سنهايم. تدريجياً، ومع دوران رحى الحرب، نقلوا معسكرات التدريب إلى أماكن أبعد في ألمانيا، وتوافد المتطوعون من النرويج مباشرة. وأولئك الذين جاءوا من دون أي تدريب...". هزّ فوك رأسه.
سأل هاري: "هل ماتوا؟".
"لم نزعج أنفسنا حتى بمعرفة أسمائهم حين وصلوا. ما الفائدة؟ من الصعب أن يفهم المرء ذلك، لكن في أواخر العام 1944 كان المتطوعون لا يزالون يتدفقون إلى الجبهة الشرقية، بالرغم من معرفة أولئك الذين كانوا هناك منذ وقت طويل النتيجة التي ستؤول إليها الحرب. هؤلاء المساكين، ظنّوا أنهم سينقذون النرويج".
"أفهم أنك لم تكن هناك في العام 1944؟".
"هذا صحيح. هربت عشيةَ رأس سنة 1942. خنت بلادي مرتين".
ابتسم فوك. "وانتهى بي الأمر في المعسكر الخطإ مرتين".
"هل قاتلت مع الروس؟".
"بطريقة ما. وقعت أسير حرب، وكنا نتضوّر جوعاً حتى الموت. سألوا

بالألمانية صباحَ أحد الأيام إن كان أحد ما يعرف شيئاً عن الاتصالات، وكانت لدي فكرة وافية عنها؛ لهذا ذهبت إليهم. اتضح أن جنود الاتصالات في أحد الأفواج قد ماتوا جميعاً! وفي اليوم اللاحق كنت أشغّل هاتفاً ميدانياً في أثناء الهجوم على رفاق سلاحي السابقين في إستونيا. حدث ذلك قرب نارفا...".

رفع فوك كوب قهوته بكلتا يديه.

"استلقيت على رابية وأنا أشاهد الروس وهم يهاجمون مربض رشاش ألمانيًّا. لقد قتل الألمان كثيراً منهم. تكدّس مئة وعشرون شخصاً، وأربعة خيول في أكوام قبل أن يسكت الرشاش أخيراً، ثم قتل الباقون من الروس بالحراب؛ توفيراً للذخيرة. انقضت نصف ساعة، تقريباً، منذ بدء الهجوم وحتى انتهائه. لقي مئة وعشرون شخصاً حتفهم، ثم انتقل الهجوم إلى الموقع الآخر، وحدث الشيء نفسه هناك".

رأى هاري الكوب يهتز قليلاً.

"عرفت أنني سأموت، ومن أجل قضية لا أؤمن بها. لم أكن أصدّق ستالين أو هتلر".

"لماذا ذهبت إلى الجبهة الشرقية إذا لم تكن تؤمن بالقضية؟".

"كان عمري ثمانية عشر عاماً، وقد ترعرعت في مزرعة بعيدة في غدبراندسدالن، حيث لا نرى أحداً عادة إلا أقرب جيراننا. لم نكن نقرأ الصحف، وليس لدينا أي كتب؛ فلم أكن أعرف شيئاً. كل ما كنت أعرفه عن السياسة هو ما يخبرني به والدي. كنا الوحيدين الباقين من الأسرة، وقد هاجر الآخرون إلى الولايات المتحدة في العشرينيات. كان والداي والمزارعون على كلا الجانبين أنصاراً متحمّسين لكيسلنغ (رئيس النرويج في الحرب العالمية)، وأعضاءً في أن أس. حظيت بشقيقين أكبر مني سناً، وارتبطت معهما في كل شيء تقريباً، وكانا عضوين في الجناح العسكري للحزب النازي في النرويج (هيردن)، وناشطين سياسيين يرتديان زياً موحداً، ومهمتهما تجنيد شبان للحزب في الديار، ولولا ذلك لكانا قد تطوّعا للذهاب إلى الجبهة أيضاً، أو هذا ما قالاه لي على الأقل. اكتشفت لاحقاً أن مهمتهما كانت تجنيد مخبرين فقط، لكن بعد فوات الأوان؛ وأنا في طريقي إلى الجبهة".

"إذاً، فقد غيّرت ولاءك على الجبهة".

"لا أدعوه تغيير ولاء. كان تفكير المتطوّعين يركّز على النرويج أكثر من التركيز على السياسة. حصلت نقطة التحوّل حين أدركت أنني أخوض حرب

بلد آخر. في الحقيقة، كان الأمر بتلك البساطة، ولم يكن القتال لمصلحة الروس أفضل. كُلّفت، في حزيران عام 1944، بمهمة تفريغ على رصيف ستالين، حيث استطعت التسلل إلى مركب للصليب الأحمر السويدي. اختبأت في مخزن الفحم وبقيت هناك ثلاثة أيام، فأُصبت بتسمم أول أكسيد الكربون، لكنني استعدت عافيتي في ستوكهولم، وانتقلت من هناك إلى الحدود النرويجية التي عبرتها بمفردي. حصل ذلك في آب".

"لماذا وحدك؟".

"لم يصدّقني الأشخاص القلائل الذين عرفتهم في السويد، وبدت قصتي خيالية. كان ذلك يناسبني؛ لأنني لم أثق بأحد منهم أنا أيضاً". ضحك بصوتٍ عالٍ مجدداً.

"لهذا تواريت عن الأنظار بطريقتي الخاصة. كان عبور الحدود نفسها في منتهى السهولة. صدّقني، كان الذهاب من السويد إلى النرويج في أثناء الحرب أقل خطورة بكثير من الحصول على حصص الطعام في لينينغراد. هل تريد المزيد من القهوة؟".

"من فضلك. لماذا لم تبقَ ببساطة في السويد؟".

"هذا سؤال وجيه، وقد طرحته على نفسي عدّة مرات".

مرّر يده عبر شعره الأبيض.

"لقد استحوذت فكرة الانتقام على تفكيري، كما تعلم. كنت شاباً، وعندما تكون يافعاً يراودك وهم عن مُثل العدالة، وتظن أنها شيء يولد مع البشر. كنتُ شاباً أعاني صراعات داخلية في أثناء وجودي على الجبهة الشرقية، وتصرفت مثل أحمق مع كثيرٍ من رفاق السلاح. وبالرغم من ذلك، أو بسببه تحديداً، أقسمت على الثأر لأولئك الذين ضحّوا بحياتهم من أجل أكاذيب كانوا قد لقّنونا إياها في الوطن، وأن أنتقم لحياتي المحطّمة التي ظننت أنها لن تعود إلى طبيعتها مجدداً. كل ما أردته هو تصفية الحساب مع أولئك الذين خانوا بلدنا فعلاً. هذه الأيام سيدعو علماء النفس ذلك ذهان حرب على الأرجح، وسيحتجزونني مباشرة. بدلاً من ذلك، ذهبت إلى أوسلو، حيث لا أعرف أحداً، وليس لديّ مكان أقيم فيه، وأحمل أوراقاً تجعلهم يقتلونني حيث يعتبرونني فارًّا من الجندية. ذهبت إلى نوردماركا في اليوم نفسه الذي وصلت فيه إلى أوسلو على متن شاحنة. نمت تحت أغصان أشجار الصنوبر، ولم آكل إلا العلّيق طوال ثلاثة أيام قبل أن يعثروا علي".

"رجال المقاومة؟".

"فهمت من إيفن جوول أنه أخبرك بما حدث بعد ذلك".

"نعم". حرّك هاري كوبه بعصبية. القتل كان فعلاً مبهماً، ولم يسهم لقاؤه هذا الرجل في جعله أكثر وضوحاً. كانت الفكرة تراوده طوال الوقت، وتجول في مقدمة ذهنه، منذ أن رأى هاري فوك يقف مبتسماً عند المدخل، وهزّ رأسه. هذا الرجل أعدم والديه وشقيقيه.

قال فوك: "أعرف ما تفكّر فيه، لكنني كنت جندياً صدرت إليه أوامر بالقتل. لو لم تصدر إلي الأوامر، لما كنت قد فعلت ذلك، لكنني أعرف الآتي: كان أفراد أسرتي في عداد أولئك الذين خانوا وطننا".

نظر فوك إلى هاري مباشرة. لم تكن يداه اللتان تمسكان الكوب تهتزان آنذاك.

قال: "ربما كنت تتساءل لماذا قتلتهم جميعاً مع أن الأوامر التي كانت قد صدرت إليّ تلزمني بقتل واحد منهم فقط. المشكلة هي أنهم لم يحددوا شخصاً بعينه، وتركوا لي أن أكون قاضي حياة أو موت، ولم أستطع فعل ذلك؛ لهذا قتلتهم جميعاً. كان هناك رجل على الجبهة دعوناه أبا الحناء؛ تيمناً بالطائر نفسه. كان قد علّمني أن القتل بالحربة هو الطريقة الأكثر إنسانية. إذ يمتد الشريان السُباتي من القلب إلى الدماغ، وعندما تمزّقه ينقطع الأوكسجين عن الدماغ الذي يموت حالاً، وينبض القلب ثلاث أو أربع مرات، لكنه يتوقف عن الخفقان. المشكلة أن ذلك صعب. كان غدبراند - ذلك اسمه - معلماً، لكنني وجدت صعوبة كبيرة مع أمي؛ إذ لم يسعني إلا أن أصيبها بجروح فقط، فاضطررت في النهاية إلى إطلاق النار عليها".

كان فم هاري جافاً، وقال: "فهمت".

علقت الكلمات التي تخلو من أي معنى في الهواء. دفع هاري كوب القهوة عبر الطاولة، وأخرج دفتر ملاحظات من سترته الجلدية.

"ربما يمكنك أن تتكلم عن الرجال الذين كنت معهم في سنهايم".

وقف سندر فوك مباشرة.

"أعتذر أيها المفتش. لم أكن أقصد أن أسرد ذلك ببرودة وقسوة. دعني أشرح لك قبل أن نتابع: لست رجلاً متوحشاً. إنها طريقتي في التعامل مع الأشياء. لم أكن مضطراً إلى إخبارك، لكنني فعلت ذلك؛ لأنني لا أستطيع إخفاء الأمر، ولهذا السبب أيضاً أؤلف هذا الكتاب. يجب أن أعاني في كل مرة يُثار فيها هذا الموضوع، صراحةً أو ضمناً، وأن أتأكد تماماً من أنني لا أختبئ منه. سيفوز الخوف بمعركته الأولى في اليوم الذي أختبئ فيه. لا

أعرف لماذا الأمر على هذا النحو. على الأرجح، يمكن لعالم نفس أن يفسّره".

تنهّد.

"لكنني أخبرتك الآن كلَّ ما سأقوله عن القضية، وهو على الأرجح كثير جداً. أتريد المزيد من القهوة؟".

قال هاري: "لا، شكراً".

جلس فوك مجدداً، ووضع ذقنه على قبضتين متشابكتين.

"حسناً، سنهايم، مكان تدريب النرويجيين. في الواقع، كان هناك خمسة أشخاص فقط، ومن بينهم أنا، وتوفي أحدهم - دانيال غدسون - في الليلة التي فررت فيها. إذاً، أربعة: إدوارد موسكن، وهالغريم ديل، وغدبراند يوهانسن وأنا. الوحيد الذي كنت قد رأيته منذ الحرب هو إدوارد موسكن، قائد قطاعنا، وكان ذلك في صيف العام 1945. سُجن لثلاث سنوات بتهمة الخيانة. لا أعرف إن كان الباقون أحياء. لكن، دعني أخبرك ما أعرفه عنهم".

قلب هاري صفحة جديدة في دفتر ملاحظاته.

الاستخبارات السرية. 3 آذار 2000

كتب هاري الحروف بسبابته: غ - د - ب - ر - ا - ن - د ي - و - هـ - ا - ن - س - ن. فتى ريفي، وكما قال فوك: شخصية لطيفة وضعيفة نوعاً ما، في حين أن قدوته والبديل عن أخيه الأكبر، دانيال غدسون، قد لقي حتفه في أثناء مناوبة ليلية. ضغط هاري زر الإدخال وبدأ البرنامج يعمل.

حدّق إلى الجدار؛ إلى الصورة الصغيرة لشقيقته. كانت متجهّمة، جرياً على عادتها حين تُلتقط لها صورة، لكن هذه الصورة تعود إلى عطلة صيف قبل عدّة سنوات مضت. كان ظل المصوّر ظاهراً على قميصها الأبيض.

أشار أزيزٌ خافت صادر من الحاسوب إلى أن البحث قد انتهى، فركّز على الشاشة مجدداً.

كان لدى مكتب السجلات الوطني سجلّان باسم غدبراند يوهانسن، لكنّ تاريخي الميلاد أظهرا أن عمرهما أقل من الستين. قام سندر فوك بتهجئة الأسماء له؛ لهذا لم يكن محتملاً أن يخطئ في كتابتها. كان هذا الأمر يعني أن يوهانس قد غيّر اسمه، أو يعيش في الخارج، أو ميت.

جرّب هاري الاسم الآخر، قائد القطاع من ميوندالن، الذي لديه أبناء صغار في الوطن. إ - د - و - ا - ر - د م - و - س - ك - ن. تبرأت أسرته منه؛ بسبب ذهابه إلى الجبهة. نقر مرتين على كلمة بحث.

أضاءت مصابيح السقف فجأة، فاستدار هاري.

"يجب أن تُشعل الأضواء حين تعمل حتى وقت متأخر". وقف كورت ميريك عند المدخل وإصبعه على المفتاح الكهربائي، ثم دخل وجلس على طرف الطاولة.

"ماذا اكتشفت؟".

"إننا نبحث عن رجل تجاوز السبعين، وقاتل على الأرجح على الجبهة".

"أعني عن النازيين الجدد ويوم الاستقلال".

"أوه!". سمع مجدّداً صوت أزيز صادراً من الحاسوب. "لم يتسنَّ لي الوقت للنظر في ذلك بعد يا ميريك".

ظهر اسم إدوارد موسكن مرتين على الشاشة، أحدهما مولود في العام 1942، والآخر في العام 1921.

قال ميريك: "لدينا حفلة في القسم يوم السبت القادم".

"وصلتني الدعوة إلى بريدي". نقر هاري مرتين على اسم إدوارد المولود

عام 1921، وظهر عنوان موسكن الأكبر سناً، الذي يعيش في درامن.

"قال قسم شؤون الموظفين إنك لم تجب بعد. أردت فقط التأكد من أنك ستأتي".

"لماذا؟".

قام هاري بإدخال رقم هوية إدوارد موسكن في سجلات المجرمين.

"نحب أن يعرف الناس في أقسام مختلفة بعضهم بعضاً. لم أرك في المطعم مرة واحدة بعد".

"أنا سعيد جداً هنا في المكتب".

لا نتائج. ولج إلى السجل الوطني المركزي الذي يوثّق كل اتصال رسمي بالشرطة لأي سبب. أشخاص لم يُدانوا بالضرورة، لكنهم اعتُقلوا، أو تقدموا بشكوى مثلاً، أو كانوا هم أنفسهم ضحية عمل إجرامي.

"رؤيتك وأنت منهمك في العمل على القضايا أمر جيد. لكن، لا تسجن نفسك هنا. هل سأراك في الحفلة يا هاري؟".

زر الإدخال.

"سأرى. لدي ارتباط آخر رتّبته منذ وقت طويل". كان هاري يكذب.

لا نتائج مجدداً. كان لا يزال في السجل الوطني المركزي؛ ولهذا قام بإدخال الاسم الثالث الذي زوّده به فوك. هـ - ا - ل - غ - ر - ي - م د - ي - ل. إنّه انتهازي وفقاً لفوك. راهن على انتصار هتلر في الحرب، ومكافأة أولئك الذين اختاروا الجانب الصحيح. كان قد ندم على ذلك في الوقت الذي وصل فيه إلى سنهايم؛ لكن بعد فوات الأوان. كان هاري قد فكّر في أن هناك شيئاً مألوفاً على نحو مبهم في الاسم حين قاله فوك، وراوده ذلك الشعور مجدداً آنذاك.

قال ميريك: "دعني أقول ذلك بوضوح أكبر. أنا آمرك بأن تأتي".

رفع هاري بصره إلى الأعلى، فابتسم ميريك.

قال: "إنها دعابة. لكن، سيكون لطيفاً أن نراك هناك. أتمنى لك أمسية سعيدة".

تمتم هاري وهو يعاود النظر إلى الشاشة: "مع السلامة". هالغريم ديل واحد، مولود في العام 1922. زر الإدخال.

امتلأت الشاشة بنص، فاستعرضه هاري صفحة إثر أخرى.

إذاً، لم يبلوا جميعاً حسناً بعد الحرب، كما فكّر هاري. كان هالغريم ديل - مكان الإقامة: بوابة شوفيغاردز، أوسلو - ما تحب الصحف أن تصفه بأنّه ليس غريباً بالنسبة إلى الشرطة. جالت عينا هاري في اللائحة:

تشرّد، وثمالة، وإزعاج للجيران، وسرقة صغيرة، وشجار. هذا كثير. لكن لا شيء يستحق عقاباً قاسياً. كان الشيء المؤثر حقاً هو أنه لا يزال حياً، كما فكّر هاري، بعد أن لاحظ أنه قد اعتُقل؛ لإفراطه في تناول الشراب في أواخر آب. وجد دليل هاتف أوسلو، وبحث عن رقم ديل واتصل به. وبينما كان ينتظر رداً، بحث في السجل، ووجد إدوارد موسكن الآخر، المولود في العام 1942. كان عنوانه في درامن أيضاً. سجّل رقم الهوية الشخصية وعاد إلى سجل المجرمين.

"هذه رسالة من تيلينور. لقد اتصلت برقم هاتف لم يعد مستخدماً. هذه...".

لم يتفاجأ هاري، ووضع السمّاعة.

كان إدوارد موسكن الابن يقضي حكماً بالسجن، لمدة طويلة ولا يزال هناك. لماذا؟ خمّن هاري؛ لا بدّ من أنه مسجون بسبب ممنوعات، وضغط زر الإدخال. كان ثلث السجناء مدانين بقضايا ممنوعات. ظهرت النتيجة. نعم، فعلاً: تهريب ممنوعات، أربعة كيلوغرامات، وأربع سنوات سجن.

تثاءب هاري وتمطّى. هل كان يحقق شيئاً ما؟ أم أنه يجلس هناك وهو يهدر وقته؛ لأن المكان الآخر الوحيد الذي يشعر بأنه يحب الذهاب إليه هو شرودر، ولم يكن يرغب في الجلوس هناك واحتساء القهوة؟ يا له من يوم عصيب! لخّص: غدبراند يوهانسن غير موجود، على الأقل في النرويج. إدوارد موسكن يعيش في درامن، ولديه ابن مُدان في قضية ممنوعات. هالغريم ديل سكّير، وليس من النوع الذي يمتلك نصف مليون كرون.

فرك هاري عينيه.

هل يجب أن يبحث عن فوك في دليل الهاتف؛ ليرى إن كان هناك رقم في هومنكولفن؟ تأوه.

لديها حبيب، ومال. وهي مثقفة. باختصار: كل ما لا تملكه أنت.

وضع رقم هوية هالغريم ديل في السجل، وضغط زر الإدخال. صدر عن الجهاز صوت أزيز.

لائحة طويلة. المزيد من الأشياء نفسها؛ إنّه مدمن على الشراب، يا له من عجوز مسكين!

درس كلاكما الحقوق، وهي تحب راجا روكرز أيضاً.

انتظر لحظة. ظهر ديل كضحية في الوثيقة الأخيرة. هل تعرّض للضرب؟ زر الإدخال.

انسها. هذا صحيح، أصبحت طي النسيان. هل يتصل بإيلين ويسألها إن كانت تحب الذهاب إلى دار العرض؟ لتختر هي الفيلم. لا، الأفضل أن يذهب إلى فوكس، ويتصبّب عرقاً.

ومضت المعلومة على الشاشة: هالغريم ديل. 151199. ضحيّة جريمة قتل.

أخذ هاري نفساً عميقاً. تفاجأ، لكن، لماذا لم يكن أكثر اندهاشاً؟ نقر مرتين على التفاصيل. أزّ الحاسوب واهتز، لكن تلافيف دماغه هذه المرة كانت أسرع من الحاسوب، وبحلول الوقت الذي ظهرت فيه الصورة كان قد عرف الاسم.

مركز فوكس للرشاقة. 3 آذار 2000

"إيلين تتكلم".

"مرحباً، هذا أنا".

"من؟".

"هاري. ولا تتظاهري أن هناك رجالاً آخرين يتصلون بك ويقولون: هذا أنا".

"أنت بغيض. أين أنت؟ وما هذه الموسيقى السيئة؟".

"أنا في فوكس".

"ماذا؟!".

"أنا أتمرّن على الدرّاجة، وقطعت ثمانية كيلومترات".

"دعني أستوضح هذا تماماً يا هاري: تجلس على درّاجة في فوكس في الوقت نفسه الذي تتكلم فيه عبر هاتفك الخلوي؟". شدّدت على كلمتي فوكس وخلوي.

"هل هناك خطب في ذلك؟".

"صدقاً يا هاري".

"لقد كنت أحاول الاتصال بكِ طوال المساء. هل تتذكرين جريمة القتل التي عملتِ وتوم والر عليها في تشرين الثاني، والاسم هالغريم ديل؟".

"بالتأكيد. تولّى كريبوس القضية مباشرة تقريباً. لماذا؟".

"لست واثقاً بعد. قد تكون على علاقة برجل خدم على الجبهة، وأنا أسعى خلفه. ماذا يمكنك إخباري؟".

"هذا عمل يا هاري. اتصل بي في المكتب يوم الاثنين".

"قليلاً فقط يا إيلين، هيا".

"وجد أحد الطهاة في بيتزا هربرت، ديل في الزقاق الخلفي. كان ممداً بين صناديق قمامة ضخمة وقد حُزّ عنقه. لم يعثر خبراء الكشف في مسرح الجريمة على شيء. بالمناسبة، ظنّ الطبيب الذي أجرى التشريح أن قطع الحنجرة ممتاز؛ دقة جراحية، كما قال".

"من تظنين أنه قد فعل ذلك؟".

"لا فكرة لديّ. ربما يكون أحد النازيين الجدد بالطبع، لكنني لا أظن ذلك".

"لِمَ لا؟".

"إذا قتلت شخصاً على عتبة بابك مباشرة، فستكون إما متهوراً، أو

أحمق تماماً. لكن، كل ما يتعلق بمقتله يبدو مرتّباً جداً؛ لهذا أمعن التفكير في الأمر. لم تكن هناك علامات تشير إلى حصول نزاع، أو أدلّة، أو شهود. يشير كل شيء إلى أن القاتل كان يعرف تماماً ما يفعله".

"الحافز؟".

"من الصعب تحديد ذلك. كان ديل مديناً بالتأكيد، لكن ليس بمبالغ تستحق أن يخسر حياته من أجلها. وفقاً لما نعرفه، لم يكن يتعامل بالممنوعات. فتّشنا شقّته، ولا شيء هناك، باستثناء قوارير فارغة. تكلمنا مع بعض أصدقائه في المشرب. كان مولعاً - لسبب أو لآخر - بسيّدات المشرب".

"سيدات المشرب؟".

"نعم، اللواتي يرافقن السكّيرين. لقد رأيتهن، وتعرف ما أعنيه".

"نعم، فعلاً، لكن... سيدات المشرب".

"تصادف دائماً أشياء جنونية يا هاري، وقد تكون مزعجة جداً. هل تعرف ذلك؟ ربما يجب أن...".

"آسف يا إيلين. أنت محقة دائماً، وسأبذل قصارى جهدي كي أتحسّن. ماذا كنت تقولين؟".

"يقع الكثير من حالات تبادل الأزواج في دوائر المدمنين على الشراب؛ لهذا لا يمكن أن نقول إنها جريمة قتل بدافع الغيرة. بالمناسبة، هل تعرف من استدعينا للاستجواب؟ صديقك القديم سفير أولسن. كان الطاهي قد رآه في بيتزا هربرت في الوقت الذي وقعت فيه الجريمة".

"و؟".

"كانت لديه حجة غياب. كان يجلس هناك طوال اليوم، ولم يخرج إلا عشر دقائق؛ لشراء شيء ما. وأكّدت البائعة ذلك".

"كان بمقدوره...".

"نعم، كنت ستحب أن يكون هو. لكن، يا هاري...".

"ربما كان لدى ديل شيء آخر غير المال".

"هاري...".

"ربما كانت لديه معلومات عن شخص ما".

"أنتم تحبون نظريات المؤامرة في الطابق السادس، أليس كذلك؟ لكن، ألا يمكننا أن نتكلم في هذا الأمر يوم الاثنين يا هاري؟".

"منذ متى أصبحت دقيقة بشأن ساعات العمل".

"أنا في السرير".

"عند العاشرة والنصف؟".

"لست وحدي".

توقف هاري عن الجري. لم يكن قد خطر له حتى ذلك الوقت أن الناس حوله ربما كانوا يصغون إلى الحديث. دار حول نفسه. لحسن الحظ، لم يكن هناك إلا قِلّة من الأشخاص الذين كانوا يتدربون في تلك الساعة المتأخرة.

همس: "هل هو الفنان من تورست؟".

"نعم".

"ومنذ متى تتشاركان الفراش؟".

"منذ بعض الوقت".

"لماذا لم تخبريني؟".

"لم تسأل".

"هل يستلقي إلى جانبك الآن؟".

"نعم".

"هل أخبرك أنه يحبك؟".

"نعم".

صمت.

"هل تفكّرين في فريدي ميركوري حين...".

"عمت مساءً يا هاري".

مكتب هاري. 6 آذار 2000

كانت الساعة في ردهة الاستقبال تشير إلى 8:30 حين وصل هاري إلى العمل. لم تكن ردهة استقبال حقيقية، وإنما مجرد مدخل على شكل قُمع وتديره ليندا، التي رفعت بصرها عن حاسوبها وحيّته بمرح قائلة: "صباح الخير". كانت ليندا قد أمضت في الاستخبارات السرية وقتاً طويلاً أكثر من أي شخص آخر، وهي الإنسان الوحيد في الأمن الذي يجب على هاري تحديداً أن يتواصل معه؛ من أجل إنجاز عمله اليومي. كانت المرأة التي يبلغ عمرها خمسين سنة وتتكلم بسرعة، تعمل إلى جانب كونها مديرة القُمع، أمينة سر، وموظفة استقبال، ومستخدمة عامة. خطر لهاري عدّة مرات أنه إذا كان جاسوساً لقوة أجنبية، ويجب أن يصل إلى شخص ما في الاستخبارات السرية؛ من أجل الحصول على معلومات، فسيختار ليندا. علاوة على ذلك، كانت الشخص الوحيد في الاستخبارات السرية، إضافة إلى ميريك، الذي يعرف ما يفعله هاري هناك. لم تكن لديه فكرة عمّا يفكّر فيه الآخرون. كان قد لفت أنظار الأشخاص الذين يجلسون إلى الطاولات في أثناء زياراته النادرة جداً إلى المطعم الداخلي؛ لشراء لبن أو لفائف تبغ - التي لا يبيعونها، كما تبين - لكنه لم يحاول تفسيرها، بل كان يسرع بالعودة إلى مكتبه.

قالت ليندا: "اتصل بك شخص يتكلم الإنكليزية. سألقي نظرة فحسب...".

تناولت ورقة ملاحظات صفراء صغيرة كانت قد وضعتها على شاشة حاسوبها.

"هوشنر".

استغرب هاري: "هوشنر!".

نظرت ليندا إلى قصاصتها الورقية، مترددة. "نعم، هذا ما قالته".

"هي؟! هل تعنين هو؟".

"لا، كانت امرأة. قالت إنها ستتصل مجدداً...". استدارت ليندا ونظرت إلى الساعة خلفها، "... الآن. بدت مهتمة جداً بالحديث إليك. بينما أنت هنا يا هاري، لِمَ لا تعرّف الآخرين عن نفسك؟".

"ليس لديّ متسع من الوقت. في الأسبوع القادم يا ليندا".

"أنت هنا منذ شهر كامل. سألني ستيفنسن أمس عن الرجل الأشقر الطويل الذي التقاه في الحمّام؟".

"حقاً؟ وماذا قلت له؟".

"قلت إن تلك قاعدة الحاجة إلى المعرفة". ضحكت. "ويجب أن تأتي إلى الحفلة التي يقيمها القسم يوم السبت".

تمتم: "لقد فهمت". ثم أخرج ورقتين من صندوقه البريديّ؛ كانت الأولى تذكيراً بشأن حفلته، والأخرى مذكرة داخلية عن النظام الجديد للعمليات، ووجدت كلتاهما الطريق إلى سلّة المهملات حينما أغلق باب مكتبه.

جلس، وضغط زرّي إرجاع وتوقف في جهاز المجيب الآلي، وانتظر. رنّ الهاتف بعد نحو ثلاثين ثانية. رفع هاري السمّاعة، متوقعاً هوشنر.

"هاري، هول يتكلم".

"هايري؟ يتلكم؟". كانت إيلين.

"آسف، ظننت أنكِ شخص آخر".

قالت إيلين قبل أن يضيف شيئاً آخر: "إنه رائع على نحو لا يُصدّق".

"إذا كنتِ تتكلمين بشأن ما أظن أنكِ تتكلمين عنه، فسأفضّل أن تتوقفي عند هذا الحد يا إيلين".

"أنت جبان. بالمناسبة، ممن تتوقع اتصالاً؟".

"من امرأة".

"أخيراًَ!".

"انسي الأمر. إنها على الأرجح قريبة رجل قابلته، أو زوجته".

تنهّدت. "متى ستلتقي امرأة يا هاري؟".

"أنت مغرمة الآن، أليس كذلك؟".

"هذا تخمين صائب! وأنت؟".

"أنا؟!".

وخز صراخ إيلين المرِح طبلتي أذنيه.

"لِمَ تنكر الأمر! لقد أمسكت بك يا هاري هول! من هي؟ من؟ من؟".

"توقفي يا إيلين".

"قل لي إنني محقّة".

"لم ألتقِ أحداً يا إيلين".

"لا تكذب على ماما".

ضحك هاري. "أخبريني المزيد عن هالغريم ديل. إلى أين وصل التحقيق الآن؟".

"لا أعرف، تكلّم مع كريبوس".

"سأفعل. لكن، ماذا يخبرك حدسك عن جريمة القتل؟".

"إنه محترف، وهي ليست جريمة عاطفية. وبالرغم من حقيقة أنني قلت إن الجريمة بدت دقيقة وأنيقة، لكن لا أظن أنّه قد خُطِّط لها مُسبقاً بعناية".

"لا؟".

"كان القاتل سريعاً، ولم يترك أدلّة خلفه، لكن اختيار مسرح الجريمة سيئ. كان يمكن أن يُشاهد من الشارع، أو من الزقاق الخلفي".

"هناك اتصال على الخطّ الآخر، سأتصل بك مجدداً".

ضغط هاري زر الإيقاف المؤقت في جهاز المجيب الآلي، وتأكّد من أن الشريط يعمل آنذاك قبل أن ينتقل إلى الخط الآخر.

"هاري".

"مرحباً، اسمي كونستانس هوشنر!".

"كيف حالكِ آنسة هوشنر".

"أنا شقيقة أندرياس هوشنر".

"فهمت".

بالرغم من وجود تشويش في الخط، لاحظ أنها عصبية. غير أنها دخلت في صلب الموضوع مباشرة.

"عقدتَ اتفاقاً مع شقيقي يا سيد هول، ولم تلتزم بما يخصّك منه".

تكلّمت بنبرة غريبة، مثل أندرياس هوشنر. حاول هاري تلقائياً تخيّلها، وهي عادة لم تفارقه منذ بداية عمله كمحقّق.

"حسناً يا آنسة هوشنر، لا يمكنني فعل شيء لشقيقك قبل أن أتثبّت من المعلومات التي زوّدنا بها. لم نجد شيئاً إلى الآن يؤيد ما قاله".

"لكن، لماذا سيكذب رجلٌ واقع في مثل ورطته يا سيد هول؟".

"هذا هو السبب تحديداً يا آنسة هوشنر. إذا لم يكن يعرف شيئاً، فقد يكون يائساً ليتظاهر بذلك".

أطبق الصمت قليلاً على الخط المشوّش. من أين تتصل؟ جوهانسبرغ.

تكلّمت كونستانس هوشنر مجدداً: "حذّرني أندرياس من أنك قد تقول شيئاً مماثلاً. ولهذا السبب أتصل بك؛ لأقول لك إن لدي معلومات أكثر من شقيقي، قد تكون مهتماً بها".

"أوه، نعم!".

"لكن، إن لم تفعل حكومتك شيئاً بشأن قضية شقيقي أولاً، فلن

تحصل على المعلومات".

"سنفعل ما في وسعنا".

"سأتصل بك مجدداً حين يكون هناك دليل على أنك تساعدنا".

"كما تعرفين يا آنسة هوشنر، لا تجري الأمور على هذا النحو. يجب أن نقدّر أوّلاً أهميّة المعلومات التي نتلقاها، ثم يمكننا مساعدته".

"يجب أن يحصل شقيقي على ضمانات. ستبدأ الإجراءات القانونية ضده بعد أسبوعين".

خذلها صوتها في أثناء حديثها، وعرف هاري أنها على وشك أن تبكي.

"كل ما يمكنني فعله هو أن أعدك بأنني سأبذل قصارى جهدي".

"أنا لا أعرفك، وأنت لا تفهم. يحاولون الحكم على أندرياس بالإعدام. إنهم...".

"بالرغم من ذلك، هذا كل ما يمكنني تقديمه".

بدأت تبكي. انتظر هاري، وصمتت لبعض الوقت.

"هل لديك أولاد يا آنسة هوشنر؟".

"نعم".

"وهل تعرفين ما هي تهمة شقيقك؟".

"بالتأكيد".

"إذاً، أنت تعرفين أيضاً أنه سيحتاج إلى كل المغفرة التي يمكن أن يحصل عليها. إذا استطاع مساعدتنا عن طريقك في إيقاف قاتل، فسيكون قد أنجز عملاً صالحاً، وكذلك أنتِ يا آنسة هوشنر".

كانت تتنفس بصعوبة عبر الهاتف، وظنّ هاري أنها ستبكي مجدداً.

"هل تعدني بأن تبذل ما في وسعك يا سيد هول؟ لم يرتكب شقيقي كل الأشياء التي يتهمونه بها؟".

"أعدك".

سمع هاري صوتها، هادئاً وثابتاً، وهو يشدّ السمّاعة إلى أذنه بقوة.

قالت كونستانس هوشنر بلطف: "لا بأس. يقول أندرياس إن الشخص الذي استلم السلاح ودفع ثمنه في الميناء تلك الليلة ليس الشخص نفسه الذي طلبه، وأنه عميل دائم تقريباً، ورجلٌ أكثر شباباً. تكلم الإنكليزية بلكنة إسكندنافية، وأصرّ على أن يستخدم أندرياس لقب الأمير معه. قال أندرياس إنه يجب عليك أن تبدأ بالتركيز على مجموعات من الرجال المولعين بالأسلحة".

"هل هذا كل شيء؟".

"لم يره أندرياس قطّ، لكنه يقول إنه سيتعرّف صوتَه مباشرة إذا أرسلت إليه تسجيلاً".

قال هاري وهو يأمل ألا تلاحظ خيبة أمله: "ممتاز". شدّ كتفيه تلقائياً، وكأنه يثبّت نفسه قبل أن يُنهي المكالمة.

"إذا اكتشفت شيئاً، فسأبدأ بتحريك الخيوط هنا".

"شكراً يا سيد هول".

"لا داعي لشكري يا آنسة هوشنر".

كرّر العبارة الأخيرة لنفسه عدّة مرات بعد أن وضع السمّاعة في مكانها.

* * *

قالت إيلين لدى سماعها قصة أسرة هوشنر: "هذا كثير".

قال هاري: "انظري إن كان عقلك يمكن أن ينسى أنه واقع في الحب لبعض الوقت، ودعيه ينجز بعضاً من خدعه. لديك الآن على الأقل تلك التلميحات".

"استيراد أسلحة على نحو غير شرعي، عميل دائم، الأمير، مهووسون بالأسلحة. هذه أربع معلومات فقط".

"هذا كل ما لديّ".

"لماذا أوافق على هذا؟".

"لأنكِ تحبينني. والآن يجب أن أُنهي المكالمة".

"انتظر. أخبرني عن المرأة التي...".

"آمل أن يكون حدسك أفضل في حلّ لغز الجريمة يا إيلين. اعتني بنفسك".

اتصل هاري بالرقم في درامن الذي كانت استعلامات الدليل قد زوّدته به.

"موسكن يتكلم". إنّه صوتُ شخص واثقٍ من نفسه.

"إدوارد موسكن؟".

"نعم. مع من أتكلم؟".

"أنا المفتش هول من الاستخبارات السرية. لدي بضعة أسئلة".

خطر لهاري أنها كانت أول مرة يعرّف فيها عن نفسه بصفة مفتش، وشعر لسبب ما أنها كذبة.

"هل حدث شيء لابني؟".

"لا. هل سيكون مناسباً أن أزورك غداً عند منتصف النهار يا سيد

موسكن؟".

"أنا متقاعد، وأعزب؛ لهذا ليست هناك لحظة غير مناسبة أيها المفتش".

اتصل هاري بإيفن جوول، واستعرض معه آخر المستجدات.

كان هاري يفكّر في ما قالته إيلين عن مقتل هالغريم ديل، حين كان يمشي إلى المطعم الداخلي لشراء لبن. سيتصل بكريبوس ليكتشف المزيد عن القضية، بالرغم من إحساسه القويّ بأنّ إيلين قد أخبرته مسبقاً كل ما هو مهمّ. كان الاحتمال الإحصائي أن يلقى شخص ما حتفه غيلة في النرويج نحو واحد من عشرة آلاف. وعندما يتضح أن شخصاً تبحث عنه قد مات في جريمة قتل قبل أربعة شهور، يصبح صعباً أن تصدّق أنها محض مصادفة. هل يمكن ربط جريمة القتل بطريقة ما بشراء بندقية ماركلين؟ لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحاً، وكان هاري يعاني آنذاك صداعاً. تمنّى أن تتمكّن إيلين من استنباط شيء ما عن الأمير، أي شيء على الإطلاق. إذا لم يجد شيئاً آخر، فسيكون لديه مكان يبدأ منه.

سوغن. 6 آذار 2000

قاد هاري سيارته بعد العمل إلى المبنى السكني في سوغن؛ حيث كانت شقيقته بانتظاره. ازداد وزنها قليلاً عمّا كان عليه في السنة الماضية، لكنها ادّعت أن حبيبها هنريك الذي يعيش في آخر الرواق، يحبّها على هذه الحال.

"لكن هنريك أحمق".

كانت تقول ذلك عادة حين تضطر إلى تفسير عادات هنريك الغريبة. فهي ليست حمقاء، وكان واضحاً وجود اختلافٍ خفيٍّ تقريباً، لكنه كبير. كانت شقيقته تحب أن تخبره دائماً إن كان هناك حمقى في المبنى الذي تقيم فيه.

أخبرت هاري الأشياء المعتادة: ما قاله هنريك في الأسبوع الماضي؛ ويكون أحياناً جديراً بالاهتمام، وما شاهداه على التلفاز، وما تناولاه، وإلى أين سيذهبان في العطلة. كانا يخططان دائماً للعطلات، ووجهتهما هذه المرة هي هاواي، وقد ابتسم هاري فقط حين فكّر في شقيقته وهنريك مرتديين سروالين قصيرين ملوّنين في مطار هونولولو.

سألها إن كانت قد تكلمت مع والدهما، فقالت إنه زارها قبل يومين.

قال هاري: "هذا جيد".

قالت شقيقته: "أظن أنه نسي أمي الآن. هذا جيد".

بقي هاري جالساً على كرسيه لحظة يفكّر في ما قالته، ثم قرع هنريك الباب، وقال لها إن عرض هوتيل سيزر (فندق قيصر) - وهي مسرحية تلفازية - سيبدأ بعد ثلاث دقائق. وهكذا، ارتدى هاري معطفه، ووعد بأن يتصل بها قريباً.

كانت حركة السير عند ستاد أولفال بطيئة كالمعتاد؛ بسبب إشارات المرور. وأدرك بعد فوات الأوان أن عليه أن يستدير يميناً عند تحويلة؛ بسبب أعمال طرقية. فكّر في ما كانت كونستانس هوشنر قد أخبرته به. كان أوريا قد استخدم وسيطاً نرويجياً على الأرجح؛ وهذا يعني أن هناك شخصاً يعرف هوية أوريا. كان قد طلب من ليندا البحث في الأرشيف السري؛ للعثور على شخص يحمل لقب الأمير، لكنه كان موقناً تماماً من أنها لن تجد أحداً، وانتابه شعور بأن ذلك الرجل أذكى من كونه مجرماً عادياً. وإذا صحَّ ما قاله أندرياس هوشنر حول أنّ الأمير عميل دائم، فهذا يعني أنه قد استطاع بناء شبكة عملائه من دون أن تكتشف الاستخبارات

السرية ذلك، أو أي جهة أخرى. يستغرق شيء مثل ذلك وقتاً، ويتطلب عناية، ودهاءً، وانضباطاً؛ ولم يكن أفراد العصابات الذين يعرفهم هاري يتمتعون بهذه الميزات. وبالطبع، ربما كان لديه أكثر من حُسن الطالع؛ لأنه لم يُعتقل بعد، أو ربما يتولّى منصباً يحميه. قالت كونستانس هوشنر إنه يتكلم الإنكليزية بطلاقة؛ ولهذا قد يكون دبلوماسياً مثلاً؛ شخصاً يستطيع أن يدخل البلدَ ويخرج منه من دون أن توقفه الجمارك.

خرج هاري من التحويلة عند سلمدالسفين وقاد سيارته نحو هولمنكولن.

هل يطلب من ميريك أن ينقل إيلين مؤقتاً إلى الاستخبارات السرية؟ بدا ميريك مهتماً بأن يقوم هاري بإحصاء النازيين الجدد، وأن يذهب إلى مناسبات اجتماعية، أكثر من اهتمامه بأن يطارد أشباحاً من زمن الحرب.

كان هاري قد قاد سيارته إلى منزلها قبل أن ينتبه. أوقف السيارة وحدّق من بين الأشجار. كانت المسافة من الطريق الرئيسة إلى المنزل خمسين متراً أو نحو ذلك، ورأى ضوءاً ينبعث من نوافذ الطابق الأرضي.

قال بصوتٍ عالٍ: "أحمق". وفزع من صوته. كان على وشك أن يبتعد حين رأى الباب الأمامي يُفتح، والضوء يسقط على الدرجات. أصابته فكرة أنها قد ترى سيارته وتعرفها بالذعر. وضع ناقل الحركة على وضعية الرجوع؛ حتى يستطيع العودة بهدوء وحذر إلى التلة من دون أن تراه، لكنه لم يضغط بقدمه على دوّاسة السرعة بقوة كافية، فانطفأ المحرك. سمع أصواتاً، وخرج رجل طويل يرتدي معطفاً داكناً طويلاً إلى الدرج. كان يتكلم، لكن الباب حجب عنه رؤية الشخص الذي يتحدث إليه، ثم انحنى نحو الباب ولم يعد هاري يراه.

إنهما يتبادلان القبلات، كما فكّر. قدت السيارة إلى هولمنكولن؛ لأتجسس على امرأة كنت قد تكلمت معها خمس عشرة ثانية، وتقبّل حبيبها.

أُغلق الباب بعد ذلك، وركب الرجل سيارة أودي، وقادها متجاوزاً إياه إلى الطريق الرئيسة.

تساءل هاري في طريق عودته إلى المنزل كيف يجب أن يعاقب نفسه. كان يجب أن يكون عقاباً قاسياً، وشيئاً ذا تأثير رادع من أجل المستقبل: صف أيروبيك في فوكس.

درامن. 7 آذار 2000

لم يكن هاري قد فهم قطّ لماذا تتعرض درامن لمثل تلك الانتقادات. لم تكن البلدة جميلة. لكن، هل كانت حقاً أكثر قبحاً من معظم القرى الأخرى سريعة النمو في النرويج؟ فكّر في التوقف لتناول فنجان قهوة في بورسن، لكن نظرة سريعة إلى ساعته كشفت أنه ليس لديه وقت كافٍ.

كان إدوارد موسكن يعيش في منزل خشبي أحمر يطل على مضمارٍ لسباق الخيل. وكانت هناك سيارة مرسيدس قديمة متوقفة خارج المرأب. كان موسكن نفسه واقفاً عند الباب الأمامي، وهو يتفحّص هاري بحرص.

"مولود في العام 1965؟ تبدو أكبر من عمرك أيها المفتش هول؟".

"مورثات سيئة".

"حظك سيئ".

"حسناً، كانوا يسمحون لي بالدخول لمشاهدة أفلام مخصصة لمن تجاوز الثامنة عشرة حين كنت في الرابعة عشرة".

استحال عليه أن يعرف إن كان إدوارد موسكن قد أحب الدعابة أم لا. وأشار هذا الأخير إلى هاري ليدخل.

سأل هاري حين كان إدوارد يتقدمه إلى غرفة المعيشة: "أنت تعيش وحدك؟". كانت الشقة نظيفة وأنيقة، وفيها بعض الأغراض الشخصية، ومرتّبة على نحو مبالغ فيه كما يحب بعض الرجال حين تسنح لهم فرصة الاختيار بأنفسهم. وذكّرت هاري بشقّته.

"نعم. غادرت زوجتي بعد الحرب".

"غادرت؟".

"تركتني، هجرتني. ذهبت في حال سبيلها".

"فهمت. هل لديك أولاد؟".

"كان لديّ ابن".

"كان؟".

توقف إدوارد موسكن واستدار إلى الخلف.

"هل كلامي واضح أيها المفتش هول؟".

ورفع إدوارد حاجبه الأبيض فشكّل زاوية حادّة تحت جبينه العريض.

قال هاري: "لا، الأمر يتعلق بي. يجب أن تغذّيني بالملعقة".

"لا بأس. لديّ ابن".

"شكراً. ماذا عملت قبل أن تتقاعد؟".

"كنت أمتلك عدّة شاحنات؛ شركة موسكن للنقل. بعت الشركة قبل سبع سنوات".

"هل كان العمل جيداً؟".

"كان جيّداً كفاية. أبقى المشترون على الاسم".

جلس كل منهما إلى أحد جانبي طاولة صغيرة. عرف هاري أنه لن يكون هناك سؤال عن القهوة. جلس إدوارد على الأريكة، وانحنى إلى الأمام، ووضع ذراعاً فوق أخرى وكأنه يقول: لننتهِ من هذا.

"أين كنت ليلةَ 21 كانون الأول؟".

كان هاري قد قرّر في طريقه إلى منزل إدوارد أن يبدأ بهذا السؤال وبلعب الورقة الوحيدة التي لديه، قبل أن يفهم موسكن ما يجري ويستنتج أنهم لا يمتلكون شيئاً. كان هاري يأمل أن يرى على الأقل ردّ فعل قد يخبره شيئاً. هذا إذا كان لدى موسكن أي شيء يخفيه.

سأل موسكن: "هل أنا موضع شبهة؟". لم يشِ وجهه إلا بدهشة معقولة.

"سيكون الأمر جيداً إذا استطعت الإجابة عن السؤال يا موسكن".

"كما تريد. كنت هنا".

"كان هذا سريعاً".

"ماذا تعني؟".

"لم يكن عليك أن تفكّر في الأمر".

كشّر موسكن، وكانت تكشيرته من النوع الذي ترتسم فيه بسمة على الفم، في حين تنظر العينان إليك بيأس.

"عندما تصبح طاعناً في السن مثلي، تتذكر الأمسيات التي لا تجلس فيها وحيداً".

"كان سندر فوك قد زوّدني بلائحة تتضمن النرويجيين الذين كانوا معاً في معسكر تدريب سنهايم: غدبراند يوهانسن، وهالغريم ديل، وأنت، وفوك".

"نسيت دانيال غدسون".

"حقاً؟! ألم يمت قبل أن تنتهي الحرب؟".

"نعم، لقد مات".

"إذاً، لماذا تذكر اسمه؟".

"لأنه كان معنا في سنهايم".

"فهمت من فوك أن الكثير من النرويجيين ذهبوا إلى سنهايم. لكن، أنتم الأربعة كنتم الناجين الوحيدين".

"هذا صحيح".

"إذاً، لماذا تذكر غدسون تحديداً؟".

حدّق إدوارد موسكن إلى هاري، ثم نقل بصره إلى الخواء. "لأنه كان معنا وقتاً طويلاً، وظننا أنه سينجو. حسناً، صدّقنا تقريباً أن دانيال غدسون لا يمكن أن يموت. لم يكن شخصاً عادياً".

"هل تعرف أن هالغريم ديل قد مات؟".

هزّ موسكن رأسه.

"لا تبدو مندهشاً جداً".

"لماذا الدهشة؟ سأُدهش هذه الأيام أكثر إن سمعت أن أحداً لا يزال حياً".

"وماذا إن قلت لك إنه قُتل؟".

"أوه! حسناً، هذا أمرٌ مختلف. لماذا تخبرني هذا؟".

"ماذا تعرف عن هالغريم ديل؟".

"لا شيء. رأيته آخر مرة في لينينغراد. كان يعاني صدمة قذيفة".

"ألم تعودا إلى الديار معاً؟".

"ليست لديّ فكرة كيف وصل ديل والآخرون إلى الوطن. جُرحت في شتاء عام 1944 نتيجة قنبلة يدوية ألقتها مقاتلة روسية على الخندق".

"مقاتلة؟ طائرة؟".

ابتسم موسكن باقتضاب وأومأ.

"عندما استيقظت في المستشفى الميداني كان الانسحاب يتم بسرعة. انتهى بي المطاف في وقت لاحق من ذلك الصيف في المستشفى الميداني في مدرسة سنسن؛ أوسلو، ثم حدث الاستسلام".

"إذاً، لم ترَ أياً من الآخرين بعد إصابتك؟".

"سندر فقط. رأيته بعد ثلاث سنوات من الحرب".

"بعد أن قضيت حكماً بالسجن؟".

"نعم، التقينا مصادفة في مطعم".

"ما رأيك بفراره؟".

هزّ موسكن كتفيه.

"لا بدّ من أنه كانت لديه أسبابه. غيّر الجهة التي يقاتل إلى جانبها على الأقل، حين لم يكن أحد يعرف كيف ستنتهي الحرب. يمكن قول الشيء نفسه عن معظم الرجال النرويجيين".

"ماذا تعني؟".

"كان هناك قول مأثور في أثناء الحرب: أولئك الذين يقرّرون متأخرين يكونون محقين دائماً. لاحظنا في مناسبة الميلاد سنة 1943 أن جبهتنا تتحرك إلى الخلف. لكن، لم تكن لدينا فكرة عن مدى سوء الوضع. على أيّ حال، لا يستطيع أحد اتهام سندر بتغيير ولائه مثل دوّارة ريح، بخلاف أولئك الأشخاص في الوطن، الذين جلسوا على مؤخراتهم في أثناء الحرب، واندفعوا فجأة للانضمام إلى المقاومة في الشهور الأخيرة. يشغل بعضهم اليوم منزلة رفيعة بين أولئك الذين يُدلون ببيانات عامة عن الجهود النرويجية البطولية مع الجانب الصحيح".

"هل هناك أحد تفكّر فيه على وجه الخصوص؟".

"أفكّر دائماً في الشخص الغريب بالطبع، الذي حظي بمعاملة الأبطال المميزة بعدئذ. ليس الأمر بالغ الأهمية".

"ماذا عن غدبراند يوهانسن؟ هل تتذكّره؟".

"طبعاً. لقد أنقذ حياتي في النهاية هناك. إنه...".

عضَّ موسكن شفته السفلية. تساءل هاري إن كان قد أفصح عن الكثير آنذاك.

"ماذا حدث له؟".

"غدبراند؟ اللعنة علي إذا كنت أعرف. القنبلة اليدوية... غدبراند، وهالغريم ديل، وأنا كنا في الخندق حين قفزت القنبلة اليدوية نحونا على الجليد، وضربت خوذة ديل. أتذكر فقط أن غدبراند كان الأقرب إليها حين انفجرت. خرجت من الغيبوبة لاحقاً، ولم يستطع أحد إخباري بما كان قد حدث لغدبراند أو ديل".

"ماذا تعني؟ هل اختفيا؟".

بحثت عينا موسكن عن النافذة.

"حدث ذلك في اليوم نفسه الذي شنَّ فيه الروس هجومهم الواسع. كانت الفوضى عارمة، إذا جاز التعبير. كانت خنادقنا قد انتقلت إلى أيدي الروس منذ وقت طويل حين استعدت رشدي، وقد نُقل الفوج إلى مكان آخر. إذا نجا غدبراند، فستكون الحال قد انتهت به على الأرجح في المستشفى الميداني لفوج نوردلاند في القطاع الشمالي، وسيكون الأمر نفسه صحيحاً إذا تعرّض ديل للإصابة. أفترض أنّه كان يجب أن ينقلوني إلى هناك أيضاً، لكنني عندما استيقظت وجدت نفسي في مكان آخر".

"اسم غدبراند يوهانسن ليس في السجل المدني".

هزّ موسكن كتفيه. "إذاً، لا بدّ من أنه قد لقي حتفه نتيجة القنبلة.

كان ذلك ما افترضته".

"ولم تحاول العثور عليه قطّ؟".

هزّ موسكن رأسه.

نظر هاري حوله بحثاً عن شيء ما، أي شيء، قد يشير إلى أن موسكن لديه قهوة في المنزل: إبريق، أو كوب قهوة. كانت هناك صورة لامرأة في إطار ذهبي على رف الموقد.

"هل تشعر بالمرارة بسبب ما حدث لك ولجنود الجبهة الشرقية الآخرين بعد الحرب؟".

"في ما يخص العقاب، لا. أنا واقعي. كان يجب جلب أشخاصٍ إلى العدالة؛ لأنها ضرورة سياسية. لقد خسرت حرباً، ولا أتذمّر من ذلك".

ضحك إدوارد موسكن فجأة، وبدت ضحكته مثل نعيق غراب. لم تكن لدى هاري أدنى فكرة عن سبب ضحكه، ثم أضحى موسكن جدّياً مجدداً.

"ما يؤلمك هو وصمك بأنّك خائن. لكنني أواسي نفسي بحقيقة أننا نعرف أننا دافعنا عن بلدنا بأرواحنا".

"آراؤك السياسية في ذلك الوقت...".

"هل تسألني إن كانت هي نفسها اليوم؟".

أومأ هاري، وقال موسكن بابتسامة جافة: "هذا سؤال سهل أيها المفتش. لا، بكلّ بساطة كنت مخطئاً".

"لم تكن لك أي علاقة بالنازيين الجدد منذ ذلك الوقت؟".

"لا سمح الله. لا! كان هناك اجتماع في هوكسند قبل بضع سنوات، واتصل بي أحد الحمقى وطلب مني أن أذهب وأتكلم عن الحرب. أظن أنهم يدعون أنفسهم دماً وشرفاً، أو شيئاً من هذا القبيل".

انحنى موسكن فوق الطاولة الصغيرة. كانت توجد في إحدى الزوايا كومةٌ من المجلات مكدّسة بأناقة وترتيب.

"ما الذي تبحث عنه الاستخبارات السرية حقاً؟ هل تحاولون مراقبة النازيين الجدد؟ إذا كانت تلك هي القضية، فقد جئت إلى المكان الخطإ".

لم يكن هاري واثقاً في تلك اللحظة مما يستطيع قوله له، وبالرغم من ذلك كان جوابه صادقاً كفاية.

"لا أعرف حقاً ما نبحث عنه".

"تلك تبدو الاستخبارات السرية التي أعرفها".

ضحك مجدداً وكأنه غراب ينعق، وكان صوته مزعجاً وحاداً.

استنتج هاري لاحقاً أن ضحكته المشبعة بالازدراء وحقيقة أنه لم يقدّم

له القهوة، قد جعلتاه يطرح السؤال التالي بالطريقة التي فعل بها ذلك.

"كيف تظن أن الوضع كان بالنسبة إلى ابنك؛ أن يترعرع في كنف والده النازيّ سابقاً؟ هل تظن أن ذلك ما جعل إدوارد موسكن الابن يقضي عقوبة بالسجن؛ بسبب قضية ممنوعات؟".

ندم هاري على ذلك في اللحظة التي رأى فيها الغضب والألم في عيني الرجل العجوز. كان يعرف أن بمقدوره اكتشاف ما يريده من دون أن يضرب تحت الحزام.

قال موسكن: "كانت المحاكمة مهزلة! كان محامي الدفاع الذي عيّنوه لابني حفيد القاضي الذي حكم عليّ بالسجن بعد الحرب. إنهم يعاقبون ابني؛ لإخفاء عار ما فعلوه في أثناء الحرب. أنا...".

توقف عن متابعة كلامه على نحو غير متوقع. انتظر هاري أن يتابع كلامه، لكنه لم ينبس ببنت شفة. وشعر فجأة، ومن دون سابق إنذار، بقطيع من كلاب الصيد في رأس معدته تشدّ السلاسل بقوة. لم تكن معدته قد اضطربت منذ بعض الوقت، وهي بحاجة إلى شراب.

عرف هاري أن الأمر قد انتهى آنذاك. نظر موسكن إلى ساعته.

سأل هاري: "هل تخطط للذهاب إلى مكان ما؟".

"سأذهب في نزهة إلى شاليهي".

"آه، نعم! هل هو بعيد؟".

"في غرنلاند. يجب أن أكون هناك قبل حلول الظلام".

نهض هاري. وقفا في الردهة وهما يبحثان عن كلمات وداع مناسبة حين تذكّر هاري شيئاً فجأة.

"قلت إنك أُصبت في لينينغراد في شتاء عام 1944، وأُرسلت إلى مدرسة سنسن لاحقاً في ذلك الصيف. ماذا فعلت في المدة الفاصلة؟".

"ماذا تعني؟".

"لقد كنت أقرأ أحد كتب إيفن جوول. إنه مؤرخ يكتب عن الحرب".

قال موسكن بابتسامة مبهمة: "أعرف تماماً من هو إيفن جوول".

"كتب أن فوج نورج حُلَّ في كراسنوج سلو في آذار عام 1944. أين كنت من آذار إلى الوقت الذي وصلت فيه إلى مدرسة سنسن؟".

حدّق موسكن إلى هاري وقتاً طويلاً، ثم فتح الباب الأمامي ونظر إلى الخارج.

قال: "هبطت درجة الحرارة الآن إلى الصفر تقريباً. يجب أن تقود بحذر".

أومأ هاري. شدّ موسكن قامته، وحجب عينيه بيده، وألقى نظرة سريعة باتجاه استاد سباق الخيول الخالي، حيث يبرز مضمار رمادي بيضاوي تغطيه الحصى والثلج المتسخ.

قال موسكن: "تنقّلت بين أماكن كان لها أسماء في ما مضى، لكنها تغيّرت الآن ولا يستطيع أحد معرفتها. لم تكن خرائطنا تُظهر إلا الطرقات، والماء، وحقول الألغام، من دون أسماء. إذا أخبرتك أنني كنت في بارنو في إستونيا، فقد يكون ذلك صحيحاً. لا أعرف، ولا أحد آخر يعلم. كنت ممداً على نقّالة في أثناء ربيع وصيف عام 44، وأنا أستمع إلى نيران الرشاشات، وأفكّر في الموت، لا في المكان الذي أتواجد فيه".

قاد هاري سيارته ببطء بمحاذاة النهر، وتوقف عند الأضواء الحمراء أمام جسر البلدة. كان الجسر الآخر، الذي يجتاز الطريق إي - 18، يمتد مثل مقوم أسنان عبر الريف، ويحجب رؤية فيورد درامن. حسناً، لا بأس، ربما لم يكن كل شيء ناجحاً في درامن. كان هاري قد قرّر أن يتوقف في طريق عودته لتناول القهوة في بورسن، لكنه غيّر رأيه؛ إذ تذكّر أنهم يقدّمون الشراب أيضاً.

تغيّرت الأضواء إلى اللون الأخضر، وزاد هاري السرعة.

كان ردّ فعل إدوارد موسكن الشعور بالغضب حين سأله عن ابنه. عقد هاري العزم على اكتشاف المزيد من المعلومات عن القاضي في محاكمة موسكن، ثم ألقى نظرة أخيرة على درامن في المرآة. بالطبع كانت هناك بلدات أسوأ.

مكتب إيلين. 7 آذار 2000

لم تستطع إيلين أن تستنتج شيئاً. نزل هاري إلى مكتبها وجلس على كرسيها العتيق البالي. كانوا قد وظّفوا رجلاً جديداً؛ شرطيًّا شابًّا من مخفر ستينكير، وسيلتحق بالعمل بعد شهر.

قالت حين رأت خيبة الأمل على وجه هاري: "هذا ليس استبصاراً، وقد تأكّدت اليومَ من الأمر في اجتماع الصباح. لكن، لا أحد سمع بالأمير من قبل".

"ماذا عن سجل الأسلحة النارية؟ لا بدّ من أن لديهم فكرة ما عن مهرّبي الأسلحة".

"هاري!".

"نعم؟".

"لم أعد أعمل عندك".

"عندي؟!".

"إذاً، معك. كنت أشعر فحسب بأنني أعمل عندك. أنت شقي".

دفع هاري نفسه بعيداً عنها بقدمه، والتفّ حول نفسه وهو جالس على الكرسي الدوّار أربع دورات كاملة. لم يستطع قطّ إنجاز عدد أكبر. حرّكت إيلين عينيها.

قالت: "لا بأس، لقد اتصلت بمسؤولي سجل الأسلحة النارية، ولم يسمعوا بالأمير أيضاً. لماذا لم يخصصوا لك مساعدة في الاستخبارات السرية؟".

"القضية ليست أولوية قصوى. سمح لي ميريك بالبحث فيها، لكنه في الواقع يريد مني اكتشاف ما يخطط النازيون الجدد لفعله في ذكرى الاستقلال".

"كان أحدَ التلميحات مهووسون بالأسلحة. لا يمكن أن أتخيل أحداً مهووساً بالأسلحة أكثر من النازيين الجدد. لماذا لا تبدأ من هناك وتضرب عصفورين بحجر واحد؟".

"فكّرت في ذلك أنا أيضاً".

مقهى ريكتيت، غرنسن. 7 آذار 2000

كان إيفن جوول واقفاً في أعلى الدرج حين ركن هاري سيارته أمام منزله.

وقف بور إلى جانبه، وهو يشدّ طوقه.

قال جوول: "كان ذلك سريعاً".

قال هاري: "ركبت السيارة بعد أن وضعت السمّاعة مباشرة. هل بور قادم معنا أيضاً؟".

"أخذته في نزهة قصيرة في أثناء انتظاري. ادخل يا بور".

نظر الكلب إلى جوول بعينين متوسلتين.

"الآن!".

قفز بور إلى الخلف ودخل المنزل مسرعاً. تراجع هاري أيضاً إلى الوراء حين سمع الأمر المفاجئ.

قال جوول: "لنذهب".

لمح هاري وجهاً خلف ستارة المطبخ حين كانا ينطلقان بعيداً.

قال هاري: "الضوء يبقى لفترة أطول".

"ماذا؟".

"أعني النهار، إنه أطول الآن".

أومأ جوول من دون أن يرد.

قال هاري: "هناك شيء أتساءل عنه قليلاً. أسرة سندر فوك، كيف مات أفراد عائلته؟".

"لقد أخبرتك سلفاً أنه قتلهم".

"نعم، لكن كيف؟".

حدّق إيفن جوول إلى هاري قبل أن يجيب. "رمياً بالرصاص، في الرأس".

"الأربعة جميعاً؟".

"نعم".

وجدا أخيراً مكاناً للسيارة في غرنسن، ومشيا من هناك إلى المكان الذي كان إيفن جوول قد أصرّ على أن يراه هاري حين تكلما هاتفياً.

قال هاري وهو يدخل المقهى المعتم، والفارغ تقريباً إلا من بضعة أشخاص يجلسون إلى طاولات بلاستيكية قديمة: "إذاً، هذه هي ريكتيت".

جلب هاري وإيفن قهوة لنفسيهما، وجلسا إلى إحدى الطاولات قرب

النافذة. توقف عجوزان في نهاية الغرفة عن الكلام، وعبسا حين نظرا إليهما.

قال هاري وهو يشير برأسه نحو العجوزين: "يذكّرني هذا المقهى بمقهى أذهب إليه أحياناً".

قال جوول: "العنيدون العجائز. نازيون قدامى، وأشخاص خدموا على الجبهة الشرقية لا يزالون يظنون أنهم على حق. إنهم يجلسون هنا، ويعبّرون عن شعورهم بالمرارة من الخيانة العظمى، وحكومة حزب العمل (نيغاردسفولد)، والحالة العامة للأوضاع في العالم. أولئك الذين لا يزالون يتنفسون على الأقل. الأعداد تتناقص كما أرى".

"ألا يزالون ملتزمين سياسياً؟".

"أوه، نعم. لا يزالون غاضبين من مساعدة العالم الثالث، ومن خفض الميزانية العسكرية، ومن رجال دولتنا الجدد... وكل ما يمكنك تخمينه قد يزعج هؤلاء العجائز. لا يزالون فاشيين في صميم قلوبهم".

"وتظن أن أوريا ربما تردّد إلى هذا المكان؟".

"إذا كان أوريا يُعدُّ حملة انتقام ضد المجتمع، فسيجد بالتأكيد أشخاصاً يشاطرونه الرأي نفسه هنا. هناك طبعاً أماكن لقاء أخرى يلتقي فيها رفاق الجبهة الشرقية السابقون، وتحصل تجمّعات سنوية هنا في أوسلو، مثلاً، لرفاق سلاح سابقين، وآخرين من كل أرجاء البلاد. لكن تلك الاجتماعات مختلفة تماماً عن الاجتماعات التي تُعقد في هذا المكان؛ إنها محض مناسبات اجتماعية لإحياء ذكرى الأموات، وهناك حظر على التكلم في السياسة. لذا، إذا كنت أسعى خلف رجل قاتل على الجبهة الشرقية ويضع الانتقام نصب عينيه، فهذا هو المكان الذي سأبدأ منه".

"هل كانت زوجتك عضواً في أي من تلك، ماذا تدعوها... لقاءات رفاق السلاح؟".

حدّق جوول إلى هاري مندهشاً، ثم هزّ رأسه ببطء.

قال هاري: "إنها مجرد فكرة. أتساءل إن كان لديها شيء تخبرني إياه؟".

قال جوول بجفاء: "ليس لديها".

"لا بأس. هل هناك أي علاقة بين أولئك الذين تدعوهم العنيدين العجائز والنازيين الجدد؟".

"لماذا تسأل؟".

"لديّ معلومة تشير إلى أن أوريا استخدم وسيطاً للحصول على بندقية ماركلين؛ شخصاً لديه علاقات بجماعات بيع الأسلحة".

هزّ جوول رأسه.

"سينزعج معظم رجال الجبهة الشرقية سابقاً إذا سمعوا أنك تضعهم في الفئة نفسها. فبالرغم من أن النازيين الجدد ينظرون إليهم عادة باحترام كبير، إلا أن القتال على الجبهة بالنسبة إليهم هو الحلم الأخير؛ أي حماية بلدهم وعرقهم، وحمل سلاح ناري بأيديهم".

"إذا أراد أحد هؤلاء الجنود القدامى الحصول على سلاح، هل يمكنه الاعتماد على دعمٍ من النازيين الجدد؟".

"نعم، سيلقى على الأرجح كل ترحاب. لكن، سيكون عليه أن يعرف كيف يقترب منهم. لن يتمكن أي شخص من تزويده بمثل ذلك السلاح المتطوّر، مثل الرجل الذي تسعى خلفه. كان لافتاً للانتباه أن الشرطة في هونفوس عثرت - في أثناء غارة على مرأب لنازي جديد - على داتسون قديمة وصدئة ممتلئة بمضارب، ورماح خشبية، وعدد من الفؤوس منزلية الصنع. ومعظم هؤلاء الناس من العصر الحجري".

"إذاً، أين أبدأ البحث عن شخص ما في هذه البيئة ولديه علاقات مع تجّار أسلحة دوليين؟".

"ليست المشكلة في أن تلك البيئة كبيرة. في الواقع، تدّعي فرت أورد، صحيفة القوميين، أن هناك نحو ألف وخمسمئة اشتراكي وديمقراطي قومي في النرويج، لكن إذا اتصلت بمونيتور، المنظمة التطوّعية التي تراقب أوكار الفاشية، فسيقولون لك إن هناك خمسين عضواً ناشطاً على الأكثر. لا، المشكلة هي أن الداعمين الأثرياء الذين يمسكون بالخيوط فعلاً غير معروفين. دعني أقول إنهم لا ينتعلون أحذية، أو يرسمون صلباناً معقوفة على أذرعهم، وقد يشغلون مناصب في المجتمع يمكنهم الاستفادة منها لخدمة القضية. لكن، لفعل ذلك، يجب أن يبقوا بعيدين عن الأنظار".

جأر صوت عميق خلفهما: "كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا يا إيفن جوول؟".

دار عرض جيمل، حي بايغدوي. 7 آذار 2000

سأل هاري إيلين وهو يدفعها برفق إلى الأمام: "إذاً، ماذا فعلتُ؟ جلست فقط وأنا أفكّر في سؤال أحد المتذمرين العجائز إن كان يعرف شخصاً يفكر في تنفيذ خطط اغتيال، أو شخصاً قد اشترى بندقية غالية الثمن من أجل هذه المناسبة الخاصة. وفي تلك اللحظة نفسها جاء أحدهم إلى طاولتنا وقال بصوت كئيب: كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا يا إيفن جوول".

سألت إيلين: "ماذا فعلت؟".

"لا شيء. جلست هناك فحسب ورأيت وجه إيفن جوول يمتقع. بدا وكأنه يرى شبحاً. من الواضح أن كليهما يعرفان بعضهما. بالمناسبة، كان ذلك الشخص الثاني الذي ألتقيه اليوم ويعرف جوول. قال إدوارد موسكن إنه يعرفه أيضاً".

"هل هذا غريب جداً؟ يكتب جوول في الصحف، ويظهر على شاشة التلفاز، وهو شخصية مشهورة".

"أنت على الأرجح محقّة. على أيّ حال، نهض جوول وخرج من هناك ببساطة، واضطررت إلى الجري خلفه. كان وجهه شاحباً جداً حين أدركته في الشارع. لكن، عندما سألته عمّا حدث، ادّعى أنه لا يعرف الرجل. أعدته إلى البيت بعد ذلك، وبالكاد قال كلمة وداعاً قبل أن أغادر. بدا مذهولاً تماماً. هل أمامنا عشرة أشخاص في الصف الآن؟".

وقف هاري أمام نافذة بيع التذاكر لشراء تذكرتين.

قال: "لدي شكوك بشأن هذا الفيلم".

سألت إيلين: "لماذا؟ لأنه كان من اختياري؟".

"سمعت فتاة تلوك العلكة في الحافلة تقول لصديقتها إن تودو سوبر مي مادر (كل شيء عن أمي: فيلم إسباني للمخرج بيدرو ألمودفارو) رائع".

"ماذا يفترض أن يعني هذا؟".

"عندما تقول الفتيات إن الفيلم رائع، أشعر بحموضة في معدتي. حين تتأثرن أنتن النساء عاطفياً بمحتوى أقل مما في برنامج أوبرا وينفري، تعتقدن أنكن رأيتن فيلماً جميلاً. هل تريدين تناول الفوشار؟".

دفعها برفق إلى الأمام في صف الفوشار.

"أنت شخص مختلّ يا هاري، وإنسان ميؤوس منه. بالمناسبة، أتعرف أمراً؟ شعر كيم بالغيرة حين قلت له إنني سأذهب إلى دار العرض مع

زميل لي في العمل".

"تهانينا".

قالت: "قبل أن أنسى، وجدت اسم محامي إدوارد موسكن الابن الذي كنت تسأل عنه. وجدّه الذي شارك في المحاكمات التي أعقبت الحرب".

"نعم؟".

ابتسمت إيلين.

"يوهان كروهن وكريستيان كروهن".

"أحسنتِ".

"تكلمت مع المدّعي العام في محاكمة موسكن الابن. لقد جُن جنون موسكن الأب حين وجدت المحكمة ابنه مذنباً، وهاجم كروهن. وصرخ قائلاً إنّ كروهن وجدّه كانا يتآمران على أسرة موسكن".

"هذا مثير للاهتمام".

"أستحق كيس فوشار كبيراً، ألا تظن ذلك؟".

كان تودو سوبر مي مادر أفضل مما توقّع هاري. لكن، في منتصف مشهد تُدفن روزا فيه، أزعج هاري إيلين التي كانت تذرف الدموع ليسألها أين تقع غرنلاند. فأجابت أنها المنطقة حول بورسغرون وسكاين، ثم تمكّنت من مشاهدة باقي الفيلم بسلام.

أوسلو. 11 آذار 2000

شعر هاري أن بذلته صغيرة جداً. كان بمقدوره أن يرى ذلك، لكنه لم يفهمه. لم يكن وزنه قد ازداد منذ أن كان في الثامنة عشرة من عمره، وبدت البذلة مناسبة جداً حين اشتراها من دريسمان؛ لاحتفالات ما بعد الامتحانات عام 1990. بالرغم من ذلك، عندما وقف أمام المرآة في المصعد، رأى أن جوربيه ظاهران للعيان بين سروال البذلة وحذاء د. مارتنز الأسود. وكان هذا الأمر أحد الأشياء الغامضة غير المعروفة.

أُغلق بابا المصعد، واستطاع هاري بصعوبة سماع موسيقى، وثرثرة رجل، وهذر امرأة تخرج من المطعم الداخلي. نظر إلى ساعته، وكانت تشير إلى 8:15. سينتهي الأمر بحلول الحادية عشرة، وعندها سيصبح بمقدوره الذهاب إلى المنزل.

أخذ شهيقاً، ثم دخل المطعم ونظر في أرجاء القاعة. كان المطعم من النوع النرويجي التقليدي: غرفة مربّعة مع منضدة زجاجية يُطلب الطعام عند أحد طرفيها، وفيها أثاث باهت اللون أُحضر من فيورد في سونمور، كما علّقت فيه لافتة كتب عليها: ممنوع التدخين. كانت لجنة الحفلة قد بذلت قصارى جهدها؛ بحيث زُيّنت الستارة الخلفية بالبالونات، ووضعت على الطاولات أغطية حمراء. وبالرغم من أن الرجال كانوا أغلبية، إلا أن الذكور والإناث كانوا موزعين على نحو أفضل بكثير مما كانت شعبة الجريمة تفعله في حفلاتها. بدا أن معظم الناس قد تناولوا آنذاك بعض الشراب. كانت ليندا قد تكلمت عن مُليّنات ما قبل الحفلة المتنوّعة، وكان هاري سعيداً لأنّ أحداً لم يدعُه لتناولها.

"تبدو أنيقاً جداً في البذلة يا هاري".

كانت تلك ليندا. تعرّف بصعوبة إلى المرأة التي ترتدي فستاناً ضيقاً لا يُبرز الكيلوغرامات الإضافية فقط، وإنما ضخامة جسدها الأنثوي أيضاً. كانت تحمل صينيّة وُضِعت فوقها كؤوس من شراب برتقالي، وقدّمت له إحداها.

"حسناً... لا، شكراً يا ليندا".

"لا تكن مملاً جداً يا هاري. هذه حفلة!".

كان صوت الأمير يصدح عبر مكبرات الصوت في السيارة مجدداً.

انحنت إيلين إلى الأمام في مقعد السائق، وأخفضت الصوت.

رمقها توم والر بنظرة جانبية.

قالت وهي تفكّر في أنها ستضطرّ إلى تحمّل والر ثلاثة أسابيع فقط

حتّى يصل الشرطي من ستينكير. وعندها، لن تضطر إلى العمل مع والر بعد ذلك: "إن الصوت عالٍ قليلاً".

لم تكن الموسيقى هي التي أزعجتها، وكذلك لم يكن هو السبب؛ فهو ليس شرطياً سيئاً بالتأكيد.

كانت المكالمات الهاتفية سبب انزعاجها. ليس لأن إيلين غيلتن لم تكن تتعاطف قليلاً مع مقدار معين من العلاقة العاطفية، لكن في نصف الحالات التي رنّ فيها هاتفه لاحظت من خلال حديثه أن هناك امرأة قد تعرّضت للازدراء، أو على وشك أن تتعرض له. كانت المكالمات الأخيرة بغيضة جداً، فهي من النساء اللواتي لم ينبذهن بعد، وكان يتكلم معهن بصوتٍ مميز، مما جعل إيلين ترغب في أن تصرخ عالياً: لا تفعلي هذا! لن ينفعك هذا! ابتعدي عنه! كانت إيلين شخصاً كريماً، ولم تكن تجد غضاضة في الصفح عن الضعف البشري. غير أنها لم تكن قد لاحظت الكثير من نقاط الضعف البشري لدى توم والر بعد، ولا نقاط القوة أيضاً. وبكل بساطة، إنه لا يعجبها.

تجاوزا متنزه توين. كان والر قد تلقى معلومة مفادها أن شخصاً رأى "أيوب"، وهو قائد عصابة يسعون خلفه منذ الاعتداء الذي وقع في حدائق القصر في كانون الأول، في المطعم الفارسي علاء الدين في بوابة هاوسمانز. كانت إيلين تعرف أنهم قد تأخروا كثيراً آنذاك، وأنهم فقط سيسألون الناس هناك إن كانوا يعرفون مكانه. لن يحصلا على جواب، لكن على الأقل سيكونان قد ذهبا إلى هناك، وأظهرا أنهما لن يتركاه بسلام.

قال والر: "انتظري في السيارة، سأدخل وأتفقّد الوضع".

"لا بأس".

فتح والر زمام سترته الجلدية.

كان سبب ذلك إظهار العضلات التي كان قد اكتسبها من رفع الحديد في قاعة الرياضة في مقر قيادة الشرطة - كما ظنّت إيلين - أو إظهار ما يكفي من قراب المسدس الذي يوضع على الكتف حتى يعرفوا أنه يحمل سلاحاً. كان مسموحاً لضباط الشرطة في شعبة الجريمة حمل الأسلحة دائماً، لكنها كانت تعرف أن والر يحمل مسدساً غير المسدس الرسمي؛ سلاحاً من عيار كبير، ولم تكن ترغب في أن تسأل عنه. كان موضوع الحديث المفضّل لدى والر المسدّسات، بعد السيارات مباشرة، في حين أن إيلين كانت تفضّل السيارات. لم تكن هي تحمل سلاحاً، إلا إذا اضطرت إلى ذلك، كما حدث في أثناء الزيارة الرئاسية في الخريف.

تحرك شيء في مؤخر ذهنها، لكن سرعان ما قاطعته أغنية نابليون مع جيشه الصادرة عن هاتف والر الخلوي. فتحت إيلين الباب لتناديه، لكنه كان قد أصبح آنذاك في المطعم.

كان أسبوعاً مملاً. لم تستطع إيلين أن تتذكّر أسبوعاً مملاً على هذا النحو منذ أن بدأت العمل في الشرطة. خشيت أن يكون لذلك علاقة باستمتاعها أخيراً بحياة خاصة بها. فجأة، أصبح مهماً الوصول إلى المنزل قبل أن يتأخر الوقت، وقد أضحت مناوبات السبت تضحية. عزف الخلوي نابليون... للمرة الرابعة.

أهي إحدى النساء المنبوذات؟ أم واحدة ستلقى المصير نفسه قريباً؟ إذا تخلّى كيم عنها الآن... لكنه لن يفعل، وكانت تعرف ذلك فحسب.

نابليون مع جيشه للمرة الخامسة.

ستنتهي المناوبة بعد ساعتين، وستعود إلى المنزل، حيث ستستحم وستنطلق مسرعة إلى منزل كيم في بوابة هلجسنز، وسيستغرق الأمر خمس دقائق؛ نظراً إلى حالتها العاطفية المشحونة. قهقهت.

ست مرات! أخذت الهاتف من تحت المكبح اليدوي.

"هذا مجيب توم والر الآلي. لسوء الحظ السيد والر ليس هنا. اترك رسالة من فضلك".

كانت تقصد أن تكون دعابة، وأرادت في الواقع أن تقول من هي بعد ذلك. لكن، لسبب ما، جلست هناك وهي تستمع إلى الأنفاس الثقيلة عند الطرف الآخر. ربما بسبب الإثارة، وربما كانت فضولية فحسب. على أي حال، أدركت فجأة أن الشخص عند الطرف الآخر يظن أنه يتصل بالمجيب الآلي وينتظر الإشارة! ضغطت أحد الأزرار. بيب.

"مرحباً، أنا سفير أولسن".

"مرحباً هاري، أنا...".

استدار هاري، لكن ما تبقى من جملة كورت ميريك اختفى حين رفع منسّق الأغاني صوت الموسيقى التي صدحت عالياً من المكبّر خلف هاري مباشرة.

لا يؤثّر ذلك فيّ كثيراً...

كان هاري في الحفلة منذ عشرين دقيقة تقريباً، وقد تفقّد ساعته مرتين، واستطاع أن يطرح على نفسه الأسئلة التالية أربع مرات: هل لجريمة قتل ديل أي علاقة بصفقة بندقية ماركلين؟ من يستطيع حزّ عنق شخص بسرعة وفاعلية كبيرة في وضح النهار في زقاق خلفي وسطَ أوسلو؟ من هو

الأمير؟ هل للحكم الذي صدر بحق ابن موسكن أي علاقة بهذه القضية؟ ماذا حدث للجندي النرويجي الخامس على الجبهة، غدبراند يوهانسن؟ ولماذا لم يبذل موسكن جهداً للعثور عليه بعد الحرب إذا كان يوهانسن، كما قال، قد أنقذ حياته؟

كان يقف في الزاوية آنذاك إلى جانب أحد المكبّرات، وهو يحمل كأساً من الشراب، ويراقب في الوقت نفسه موظفين شابين في الاستخبارات السرية وهما يرقصان.

قال هاري: "آسف، لم أسمع ما قلته".

كان كورت ميريك يدير عنق كأس شراب برتقالي اللون بين أصابعه. بدا أن قامته مشدودة أكثر من ذي قبل وهو يقف هناك مرتدياً بذلته الزرقاء المخطَّطة. لاحظ هاري أنها تناسبه تماماً، وأنزل رُدْنَي سترته، مدركاً أن قميصه يبرز بشكل واضح. انحنى ميريك مقترباً منه.

"أحاول أن أقول لك إن هذه هي رئيسة قسمنا الخارجي، المفتش...".

لاحظ هاري امرأة تقف إلى جانبه. كانت نحيلة، وترتدي فستاناً أحمرَ بسيطاً.

إذاً، مظهرها جميل. لكن، هل تتمتع باللمسة؟

عيناها بنيتان، ووجنتاها عاليتان، وبشرتها داكنة، أمّا شعرها فقصير داكن ويحيط بوجهها النحيل. كانت تبتسم آنذاك. تذكّر أنها كانت تبدو جميلة حين رآها سابقاً، لكنها لم تكن تبدو... فاتنة. كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي خطرت له؛ للدلالة على المعنى: فاتنة. كان يعرف أن حقيقة وقوفها قبالته يجب أن تجعله يعجز عن الكلام من شدّة دهشته. لكن، كان هناك - نوعاً ما - منطق في ذلك، شيء جعله يتقبّل داخلياً الموقف كله بإيماءة منه.

قال ميريك: "... راكيل فوك".

قال هاري: "لقد التقينا من قبل".

قال ميريك مستغرباً: "أوه!".

نظر هاري وراكيل إلى بعضهما.

قالت: "لقد التقينا. لكن، لا أظن أننا عرفنا اسمي بعضنا".

مدّت يدها وبقي رسغها ملتوياً قليلاً، مما جعله يفكّر مرة أخرى في دروس البيانو والباليه.

قال: "هاري هول".

قالت: "آه! بالطبع، إنّه أنت؛ من شعبة الجريمة، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح".

"لم أدرك أنك المفتش الجديد في الاستخبارات السرية حين التقينا. هل قلت ذلك حينها...".

سأل هاري: "متى؟".

أمالت رأسها جانباً.

"نعم، متى؟". ضحكت. أرغمت ضحكتها الكلمة الحمقاء على القفز في دماغ هاري مجدداً: فاتنة.

قالت: "حينها كنت سأقول لك إننا نعمل في المكان نفسه. لا أخبر الناس عادة عمّا أفعله لأكسب رزقي. طرحتَ الكثير من الأسئلة الغريبة، وأنا واثقة من أن الأمر مهم بالنسبة إليك".

"نعم، بالطبع".

ضحكت مجدداً. تساءل هاري ما الذي يتطلّبه الأمر؛ لجعلها تضحك على هذا النحو طوال الوقت؟

سألت: "كيف لم أرَكَ في الاستخبارات السرية من قبل؟".

قال كورت ميريك: "مكتب هاري في آخر الرواق".

"آه!". أومأت وكأنها فهمت الأمر، وبقيت تلك الابتسامة المفعمة بالحيوية في عينيها. "هل المكتب في آخر الرواق حقاً؟".

أومأ هاري برأسه متذمراً.

قال ميريك: "نعم، حسناً. لقد تعارفتما الآن. كنا في طريقنا إلى المشرب يا هاري".

انتظر هاري الدعوة التي لم تأتِ.

قال ميريك: "سأتكلم معك لاحقاً".

مفهوم، كما فكّر هاري. ربما كان بين رئيس الاستخبارات السرية والمفتش الكثير من الملاطفة. استند إلى المكبّر، لكنه ألقى عليهما نظرة خفية. كانت قد تعرّفت إليه، وتذكّرت أنهما لم يعرفا اسمي بعضهما. تجرّع شرابه دفعة واحدة. لكن، لم يكن له أي مذاق.

أغلق والر باب السيارة خلفه بعنف.

قال: "لم يرَه أحد، أو يتكلم معه، أو يسمع به. انطلقي".

قالت إيلين وهي تنظر إلى المرآة، وتبتعد عن حافة الطريق: "حسناً".

"لقد بدأت تحبين الأمير أنت أيضاً، كما يبدو".

"حقاً؟".

"لقد رفعتِ الصوت حين كنت بعيداً".

"أوه!". كان يجب أن تتصل بهاري.

"هل هناك خطب ما؟".

حدّقت إيلين أمامها مباشرة، إلى الإسفلت الأسود الرطب، الذي يلمع تحت ضوء مصابيح الشارع.

"خطب؟ ماذا قد يكون؟".

"لا أعرف. يبدو أن شيئاً قد حدث لك".

"لم يحدث شيء يا توم".

"هل اتصل بي أحد؟ مهلاً!". تسمّر توم في مقعده، ووضع كلتا راحتي كفيه بقوة على لوحة القيادة. "ألم تري تلك السيارة، أم ماذا؟".

"آسفة".

"هل أتولى القيادة؟".

"تتولى القيادة! لماذا؟".

"لأنك تقودين مثل...".

"مثل ماذا؟".

"انسي الأمر. سألتُ إن كان أحد قد اتصل بي".

"لم يتصل أحد يا توم. لو أن أحداً قد اتصل، لكنت أخبرتك، أليس كذلك؟".

كان يجب أن تتصل بهاري، بسرعة.

"لماذا أوقفت عمل الهاتف الخلوي؟!".

"ماذا؟". نظرت إيلين إليه مشدوهة.

"أبقي عينيك على الطريق يا غيلتن. سألت: لماذا...".

"لم يتصل أحد. كان يجب أن توقف عمل الهاتف بنفسك".

كان صوتها قد ارتفع على نحو لا إرادي، وسمعته يدوّي في أذنيها.

قال: "لا بأس يا غيلتن. استرخي، كنت أتساءل فحسب".

حاولت إيلين أن تفعل كما قال؛ أي أن تتنفّس بعمق، وتركّز على حركة السير أمامها. انعطفت بقوة إلى اليسار عند بوابة فالس. كان الوقت مساء، لكن الشوارع في ذلك الجزء من البلدة كانت خاوية عملياً. كان الضوء أخضر، لذا انعطفت إلى اليمين عند بوابة جنز بلكز، ثمّ إلى اليسار نحو توينغاتا، إلى مرأب سيارات مقر قيادة الشرطة. استطاعت أن تشعر بعيني توم تتفحّصانها طوال الطريق.

لم يكن هاري قد نظر إلى ساعته منذ أن رأى راكيل فوك. وانضم إلى ليندا؛ لكي تعرّفه إلى بعض زملائه. كان الحديث مقتضباً؛ حيث سألوه

عن منصبه، وكان اللقاء ينتهي حين يجيب. ربما كانت إحدى القواعد غير المكتوبة في الاستخبارات السرية: أن لا تسأل كثيراً، أو إنهم ببساطة لا يبالون. لا بأس بذلك، فهو لم يكن مهتماً بهم أيضاً. كان قد عاد إلى موقعه إلى جانب المكبّر، ولمح فستانها الأحمر بضع مرات. وفقاً لتقديره، كانت تنتقل في أرجاء الغرفة، ولا تقضي وقتاً طويلاً مع أي شخص. كان واثقاً من أنها لم ترقص.

فكّر: يا الله! أتصرف مثل مراهق.

نظر إلى ساعته، وكانت تشير إلى التاسعة والنصف. كان بمقدوره الذهاب إليها، وقول بضع كلمات، ورؤية ما يحدث. وإذا لم يحدث شيء، يمكنه أن ينسل خلسة، ويؤدي الرقصة التي وعد ليندا بها، ثم يذهب إلى المنزل. لم يحدث شيء؟ هل كان يخدع نفسه؟ كان بمقدوره تناول الشراب. لا. استرق نظرة أخرى إلى ساعته. ارتعش حين فكّر في الرقصة التي وعد بها. سيعود إلى شقته. كان معظم المدعوين ثملين آنذاك. حتى لو كانوا في أحسن أحوالهم، فهم لن يلاحظوا مفتشاً جديداً يختفي في آخر الرواق. يمكن أن يخرج من الباب بهدوء، ويستقل المصعد نزولاً. كانت سيارته فورد إسكورت تنتظره بإخلاص في الخارج. بدا أن ليندا تستمتع على أرضية الرقص، حيث كانت تمسك بإحكام بضابط شاب يديرها حوله مبتسماً، فيما العرق يتلألأ فوق شفتيه.

"كانت هناك إثارة أكبر في مركبة راجا في احتفال الحقوق، ألا تظن ذلك؟".

شعر بقلبه يخفق بشدّة حين سمع صوتها الخافت إلى جانبه.

كان توم قد وقف إلى جانب مقعد إيلين في مكتبها.

"آسف إن كنت فظّاً قليلاً في السيارة، في المدينة".

فزعت؛ فلم تكن قد سمعته حين جاء. كانت تمسك السمّاعة، لكنها لم تطلب الرقم بعد.

قالت: "لا تقلق. أنا التي، حسناً... أنت تعرف".

"أعراض ما قبل الطمث؟".

رفعت بصرها إليه، وعرفت أنها ليست دعابة. كان يحاول في الواقع أن يكون متفهماً.

قالت: "ربما". لماذا يقف في مكتبها الآن، بالرغم من أنه لم يدخله من قبل؟

"لقد انتهت المناوبة يا غيلتز". أومأ برأسه نحو الساعة على الجدار،

وكانت تشير إلى العاشرة. "السيارة قريبة، دعيني أُقلّك إلى منزلك".

"شكراً جزيلاً. لكن، يجب أن أُجري اتصالاً أولاً. اذهب أنت".

"أهي مكالمة خاصة؟".

"لا، إنها...".

"إذاً، سأنتظر هنا".

جلس والر على مقعد هاري القديم، الذي صرّ احتجاجاً. التقت أعينهما. تباً! لماذا لم تقل إنها مكالمة خاصة؟ كان الأوان قد فات آنذاك. هل كان يعرف أنها قد اكتشفت شيئاً؟ حاولت تفسير تعبير وجهه. لكن، بدا أنها قد فقدت تلك القدرة منذ أن استولى الذعر عليها. الذعر؟ كانت تعرف آنذاك لماذا لم تشعر بالراحة قطّ مع توم والر. لم يكن ذلك بسبب جفافه، وآرائه حول النساء، والسود، أو نزعته إلى الاستفادة من كل فرصة قانونية لاستخدام العنف. كان بمقدورها وضع لائحة في رأسها بأسماء عشرة شرطيين آخرين يشاطرون توم والر الرأي في مثل تلك القضايا. لكن، بالرغم من ذلك لم تستطع العثور على بعض الحقائق عنهم تجعلها تنفر منهم. كان هناك شيء آخر بشأن توم والر، وأصبحت تعرف ما هو: كانت تخاف منه.

قالت: "حسناً، يمكن لذلك الانتظار حتى الاثنين".

"لا بأس". نهض مجدداً. "لنذهب إذاً".

كان والر يمتلك إحدى تلك السيارات اليابانية الرياضية، التي ظنّت إيلين أنها تبدو تقليداً رخيصاً لسيارة الفيراري. كان يوجد فيها مقعدان فقط، ومكبّرات صوت يبدو أنها تملأ نصف السيارة. دار المحرك بفاعلية، وغمر ضوء مصابيح الشارع المقصورة حين انطلقا نحو تروندهايمزفين. خرج صوت عالي الطبقة اعتادت عليه من المكبّرات.

أمير. الأمير.

قالت إيلين وهي تحاول جعل صوتها يبدو طبيعياً: "يمكنني النزول هنا".

قال والر وهو ينظر إلى المرآة: "هذا مستحيل. خدمة من الباب وإلى الباب. إلى أين تذهبين؟".

قاومت رغبتها في أن تفتح الباب وتقفز إلى الخارج.

قالت إيلين وهي تشير: "انعطف هنا إلى اليسار".

كن في المنزل يا هاري.

قرأ والر اللافتة الطرقية على الجدار، وانعطف: "بوابة جنز بلكز".

كانت الإضاءة هناك خافتة والشوارع خاوية. رأت إيلين بطرف عينها المربعات الصغيرة من الضوء تتنقل على وجهه. هل عرف أنها تعرف؟ وهل رأى أنها كانت تجلس ويدها في حقيبتها؟ هل أدرك أنها تمسك بعلبة الغاز الأسود الذي كانت قد اشترته في ألمانيا؟ كانت قد أرته إياه في الخريف حين أصرّ على أنها تخاطر بنفسها برفضها حمل سلاح. ألم يعلن متحفّظاً أن بمقدوره الحصول على مسدس صغير وأنيق يمكن إخفاؤه في أي مكان على الجسم؟ لم يكن مسجلاً؛ ولهذا لا يمكن اقتفاء أثره إذا وقعت حادثة. لم تكن قد أخذت كلماته على محمل الجد في ذلك الوقت، وظنّت أنها إحدى تلك الدعابات الرجولية المخيفة وضحكت عليها.

"توقف إلى جانب السيارة الحمراء هناك".

قال: "لكن الرقم 4 في البناء التالي".

هل أخبرته أنها تعيش في البناء رقم 4؟ هذا محتمل. ربما نسيت. شعرت أنها شفّافة مثل قنديل بحر؛ وكأنه يستطيع رؤية قلبها وهو يخفق بسرعة كبيرة.

هدأ صوت المحرك، وكان قد أوقف السيارة. بحثت بسرعة عن مقبض الباب. يابانيون حمقى! لماذا لم يصمموا مقبضاً بسيطاً للباب يسهل العثور عليه؟

سمعت صوت والر يقول خلفها حين عثرت على المقبض: "أراك يوم الاثنين". خرجت بسرعة، وتنشّقت هواء آذار السام في أوسلو، وكأنها تصعد إلى السطح بعد تمضية وقت طويل تحت الماء. عندما أغلقت بابها الأمامي الثقيل بعنف كان لا يزال بمقدورها سماع صوت محرك سيارة والر الخافت وهو يدور في الخارج.

صعدت على السلالم مسرعة، وحذاؤها يضرب بقوة على كل درجة. كانت تمسك المفاتيح كما لو أنها قضيب يستعان به للكشف عن وجود الماء في باطن الأرض، ثم دخلت شقتها. عندما طلبت رقم هاري، تذكّرت رسالة سفير أولسن كلمة كلمة.

أنا سفير أولسن. لا أزال أنتظر عشرة الآلاف؛ عمولتي عن بندقية الرجل العجوز. اتصل بي في المنزل.

أغلق الخط بعد ذلك.

كان الأمر قد استغرق منها نانوثانية لتدرك الصلة. التلميح الخامس في الأحجية عن هوية الوسيط في صفقة ماركلين. شرطي، توم والر طبعاً. عشرة آلاف لنكرة مثل أولسن. لا بدّ من أن تلك صفقة كبيرة. الرجل العجوز،

المهووسون بالأسلحة، تعاطف مع اليمين المتطرف، الأمير الذي سيصبح قريباً كبير المفتشين. كان الأمر واضحاً مثل الشمس، وبديهياً، وأصيبت بصدمةٍ لحظةً؛ لأنها لم تدرك ذلك من قبل، رغم قدرتها على التقاط تفاصيل صغيرة لا يراها آخرون. كانت تعرف أن جنون الارتياب قد أمسكها بقبضته لبعض الوقت، لكنها بالرغم من ذلك لم تستطع أن تمتنع عن إمعان التفكير في الأمر حتى النهاية، حين كانت تنتظر خروجه من المطعم: أمام توم والر كل احتمالات الارتقاء إلى الأعلى، وأن يسحب خيوطاً من مواقع بالغة الأهمية، ويختبئ تحت أجنحة السلطة. من يعرف التحالفات التي كان قد أنشأها، ومع من في مقر قيادة الشرطة. إذا أراد ذهنها التوسّع في الأمر، فسيكون هناك طبعاً عدّة أشخاص لا يمكن أن تتخيل أبداً أن يكونوا متورطين. لكن الشخص الوحيد الذي يمكنها الاعتماد عليه مئة بالمئة كان هاري.

اتصلي به. لم تكن الخطوط مشغولة، ولم يسبق لها أن شُغلت في مكانه. هيا يا هاري!

كانت تعرف أيضاً أنها مسألة وقت فقط قبل أن يتكلم والر مع أولسن ويكتشف ما حدث، ولم تكن تشك ثانية في أن حياتها ستتعرض للخطر منذ تلك اللحظة. كان يجب أن تتصرف بسرعة، لكن لم يكن بمقدورها تحمّل غلطة واحدة. قاطع صوتٌ أفكارها.

"أنا هول، تكلم".

بيب.

"تباً لك يا هاري! أنا إيلين. لقد نلنا منه الآن. سأتصل بك على الخلوي".

حملت السمّاعة بين كتفها وذقنها حين كانت تقلّب فهرس الأرقام بحثاً عن حرف الهاء، سقط الفهرس على الأرض محدثاً جلبة، أطلقت شتيمة، ووجدت أخيراً رقم خلوي هاري. لحسن الحظ كان يحمل دائماً هاتفه الخلوي معه.

كانت إيلين غيلتن تعيش في الطابق الثاني في مبنى سكني جُدّد حديثاً، مع طائر قُرقف أليف يدعى هيلج. كانت سماكة جدران الشقة نصف متر، وكانت النوافذ مكوّنة من طبقتين من الزجاج. وبالرغم من ذلك، كان بمقدورها أن تقسم أنها سمعت صوت محرك سيارة.

* * *

ضحكت راكيل فوك.

"إذاً، كنت قد وعدت ليندا برقصة، لن تُفلت بالنظر إلى الأرض".

"حسناً، إذاً يجب أن أهرب".

صمت كلاهما بعد ذلك، وأدرك هاري أن ما قاله قد يُساء تفسيره. فسارع إلى كسر الصمت بسؤال.

"كيف بدأت العمل في الاستخبارات السرية؟".

قالت: "بوساطة اللغة الروسية. التحقت بدورة اللغة الروسية التي نظّمتها وزارة الدفاع، وعملت سنتين مترجمة في موسكو. وظّفني كورت ميريك حينها. انتقلت مباشرة بعد حصولي على إجازة الحقوق إلى درجة الراتب الخامسة والثلاثين. ظننت أنني قد حظيت بالإوزة التي تبيض ذهباً".

"ألم تفعلي؟".

"هل تمزح؟ يكسب الطلاب الذين أدرّسهم اليوم ثلاثة أضعاف ما أتقاضاه".

"يمكن أن تتوقفي، وتفعلي ما يفعلونه".

قوّست كتفيها إلى الأمام. "أحب ما أقوم به، ولا يستطيع الجميع قول الشيء نفسه".

"هذا رأي سديد".

صمت.

رأي سديد. هل كان هذا حقاً أفضل ما يستطيع قوله؟

"ماذا عنك يا هاري؟ هل تحب ما تفعله؟".

وقفا قبالة المرقص، لكن هاري شعر أن عينيها تتفحّصانه. تسارعت كل أنواع الأفكار في دماغه. كانت تجاعيد صغيرة تظهر إلى جانب عينيها حين تضحك. لم يكن شاليه موسكن بعيداً عن المكان الذي عثروا فيه على الخراطيش من بندقية ماركلين. وفقاً لصحيفة داغبلادت، إنّ 40 بالمئة من النساء اللواتي يعشن في المدن غير مخلصات. يجب أن يسأل زوجة إيفن جوول إن كانت تتذكر أن ثلاثة جنود نرويجيين في فوج نورج قد أُصيبوا، أو لقوا حتفهم في انفجار قنبلة يدوية أُلقيت من طائرة. وكان يجب أن يستفيد من العرض على الملابس الرجالية الذي أعلنت عنه درسمان في القناة الثالثة. لكن هل كان يحب ما يفعله؟

قال: "أحبّه في بعض الأيام".

"ماذا تحب فيه؟".

"لا أعرف. هل يبدو هذا غبياً؟".

"لا أعرف".

"لا أقول هذا لأنني لم أفكّر في السبب الذي دفعني إلى أن أكون شرطياً، فقد فكّرت فيه. لا أعرف، ربما أستمتع فقط باعتقال الفتيات والفتيان الأشرار".

سألت: "إذاً، ماذا تفعل حين لا تعتقل الفتيات والفتيان الأشرار؟".

"أشاهد رحلة روبنسون".

ضحكت مجدداً، وعرف هاري أنه مستعد لقول أسخف الأشياء إذا كانت هناك فرصة لجعلها تضحك على هذا النحو. تمالك نفسه، وتكلم بجدّية نسبياً عن وضعه الحالي، لكنه توخّى الحذر كي لا يذكر النواحي غير السارة في حياته؛ ولهذا لم يكن هناك الكثير ليقوله. عندما بدا أنها لا تزال مهتمة تابع الحديث عن والده وشقيقته. لماذا ينتهي به المطاف دائماً بالحديث عن شقيقته حين يطلب منه أحدهم أن يتكلم عن نفسه؟

قالت: "يبدو أنها فتاة لطيفة".

قال هاري: "إنها الألطف، والأشجع. إنها لا تخاف أبداً من الأشياء الجديدة. وهي محبّة للحياة".

أخبرها هاري عن المرة التي تقدمت فيها شقيقته بطلب لشراء شقة في بوابة جاكوب آلس - لأن ورق الجدران في الصورة التي رأتها على صفحة العقار في أفتنبوستن، ذكّرها بغرفة طفولتها في أوباسال - وقيل لها إن السعر المطلوب هو مليونا كرون، وهو سعر قياسي للمتر المربّع في أوسلو في ذلك الصيف.

ضحكت راكيل فوك كثيراً، وأراقت الشراب على سترة هاري.

"أفضل شيء فيها هو أنها بعد تعرّضها لهبوط اضطراري تتمالك نفسها بسرعة، وتنفض عنها الغبار، وتصبح مستعدة مباشرة لمهمة الكاميكازي التالية".

جففت له سترته بمنديل.

"وأنت يا هاري، ماذا تفعل حين تهبط بشكل اضطراريّ؟".

"أنا؟ حسناً. أستلقي على الأرجح ساكناً مدّة ثانية واحدة، ثم أنهض؛ لأنه ليس هناك خيار آخر".

"هذا رأي سديد".

رفع بصره بسرعة ليرى إن كانت تسخر منه، لكن الإثارة كانت تلمع في عينيها. كانت تتألق قوة، لكنه شكّ في أنها قد اختبرت الكثير من حالات الهبوط الاضطراري.

"حان دورك لتخبريني شيئاً عن نفسك".

لم تكن لدى راكيل شقيقة لتتكلم عنها، فقد كانت ابنة وحيدة؛ ولهذا تكلمت عن عملها عوضاً عن ذلك.

قالت: "لكننا نادراً ما نعتقل أحداً. معظم القضايا تنتهي سلمياً بمكالمة هاتفية، أو في حفلة كوكتيل في سفارة".

ابتسم هاري متهكماً.

سأل: "وكيف سُوّيت قضية عميل جهاز أمن الرئيس الذي أطلقتُ النار عليه؟ من خلال مكالمة هاتفية؟ أم في حفلة كوكتيل؟".

أمعنت النظر إليه وهي تستغرق في التفكير، وتضع يدها داخل الكأس؛ لتخرج قطعة ثلج. رفعتها بين أصابعها، وسالت قطرة ماء ببطء على رسغها، تحت سلسلة ذهبية رفيعة حتى وصلت إلى المرفق.

"هل ترقص يا هاري؟".

"كما أتذكر، لقد أمضيت عشر دقائق على الأقل وأنا أشرح لك كم أكره الرقص".

أمالت رأسها مجدداً.

"أعني؛ هل ترقص معي؟".

"على أنغام هذه الموسيقى؟".

سمعت أنغام أرغن هادئة صادرة من مكبّرات الصوت.

"ستنجو. اعتبر الأمر استعداداً لاختبار ليندا الكبير".

وضعت يدها على كتفه برفق.

سأل هاري: "هل نحن نتغازل الآن؟".

"ماذا قلت أيها المفتش؟".

"آسف، لكنني سيئ جداً في قراءة الإشارات الخفية؛ ولهذا سألت إن كنا نتغازل".

"هذا غير محتمل أبداً".

وضع يده حول خصرها، ومشى خطوة راقصة بتردد.

قال: "يبدو الأمر وكأنني أفقد عذريتي. لكن، هذا على الأرجح محتوم؛ فعاجلاً أم آجلاً يجب على كل رجل نرويجي أن يفعل شيئاً مماثلاً".

ضحكت: "ما الذي تتكلم عنه؟".

"الرقص مع زميلة في حفلة رسمية".

"أنا لا أرغمك على القيام بذلك".

ابتسم. لو أنهما كانا في مكان آخر، لكانا قد طلبا عزف أغنية بيردي على قيثارة، وكان سيقتل من أجل أن يحظى بتلك الرقصة.

سألت: "مهلاً، ماذا لديك هنا؟".

"حسناً، إنه ليس مسدساً، وأنا سعيد لرؤيتك، لكن...".

نزع هاري هاتفه الخلوي من حزامه، وأبعد يده عن خصرها، ثم وضع الهاتف على المكبّر. وحين عاد، ارتفعت يداها نحوه.

قال: "آمل ألا يكون لدينا أي لصوص هنا". كانت تلك دعابة قديمة في مقر قيادة الشرطة، ولا بدّ من أنها قد سمعتها مئات المرات من قبل، لكنها ضحكت برقّة على أيّ حال.

تركت إيلين الهاتف يرنّ حتى توقف عن الرنين قبل أن تُغلق السمّاعة، ثم حاولت مجدداً. وقفت إلى جانب النافذة، ونظرت نحو الأسفل؛ إلى الشارع. لا توجد سيارة، بالطبع لا. كانت مرهقة، وتوم على الأرجح في طريقه إلى منزله؛ ليأوي إلى فراشه، أو فراش شخص آخر.

نفضت يديها من هاري بعد ثلاث محاولات، واتصلت بكيم الذي بدا متعباً بدلاً من ذلك.

قال: "أعدت سيارة الأجرة هذا المساء عند الساعة السابعة، بعد أن قدتها عشرين ساعة اليوم".

قالت: "سأستحم أولاً، وأردت فقط أن أعرف أنك موجود".

"تبدين متوترة".

"لا شيء مهم. سأكون عندك بعد ثلاثة أرباع الساعة. يجب أن أستخدم هاتفك. بالمناسبة، سأبيت عندك الليلة".

"حسناً. هل تمانعين الذهاب إلى مركز تسوّق 7 إيلفن في ماركفين، لتشتري لي بعض علب لفائف التبغ".

"بالتأكيد. سأستقل سيارة أجرة".

"لماذا؟".

"سأشرح لك في ما بعد".

"تعرفين أنها ليلة السبت، ومن غير الممكن أن تجدي أي سيّارة أجرة. وسيستغرق الأمر أربع دقائق حتى تصلي إلى هنا".

تردّدت.

قالت: "كيم".

قال: "نعم".

"هل تحبني؟".

سمعت ضحكته الخافتة، وتخيّلت العينين الذابلتين نصف المغمضتين، وجسده النحيل والهزيل تقريباً تحت الغطاء في شقته البائسة في بوابة

هلجسنز. كانت لديه إطلالة على نهر أكرسلفا، وكل ما ترغب فيه. وكادت أن تنسى للحظة فقط توم والر؛ بصعوبة.

"سفير!".

وقفت والدة سفير أولسن عند أسفل السلالم وقتاً طويلاً وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة: "سفير! لديك اتصال!".

صرخت وكأنها بحاجة إلى مساعدة، وكأنها تغرق، شيء من هذا القبيل.

"سأتكلم من هنا يا أمي!".

أبعد قدميه عن السرير، ورفع الهاتف عن الطاولة، وانتظر الطقطقة التي تشير إلى أن والدته قد أغلقت السمّاعة.

"مرحباً".

"إنه أنا". كان الأمير هو المتصل، كما هي الحال دائماً.

قال سفير: "خمّنت أنه أنت".

"لماذا؟".

جاء السؤال بسرعة البرق، مما جعل سفير يتخذ وضعية الدفاع مباشرة؛ كأنه هو من يدين بالمال لذلك الشخص، وليس العكس.

قال سفير: "تتصل بي على الأرجح لأنك تلقيت رسالتي".

"أتصل لأنني أنظر إلى لائحة المكالمات الواردة في هاتفي الخلوي وأرى أنك تكلمت مع شخص ما عند الساعة 20:32 من هذا المساء. ما الرسالة التي كنت تثرثر بشأنها؟".

"عن المال، أمرّ بضائقة مادية، ووعدتني...".

"إلى من تكلمت؟".

"آه! السيدة على المجيب الآلي، كما أفترض. صوتها جميل. هل هي إحدى...؟".

لم يجب. إنه الأمير الصامت. توقفت الموسيقى فجأة.

"أخبرني ماذا قلت بالضبط".

"قلت فقط إنني...".

"لا! بالضبط. كلمة كلمة".

كرّر سفير كلماته بدقّة قدر استطاعته.

قال الأمير: "توقّعت ذلك. لقد أفشيت سر عمليتنا كلها إلى غريبة يا أولسن. إذا لم نعالج الخرق حالاً، فسينتهي أمرنا. هل تفهم؟".

لم يفهم سفير أولسن شيئاً.

كان الأمير هادئاً تماماً حين شرح أن هاتفه الخلوي قد وقع بين يدي

شخص آخر.

"لم يكن المجيب الآلي ما سمعتَه يا أولسن".

"من كانت إذاً؟".

"لنقل إنها عدو".

"هل هناك أحد يحقق في أمرنا؟".

"الإنسانة التي نتحدّث عنها في طريقها إلى الشرطة، ومهمتك هي إيقافها".

"أنا؟! أردت فقط مالي و...".

"اخرس يا أولسن".

صمت أولسن.

"هذا من أجل القضية. أنت جندي جيد. أليس كذلك؟".

"نعم، لكن...".

"والجندي الجيد ينظّف خلفه، أليس كذلك؟".

"كنت أنقل رسائل بينك وبين الرجل العجوز فقط. أنت الذي...".

"خاصة حين يتربّص بالجندي حكم بالسجن لمدّة ثلاث سنوات، وقد أفلت منه؛ بسبب خطإ تقني".

سمع سفير نفسه يبتلع ريقه.

شرع يقول: "كيف تعرف ذلك؟".

"لا تزعج نفسك بهذا. أريد فقط أن تدرك أنك ستخسر الكثير بسبب هذا الأمر، مثل باقي الإخوان".

لم يتفوّه سفير بكلمة، ولم يكن بحاجة إلى ذلك.

"انظر إلى الجانب المشرق يا أولسن. هذه حرب، وليس هناك مكان للجبناء والخونة. أضف إلى ذلك، أنّ المنظمة تكافئ جنودها. وإضافة إلى مبلغ عشرة الآلاف ستحصل على أربعين أخرى بعد إنجاز المهمة".

أمعن سفير التفكير في الأمر، وفي الملابس التي يجب أن يرتديها.

سأل: "أين؟".

"سكوز بلاس، بعد عشرين دقيقة. أحضر معك كل ما تحتاج إليه".

سألت راكيل: "ألا تشرب؟".

نظر هاري حوله. كانا متلاصقين في رقصتهما الأخيرة، وربما جعل ذلك الحواجب ترتفع دهشة. انسحبا إلى طاولة في نهاية المطعم.

قال هاري: "لقد أقلعت عنه".

أومأت.

أضاف: "إنها قصة طويلة".

"لدي متسع من الوقت".

ابتسم: "أحب هذا المساء أن أسمع قصصاً لطيفة فقط. لنتكلم عنكِ بدلاً من ذلك. هل كانت طفولتك من النوع الذي يمكن أن تتكلمي عنه؟".

كان هاري قد توقّع أن تضحك، لكن ابتسامة متعبة ارتسمت على وجهها.

"توفيت والدتي حين كنت في الخامسة عشرة. وبخلاف ذلك، يمكنني الحديث عن باقي حياتي".

"آسف لسماع ذلك".

"لا شيء تأسف لأجله. كانت امرأة استثنائية، لكنّ قصصاً لطيفة كانت على جدول هذه الأمسية...".

"هل لديك أشقاء أو شقيقات؟".

"لا، أنا ووالدي فقط".

"إذاً، عليك أن تعتني به بمفردك؟".

نظرت إليه مندهشة.

قال: "أعرف كيف يبدو الأمر. لقد فقدت والدتي أنا أيضاً. جلس والدي على الكرسي وهو يحدق إلى الجدار طوال سنوات، وكان عليّ أن أُطعمه، بكل ما للكلمة من معنى".

"أدار والدي سلسلة متاجر مواد بناء كبيرة كان قد أنشأها من العدم. وأظن أنها كانت بمثابة حياته كلها. لكن، عندما توفيت والدتي فقد كل اهتماماته؛ بين عشية وضحاها. باعها قبل أن تنهار، ودفع كل من يعرفه بعيداً عنه؛ ومن بينهم أنا. أصبح رجلاً عجوزاً، ووحيداً، ومزعجاً".

بسطت ذراعيها.

"لقد عشت حياتي الخاصة. التقيت رجلاً في موسكو، وشعر والدي بالخيانة؛ لأنني أردت الزواج بروسي. عندما أحضرت أوليغ إلى النرويج، أصبحت العلاقة بيني وبين والدي متوترة جداً".

نهض هاري، وعاد بعد قليل حاملاً كأساً من الشراب لها، وكولا له.

"إنّه أمر مؤسف أننا لم نلتقِ في صفوف الحقوق يا هاري".

قال هاري: "كنت مزعجاً في ذلك الوقت، وعدوانياً مع كل شخص لا يحب التسجيلات، أو الأفلام نفسها التي أحبها. لم يكن أحد يحبني، ولا حتى أنا نفسي".

"لا أصدّق ذلك".

"اقتبست هذه العبارة من فيلم. كان الرجل الذي قال ذلك يتحدثّ إلى الممثلة الأميركية ميا فارو؛ أقصد في الفيلم. لم أجرّب ذلك قطّ في الحياة الواقعية".

قالت وهي تتذوق الشراب بحذر: "حسناً، أظن أنها كانت بداية جيدة. لكن، هل أنت واثق من أنك لم تقتبس الجزء المتعلّق بالاقتباس أيضاً؟".

ضحكا وتكلما عن الأفلام الجيدة والسيئة، والأشخاص الصالحين والطالحين الذين كانوا معهما، وأدرك هاري بعد مضي بعض الوقت أن عليه تعديل انطباعاته الأولى عنها. مثلاً، كانت قد سافرت حول العالم بمفردها حين كانت في العشرين من عمرها، في حين أن كل ما فعله هاري - بمعايير تجارب الراشدين - هو قيامه برحلة فاشلة، وابتلاؤه بمشكلة إدمان على الشراب متفاقمة.

تفقّدت ساعتها.

"إنها الحادية عشرة. هناك شخص ينتظرني".

شعر هاري بقلبه ينقبض.

قال وهو ينهض: "وأنا أيضاً".

"آه!".

"مجرد وحش أُبقيه تحت السرير. دعيني أُقلّك إلى المنزل".

ابتسمت. "ليس هذا ضرورياً".

"منزلك عملياً على طريقي".

"هل تعيش في هولمنكولن أنت أيضاً؟".

"قريباً منها، أو إلى جوارها تماماً. أقيم في بيسلت".

ضحكت.

"إذاً، أنت تقيم في الجانب الآخر من المدينة. أعرف ما تسعى إليه".

ابتسم هاري بارتباك، فوضعت يداً على ذراعه قائلةً: "أنت تحتاج إلى شخص يدفع السيارة، أليس كذلك؟".

قالت إيلين: "يبدو أنه قد ذهب يا هيلج".

وقفت إلى جانب النافذة وهي ترتدي معطفها، وتختلس النظر إلى الخارج من بين الستائر. كان الشارع في الأسفل خالياً، وقد ذهبت سيارة الأجرة التي كانت تنتظر هناك، وتقلّ ثلاث فتيات خرجن للاحتفال. لم يجب هيلج، بل فتح عينيه وأغمضهما مرتين، وحكّ بطنه بقائمته.

جرّبت الاتصال بهاري على الخلويّ مجدداً، لكن صوت المرأة نفسها قال لها إنّ الهاتف مغلق، أو في منطقة خارج نطاق التغطية.

وضعت إيلين قطعة قماش فوق القفص، وقالت: عمت مساءً، وأطفأت الضوء، ثم خرجت من المنزل. كانت بوابة جنز بلكز لا تزال مقفرة حين انطلقت مسرعة نحو بوابة ثورفالد مايرز، التي كانت تعرف أنها تكتظ بالناس في مثل هذا الوقت من ليلة السبت. خارج مطعم فراو هاغن، أومأت إلى عدد من الأشخاص الذين تبادلت معهم بضع كلمات في إحدى أمسيات الشتاء في شوارع غرونرلوكا المضاءة جيداً. تذكرت فجأة أنها قد وعدت كيم بأن تشتري له بعض علب لفائف التبغ، فاستدارت للذهاب إلى 7 إيلفين في ماركفين. رأت وجهاً جديداً بدا لها أنها تعرفه على نحو مبهم، وابتسمت عفوياً حين لاحظت أنه ينظر إليها.

توقفت في 7 إيلفين، وحاولت أن تتذكر إن كان كيم يدخّن كامل، أو كامل لايتس، وأدركت أن الوقت الذي أمضياه معاً كان قصيراً جداً، وأنه لا يزال يجب عليهما أن يعرفا المزيد عن بعضهما. وللمرة الأولى في حياتها لم تكن العلاقة تخيفها، وإنما كانت شيئاً تتطلع إليه بشوق. كانت سعيدة جداً. أيقظت فكرة استلقائه عارياً في السرير، على بعد ثلاثة أبنية سكنية في نفسها شعوراً ما. اختارت كامل، وانتظرت دورها بفارغ الصبر. اختارت في الشارع خارج المتجر أن تسلك الطريق القصيرة عبر أكرسلفا.

خطر لها أن المسافة قصيرة بين حشدٍ صاخب من الناس والعزلة التامة في مدينة كبيرة. فجأة، كان كل ما تستطيع سماعه هو خرير النهر، وصوت الثلج الذي يُسحق تحت حذائها. وكان الأوان قد فات للندم على اختيارها الطريق المختصرة حين أدركت أنها لا تسمع وقع خطواتها فقط. كان بمقدورها أن تسمع آنذاك أنفاساً ثقيلة أيضاً، ولهاثاً. كانت خائفة وغاضبة، وعرفت أن حياتها مهدّدة في تلك اللحظة. لم تستدر، وبدأت تجري ببساطة. تسارعت الخطوات خلفها على الوقع ذاته. حاولت أن تجري بهدوء، ومن دون أن تخاف، أو تركض وهي تحرّك ذراعيها وساقيها. فكّرت: لا تركضي مثل امرأة عجوز، ومدّت يدها إلى علبة الغاز في جيب معطفها، لكن الخطوات خلفها كانت دؤوبة، وتقترب منها. ظنّت أنها إذا استطاعت الوصول إلى مخروط الضوء الوحيد على الدرب، فستكون بأمان، لكنها عرفت أن ذلك ليس صحيحاً. كانت تحت الضوء مباشرة حين أصابت الضربة الأولى كتفها، وأوقعتها على جانبها فوق الثلج. شلّت الضربة الثانية ذراعها، وانزلقت علبة الغاز من يدها التي لم تعد تشعر بها. حطمت الضربة الثالثة عظمة ركبتها اليسرى، وكتم الألم الصرخة عميقاً في حنجرتها، وجعل ودجيها ينتفخان في عنقها الشاحب في الشتاء. رأته في ضوء الشارع الأصفر

يرفع مضرباً خشبيًّا. تعرّفت إليه آنذاك، فقد كان الرجل نفسه الذي رأته خارج فراو هاغن. لاحظت الشرطية أنه كان يرتدي سترة خضراء قصيرة، وينتعل حذاءً أسود، ويعتمر قبعة عسكرية سوداء. أعطبت أول ضربة تلقّتها على رأسها العصبَ البصري، ولم ترَ بعد ذلك إلا ليلاً أسودَ حالكاً.

فكّرت في أن أربعين بالمئة من السياج تنجو. سأعيش هذا الشتاء.

تحسّست أصابعُها الثلج؛ بحثاً عن شيء تمسك به. فأصابتها الضربة الثانية على مؤخر رأسها.

فكّرت في أن الأمر لن يطول بعد ذلك. سأعيش هذا الشتاء.

* * *

استمتع هاري بالرحلة إلى منزل راكيل فوك في هولمنكولفن. أضفى ضوء القمر الأبيض بريقاً باهتاً غير حقيقي على جلدها. حتى في العتمة داخل السيارة استطاع أن يلاحظ من عينيها أنها متعبة.

قالت راكيل: "ها نحن ذا".

قال هاري: "ها نحن ذا".

"أودُّ أن أدعوك إلى المنزل، لكن...".

ضحك هاري. "أظن أن أوليغ لن يحب ذلك".

"يغطُّ أوليغ في نومٍ عميق، لكنني كنت أفكّر في جليسته".

"جليسة؟!".

"جليسة أوليغ ابنة شخص يعمل في الاستخبارات السرية. لا تُسئ فهمي من فضلك، لكنني لا أريد إشاعات في العمل".

حدّق هاري إلى العدّادات في لوحة القيادة. كان الزجاج فوق عدّاد السرعة قد تشقّق، وظنّ أن صمّام مصباح الزيت قد احترق.

"هل أوليغ ابنك؟".

"نعم، ماذا كنت تظن؟".

"حسناً، كنت قد فكّرت في أنكِ تتكلمين عن زوجك".

"أي زوج؟".

لا بدّ من أن ولاعة لفائف التبغ قد رُميت من النافذة، أو سُرقت مع المذياع.

قالت: "أنجبت أوليغ حين كنت في موسكو. عشت مع والده سنتين".

"ماذا حدث؟".

هزّت كتفيها.

"لم يحدث شيء. لم نعد ببساطة نحب بعضنا، وقد عدت إلى أوسلو".

"إذاً أنتِ...".

"أم عازبة. ماذا عنك؟".

"أعزب، وأعزب فقط".

"قبل أن تبدأ بالعمل معنا، ذكر أحدهم شيئاً عنك وعن فتاة؛ كنتما تعملان في المكتب نفسه في شعبة الجريمة".

"إيلين؟ لا. نحن متفقان فقط، ومنسجمان فحسب. لا تزال تساعدني أحياناً".

"بماذا؟".

"إنها تساعدني في القضية التي أعمل عليها".

"آه! فهمت، القضية".

نظرت إلى ساعتها مجدداً.

سأل هاري: "هل أساعدك على فتح الباب؟".

ابتسمت، وهزّت رأسها، ودفعته بكتفها. صرّ الباب حين فُتح.

كانت منحدرات هولمنكولن هادئة، باستثناء صوت الصفير الخافت الصادر من أشجار التنّوب. وضعت قدمها على الثلج آنذاك.

"عمت مساءً يا هاري".

"شيء واحد فقط".

"نعم؟".

"عندما جئت إلى هنا في المرة الماضية، لماذا لم تسأليني عمّا أريده من والدك؟".

"إنها عادة مهنية. فأنا لا أسأل عن قضايا لا أعمل عليها".

"على أيّ حال، ألا تشعرين بالفضول؟"

"أنا فضولية دائماً، لكنني لا أسأل. ما الأمر؟".

"أبحث عن جندي سابق ربما كان والدك يعرفه لأنه قاتل معه على الجبهة الشرقية. لقد اشترى هذا الرجل بندقية ماركلين. بالمناسبة، لم يترك والدك انطباعاً لديّ بأنه مزعج على الإطلاق حين تكلمت معه".

"يبدو أن مشروع التأليف قد أسعده. أدهشني الأمر أنا أيضاً".

"ربما تتفاهمان يوماً ما مجدداً؟".

قالت: "ربما".

التقت أعينهما، وتسمّر كل منهما في مكانه.

سألت: "هل نحن نتغازل الآن؟".

"هذا غير محتمل أبداً".

كان بمقدوره رؤية عينيها تضحكان بعد وقت طويل من قيامه بركن سيارته في مكان غير مسموح ركن السيارات فيه في بيسلت. تفقّد الوحش تحت السرير، ونام من دون أن ينتبه إلى الوميض الأحمر في المجيب الآلي.

أغلق سفير أولسن الباب خلفه بهدوء، ثم خلع حذاءه، وصعد ببطء على السلالم. تخطّى الدرجة التي يعرف أنها تطقطق، لكنه كان يعلم أن جهوده ستذهب سدى.

"سفير؟".

جاءت الصرخة من غرفة النوم التي كان بابها مفتوحاً.

"نعم يا أمي؟".

"أين كنت؟".

"في الخارج يا أمي. سآوي إلى السرير الآن".

صمّ أذنيه عن سماع كلماتها التي كان يعرفها تماماً. كانت تنهمر مثل حبات بَرَد موحلة، وتختفي حينما تصطدم بالأرض؛ مثلها تماماً. أغلق باب غرفته وأصبح وحده. استلقى على السرير، وحدّق إلى السقف، وفكّر في ما حدث. كان الأمر مثل فيلم. فرك عينيه، وحاول إغماضهما، لكن عرض الفيلم بقي مستمراً.

لم تكن لديه فكرة عن هويتها. وفقاً للمخطط، كان الأمير قد التقاه في سكوز بلاس، وانتقلا بواسطة السيارة إلى الشارع الذي تعيش فيه. أوقفا السيارة في مكان غير منظور من شقتها، لكن كان بمقدورهما رؤيتها إذا غادرت المبنى. قال إن الأمر قد يستغرق الليل كله، وطلب منه أن يسترخي، ويستمع إلى موسيقى السود تلك، ويخفض مسند مقعده. لكن الباب الأمامي فُتح بعد نصف ساعة فقط، وقال الأمير: "تلك هي".

كان سفير قد تبعها، لكنه لم يدركها حتى أصبحا في الشارع المظلم، وكان هناك أشخاص كُثر حولهما. كانت قد استدارت فجأة ونظرت إليه مباشرة. شعر للحظة أنها كشفت أمره، وأنها قد رأت المضرب الخشبي المخبّأ تحت رُدْنه، والذي يبرز من ياقة سترته. خاف كثيراً حتى إنه لم يستطع السيطرة على الاختلاجات في وجهه، لكن حين خرجت لاحقاً من 7 إيلفن، كان الخوف قد تحول إلى غضب. تذكّر، على نحو مبهم، تفاصيل ما حدث حين كانا تحت الضوء في الطريق. كان يعرف ما حدث. لكن، بدا أن أجزاءً قد اقتُطعت من المشهد، مثل إحدى ألعاب الأحاجي تلك التي تُعرض على شاشة التلفاز؛ حيث تحصل على قطع من الصورة ويجب أن تخمّن ما هي.

فتح عينيه مجدداً، حدّق إلى اللوح الجصّي المنتفخ في السقف. عندما يحصل على المال، سيُحضر عاملاً لإصلاح التسرّب الذي كانت والدته تشكو منه منذ وقت طويل. حاول أن يفكّر في إصلاحات السقف، لكنه كان يعرف أنه يفعل ذلك لإبعاد الأفكار الأخرى عنه. عرف أن هناك خطباً ما. فقد كان الأمر مختلفاً هذه المرة، وليس كما حدث مع صاحب العينين الشاقوليتين في دينيس للكباب. كانت هذه الفتاة امرأة نرويجية عادية: شعرها بني قصير، وعيناها زرقاوان. كان يمكن أن تكون شقيقته. حاول أن يكرّر سراً ما كان الأمير قد غرسه في نفسه: كان جندياً، وفعل ذلك من أجل القضية.

نظر إلى الصورة التي كان قد ثبّتها على الجدار تحت العلم بواسطة دبوس، وعليها الصليب المعقوف. كان قائد قوات الأمن الخاصة أس أس والشرطة الألمانية هاينريش هيملر يتكلم من حيث يقف على المنبر حين كان في أوسلو عام 1941. كان يتكلم مع متطوعين نرويجيين أدّوا القسم؛ لارتداء بزّات أس أس الخضراء. حرفا أس أس كانا مطرّزين على الياقة. كان فيدكون كيسلنغ في الخلفية. هيملر. موت مشرّف في 23 أيار عام 1945؛ انتحار.

"تباً!".

وضع سفير قدمه على الأرض، ووقف ثم بدأ يمشي ذهاباً وإياباً من دون توقف.

توقف أمام المرآة إلى جانب الباب، وشبك يديه، ثم بحث في جيوب سترته. تباً! ما الذي حدث لقبعته العسكرية؟ استولى عليه الخوف للحظة حين تساءل إن كان قد تركها إلى جانبها فوق الثلج، لكنه تذكر بعد ذلك أنه كان يعتمرها حين عاد إلى سيارة الأمير، فتنفّس الصعداء.

كان قد تخلّص من المضرب الخشبيّ كما طلب منه الأمير. مسح البصمات ورماه في أكرسلفا. كان يجب عليه الآن أن يتوارى عن الأنظار، وينتظر لرؤية ما سيحدث. قال الأمير إنه سيعالج الأمر، كما كان قد فعل من قبل. لم يكن سفير يعرف مكان عمل الأمير، لكن كان من الواضح أن لديه علاقات جيدة مع الشرطة. خلع ثيابه أمام المرآة، وظهرت وشومه رمادية اللون تحت ضوء القمر الذي كان يتسلل من بين الستائر. أمسك بأصابعه الوسام العسكري الألماني المعلّق حول عنقه.

تمتم: "أيتها الشريرة. أيتها الشريرة الشيوعية اللعينة".

وعندما نام أخيراً، كانت السحب قد بدأت تتجمع أخيراً في الشرق.

هامبورغ. 30 حزيران 1944

حبيبتي العزيزة هيلينا،

أحبك أكثر من نفسي، وأنت تعرفين هذا الآن. فبالرغم من أننا أمضينا وقتاً قصيراً فقط معاً، ولديك حياة طويلة وسعيدة أمامك - أعرف أنك ستحظين بها - إلا أنني آمل ألا تنسيني تماماً أبداً. الوقت مساء هنا. أجلس في إحدى غرف النوم قرب الميناء في هامبورغ، والقنابل تسقط في الخارج. أنا وحدي. الآخرون يختبئون في الملاجئ والأقبية. لا توجد كهرباء، لكن النيران المشتعلة في الخارج تلقي ضوءاً أكثر من كافٍ يسمح لي بالكتابة.

كان علينا أن نغادر القطار قبل الوصول إلى هامبورغ؛ بسبب تعرض السكك الحديدية إلى القصف في الليلة السابقة. وضعونا على متن شاحنات ونقلونا إلى المدينة. كان منظرٌ مروّعٌ ينتظرنا. بدا أن كل المنازل قد تحوّلت إلى أنقاض، وكانت الكلاب تتجول بين الحطام الذي يتصاعد منه الدخان، ورأيت في كل مكان أطفالاً هَزْلى يرتدون أسمالاً بالية، ويحدّقون إلى الشاحنات بعيونهم الكبيرة. تجوّلت في هامبورغ في طريقي إلى سنهايم قبل سنتين فقط، لكنني لا أكاد أعرفها الآن. ظننت في ذلك الوقت أن الإلب أجمل نهر كنت قد رأيته. لكن، الآن تطوف على سطح مياهه السوداء قطعٌ من ألواحٍ خشبيةٍ، وحطامُ سفن شحن غارقة، وسمعت شخصاً يقول إنه قد تلوّث بسبب كلّ الجثث التي تطفو على سطح مياهه. كان الناس يتكلمون أيضاً عن المزيد من غارات القصف الليلية، وعن الخروج من المدينة بأي طريقة ممكنة. كنت أنوي أن أستقلّ القطار إلى كوبنهاغن الليلة، لكن خطوط السكك الحديدية إلى الشمال قد تعرّضت للقصف أيضاً.

أعتذر عن لغتي الألمانية السيئة. كما ترين، يدي غير ثابتة قليلاً أيضاً؛ وذلك لأن القنابل تجعل المنزل كله يهتز، وليس لأنني خائف. ما الذي سأخشاه؟ أنا أشاهد الآن من حيث أجلس ظاهرة كنت قد سمعت عنها، لكنني لم أرها قطّ؛ إنّها العاصفة الناريّة. يبدو أن ألسنة اللهب على الطرف الآخر من الميناء تبتلع كل شيء. يمكنني رؤية ألواح خشبية وسقوف قصديرية كاملة تُقتلع وتطير باتجاه النيران. والبحر يغلي! البخار يتصاعد من تحت الجسور هناك. إذا حاول شخص مسكين القفز إلى الماء للهروب من القنابل، فسيقلى حيًّا. فتحت النوافذ، وأشعر أن الهواء خالٍ من الأوكسجين. أسمع الآن صوتاً غريباً؛ وكأن شخصاً ما يقف وسط ألسنة اللهب ويصرخ:

"المزيد، المزيد، المزيد". هذا غريب ومخيف، نعم، لكنه فاتن على نحو غريب.

قلبي ممتلئ بحبك، وأشعر بأنني محصّن؛ بفضلك يا هيلينا. إذا أنجبت يوماً أطفالاً - وأعرف أنكِ تريدينهم، وأريد منك أن تنجبيهم - فأنا أرغب في أن تخبريهم قصصاً عني. أخبريهم أنها قصص خيالية؛ لأنها كذلك فعلاً؛ إنها قصص خيالية حقاً. لقد قرّرت الخروج في الليل لأرى ما سأجده. سأترك هذه الرسالة على الطاولة في المطعم العسكري. لقد نقشت اسمكِ وعنوانكِ عليها بحربتي حتى يعرف أولئك الذين سيعثرون عليها ما يجب أن يفعلوه بها.

حبيبك أوريا

القسم الخامس

بوابة جنز بلكز. 12 آذار 2000

"مرحباً، هذا المجيب الآلي لإيلين وهيلج. اترك رسالة من فضلك".

"مرحباً إيلين، أنا هاري. كما تلاحظين أنا ثمل وأعتذر عن هذا الأمر. حقًّا. لكن، لو كنت صاحياً، لما كنت سأتصل بك الآن على الأرجح. أنا واثق من أنكِ تعرفين هذا. ذهبت إلى مسرح الجريمة اليوم. كنت ممدة على ظهرك فوق الثلج إلى جانب درب على طول أكرسلفا. عثر عليك زوجان شابان في طريقهما إلى المرقص في بلا بعد منتصف الليل. سبب الوفاة: إصابات خطرة في الجزء الأمامي من الدماغ نتيجة ضربات عنيفة بواسطة أداة مثلّمة. لقد ضُربتِ أيضاً على مؤخر رأسك، وأُصبتِ بثلاثة كسور في الجمجمة، بالإضافة إلى تهشّم عظم الركبة اليسرى. وهناك رضّات تشير إلى تلقيك ضربة على كتفك اليمنى. نفترض أن القاتل استعمل الأداة نفسها لإحداث كل الإصابات. حدّد الطبيب بليكس وقت الوفاة بين الحادية عشرة والثانية عشرة ليلاً. بدوت... أنا... انتظري لحظة.

آسف. حسناً، وجدت وحدة شعبة الجريمة نحو عشرين نوعاً مختلفاً من آثار الأحذية على الثلج، بالإضافة إلى آثار زوج من الأحذية إلى جانبك. لكن الأخيرة مُحيت، ربما بقصد طمس الأدلّة. لم يتقدم أي شاهد حتى الآن، لكننا نقوم بجولاتنا المعتادة في الحي. تطلّ عدّة منازل على الدرب، لهذا يظن كريبوس أن هناك فرصة بأن يكون أحد السكان قد شاهد شيئاً. شخصياً، أظن أن الفرص معدومة. كما تعرفين كانت هناك إعادة لحلقة من رحلة روبنسون على التلفاز السويدي بين الساعة 11:15 و12:15. إنها دعابة. أحاول أن أكون مضحكاً، هل تسمعين ذلك؟ أوه، نعم، وجدنا قبعة سوداء على بعد عدّة أمتار عن المكان الذي كنت ممدة فيه. كانت هناك بقع دم عليها. إذا كان الدم الموجود عليها دمك، فقد تكون القبعة للقاتل. لقد أرسلنا الدم إلى المختبر ليُحلَّل، والقبعةُ في مختبر الطب الشرعي حيث يفحصونها بحثاً عن جزيئات شعر أو جلد. إذا لم يكن الرجل يفقد شعره، فأنا آمل أن يكون مصاباً بالقشرة. ها، ها. أنت لم تنسي إكمان وفرايسن، أليس كذلك؟ لم أحصل على مزيدٍ من الأدلّة بعد. لكن، أخبريني إذا استنتجت شيئاً. هل هناك شيء آخر؟ نعم. لقد وجد هيلج بيتاً جديداً، إنه يقيم معي. أعرف أن هذا تغيير إلى الأسوأ، لكن هذا من أجلنا جميعاً يا إيلين. باستثنائك أنتِ. سأتناول الآن شراباً آخر، وأفكّر ملياً في ما حصل".

بوابة جنز بلكز. 13 آذار 2000

"مرحباً، هذا المجيب الآلي لإيلين وهيلج. اترك رسالة من فضلك".

"مرحباً، أنا هاري مجدداً. لم أذهب إلى العمل اليوم، لكن على أي حال اتصلت بالطبيب بليكس. أنا سعيد لأنني أستطيع إبلاغك أنك لم تتعرضي لاعتداء جنسي، وأن كل مقتنياتك الدنيوية، وفقاً لما نعرفه، لم تُمس. هذا يعني أنه ليس لدينا دافع، بالرغم من أنّه ربّما كانت هناك أسباب دفعت القاتل إلى عدم إنهاء ما كان ينوي القيام به، أو لم يستطع القيام به. قال شاهدان اليوم إنكِ شوهدت خارج فراو هاغن. سُجلت دفعة من بطاقتك عند الساعة 22:55 في 7 إيلفن في ماركفين. كان صديقك كيم في المخفر طوال اليوم لاستجوابه. قال إنكِ كنت في طريقك إليه وقد طلب منكِ شراء بعض لفائف التبغ له. لاحظ أحد رجال كريبوس أنكِ قد اشتريت نوعاً مختلفاً عن ذاك الذي يدخّنه صديقك. فضلاً على ذلك، لم تكن لدى صديقك حجة غياب. آسف يا إيلين، لكنه في الوقت الراهن المشتبه به الرئيس.

بالمناسبة، لقد استقبلت زائرة تُدعى راكيل وتعمل في الاستخبارات السرية. عرّجت لترى حالي، كما قالت. جلستْ هنا لبعض الوقت، رغم أننا لم نقل الكثير، ثم غادرت. لا أظن أن اللقاء كان جيداً.

هيلج يرسل إليك تحياته".

بوابة جنز بلكز. 15 آذار 2000

"مرحباً، هذا المجيب الآلي لإيلين وهيلج. اترك رسالة من فضلك".

"لقد دفنوكِ اليوم. لم أكن هناك. لم أكن في أفضل حالٍ اليوم؛ لهذا بدلاً من ذلك فكّرت فيك في شرودر. صعدت إلى السيارة عند الساعة الثامنة من مساء أمس، وقدتها إلى هوملنكولفن. لم تكن فكرة جيدة. كان لدى راكيل زائر، وهو الرجل نفسه الذي كنت قد رأيته من قبل. قدّم نفسه على أنه يشغل منصباً أو آخر في وزارة الشؤون الخارجية، ومنحني انطباعاً بأنه في زيارة عمل هناك. أظن أنه كان يدعى براندهوغ. لم تبدُ راكيل سعيدة جداً باستقباله، لكن ربما كان ذلك ما أشعر به أنا فقط؛ ولهذا غادرت المكان قبل أن يصبح الوضع محرجاً جداً. أصرّت راكيل على أن أستقل سيارة أجرة. لكن، عندما أنظر الآن إلى خارج النافذة يمكنني رؤية الإسكورت متوقفة في الشارع؛ لهذا يبدو أنني لم آخذ بنصيحتها.

الأمور، كما تعلمين، مضطربة قليلاً الآن، لكنني ذهبت على الأقل إلى متجر الحيوانات الأليفة؛ لشراء بعض البذور للطائر. اقترحت عليّ السيّدة هناك أن أختار حبوب تريل، وذلك ما ابتعته".

بوابة جنز بلكز. 16 آذار 2000

"مرحباً، هذا المجيب الآلي لإيلين وهيلج. اترك رسالة من فضلك".

"ذهبت اليوم في نزهة إلى ريكتيت، وهي مثل شرورد تقريباً. هناك، على الأقل لا ينظرون إليك شزراً حين تطلب شراباً مع وجبة الفطور. جلست إلى طاولة مع رجل عجوز، واستطعت بعد معاناة تبادل أطراف الحديث معه. سألته ماذا لديه ضد إيفن جوول؟ نظر إليّ مستفسراً لوقت طويل، وكان واضحاً أنه لم يعرفني من المرة السابقة التي كنت فيها هناك. لكن، بعد أن اشتريت له شراباً سمعت القصة كلها. كان الرجل العجوز قد قاتل على الجبهة الشرقية - كنت قد خمّنت ذلك سلفاً - وهو يعرف سيغني، زوجة جوول، منذ أن كانت تعمل ممرضة هناك. كانت قد تطوّعت بعد أن خطبها أحد الجنود في فوج نورج. تجاهلها جوول حين وُجدت مذنبة بتهمة الخيانة في العام 1945. حُكم عليها بالسجن لمدّة سنتين، لكن والد جوول، الذي كان يشغل منصباً مرموقاً في الحزب الاشتراكي، عمل على إطلاق سراحها بعد عدّة شهور فقط. عندما سألت الرجل العجوز لماذا أزعجه ذلك كثيراً، تمتم أن جوول ليس صالحاً كما يبدو. كانت تلك بالضبط الكلمة التي استخدمها: صالحاً. قال إن جوول مثل كل المؤرخين الآخرين؛ حيث كتب أساطير عن النرويج في أثناء الحرب بالطريقة التي أراد المنتصرون تقديمها بها. لم يستطع الرجل تذكّر اسم خطيبها الأول، وقال فقط إنه كان بطلاً بالنسبة إلى الآخرين في الفوج.

ذهبت بعد ذلك إلى العمل. عرّج كورت ميريك لرؤيتي، لكنه لم يقل شيئاً. اتصلت ببياريي مولر، وأخبرني أن هناك أربعة وثلاثين اسماً على اللائحة التي طلبتُها. هل الرجال الصلعان أكثر ميلاً إلى العنف؟ على أيّ حال، كلّف مولر ضابطاً بالقضية؛ لإجراء الاتصالات، والتثبّت من أماكن وجود هؤلاء لخفض عددهم. أرى في التقرير الأوّلي أن توم والر قد أقلّك إلى المنزل في سيارته، وأنه حين أوصلك عند الساعة 22:15 كنت في حالة ذهنية هادئة. وقال أيضاً إنكِ تكلمت عن أشياء عادية. بالرغم من ذلك، عندما تركت لي رسالة عند الساعة 22:16 وفقاً لتيلينور - بكلمات أخرى حينما دخلتِ من الباب - كنت متحمسة جداً لأنك التقطت طرف الخيط. أظن أن هذا أمر غريب، لكن مولر لم يوافقني الرّأي. ربما كنت مُخطئاً فحسب.

اتصلي بي قريباً يا إيلين".

بوابة جنز بلكز. 17 آذار 2000

"مرحباً، هذا المجيب الآلي لإيلين وهيلج. اترك رسالة من فضلك".

"لم أذهب اليوم إلى العمل. فالحرارة عشرون درجة تحت الصفر في الخارج، وأدفأ من ذلك بقليل في الشقة. كان الهاتف يرنّ طوال اليوم، وعندما قرّرت أخيراً أن أجيب، كان الطبيب أون. إنه رجل طيب، بالرغم من أنّه عالم نفس. وعلى الأقل، إنّه لا يتصرف وكأنه أقل ارتباكاً من بقيتنا في ما يتعلق بما يدور في أذهاننا. حجة أون القديمة هي أنّ الكابوس يبدأ حين ينتهي مفعول الشراب؛ ممّا يشكل تحذيراً رائعاً، لكنها ليست صحيحة بالضرورة. دُهش لأنني كنت صاحياً تقريباً هذه المرة. كل شيء نسبي. تكلم أون أيضاً عن عالم النفس الأميركي الذي اكتشف أن الحياة التي نعيشها وراثية إلى حدٍّ ما. عندما ننغمس في دور الآباء، تبدأ حياتنا تشبه حياتهم. أصبح والدي منعزلاً بعد وفاة والدتي، ويخشى أون أن أصبح الآن كذلك؛ بسبب بعض التجارب القاسية التي واجهتها: حادثة إطلاق النار في فيندرن كما تعرفين، وفي سيدني، والآن هذه. لقد أخبرتكِ عن حياتي، لكنني ضحكت حين أخبرني الطبيب أون أن هيلج، العصفور الرائع، كان يمنعني من مواصلة حياتي. كما قلت، أون رجل طيب، لكن يجب أن يتوقف عن قول كل تلك الأشياء النفسية.

اتصلت براكيل، وطلبت منها الخروج معي. قالت إنها ستفكّر في الأمر وتتصل بي مجدداً. لا أعرف لماذا أفعل ذلك بنفسي؟".

بوابة جنز بلكز. 18 آذار 2000

"هذا إعلان من تيلينور؛ الرقم الذي طلبته لم يعد موجوداً في الخدمة. هذا إعلان من تيلينور؛ الرقم...".

القسم السادس

مكتب مولر. 25 نيسان 2000

كان أوّل اضطراب فصليّ يحدث في شهر نيسان؛ إذ لم تبدأ المياه بالجري في المزاريب والقرقرة حتى نهاية آذار. وبحلول نيسان كان الثلج كله قد اختفى حتى سوغنسفان. لكن، كان على الربيع أن يتراجع بعد ذلك. فقد هطل الثلج غزيراً، وتكدّس في أكوام كبيرة، حتى في وسط المدينة، وانقضت أسابيع قبل أن تُذيبه الشمس مجدداً. ظهر روث الكلاب والنفايات النتنة من السنة الماضية في الشوارع، وازدادت سرعة الريح في المساحات المكشوفة في غرونلاندسليرت، وبجانب غاليري أوسلو، وأثارت الغبار، وجعلت الناس يفركون عيونهم ويبصقون. كان حديث أهل البلدة يتمحور حول الأم العازبة التي ستصبح ملكة يوماً ما، وبطولة كرة القدم الأوروبية، والطقس غير المعتاد. أمّا في مقر قيادة الشرطة، فقد تحدّث الناس عمّا فعلوه في الفصح، وعن الزيادة البائسة على الراتب، ثم تابعوا عملهم وكأن شيئاً لم يتغير.

لم يكن كل شيء كسابق عهده.

جلس هاري في مكتبه واضعاً قدميه على الطاولة، وهو ينظر إلى الخارج؛ إلى النهار الصحو، والسيدات المتقاعدات اللواتي اعتمرن قبعاتهن البشعة، وخرجن من بيوتهنّ وشغلن الرصيف كله، وشاحنات التوصيل التي كانت تتحرك وفقاً لإشارات المرور الضوئية، وإلى كل التفاصيل الصغيرة التي تمنح البلدة مظهرها الزائف المعتاد. كان يتساءل عن ذلك لبعض الوقت. هل هو الوحيد الذي لا يمكن خداعه؟ انقضت ستة أسابيع منذ أن دفنوا إيلين. لكن، عندما نظر إلى الخارج، لم يرَ أي تغيير.

سمع قرعاً على الباب. لم يتفوّه هاري بكلمة، لكنه فُتح على أيّ حال. كان رئيس شعبة الجريمة بيارني مولر.

"سمعت أنك عدت".

شاهد هاري إحدى الحافلات الحمراء تتهادى عند موقف. كان الإعلان الملصق على جانب الحافلة يخص ستوربراند للتأمين على الحياة.

سأل: "هل يمكنك أن تخبرني أيها المدير لماذا يسمّون هذا التأمين تأميناً على الحياة في حين أنهم يقصدون بكل وضوح أنّه تأمين موت؟".

تنهّد مولر وجثم على طرف مكتبه.

"لماذا لم تضع كرسياً إضافياً هنا يا هاري؟".

"إذا لم يجلس الناس، فسيدخلون في صلب الموضوع بسرعة أكبر". كان

لا يزال يحدّق إلى خارج النافذة.

"افتقدناك في الجنازة يا هاري".

قال هاري لنفسه أكثر من مولر: "لقد غيّرت ملابسي. أنا واثق من أنني كنت في طريقي إلى هناك أيضاً. وعندما رفعت بصري، ورأيت التجمّع البائس حولي، فكّرت للحظة في أنني قد وصلت، حتى رأيت ماجا تقف هناك وهي تضع مئزرها وتنتظر طلبي".

"أظن أن الأمر كان على ذلك النحو".

تجوّل كلب في أرجاء الساحة البنية، وهو يدس خطمه في التراب، ويرفع ذيله في الهواء. على الأقل هناك كائن يقدّر الربيع في أوسلو.

سأل مولر: "إذاً، ماذا حدث؟ لم نرك منذ بعض الوقت".

هزّ هاري كتفيه.

"كنت مشغولاً. لديّ مستأجر جديد. إنّه قرقفٌ رائع ذو جناح واحد، وجلست أصغي السمع إلى رسائل قديمة على المجيب الآلي. تبيّن أن كل الرسائل التي وُجّهت إليّ في السنتين الماضيتين يمكن أن توضع في شريط مدته ثلاثون دقيقة، وكلها من إيلين. إنه أمر محزن، أليس كذلك؟ حسناً، ربما ليس محزناً جداً. الشيء المحزن الوحيد هو أنني لم أكن في المنزل حين اتصلت للمرة الأخيرة. هل كنت تعرف أن إيلين قد وجدته؟".

استدار هاري؛ ليواجه مولر للمرة الأولى منذ أن دخل هذا الأخير مكتبه.

"أنت تتذكر إيلين، أليس كذلك؟".

تنهّد مولر.

"جميعنا نتذكر إيلين يا هاري، وأتذكر الرسالة التي تركتها لك على مجيبك الآلي، وقد أخبرت كريبوس أنك تظن أنها إشارة إلى الوسيط في صفقة أسلحة. وإذا كنا لم نستطع القبض على قاتل إيلين، فهذا لا يعني أننا قد نسيناها يا هاري. عمل كريبوس وشعبة الجريمة على القضية لأسابيع، ولم ننم في أثنائها جيداً. لو أنك جئت إلى المكتب، لكنت رأيت الجهد الذي نبذله في عملنا".

ندم مولر مباشرة لقوله ذلك، وقال: "لم أعنِ...".

"بلى، عنيت ذلك. وبالطبع أنت محق".

مرّر هاري يده على وجهه.

"استمعت في الليلة الماضية إلى إحدى رسائلها. ليست لدي فكرة لماذا اتصلت. كانت الرسالة ممتلئة بنصائح عن أشياء ظنّت أنني يجب أن

أتناولها، وانتهت بتذكيري بضرورة تغذية طيور صغيرة، والقيام بتمارين الاسترخاء بعد التدريب، وأن أتذكر إكمان وفرايزن. هل تعرف من هما إكمان وفرايزن؟".

كرّر مولر هزّ رأسِه.

"إنهما عالما نفس كانا قد اكتشفا أنك عندما تبتسم تطلق عضلات الوجه بعض التفاعلات الكيميائية في دماغك، مما يجعلك تنظر بإيجابية أكبر إلى العالم من حولك، وتقتنع أكثر بوجودك. ما فعلاه كان إثبات القول القديم المأثور، وهو أنك إذا ابتسمت للعالم، فإن العالم كله سيبتسم لك. جعلتني أصدّق ذلك لبعض الوقت".

رفع بصره إلى مولر.

"إنّه أمرٌ مؤسف أليس كذلك؟".

"مؤسف جداً".

ابتسما وجلسا من دون أن ينبسا ببنت شفة.

"أرى من وجهك أنك قد جئت لتخبرني شيئاً أيها المدير. ما هو؟".

قفز مولر عن الطاولة، وبدأ يمشي في الغرفة.

"انخفض عدد المشتبه فيهم في اللائحة من أربعة وثلاثين رجلاً أصلع إلى اثني عشر رجلاً؛ وذلك بعد أن توثّقنا من حجج غيابهم".

"حسناً".

"استطعنا تحديد فصيلة دم صاحب القبعة من اختبارات الحمض النووي الريبي التي أجريناها على جزيئات الجلد التي عثرنا عليها. أربعة من الرجال المشتبه فيهم لديهم فصيلة الدم نفسها. أخذنا عينات دم من هؤلاء الأربعة وأرسلناها لتحليل الحمض النووي الريبي، وجاءت النتائج اليوم".

"و؟".

"لا شيء".

أطبق الصمت على المكتب. كل ما كان مسموعاً هو صوت حذاء مولر المطاطيّ الذي أصدر صريراً خافتاً في كل مرة كان يدور فيها على عقبيه.

سأل هاري: "وهل نحّى كريبوس جانباً احتمال أن يكون حبيب إيلين قد فعل ذلك؟".

"فحصنا حمضه النووي الريبي أيضاً".

"إذاً، فقد عدنا إلى حيث بدأنا؟".

"تقريباً، نعم".

نظر هاري إلى النافذة مجدداً. طار سرب من طيور السُمنة عن شجرة دردار كبيرة، وحلّق غرباً نحو فندق بلازا.

قال هاري: "ربما كان القصد من القبعة تضليلنا؟ لا يبدو منطقياً لي أن يفقد رجلٌ لم يترك أي آثار أخرى، وأخفى آثار حذائه قبعته على بعد بضعة أمتار من الضحية".

"ربما. لكن الدم على القبعة هو دم إيلين، وقد توثّقنا من ذلك".

أثارت عودة الكلب، وشّمه المسلك نفسه اهتمام هاري. توقف لحظة واحدة وسطَ الساحة تقريباً، وأنفه على الأرض حائراً، قبل أن يتخذ قراراً، ويذهب إلى اليسار ويختفي عن البصر.

قال هاري: "يجب أن نتابع أمر القبعة، بالإضافة إلى الإدانات. تفقّد أمر أي شخص حُقّق معه، أو اتُّهم بالاعتداء في السنوات العشر الماضية، ضمن أكرشوس أيضاً. وتأكّد من أن...".

"هاري...".

"ما الأمر؟".

"أنت لم تعد تعمل في شعبة الجريمة الآن. وعلى أيّ حال، كريبوس يتولى التحقيق. وأنت تطلب مني أن أزعجهم".

لم ينبس هاري ببنت شفة، وأومأ فقط ببطء. كانت نظرته ثابتة على مكان ما في إكبرغ.

"هاري".

"هل فكّرت يوماً في أنك يجب أن تكون في مكان آخر أيها المدير؟ أعني، انظر فحسب إلى هذا الربيع المزري".

توقف مولر عن المشي، وابتسم.

"بما أنك قد سألت، لقد فكّرت دائماً في أن بيرغن مدينة رائعة ليعيش المرء فيها؛ من أجل الأطفال وما إلى ذلك. أنت تعرف هذا".

"لكنك ستبقى شرطياً، أليس كذلك؟".

"طبعاً".

"لأن أشخاصاً مثلنا لا يجيدون القيام بشيء آخر، أليس كذلك؟".

أعاد مولر كتفيه إلى الخلف. "ربما لا".

"لكن إيلين كانت تجيد القيام بأمور أخرى. ظننت دائماً أن عملها مع الشرطة هدر للموارد البشرية. إلقاء القبض على نساء ورجال أشرار كافٍ لأشخاص مثلنا؛ لكن ليس لها. هل تعرف ما أعنيه؟".

توجّه مولر إلى النافذة، ووقف إلى جانب هاري.

قال: "سيصبح الوضع أفضل في أيار".

قال هاري: "حسناً".

دقّت الساعة في دار عبادة غرونلاند، معلنة أنّ الساعة قد أصبحت الثانية من بعد الظهر.

قال مولر: "سأرى إن كنت أستطيع جعل هالفورسن يعمل على القضية".

وزارة الشؤون الخارجية. 27 نيسان 2000

كانت تجربة برنت براندهوغ الطويلة مع النساء، والمتنوعة قد علّمته أنه في حالات نادرة هناك امرأة لا يريدها فقط، وإنما يجب أن يحصل عليها، وذلك لأحد الأسباب الأربعة الآتية: لأنها أكثر جمالاً من كل الأخريات، أو لأنها أرضته جسدياً أكثر من نساء أخريات، أو جعلته يشعر بأنه رجل أكثر من أي امرأة أخرى، أو لأنها تريد شخصاً آخر.

كان براندهوغ قد أدرك أن راكيل فوك من ذلك النوع من النساء. اتصل بها في أحد أيام كانون الثاني بذريعة الحاجة إلى تقويم ملحق عسكري جديد في السفارة الروسية في أوسلو. كانت قد أخبرته أنها تستطيع إرسال مذكرة، لكنه أصرّ على أن يحصل ذلك وجهاً لوجه. ونظراً إلى أن الوقت كان بعد ظهر يوم الجمعة، فقد اقترح أن يلتقيا لتناول كأسٍ من الشراب في مشرب كونتيننتال. كانت تلك هي الطريقة التي اكتشف بها أنها أم عازبة. فهي لم تقبل الدعوة، وقالت إن عليها جلب ابنها من الروضة، حينها سألها بذكاء: "أفترض أن امرأة في مثل عمرك لديها رجل يتولى مثل هذه الأمور؟".

بالرغم من أنها لم ترد بجوابٍ مباشرٍ، إلا أنه استنتج من إجابتها أنه لا يوجد رجل في حياتها.

عندما أنهى المكالمة كان سعيداً عموماً بما اكتشفه، بالرغم من انزعاجه قليلاً من قوله: في مثل عمرك، فلقد شدّد على فرق العمر بينهما.

كان الشيء الآخر الذي فعله هو الاتصال بكورت ميريك، والحصول منه بحرص على معلومات بشأن الآنسة فوك. في الحقيقة، لم يكن حريصاً جداً، وشمّ ميريك رائحة نتنة لم تزعجه إطلاقاً.

كان ميريك واسع الإطلاع كعادته، ويعرف أن راكيل قد عملت مترجمة في قسم براندهوغ لمدة سنتين في السفارة النرويجية في موسكو. كانت قد تزوجت روسياً؛ أستاذاً شاباً مختصاً بالجينات الوراثية، والذي شُغِفت به حباً وحوّل النظرية مباشرة إلى تطبيق بجعلها حاملاً. على أيّ حال، كان الأستاذ قد ولد بجينة تجعله عُرضة للإدمان على الشراب، بالإضافة إلى تفضيله النقاش الجسدي؛ ولهذا كانت سعادتهما الزوجية قصيرة. لم تكرّر راكيل فوك الخطأ الذي اقترفته كثيرات من أخواتها. فهي لم تنتظر، أو تسامح، أو تحاول أن تفهم، وإنما خرجت من الباب وأوليغ بين ذارعيها في اللحظة التي تلقّت فيها أول ضربة. كان زوجها وأفراد أسرته واسعة النفوذ نسبياً

قد تقدّموا بطلب لحضانة أوليغ، ولولا حصانتها الدبلوماسية ما كانت لتنجح في مغادرة روسيا مع ابنها.

عندما كان ميريك يخبره أن زوجها قد رفع دعوى ضدها، تذكّر براندهوغ على نحو مبهم مذكرة استدعاء من محكمة روسية مرّت عبر بريده، لكنها في ذلك الوقت لم تكن سوى مترجِمة، وقد انتدب شخصاً لتسوية القضية، من دون أن يسجل ملاحظة ذهنية باسمها. عندما ذكر ميريك أن قضية الحضانة لا تزال موضوع تجاذب بين السلطات الروسية والنرويجية، أنهى براندهوغ الحديث فجأة، واتصل بالقسم القانوني.

كان اتصاله التالي براكيل بهدف دعوتها إلى العشاء، وليس بحجة شيء آخر. وبعد رفضها اللطيف، لكن الحازم، أملى رسالة موجهة إليها وموقعةً من رئيس القسم القانوني. أخبرتها الرسالة، باختصار شديد، أن وزارة الشؤون الخارجية تحاول الآن، بعد أن استغرقت القضية وقتاً طويلاً، الوصول إلى حل وسط مع السلطات الروسية بشأن الحضانة "لاعتبارات إنسانية؛ من أجل أسرة أوليغ الروسية". كان ذلك سيتطلب من راكيل وأوليغ المثول أمام محكمة روسية، واستئناف الحكم الصادر بحقهما.

اتصلت راكيل بعد أربعة أيام ببراندهوغ، وطلبت لقاءه بشأن قضية خاصة. فأجابها أنه مشغول، وكان ذلك صحيحاً، وطلب تأجيل اللقاء بضعة أسابيع. وعندما توسّلت إليه، وفي نبرتها الهادئة والمهذّبة أثر صوتٍ حادٍّ، لكي يكون اللقاء في أسرع وقت ممكن، اكتشف بعد تفكير مطوّل أن اللقاء عند الساعة السادسة من يوم الجمعة في مشرب كونتيننتال هو الخيار الوحيد. عندما أصبحا هناك، طلب لهما شراباً، بينما كانت تشرح مشكلتها التي افْتُرِض أنها حاجة أمومة بيولوجية ماسّة. أومأ كثيراً، وبذل قصارى جهده؛ ليعبّر عن تعاطفه بعينيه، وتجرأ أخيراً على أن يضع يده على نحو أبوي فوق يديها. فزعت، لكنه مضى في ذلك وكأن شيئاً لم يكن، وأخبرها أنه لسوء الحظ ليس في موقع يمكّنه من تجاوز قرارات رئيس قسم. ووعدها بأنّه سيفعل كل ما في وسعه لمنع مثولها أمام محكمة روسية. شدّد أيضاً - وفي ذهنه النفوذ السياسي لأسرة طليقها - على أنه يشاطرها القلق من أن يصدر حكم المحكمة الروسية ضدها. جلس هناك، وهو يحّدق إلى عينيها البنيتين المليئتين بالدموع مفتوناً، وبدا له أنه لم يرَ قطّ شيئاً يفوق جمالها. بالرغم من ذلك، عندما اقترح تمديد اللقاء ليتناولا العشاء في المطعم، شكرته وانصرفت. كان ما تبقى من الأمسية التي أمضاها برفقة كأس من الشراب، وهو يشاهد التلفاز، خيبة أمل.

اتصل براندهوغ في صباح اليوم اللاحق بالسفير الروسي، وقال له إن وزارة الخارجية النرويجية تجري نقاشاً داخلياً في قضية حضانة أوليغ فوك غوسيف. وطلب منه أن يرسل له مذكرة يضمّنها ما تطلبه السلطات الروسية في هذه القضية. لم يكن السفير قد سمع بذلك من قبل، لكنه وعد بأن يوافق على طلب رئيس المكتب الخارجي، وأن يبعث أيضاً رسالة تتضمن استدعاءً عاجلاً. وصلت الرسالة التي تطلب من راكيل وأوليغ المثول أمام محكمة روسية بعد أسبوع. أرسل براندهوغ مباشرة نسخة إلى القسم القانوني، وأخرى إلى راكيل فوك. هذه المرّة، اتصلت به راكيل في اليوم اللاحق. وبعد الإصغاء إليها قال براندهوغ إنه سيخالف سلوكه الدبلوماسي إن حاول التأثير في القضية، وأنه لا يُفترض بهما على أيّ حال مناقشة ذلك عبر الهاتف.

قال: "كما تعرفين، لم أنجب أطفالاً بعد. لكن، من الطريقة التي تصفين بها أوليغ، يبدو صبياً رائعاً".

شرعت تقول: "إذا التقيته، فسوف...".

"لن تكون هذه مشكلة. رأيت مصادفة في المراسلات أنكِ تعيشين في هولمنكولفن، وهي على بعد رمية حجر من نوردبرغ".

لاحظ التردّد في سكوتها، لكنه شعر بأنّ الرياح تجري بما تشتهي سفنه.

"ما رأيك باللقاء عند الساعة التاسعة من مساء غد؟".

أطبق صمت طويل قبل أن ترد: "لا يكون فتى في السادسة من العمر مستيقظاً عند الساعة التاسعة".

وهكذا، اتفقا على اللقاء عند الساعة السادسة بدلاً من ذلك. كانت عينا أوليغ بنيتين مثل عيني والدته، وكان طفلاً مؤدباً. على أيّ حال، انزعج براندهوغ لأنّ الأم لم تتكلم إلا في قضية استدعاء المحكمة، ولأنها لم ترسل أوليغ إلى السرير. نعم، كان بمقدور المرء أن يشك أيضاً في أنها كانت تضع الصبي هناك على الأريكة كضمانة. عرف براندهوغ، أخيراً، أن روما لن تُبنى في يوم واحد، لكنه ظلّ يحاول بالرغم من ذلك حين وقف ليغادر المنزل. أمعن النظر إلى عينيها وقال: "أنتِ لست امرأة جميلة فقط يا راكيل، بل أنت امرأة شجاعة أيضاً. أودّ أن تعرفي أنني أنظر إليك بتقدير كبير".

لم يكن واثقاً كيف يفسّر تعبير وجهها، لكنه خاطر على أيّ حال، وانحنى إلى الأمام ليطبع قبلة على خدّها. كان ردّ فعلها متناقضاً؛ فقد

ابتسم فمه وشكرته على المجاملة، لكن عينيها كانتا باردتين حين أضافت: "أعتذر عن تأخيرك يا سيد براندهوغ. لا بدّ من أن زوجتك تنتظرك".

* * *

كانت دعوته واضحة جداً، وقرّر منحها بضعة أيام ليعرف ردّ فعلها، لكنه لم يتلقَ اتصالاً من راكيل فوك. ومن ناحية أخرى، وعلى نحو غير متوقع، جاءت بالفعل رسالة من السفارة الروسية تطلب جواباً، وأدرك براندهوغ أن استفساره قد نفخ حياة جديدة في قضية أوليغ فوك غوسيف. كان ذلك أمراً مؤسفاً، لكنه حدث فعلاً ولم يرَ سبباً يجعله لا ينتهز الفرصة. لذا، اتصل براكيل مباشرة في الاستخبارات السرية، وأبلغها بآخر التطورات في القضية.

وجد نفسه، بعد عدّة أسابيع لاحقة، في المنزل الخشبي في هولمنكولفن، الذي كان أكبر من داره وأكثر كآبة. كانا وحدهما. بدت أكثر راحة بصحبته في تلك المرة. وبالإضافة إلى ذلك، كان قد جعل الحديث يتخذ مساراً أكثر خصوصية، حتى لا يبدو كلامه خارج السياق حين يذكر مدى أفلاطونية العلاقة بينه وبين زوجته، ومدى أهمية أن ينسى المرء عقله أحياناً ويصغي إلى جسده وقلبه. ثم رنّ جرس الباب، وقاطعهما على نحو غير مرغوب فيه. ذهبت راكيل لتفتح، وعادت مع رجل طويل، حليق الرأس تقريباً، وعيناه محتقنتان. قدّمته إليه بصفة زميل من الاستخبارات السرية. كان براندهوغ قد سمع بالتأكيد الاسم من قبل، لكنه لم يتذكّر أين، وفي أي سياق. شعر مباشرة بكره لكل ما يمت إليه بصلة. كره مقاطعته إياهما، وحقيقة أن الرجل كان ثملاً، وأنه جلس على الأريكة وحدّق إليه، مثل أوليغ، من دون أن ينطق بكلمة. لكنّ أكثر ما كرهه كان التغيير الذي طرأ على راكيل، التي أشرق وجهها، وهُرعت لتحضير القهوة، وضحكت بحيوية على إجابات هذا الرجل المقتضبة، التي كانت تتكوّن من كلمات أحادية المقطع وكأنها تضم حكماً مأثورة. كان هناك اهتمام كبير في صوتها حين رفضت السماح له بقيادة سيارته في طريق عودته إلى المنزل. كانت الميزة الإيجابية الوحيدة التي رآها براندهوغ في الرجل هي أنه مضى في سبيله فجأة، وسمعا مباشرة بعد ذلك محرك سيارته يدور، مما يعني بالطبع أنه كان يتحلى بكرم أخلاق ليقتل نفسه. كان الضرر الذي ألحقه بالغاً. على أيّ حال، لم يمضِ وقت طويل حتى كان براندهوغ جالساً في سيارته، وفي طريقه إلى المنزل. خطرت له نظريته القديمة آنذاك؛ وهي أنّ هناك أربعة أسباب محتملة تجعل الرجل يقرّر أن

عليه أن يحظى بامرأة؛ وأهمها على الإطلاق أن يعرف أنها تريد شخصاً آخر.

عندما اتصل بكورت ميريك في اليوم اللاحق ليسأل عن الشرطي الطويل حليق الرأس تقريباً، أصيب بدهشة كبيرة في البداية، ثم بدأ يضحك؛ لأنه كان الشخص نفسه الذي اقترح ترقيته ونقله إلى الاستخبارات السرية. كانت تلك مشيئة القدر، لكن القدر موضوع مناسب أيضاً لمشاورات وزارة الشؤون الخارجية النرويجية الملكية. عندما أغلق براندهوغ السمّاعة، كانت معنوياته أفضل. مشى بخطوات واسعة في الأروقة إلى الاجتماع التالي، وهو يصفر في الطريق، ووصل إلى قاعة المؤتمرات في أقل من سبعين ثانية.

مقر قيادة الشرطة. 27 نيسان 2000

وقف هاري عند مدخل مكتبه القديم، وهو ينظر إلى شاب أشقر الشعر يجلس على كرسي إيلين. كان الشابّ يركز كثيراً على شاشة الحاسوب، ولم يلحظ هاري حتى سعل.

"إذاً، أنت هالفورسن، أليس كذلك؟".

قال الشاب وتعبير فضولي يبدو على وجهه: "نعم".

"من مخفر الشرطة في ستينكير؟".

"هذا صحيح".

"أنا هاري هول. كنت أجلس حيث تجلس أنت الآن، لكن على الكرسي الآخر".

"إنه بالٍ".

ابتسم هاري. "لطالما كان بالياً. طلب منك بيارني مولر التأكّد من بعض التفاصيل المتعلّقة بقضية إيلين غيلتن؟".

استغرب هالفورسن، واحتجّ قائلاً: "بعض التفاصيل! لقد كنت أعمل من دون توقف طوال ثلاثة أيام".

جلس هاري على مقعده القديم، الذي كان قد نُقل إلى طاولة إيلين. كانت تلك أول مرة يرى فيها كيف يبدو المكتب من زاويتها.

"ماذا وجدت يا هالفورسن؟".

عبس هالفورسن.

قال هاري: "لا تقلق. كنت أنا من طلب هذه المعلومات. اتّصل بمولر لتتأكّد من هذا الأمر، إذا أردت".

أشرق وجه هالفورسن فجأة.

"طبعاً! أنت هول من الاستخبارات السرية! آسف، كنت بطيئاً قليلاً في فهم ذلك". ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهه الطفولي. "أتذكر القضية في أستراليا. كم مضى عليها الآن؟".

"بعض الوقت. كما قلت...".

"أوه نعم، اللائحة!". قلّب كومة من الأوراق المطبوعة بأنامله. "هؤلاء هم كل الأشخاص الذين اعتقلوا، أو اتُّهموا، أو أُدينوا في قضايا اعتداء في السنوات العشر الأخيرة. يوجد أكثر من ألف اسم. كان ذلك الجزء سهلاً، لكن المشكلة تكمن في تحديد من منهم حليق الرأس. فليس هناك ذكر لذلك في هذه المعلومات، وقد يستغرق الأمر أسابيع...".

استرخى هاري على كرسيه، وأرجع ظهره إلى الخلف.

"أعرف، لكن السجلات الإجرامية تتضمن رموزاً للأسلحة المستخدمة. ابحث عن رموز الأسلحة النارية، وانظر كم اسم يبقى لديك".

"في الواقع، كنت سأقترح ذلك على مولر حين رأيت عدد الأسماء الكبير. استخدم معظمهم سكاكين، أو بنادق، أو يديه. ستكون اللائحة الجديدة جاهزة بعد بضع ساعات".

وقف هاري.

قال: "لا بأس. لا أتذكر رقمي الداخلي، لكنك ستجده على اللائحة التي تتضمّن أرقام الهاتف. في المرة القادمة التي يكون لديك فيها اقتراح جيد، لا تتردّد في تقديمه؛ لسنا أذكياء جداً هنا في أوسلو".

ضحك هالفورسن بصوتٍ خافتٍ، وهو خجل قليلاً.

الاستخبارات السرية. 2 أيار 2000

كان المطر يهطل بغزارة طوال الصباح، قبل أن تظهر الشمس ساطعة على نحو غير متوقع. وبطرفة عين، انقشعت كل الغيوم. كان هاري يجلس وقدماه على الطاولة، ويداه خلف رأسه، وهو يخدع نفسه بمحاولة التفكير في بندقية ماركلين، لكن أفكاره كانت قد هامت خارج النافذة؛ على طول الشوارع المغسولة حديثاً والعبقة برائحة الدفء، وعلى الإسفلت الرطب، وخطوط الترام إلى قمة هولمنكولن، وإلى الثلج الرمادي المتسخ الذي لا يزال موجوداً في ظل غابة الصنوبر، حيث جرى مع راكيل وأوليغ على الدروب الطينية؛ لتفادي حفر الماء العميقة. كانت لدى هاري ذكريات مبهمة عن الذهاب في نزهات مماثلة يوم الأحد، حتى حين كان في مثل عمر أوليغ. في ذلك الوقت، إذا كانت النزهات طويلة، وتأخر مع شقيقته في الخلف، كان والدهما يضع قطعاً من الشوكولاته على الأغصان المنخفضة. وكانت شقيقته مقتنعة بأن ألواح الشوكولاته تنمو على الأشجار.

لم يكن أوليغ قد تكلم كثيراً مع هاري في المرتين الأوليين اللتين زارهما فيهما، لكنه لم يجد غضاضة في الأمر. لم يكن هاري يعرف ما يقوله لأوليغ أيضاً. كان شعورهما بعدم الراحة قد خفّ قليلاً حين اكتشف هاري أن لديه لعبة تيتريس في جهاز غيم بوي. كان هاري قد لعب بكل قوته، من دون رحمة أو خجل، وتغلب على الفتى البالغ من العمر ست سنوات بما يزيد على 40,000 نقطة. وبعد ذلك، بدأ أوليغ يسأل هاري عن أشياء متنوعة؛ عن سبب كون الثلج أبيض اللون، وعن كل الأمور الأخرى التي تجعل التجاعيد تظهر على جباه الرجال الراشدين، وتجعلهم يركّزون بقوة، ولا يشعرون بالحرج من شيء. كان أوليغ قد رأى يوم الأحد الماضي أرنباً بريّةً مكسوّة بفرائها الشتوي، فجرى أمامهما، وترك هاري يمسك يد راكيل. كان الجو بارداً في الخارج، ودافئاً داخل المنزل. كانت قد أدارت رأسها وابتسمت له وهي ترفع ذراعيها عالياً، وتؤرجحهما إلى الأمام والخلف؛ وكأنها تقول: نحن نلعب ألعاباً، وهذا ليس حقيقياً. كان قد لاحظ أنها تتوتر حين يقترب أشخاص منهما، لذا أفلت يدها. شربوا بعد ذلك الكاكاو على منحدرات فروغنر، وقد سأل أوليغ حينها: "لماذا الوقت ربيع؟".

كان قد دعا راكيل للمرة الثانية، لتناول وجبة خارج المنزل. ففي المرة الأولى التي دعاها فيها قالت له إنها ستفكّر في الأمر، واتصلت به لاحقاً لتخبره برفضها. وقالت في المرة الثانية أيضاً إنها ستفكّر في الأمر، لكنها على

الأقل لم ترفض بعد.

رنّ الهاتف. كان هالفورسن هو المتصل، وبدا نعساً.

قال: "تحقّقت من الأمر. هناك 70 من بين 110 أشخاص يُشتبه في استخدامهم سلاحاً في قضايا اعتداء. ولقد وجدت، إلى الآن، ثمانية من حليقي الرؤوس".

"كيف اكتشفت ذلك؟".

"اتصلت بهم. إنّه أمر مدهش كيف أن كثيراً منهم يكونون في منازلهم عند الساعة الرابعة صباحاً".

ضحك هالفورسن قليلاً حين صمت هاري.

سأل هاري: "هل اتصلت بكل واحدٍ منهم؟".

قال هالفورسن: "طبعاً، اتصلت بهم في منازلهم، أو بأرقام هواتفهم الخلوية. مدهش عدد...".

قاطعه هاري: "وسألت هؤلاء المجرمين العنيفين إذا كانوا لا يمانعون تقديم وصف حديث لأنفسهم إلى رجال الشرطة؟".

قال هالفورسن: "ليس بالضبط. قلت إننا نبحث عن مشتبه فيه شعره أحمر وطويل، وسألتهم إن كانوا قد صبغوا شعرهم مؤخّراً".

"لا أفهمك!".

"إذا كنت قد حلقت شعرك، فبمَ ستجيب؟".

قال هاري: "حسناً. من الواضح أن هناك بعض الأشخاص البارعين في ستينكير".

سمع هاري الضحكة العصبية نفسها.

قال هاري: "أرسل إليّ لائحة بواسطة الفاكس".

"ستحصل عليها عندما أعود".

"تعود؟".

"كان أحد الضباط ينتظرني حين دخلت. أراد رؤية الملاحظات المتعلّقة بالقضية التي كنت أعمل عليها. لا بدّ من أن الأمر عاجل".

قال هاري: "ظننت أن كريبوس يعمل على قضية غيلتن الآن".

"من الواضح أنه ليس كذلك".

"من هو؟".

قال هالفورسن: "أظن أنه يدعى وال، أو شيئاً من هذا القبيل".

"ليس هناك أحد يدعى وال في شعبة الجريمة. هل تعني والر؟".

قال هالفورسن: "هذا هو". وأضاف وهو خجل قليلاً: "هناك الكثير من

الأسماء الجديدة الآن...".

شعر هاري أن عليه أن يوبّخ الشرطي الشاب؛ لتسليمه مواد القضية إلى أشخاص لا يكاد يعرف أسماءهم، لكن الوقت لم يكن مناسباً لفعل ذلك. كان الشاب قد بقي مستيقظاً ثلاث ليالٍ متتالية، وهو على الأرجح مرهق ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه.

قال هاري: "أحسنت عملاً". وكان على وشك أن يغلق السمّاعة.

"انتظر، أحتاج إلى رقم الفاكس الخاصّ بك؟".

حدّق هاري إلى خارج النافذة. كانت السحب قد بدأت تتجمع فوق قمة إكبرغ مجدداً.

قال: "ستجده في اللائحة التي تتضمّن أرقام الهاتف".

رنّ الهاتف مجدّداً ما إن وضع السمّاعة في مكانها. كان ميريك هو المتصل، وطلب منه المجيء إلى مكتبه فوراً.

سأل ميريك ما إن رأى هاري واقفاً عند المدخل: "كيف يجري الأمر مع التقرير عن النازيين الجدد؟".

قال هاري وهو يغوص في الكرسي: "على نحو سيئ". كان ملك النرويج وملكته يحدّقان إليه من الصورة المعلّقة على الجدار فوق رأس ميريك.

أضاف هاري: "لقد علق حرف إي في لوحة مفاتيحي".

أرغم ميريك نفسه على الابتسام، مثل الرجل في الصورة، وطلب من هاري أن ينسى التقرير في ذلك الوقت.

"أريد منك فعل شيء آخر. لقد اتصل بنا رئيس قسم المعلومات في نقابة العمّال؛ فلقد تلقى نصف قادة نقابة العمّال تهديدات بالقتل اليوم. إنّها موقّعة 88، وهي شكل مختصر لهايل هتلر. إنها ليست المرة الأولى. لكن الخبر تسرّب إلى الصحافة، وقد بدأوا يتصلون بنا. استطعنا اقتفاء أثر تهديدات القتل إلى جهاز فاكس عام في كليبان؛ ولهذا السبب يجب أن نأخذها على محمل الجد".

"كليبان؟".

"إنّها مكان صغير على بعد ثلاثة أميال من هلسينغبورغ. يعيش فيها ستة عشر ألف نسمة، وهي أسوأ أوكار النازيين في السويد. ستجد أُسراً هناك أفرادها نازيون أباً عن جد منذ الثلاثينيات. يذهب بعض النازيين النرويجيين الجدد إلى هناك في رحلات؛ ليشاهدوا ويتعلّموا. أريد منك أن تحزم حقيبة كبيرة يا هاري".

شعر هاري بهاجسٍ غير سار.

"سنرسلك إلى هناك لتعمل متخفّياً يا هاري. يجب أن تتسلل إلى الشبكة المحلية. ستصلك تفاصيل المهمة، والهوية، وأشياء أخرى تباعاً. استعد للبقاء هناك لبعض الوقت. لقد جهّز لك زملاؤنا السويديون مكاناً لتقيم فيه".

كرّر هاري: "مهمة سرّية". لم يكن يصدّق أذنيه. "لا أعرف شيئاً عن التجسس يا ميريك. أنا محقق، أم أنك نسيت؟".

كانت ابتسامة ميريك قد اضمحلت. "ستتعلم سريعاً يا هاري، هذه ليست مشكلة. انظر إليها على أنها تجربة مفيدة وممتعة".

"همم. كم سيطول الأمر؟".

"بضعة شهور، ستة كحدٍّ أقصى".

صرخ هاري: "ستة؟".

"كن واقعياً يا هاري. ليست لديك علاقات أسرية، ولا...".

"من غيري في الفريق؟".

هزّ ميريك رأسه. "لا يوجد فريق، أنت وحدك. سيكون الأمر أكثر واقعية بتلك الطريقة. وستقدّم تقاريرك إليّ مباشرة".

حكّ هاري ذقنه.

"لماذا أنا يا ميريك؟ لديك قسم كامل من الخبراء في التسلل واليمين المتطرّف".

"هناك دائماً أول مرة".

"وماذا عن بندقية ماركلين؟ لقد اقتفينا أثرها حتّى وصلنا إلى نازي عجوز، وهناك الآن تلك التهديدات الموقعة هايل هتلر. أليس من الأفضل أن أتابع عملي هنا...؟".

"لقد قرّرت يا هاري". لم يزعج ميريك نفسه في محاولة الابتسام.

كان هناك شيء ما، واستطاع هاري أن يشم رائحة كريهة، لكنه لم يعرف ماهيتها، أو من أين تأتي. وقف ميريك وفعل الشيء نفسه.

قال ميريك: "ستغادر بعد عطلة نهاية الأسبوع". ومدّ يده.

خطر لهاري أن هذا شيء غريب يفعله ميريك. وبدا أن الفكرة نفسها جالت في ذهن ميريك في تلك اللحظة أيضاً. كان هناك وعي ذاتي ظهر على تعبير وجهه، لكن الأوان كان قد فات. بقيت اليد في الهواء، مبسوطة، بأصابعها الممدودة، فصافحه هاري بسرعة؛ ليتغلب على الموقف المحرج.

عندما كان هاري يجتاز ليندا في قاعة الاستقبال، صرخت أن هناك فاكساً له في صندوق بريده، فأخذه في طريقه. إنها لائحة هالفورسن. مرت

عيناه على لائحة الأسماء فيما كان يمشي مجهداً في الرواق، ويحاول اكتشاف أي من أجزائه سيستفيد من الاختلاط لمدة ستة شهور مع نازيين جدد في جحرٍ جنوبي السويد؛ ليس الجزء الذي كان يحاول البقاء صاحياً بالتأكيد، ولا الجزء الذي كان ينتظر رد راكيل على دعوته إياها إلى العشاء.
وبالتأكيد ليس الجزء الذي يحاول العثور على قاتل إيلين. توقف عن متابعة السير.

الاسم الأخير...

لم يكن هناك سبب لكي يتفاجأ من ظهور معارف قدامى في اللائحة، لكن هذا الأخير كان مختلفاً. كان ذلك هو الصوت الذي سمعه بعد أن نظّف سميث أند ويسون الخاص به، ثم أعاد تركيبه. الطقطقة الخافتة التي أخبرته أن كل شيء جاهز.

ذهب إلى مكتبه واتصل بهالفورسن هاتفياً في ثوانٍ. سجّل هالفورسن أسئلته، ووعده بأن يتصل به حينما يجد شيئاً.

استرخى هاري إلى الخلف، وكان بمقدوره سماع قلبه يخفق. كقاعدة، لم تكن تلك إحدى نقاط قوته؛ أي أن يجمع أجزاء صغيرة من معلومات ليس بينها خصائص مشتركة. لا بدّ من أن تلك كانت لحظة إلهام. عندما اتصل هالفورسن بعد ربع ساعة، انتاب هاري شعور بأنّه كان ينتظر منذ ساعات.

قال هالفورسن: "هذا صحيح. أحد آثار الأحذية التي عثرت عليها وحدة فحص مسرح الجريمة على الدرب، كان لحذاء عسكري قياس 45. استطاعوا تحديد النوع؛ لأن الحذاء الذي أحدث هذا الأثر جديد".

"وهل تعرف من ينتعل أحذية عسكرية؟".

"أوه، نعم، إنها معتمدة من الناتو. قلّة من الناس يطلبونها، خاصة في ستينكير. لقد رأيت عدداً من مشاغبي كرة القدم الإنكليز أولئك ينتعلونها أيضاً".

"هذا صحيح. حليقو الرؤوس، وفتيان الأحذية (حركة شبابية مناهضة للهيبيين)، والنازيون الجدد هم من يفعلون ذلك. هل عثرت على أي صور؟".

"لقد حصلت على أربعٍ صور. اثنتان منهما من ورشة جالية أكر، والأخريان من عرضٍ خارج بليتز - مركز الشباب - في العام 1992".

"هل يعتمر قبعة في أي منها؟".

"نعم، في الصورة الملتقطة في أكر".

"هل هي قبعة عسكرية؟".

"دعني أرى".

استطاع هاري سماع أنفاس هالفورسن عبر سمّاعة الهاتف. تضرّع هاري صامتاً أن يكون مُحقًّا.

قال هالفورسن: "تبدو مثل قلنسوة مسطحة ليّنة".

سأل هاري من دون أن يحاول إخفاء خيبة أمله: "هل أنت واثق؟".

كان هالفورسن واثقاً تماماً، وأطلق هاري لعنة بصوتٍ عالٍ.

اقترح هالفورسن بحذر: "ربما يمكننا الاستفادة من الحذاء؟".

"سيكون القاتل قد رمى الحذاء بعيداً الآن إن لم يكن أحمقَ. وتشير حقيقة طمسه الآثار على الثلج إلى أنه ليس كذلك".

كان هاري حائراً. انتابه ذلك الإحساس مجدداً، ذلك اليقين بأنه يعرف القاتل، وأدرك أن الأمر خطر؛ لأنه يجعلك ترفض الشكوك المزعجة، والأصوات الصغيرة التي تهمس بالمتناقضات، وتخبرك أن الصورة ليست كاملة بالرغم من كل شيء. الشكوك مثل شتاء بارد، ولا يحب المرء الشتاء البارد حين يكون قريباً من القبض على قاتل. نعم، لقد كان هاري موقناً من قبل، وقد تبيّن أنه كان على خطإ.

"يشتري ضباط في ستينكير أحذية عسكرية من أميركا مباشرة؛ لهذا لا توجد أماكن كثيرة تبيعها. وإذا كانت تلك الأحذية جديدة تقريباً...".

فهم هاري مباشرة ما يرمي إليه هالفورسن.

"جيد يا هالفورسن! اعثر على من يخزّنها. ابدأ بمتاجر التجهيزات العسكرية، واذهب بعد ذلك في جولة، واعرض الصور، واسأل إن كان أحدٌ يتذكر أنه باع زوجاً من الأحذية".

"هاري... حسناً...".

"نعم، أعرف. سأناقش مولر في ذلك أولاً".

كان هاري يعرف أن فرص العثور على بائع يتذكّر كل الزبائن الذين باعهم أحذية ضئيلة. كانت تلك الفرص، بالطبع، أفضل قليلاً حين يكون هناك وشم سيج هايل (التحيّة النازيّة) على أعناق هؤلاء الزبائن. لكن، على أيّ حال، قد يعرف هالفورسن أيضاً أن 90 بالمئة من كل تحقيقات الجرائم تجري في أماكن خاطئة. أنهى هاري المكالمة واتصل بمولر. أصغى رئيس شعبة الجريمة إلى كل حججه، وحين أنهى هاري كلامه تنحنح.

قال: "جيد أن أسمع أنك ووالر قد اتفقتما أخيراً على شيء".

"آه!".

"لقد اتصل بي قبل نصف ساعة، وقال بالضبط الشيء نفسه الذي قلته الآن. ولقد منحته الإذن لجلب سفير أولسن للاستجواب".

"واو!".

"بالتأكيد".

لم يكن هاري واثقاً ممّا يجب أن يفعله. ولهذا عندما سأله مولر إن كان لديه شيء آخر يود قوله، تمتم مع السلامة وأغلق السمّاعة. حدّق إلى خارج النافذة. كانت ساعة الازدحام قد بدأت في بوابة شفايغاردس. رأى رجلاً يرتدي معطفاً رمادياً، ويعتمر قبعة قديمة الطراز، وراقبه وهو يمشي ببطء حتى أصبح خارج مرمى بصره. شعر هاري أن نبضه قد عاد إلى طبيعته تقريباً. كليبان. كان قد نسي تقريباً، لكنه تذكّرها مثل شخص ثمل. تساءل: هل يجب أن يتصل برقم راكيل الداخلي؟ لكنه نبذ الفكرة مباشرة. ثم حدث شيء غريب.

في طرف مجال رؤيته، خارج النافذة، لفتت حركة انتباهه. في البداية، لم يتمكّن من تحديدها واستطاع فقط رؤية شيء يقترب بسرعة. فتح فمه، لكن الكلمة، أو الصرخة، أو أي صوت كان دماغه يحاول أن يحثّه على إصداره، لم يخرج قطّ من بين شفتيه. كان هناك صوت مكتوم وخافت، واهتز زجاج النافذة قليلاً، فيما جلس هاري وهو يحدّق إلى بقعة رطبة علقت فيها ريشة تتحرك مع نسيم الربيع. في البداية، لم يتحرك، غير أنّه سرعان ما أمسك سترته وانطلق مسرعاً نحو المصعد.

كروكليفين، بجرك. 2 أيار 2000

رفع سفير أولسن صوت المذياع، وقلّب ببطء صفحات أحدث عدد من مجلة النساء الخاصة بوالدته، وهو يستمع إلى المذيع الذي كان يتكلم عن رسائل التهديد التي كان قادة نقابة العمال قد تلقّوها. كان الماء لا يزال يسيل في المزراب، فوق نافذة غرفة المعيشة مباشرة. ضحك سفير أولسن، فقد بدت التهديدات مثل أحد أعداد روي كفينست، وتمنّى ألا تكون هناك أخطاء إملائية كثيرة هذه المرة.

نظر إلى ساعته. ستكون الطاولات في هربرت مشغولة بعد ظهر هذا اليوم. كان مفلساً تماماً، لكنه كان قد أصلح المكنسة الكهربائية القديمة هذا الأسبوع؛ لهذا ربما لن تمانع أمه إقراضه بعض المال. تباً للأمير! كان قد مضى أسبوعان آنذاك منذ أن وعده الأمير بأنّه سيحصل على ماله في غضون بضعة أيام. كان بضعة رجال يدين لهم بالمال قد بدأوا يتكلمون معه بنبرة وعيد غير سارة، وأسوأ ما في الأمر أن شخصاً آخر قد احتل طاولته في هربرت للبيتزا. لقد مضى وقت طويل منذ الغارة على دينيس للكباب.

كان قد شعر في آخر مرة ذهب فيها إلى هربرت برغبة لا تُقاوم في الوقوف والصراخ؛ ليخبر الجميع أنّه الرجل الذي قتل الشرطية في غرونرلوكا. كان الدم قد تناثر بعد أن ضربها للمرة الأخيرة. لقد ماتت وهي تصرخ. لم تكن هناك ضرورة ليضيف أنه لم يكن يعرف أنها شرطية، أو أن منظر الدم كاد أن يجعله يتقيأ.

تباً للأمير! لقد كان يعرف طوال الوقت أنها شرطية.

كان سفير يستحق المال الذي وعده به الأمير. ولا أحد يستطيع قول شيء مختلف. لكن، ماذا عساه يفعل؟ منعه الأمير من الاتصال به بعد ما حدث، من باب الحيطة والحذر، حتى تهدأ الضجة تماماً.

صرّت مفصلات البوابة في الخارج. نهض سفير على قدميه، وأوقف عمل المذياع، ثم أسرع إلى الردهة. سمع في طريق صعوده السلالمَ وقع خطوات والدته على الحصى، ثم أصبح في غرفته، وسمع صوت مفاتيحها وهي تفتح باب المنزل. عندما كانت تبحث عن شيء ما في الطابق الأرضي، وقف وسطَ غرفته، وأمعن النظر إلى نفسه في المرآة. مرّر يده على فروة رأسه، وأحس بالشعيرات التي يبلغ طولها ميليمتراً واحداً تحكُّ أصابعه مثل فرشاة. كان قد اتخذ قراره؛ حتى إذا حصل على ما وُعِد به من مال

فسيجد لنفسه عملاً. كان منزعجاً من البقاء في المنزل. وليكون صادقاً، كان منزعجاً من الرفاق في هربرت أيضاً، ويشعر بالملل من مرافقة أشخاص لا يفعلون شيئاً. كان قد أنهى دورة التيار المنخفض في الكلية الفنية، وهو بارعٌ في إصلاح الأدوات الإلكترونية، وهناك الكثير من الكهربائيين الذين يحتاجون إلى متمرنين ومساعدين. سينمو شعره خلال بضعة أسابيع ليغطي وشم سيج هايل في مؤخر رأسه.

شعره، نعم. تذكر فجأة الاتصال الهاتفي الذي كان قد تلقّاه في أثناء الليل من شرطي يتكلم بلكنة تروندهايم، والذي سأله عن الشعر الأحمر! عندما استيقظ سفير في الصباح كان يعتقد أنه حُلم، حتى سألته والدته في أثناء تناول الفطور: "أي شخص هو ذاك الذي يتصل عند الساعة الرابعة صباحاً؟!".

نقل سفير تركيزه من المرآة إلى الجدران: صورة الفوهرر، وملصقات عربات بورزوم، والعلم الذي رُسِم عليه الصليب المعقوف، ورمز النصارى الدينيّ، وملصق دم وشرف الذي كان نسخة عن إعلان جوزيف غوبلز القديم؛ كانت هذه هي المرة الأولى التي يفكّر فيها في أن غرفته تبدو مثل غرفة صبي صغير. إذا استبدلت وشاح مانشستر يونايتيد براية مقاومة الآري الأبيض السويدي، وصورة ديفيد بيكهام بصورة هاينريش هيملر، فستظن أنها غرفة مراهق.

"سفير!". كانت والدته.

أغمض عينيه.

"سفير!".

لن يتخلص من ذلك. لن يتخلص من ذلك أبداً.

"نعم!". صرخ بصوتٍ عالٍ جداً، حتى صُمَّت أذناه.

"يوجد شخص هنا يريد أن يتحدث إليك".

هنا؟ يتحدّث إليّ؟ فتح سفير عينيه مجدداً، وحدّق إلى نفسه في المرآة محتاراً. لا أحد يأتي إلى هنا. ووفقاً لما يعرفه، لا أحد يعرف أين يعيش. بدأ قلبه يخفق بسرعة. هل يعقل أنه ذلك الشرطي الذي يتكلم بلكنة تروندهايم مجدداً؟

كان يمشي نحو باب غرفة نومه حين فُتِح.

"مرحباً يا أولسن".

كانت شمس الربيع منخفضة، وكانت أشعتها تلمع عبر النافذة على الأرضية؛ لهذا لم يرَ إلا ظلاً يملأ المدخل، لكنه كان يعرف ذلك الصوت

جيداً.

قال الأمير وهو يغلق الباب خلفه: "ألست سعيداً لرؤيتي؟".

نظر إلى الجدران بفضول. "يا له من مكان تعيش فيه هنا!".

"لماذا سمحَت لك...؟".

"أريت والدتك هذه". ولوّح الأمير ببطاقة عليها شعار نرويجي ذهبي على خلفية زرقاء فاتحة، وقد كُتِب على جانبها الآخر شرطة.

قال سفير بازدراء: "أوه، تباً! هل هذا حقيقيّ؟".

"من يعرف؟ اهدأ يا أولسن، واجلس".

أشار الأمير إلى السرير، وجلس على كرسي بعد أن أداره بالاتجاه المعاكس.

سأل سفير: "ماذا تفعل هنا؟".

"ماذا تظن؟". ابتسم والر ابتسامة عريضة لسفير الذي كان يجلس على حافة السرير. "إنّه يوم الحساب".

"يوم الحساب؟".

لم يكن سفير قد تمالك نفسه تماماً. كيف عرف الأمير المكان الذي يعيش فيه؟ إنّه يحمل بطاقة تعريف الشرطة! نظر إليه، وخطر لسفير أن الأمير قد يكون ببساطة شرطياً. فشعره المصفف جيداً، وعيناه الباردتان، ووجهه الذي لفحته الشمس حتى أضحى بني اللون، وجسده الرياضي، وسترته القصيرة المصنوعة من جلدٍ أسود طري، وبنطاله الجينز الأزرق؛ كلّها تشير إلى إمكانية أن يكون من رجال الشرطة. غريبٌ أنه لم يكن قد لاحظ ذلك من قبل.

قال الأمير وهو لا يزال يبتسم: "نعم. لقد حل يوم الحساب". ثمّ سحب مغلّفاً من جيبه الداخلي وقدّمه إلى سفير.

قال سفير، وابتسامة عصبية عابرة ترتسم على وجهه، وأصابعه تطبق على المغلّف: "في الوقت المناسب". سأل وهو يسحب أوراقاً مطوية من قياس أيه 4: "ما هذه؟".

"هذه لائحة تضمّ أسماء ثمانية أشخاص ستزورهم شعبة الجريمة قريباً، وستأخذ منهم بالتأكيد عينات دم؛ لإجراء اختبار الحمض النووي الريبي عليها، واكتشاف ما إن كانت تتطابق مع جزيئات الجلد التي وجدوها على قبعتك في مسرح الجريمة".

"قبعتي؟! قلت إنك قد وجدتها في سيارتك وأحرقتها؟".

حدّق إليه سفير مرعوباً، فيما كان الأمير يهزّ رأسه آسفاً.

"يبدو أنني عدت إلى مسرح الجريمة. كان هناك زوجان شابان خائفان جداً، وينتظران الشرطة. لا بدّ من أنني أضعت القبعة حين وقعت على الثلج على بعد بضعة أمتار عن الجثة".

مرّر سفير كلتا يديه على رأسه عدّة مرات.

"تبدو مرتبكاً يا أولسن؟".

أومأ سفير وحاول أن يبتسم، لكنّ طرفي فمه لم يطيعاه كما يبدو.

"هل تريد مني أن أشرح؟".

أومأ سفير مجدداً.

"عندما يُقتل ضابط شرطة تحظى القضية بأولوية قصوى حتى يُلقى القبض على القاتل، مهما استغرق ذلك من وقت. هذا ليس مكتوباً في أي كتيب تعليمات. لكن، عندما تكون الضحية واحدة منا، لا أحد يطرح أسئلة عن الموارد. تلك هي المشكلة لدى قتل ضباط الشرطة؛ إذ لا يستسلم المحققون ببساطة حتى..."، وأشار إلى سفير ثمّ تابع: "يعثروا على المجرم. إنها مسألة وقت فقط؛ لهذا قمت بتقديم يد العون للمحققين؛ حتى لا يكون وقت الانتظار طويلاً جداً".

"لكن...".

"قد تتساءل لماذا ساعدت رجال الشرطة على العثور عليك، بالرغم من أنك ستبلغ عني. سأخبرك بالسبب؛ من أجل تخفيف مدة حكمك؟".

ابتلع سفير ريقه. حاول أن يفكّر، لكن ذلك كان كثيراً بالنسبة إليه، وبدا كل شيء مشوشاً.

قال الأمير وهو يمرر إصبعه على رمز النصارى الدينيّ المقلّد الذي يتدلى من مسمار على الجدار: "أفهم أن هذه مشكلة عسيرة، ويصعب حلّها. بالطبع، كان بمقدوري أن أقتلك بعد تنفيذك الجريمة مباشرة، لكن الشرطة كانت ستعرف أنك كنت برفقة شخص آخر، وأنكما تحاولان تغطية آثاركما، وستستمر في عملية البحث".

نزع السلسلة عن المسمار ثم وضعها حول عنقه، فوق سترته الجلدية.

"كان البديل الآخر هو أن أحل لغز الجريمة بطريقتي الخاصة، وأطلق عليك الرصاص في أثناء القبض عليك، وأجعل الأمر يبدو وكأنك قاومت الاعتقال. المشكلة في ذلك هي أن قيام شخص واحد بحل قضية ما بمفرده قد يثير الشبهات. فقد يبدأ الناس بالتفكير؛ خاصة أنني كنت آخر شخص يرى إيلين غيلتن حيّة".

توقف عن الكلام وضحك.

"لا تبدو خائفاً جداً يا أولسن! أقول لك إن هذه بدائل رفضتها. ما فعلته هو الجلوس على الخط الجانبي، والاطلاع على تقدم القضية، ومراقبتهم وهم يقتربون منك. كانت الخطة تقضي دائماً بأن أتدخل حين يقتربون، وأن أتولى زمام الأمور، وأقوم بالعمل الأخير بنفسي. بالمناسبة، هناك ضابط محتال في الاستخبارات السرية قد اقتفى أثرك".

"هل أنت... شرطي؟".

"هل يناسبني هذا؟". كان الأمير يشير إلى رمز النصارى الدينيّ. "لا، تباً لذلك! أنا جندي مثلك. يجب أن يكون للسفينة حاجز يمنع نفوذ الماء إليها، وإلا سيؤدي أقل تسرب إلى غرقها. هل تعرف ما يعنيه كشف هويتي لك؟".

كان فم سفير وحنجرته جافين تماماً، ولم يعد بمقدوره أن يبتلع ريقه. كان خائفاً على حياته.

"هذا يعني أنني لا أستطيع أن أتركك تغادر هذه الغرفة حياً. هل تفهم؟".

"نعم". كان صوت سفير أجشّ. "ما... مالي...".

وضع الأمير يده داخل سترته وأخرج مسدساً.

"لا تتحرك".

مشى إلى السرير، وجلس إلى جانب سفير، وهو يحمل المسدس بكلتا يديه، ويصوّبه باتّجاه الباب.

"هذا غلوك، أفضل مسدس في العالم. أُرسل إليّ من ألمانيا أمس. لقد أُزيل رقم التصنيع، وقيمته السوقية نحو ثمانية آلاف كرون. فلتعتبره دفعة أولى".

قفز سفير حين أطلق والر رصاصة أحدثت فرقعة، وحدّق بعينين متسعتين إلى الثقب الصغير في أعلى الباب. تحرك الغبار في شريط ضوء الشمس الذي دخل من الثقب في الباب إلى الغرفة مثل شعاع الليزر.

قال الأمير وهو يُلقي المسدس في حجره: "تحسّسه". ثم وقف وذهب إلى الباب. "أمسكه بإحكام. تسديد ممتاز، أليس كذلك؟".

كوّر سفير أصابعه بتردد حول مقبض المسدس. شعر بأنه يتعرّق داخل قميصه التائي. هناك ثقب في السقف. كان ذلك كل ما استطاع التفكير فيه. لقد أحدثت الرصاصة التي انطلقت من المسدس ثقباً جديداً، ولم يكن بمقدورهما توظيف بنّاء لإصلاح الضرر. ثم حدث ما كان يتوقّعه. أغمض عينيه.

"سفير!".

يبدو صوتها وكأنها تغرق. قبض على المسدس بقوة. تبدو دائماً وكأنها تغرق. ثم فتح عينيه مجدداً، ورأى الأمير يذهب نحو الباب بحركة بطيئة. رفع كلتا ذراعيه، وكان يحمل مسدس سميث أند ويسون أسود لامعاً.

"سفير!".

خرجت شرارة صفراء من ماسورة المسدس. كان بمقدوره رؤيتها وهي تقف على عتبة السلالم، ثم أصابته الرصاصة التي ثقبت أعلى جبينه، وخرجت من مؤخر رأسه وأخذت معها هايل من وشم سيج هايل، ثم اخترقت الدعامة الخشبية في الجدار عبر المادة العازلة، واستقرّت خلف اللوحة المعزولة بالإسمنت المقوّى على الجدار الخارجي. كان سفير أولسن ميتاً في ذلك الوقت.

كروكليفين. 2 أيار 2000

طلب هاري قهوة من شخص في وحدة مسرح الجريمة يحمل تِرْمُساً. كان يقف أمام المنزل الصغير والقبيح في كروكليفين في بجرك، ويحدّق إلى ضابط شاب في أعلى السلّم وهو يعلّم الثقب في السقف؛ حيث كانت الرصاصة قد خرجت. بدأ مشاهدون فضوليون يتجمّعون، وقد أحاطت الشرطة المنطقةَ حول المنزل بشريط أصفر؛ من أجل سلامة التحقيق. كان ضوء شمس فترة ما بعد الظهر يغمر الرجل الواقف على السلّم، لكن المنزل يقع في حفرة من الأرض، والمكان حيث يقف هاري بارد.

سمع هاري صوتاً خلفه يسأل: "إذاً، وصلت بعد حدوث ذلك مباشرة؟". استدار هاري، ورأى بيارني مولر. كان ظهوره في مسرح الجريمة قد أصبح نادراً، لكن هاري سمع عدة أشخاص يقولون إنه كان محققاً بارعاً، واقترح بعضهم أن يُسمح له بالمتابعة. عرض عليه هاري كوب القهوة، لكن مولر هزّ رأسه.

قال هاري: "نعم، لا بدّ من أنني وصلت بعد أربع أو خمس دقائق من وقوع الحادثة. من أخبرك؟".

"مركز التنسيق الرئيس؛ قالوا إنك قد اتصلت وطلبت تعزيزات بعد أن أبلغ والر عن حادثة إطلاق النار".

أشار هاري برأسه نحو السيارة الرياضية الحمراء أمام البوابة.

"عندما وصلت رأيت سيارة والر اليابانية. أعرف أنه كان قادماً إلى هنا؛ لهذا لم أكترث كثيراً للأمر. لكن، عندما خرجت من سيارتي سمعت عويلاً فظيعاً. ظننت في البداية أنه صوت كلب في مكان ما في الحي، وعندما مشيت على طول الدرب المفروش بالحصى، عرفت أن الصوت يأتي من داخل المنزل، وأنه ليس صوت كلب، بل صوت إنسان. لذا، لم أخاطر، واتصلت بشرطة مقاطعة أوكرن لأطلب المساعدة".

"هل كانت الأم؟".

أومأ هاري. "كانت في حالة هستيرية تماماً. استغرق الأمر منهم نحو نصف ساعة قبل أن يجعلوها تهدأ وتقول شيئاً معقولاً. لا يزال ويبر يتكلم معها الآن، في غرفة المعيشة".

"ويبر العجوز الحساس والطيب؟".

"لا بأس به. إنه مزاجي قليلاً في العمل، لكنه بارع جداً في التعامل مع الناس في مثل هذه المواقف".

"أعرف، كنت أمزح فحسب. كيف يتقبّل والر الأمر؟".

هزّ هاري كتفيه.

قال مولر: "أعرف. إنه بارد الأحاسيس. لا بأس بذلك. هل ندخل ونُلقي نظرة؟".

"لقد كنت هناك".

"حسناً. إذاً، قُدني في جولة".

شقا طريقهما إلى الطابق الأول في حين كان مولر يحيّي زملاء لم يكن قد رآهم منذ وقت طويل.

كانت غرفة النوم ممتلئة بالمختصين من وحدة مسرح الجريمة، وآلات التصوير تومض. وكان غطاء من النايلون أسود - يبدو أن الجثّة تحته - يغطّي السرير.

ترك مولر بصره يجول على الجدران، ثمّ تمتم: "يا الله!".

قال هاري: "سفير أولسن لم يصوّت للاشتراكيين".

صرخ مفتش من الطب الشرعي يعرفه هاري: "لا تمسَّ شيئاً يا بياربي. تعرف ما حدث في المرّة الأخيرة".

كان من الواضح أن مولر يعرف، لكنه ضحك على أيّ حال.

قال هاري: "كان سفير أولسن يجلس على السرير حين دخل والر. قال والر إنه كان يقف إلى جانب الباب، وسأل أولسن عن الليلة التي لقيت فيها إيلين حتفها. تظاهر أولسن أنه لا يتذكّر التاريخ؛ لهذا طرح والر بضعة أسئلة أخرى، واتضح تدريجياً أن أولسن ليست لديه حجة غياب. قال والر إنه طلب من أولسن الذهاب معه إلى المخفر، والإدلاء بإفادته، وعندها سحب أولسن فجأة المسدس الذي كان يخفيه من دون شك تحت الوسادة، وأطلق النار. مرّت الرصاصة فوق كتفه واخترقت الباب، حيث يوجد الثقب هنا، ثم السقف في الردهة. ووفقاً لما قاله أيضاً، سحب مسدسه الرسمي وأصاب أولسن قبل أن يتمكّن من إطلاق أي رصاصات أخرى".

"هذا يعني أنّ ردّ فعله كان سريعاً وتصويبه كان دقيقاً أيضاً كما سمعت".

قال هاري: "إصابة في الجبين".

"هذا ليس غريباً. سجّل والر نتائج ممتازة في اختبار الرماية في الخريف الماضي".

قال هاري بجفاء: "أنت تنسى نتائجي".

صرخ مولر وهو يستدير إلى المفتش الذي يرتدي ملابس بيضاء: "كيف يسير الأمر يا رونالد؟".

"في منتهى السهولة، كما أظن". نهض المفتش وشدّ قامته وهو يئن. "وجدنا الرصاصة التي قتلت أولسن خلف اللوحة المعزولة بالإسمنت المقوّى هنا. تابعت الرصاصة التي ثقبت الباب سيرها واخترقت السقف أيضاً. يجب أن نرى إن كان بمقدورنا العثور عليها أيضاً حتى يكون لدى خبراء المقذوفات شيء يتسلّون به غداً. الزوايا مناسبة على أيّ حال".

"حسناً. شكراً".

"لا داعي للشكر. كيف حال زوجتك؟".

أخبره مولر عن حال زوجته، من دون أن يسأله عن زوجته. لكن، وفقاً لما كان هاري يعرفه، لم تكن لديه زوجة. كان أربعة من رجال الطب الشرعي قد انفصلوا عن زوجاتهم في الشهر نفسه من السنة الماضية، حيث تبادلوا دعابات في المطعم الداخلي بأنّ السبب كان من دون شك رائحة الجثث.

رأيا ويبر خارج المنزل. كان يقف هناك وحده، وهو يحمل كوب قهوة بيده، ويراقب الرجل الواقف على السلم.

سأل مولر: "هل الأمور بخير يا ويبر؟".

رمقهما ويبر بنظرة جانبية؛ وكأنه يجب عليه أن يتأكّد أولاً إن كان سيزعج نفسه بالإجابة عن السؤال.

قال وهو يحدّق نحو الأعلى مجدّداً إلى الرجل الواقف على السلم: "لن تكون هذه مشكلة. قالت بالطبع إنها لا تفهم الأمر؛ لأن ابنها يكره رؤية الدم وغير ذلك، لكننا لن نواجه أي مشكلات في ما يتعلق بالأحداث الحقيقية التي جرت هنا".

"آه". وضع مولر يده خلف مرفق هاري قائلاً: "لنمشِ قليلاً".

مشيا بخطوات واسعة على الطريق. كانت المنطقة مليئة بمنازل صغيرة، وحدائق صغيرة، ومبانٍ سكنية. تجاوزهما بعض الأطفال، وجوههم حمراء من الجهد الذي يبذلونه وهم يركبون على درّاجاتهم في طريقهم إلى سيارات الشرطة بأضوائها الزرقاء القوية. انتظر مولر حتى أصبحا خارج نطاق سمع الآخرين وقال: "لا تبدو سعيداً جداً بإلقاء القبض على قاتل إيلين".

"حسناً، هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة سعيد. أولاً، لا نعرف بعد إن كان القاتل سفير أولسن. اختبارات الحمض النووي الريبي...".

"ستثبت اختبارات الحمض النووي الريبي أنه هو. ما الأمر يا هاري؟".

"لا شيء أيها المدير".

توقف مولر، ثم سأله: "حقاً؟".

أشار مولر برأسه نحو المنزل.

"هل السبب أنّك تظن أن أولسن قد لقي مصرعه برصاصة سريعة؟".

قال هاري بحدّة مفاجئة: "أقول لك إنه لا يوجد شيء!".

صرخ مولر: "انطق بها!".

"أظن فحسب أن الأمر غريب جداً".

عبس مولر وسأله: "ما الغريب؟".

"شرطي يتمتع بالخبرة مثل والر...". كان هاري قد خفض صوته، وتكلم ببطء مشدّداً على كل كلمة. "... يقرّر أن يذهب بمفرده؛ ليتكلم مع مشتبه فيه، وربما يعتقله. هذا يخرق كل القوانين المكتوبة وغير المكتوبة".

"إذاً، ماذا تقول؟ أن توم والر افتعل ذلك؟ هل تظن أنه جعل أولسن يشهر مسدسه حتى يستطيع الانتقام لمقتل إيلين؟ أهذا ما تقصده؟ ألهذا السبب وقفت هناك وأنت تقول: قال والر هذا، وقال والر ذاك؛ وكأننا في الشرطة لا نثق بكلمات زميل؟! في حين كان نصف أفراد وحدة مسرح الجريمة يستمعون؟".

حدّقا إلى بعضهما. كان طول مولر بمثل طول هاري تقريباً.

قال هاري وهو يستدير مبتعداً: "أقول فحسب إن الأمر غريب جداً. هذا كل شيء".

"يكفي يا هاري! لا أعرف ما الذي جعلك تأتي إلى هنا خلف والر، وما إن كان الشكّ قد انتابك حول حصول شيء ما هنا، لكنني أعرف أنني لا أريد سماع المزيد عن الأمر. لا أريد سماع كلمة واحدة أخرى تلمح إلى أي شيء. هل هذا مفهوم؟".

استقر بصر هاري على منزل أسرة أولسن الأصفر. كان أصغر من المنازل الأخرى، ولا يوجد وشيع (سياج من شجيرات) عالٍ حوله مثل باقي البيوت في ذلك الشارع السكني الهادئ بعد الظهر. جعلت أسيجة الوشيع الأخرى ذلك المنزل البشع المغطّى بالإترنيت يبدو مكشوفاً، وبدا أن المنازل المجاورة تترفّع عنه. كانت هناك رائحة قوية لنارٍ مشتعلة تعبق في الهواء الطلق. وسُمِع صوتٌ رنّان بعيد لمعلّق من مضمار سباق الخيول في بجرك، قبل أن يختفي مع الريح.

هزّ هاري كتفيه.

"آسف. أنا... تعرف".

وضع مولر يده على كتفه.
"كانت الفضلى. أعرف ذلك يا هاري".

شرودر. 2 أيار 2000

كان الرجل العجوز يقرأ أفتنبوستن، ومستغرقاً تماماً في تفحّص نتائج سباقات الخيول حين أثار انتباهه وقوف النادلة إلى جانب طاولته.

قالت وهي تضع كأساً كبيرة أمامه: "مرحباً". لم يُجب، كالمعتاد، وراقبها فقط حين كانت تعدّ نقوده. لم يكن يعرف عمرها، لكنه خمّن أنها بين الخامسة والثلاثين والأربعين، وبدا أن السنين كانت قاسية جداً عليها مثل الزبائن الذين تخدمهم، لكن ابتسامتها كانت لطيفة. ابتعدت، فابتلع أول جرعة من شرابه؛ فيما كانت عيناه تجولان في المكان.

نظر إلى ساعته، ثم نهض وذهب إلى الهواتف المخصّصة للزبائن في مؤخر المكان، حيث وضع ثلاث قطع نقدية من فئة كرون، وطلب الرقم وانتظر. رُفعت السمّاعة بعد ثلاث رنّات.

"جوول".

"سيغني؟".

"نعم".

شعر من صوتها آنذاك أنها خائفة، وأنها تعرف من المتصل. كانت تلك هي المرة السادسة؛ لهذا ربما حفظت الأسلوب وعرفت أنه سيتصل اليوم.

قال: "أنا دانيال".

"من يتكلم؟ ماذا تعني؟". كانت تلهث بسرعة.

"لقد أخبرتك من قبل، أنا دانيال. أريد منك فقط أن تكرّري ما قلته قبل سنوات. هل تذكرين؟".

"توقف عن هذا رجاءً. دانيال ميت".

"حتى يفرّقنا الموت يا سيغني. حتى يفرّقنا الموت".

"سأتصل بالشرطة".

وضع السمّاعة، ثم ارتدى معطفه، واعتمر قبعته، وخرج ببطء إلى أشعة الشمس. كانت البراعم الأولى قد ظهرت في متنزه سانكثانشوغن. لن يطول الأمر الآن.

عشاء. 5 أيار 2000

طغت ضحكة راكيل على الغمغمة المتواصلة، وأصوات أدوات المائدة والنُدُل المشغولين في المطعم المزدحم.

قال هاري: "... انتابني الخوف حين رأيت الضوء يومض على المجيب الآلي؛ تعرفين تلك العين الصغيرة التي تومض. ثم سمعت صوتك الرصين".

خفض صوته فتحوّل إلى همس خافت.

"أنا راكيل. العشاء يوم الجمعة عند الساعة الثامنة. لا تنسَ، ارتدِ بذلة، واحمل محفظة جيب أنيقة. خاف هيلج كثيراً. كان يجب أن أمنحه عِرناسَيْ ذرة قبل أن يهدأ".

احتجّت راكيل بين نوبات الضحك: "أنا لم أقل هذا!".

"كان قولك مشابهاً لما قلته الآن".

"لا، لم يكن! وذلك خطؤك. إنها الرسالة التي تضعها على مجيبك الآلي".

حاولت أن تتكلم بالصوت المنخفض نفسه: "أنا هول. تكلم معي. هذا مثل... مثل...".

"يشبه هاري؟".

"بالضبط".

كان عشاءً رائعاً، وأمسية جميلة، وقد حان وقت إفسادها، كما فكّر هاري.

قال وهو يحرّك بعصبية كأسه المليئة بالمياه المعدنيّة: "لقد أصدر ميريك إليّ أوامر؛ يجب أن أذهب إلى السويد في مهمة سرّية. ستة شهور. سأغادر بعد عطلة نهاية الأسبوع".

"آه!".

أُصيب بالدهشة حين لم يرَ ردَّ فعل على وجهها.

تابع قائلاً: "اتصلت بشقيقتي ووالدي، وأخبرتهما في وقت مبكر اليوم. تكلم معي والدي، وتمنّى لي التوفيق".

"هذا لطيف". ارتسمت على وجهها ابتسامة عابرة، وشغلت نفسها بلائحة الحلويات.

قالت بصوتٍ خافت: "سيشتاق إليك أوليغ".

نظر إليها، لكنها لم تبادله النظرات.

سأل: "وماذا عنك؟".

ظهرت ابتسامة عابرة على وجهها.

قالت: "لديهم حلوى سيشوان بالموز".

"اطلبي طبقين".

قالت وهي تنقل بصرها إلى الصفحة الثانية في اللائحة: "سأشتاق إليك أنا أيضاً".

"كم؟".

هزّت كتفيها.

كرّر السؤال، وراقبها وهي تأخذ نفساً عميقاً. كانت على وشك أن تتكلم، لكنها أطلقت زفيراً، ثم شرعت في ذلك مجدداً، وفي النهاية قالت: "آسفة يا هاري. لكن، الآن لا يوجد مكان إلا لشخص واحد في حياتي. وهو رجل صغير في السادسة من عمره".

شعر أن دلواً من الماء البارد جداً قد سُكب فوق رأسه.

قال هاري: "هيا. لا يمكن أن أكون بهذا السوء".

رفعت عينيها عن اللائحة وعلى وجهها تعبير فضولي.

قال هاري وهو ينحني فوق الطاولة: "أنا وأنتِ هنا، هذا المساء. نحن نتغازل، ونستمتع بوقتنا، لكننا نريد أكثر من ذلك. أنتِ تريدين أكثر من ذلك".

"ربما".

"ليس ربما، وإنما هذا مؤكد تماماً. تريدين كل شيء".

"ثم ماذا؟".

"ثم ماذا؟ يجب أن تخبريني أنتِ يا راكيل. سأغادر إلى جحر ما يقع جنوبي السويد بعد بضعة أيام. لست رجلاً مدللاً. أريد فقط أن أعرف إن كان لدي شيء أعود إليه في الخريف".

التقت أعينهما، وحدّق إليها مباشرة هذه المرة، وظلّ يحدّق إليها لوقت طويل. أخيراً، وضعت اللائحة جانباً.

"آسفة. لا أقصد أن أكون على هذه الحال. أعرف أن هذا سيبدو غريباً، لكن... الخيار البديل لن ينجح".

"أي خيار بديل؟".

"أن أفعل ما أشعر أنني أحب فعله. أن أصطحبك إلى المنزل، وأنزع عنك كل ملابسك".

همست الجملة الأخيرة برقة وسرعة؛ وكأنها شيء أرادت أن تنتظر حتى اللحظة الأخيرة لتقوله. لكن، عندما يتوجب عليها أن تقوله، فإنها

ستقوله بهذه الطريقة بالضبط: بكل صراحة ومن دون مواربة.

قال هاري: "ماذا عن ليلة واحدة أخرى؟ ماذا عن عدّة ليالٍ؟ ماذا عن ليلة الغد، والتي تليها، والأسبوع القادم و...؟".

"توقف!". كانت هناك تجعيدة غضب فوق أنفها. "يجب أن تفهم يا هاري؛ لن ينجح الأمر".

"حسناً". أخرج هاري لفافة تبغ وأشعلها، وسمح لها أن تضرب ذقنه وفمه. سرت اللمسة الرقيقة في أعصابه مثل صدمة كهربائية، وسبّبت له ألماً خفيفاً.

"لست أنت السبب يا هاري. ظننت منذ بعض الوقت أن بمقدوري فعل ذلك مجدداً. لقد استعرضت كل الحجج: نحن راشدان، ولا علاقة لأحد آخر بنا، ومن دون ارتباط، وأنت رجل تنتابني نحوه مشاعر لم أشعر بها تجاه أي شخص آخر منذ... منذ والد أوليغ؛ لهذا السبب لن يتوقف الأمر عند ليلة واحدة. وهذا... هذا ليس جيداً".

صمتت.

"هل السبب هو أن والد أوليغ مدمن على الشراب؟".

"لماذا تسأل عن ذلك؟".

"لا أعرف. قد يفسّر هذا الأمر لماذا لا تريدين التورّط معي. لا يعني ذلك أنكِ بحاجة إلى التواجد مع مدمن آخر لتعرفي أنني لست صيداً ثميناً، لكن...".

وضعت يدها على يده.

"أنت صيد ثمين يا هاري، والأمر ليس على هذا النحو".

"ما هو إذاً؟".

"هذه آخر مرة. هذا هو الأمر. لن نلتقي مجدداً".

استقر بصرها عليه، وأدرك الأمر آنذاك. لم تكن دموع ضحك تلك التي تلمع في عينيها هذه المرّة.

سأل وهو يحاول أن يبتسم: "وباقي القصة؟ هل هي مثل أي شيء آخر في الاستخبارات السرية، مبنيّة على أساس الحاجة إلى المعرفة؟".

أومأت.

جاء النادل إلى طاولتهما، لكن لا بدّ من أنه شعر بأن توقيته غير مناسب، فابتعد مجدداً.

فتحت فمها لتقول شيئاً، ورأى هاري أنها على وشك أن تبكي. عضّت شفتها السفلية، ثم وضعت المنديل على غطاء الطاولة، ودفعت كرسيها إلى

الخلف، ووقفت من دون أن تقول كلمة، وغادرت. بقي هاري جالساً وهو يحدّق إلى المنديل. لا بدّ من أنها كانت تضغط عليه في يدها لبعض الوقت - كما فكّر - لأنه كان على شكل كرة. راقبه وهو ينبسط ببطء مثل وردة ورقية بيضاء.

شقة هالفورسن. 6 أيار 2000
عندما أيقظ رنين الهاتف هالفورسن، كانت الأرقام المضيئة على ساعة المنبه الرقمية تومض وتشير إلى أن الساعة هي 1:30 صباحاً.
"هول يتكلم، هل أنت نائم؟".
قال هالفورسن من دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن سبب كذبه: "لا".
"خطرت لي بضعة أشياء ترتبط بسفير أولسن".
بدا من صوت أنفاسه ومن حركة السير في الخلفية أن هاري يمشي في الخارج.
قال هالفورسن: "أعرف ما الذي تريد معرفته. اشترى سفير أولسن زوجاً من الأحذية العسكرية من توب سيكرت في بوابة هنريك آبسنز. تعرّفوا إليه من الصورة، كما استطاعوا تحديد التاريخ. كما تعرف، لقد ذهب كريبوس ليتأكّد من حجة غيابه في ما يتعلق بقضية هالغريم ديل قبل الميلاد، ولقد أرسلت كل هذه المعلومات عبر الفاكس إلى مكتبك في وقت مبكّر اليوم".
"أعرف. لقد جئت من هناك الآن".
"الآن؟ ظننت أنك ستخرج لتناول العشاء هذا المساء؟".
"حسناً، لقد أنهينا تناول العشاء باكراً".
سأل هالفورسن وهو غير مصدّق: "وعدت إلى العمل؟!".
"نعم، أظن أنني فعلت ذلك. لقد جعلني فاكسك أفكّر. كنت أتساءل هل بمقدورك التثبّت من بضعة أشياء أخرى غداً؟".
تأوه هالفورسن. أولاً، كان مولر قد أخبره بطريقة لا تحتمل أي سوء فهم أنه يجب أن لا يكون لهاري أي علاقة بقضية إيلين غيلتن، وثانياً: كان الغد يوم الأحد.
"هل أنت هناك يا هالفورسن؟".
"نعم".
"يمكنني أن أتخيل ما قاله مولر. لا تسجل أي ملاحظة؛ فلديك الآن الفرصة لتتعلم المزيد عن عمل المحقق".
"المشكلة يا هاري...".
"اصمت يا هالفورسن واستمع".
أطلق هالفورسن لعنة في قرارة نفسه، وأصغى السمع.

بوابة فايبز. 8 أيار 2000

عبقت الردهة برائحة القهوة المحمّصة حديثاً، بينما كان هاري يعلّق سترته على مشجب المعاطف. "شكراً لاستقبالي بسرعة كبيرة يا سيد فوك".

تمتم فوك من المطبخ: "لا داعي للشكر. يكون رجل عجوز مثلي سعيداً جداً لدى تقديمه المساعدة للآخرين؛ إذا كان بمقدوري المساعدة".

سكب فوك قهوة في كوبين كبيرين ووضعهما على طاولة المطبخ. مرّر هاري أنامله على طول السطح القاسي لطاولة السنديان الثقيلة الداكنة.

قال فوك من دون أي تمهيد: "إنها من بروفنس؛ كانت زوجتي تحب أثاث الريف الفرنسي".

"إنها طاولة رائعة. كان ذوق زوجتك جيداً".

ابتسم فوك.

"هل أنت متزوج؟ لا؟ لم تتزوج قطّ؟ يجب أن لا تنتظر طويلاً. إذا بقيت وحدك كل الوقت فستصبح صعب المراس".

ضحك.

"أعرف ما أتكلم عنه. كنت قد تجاوزت الثلاثين حين تزوجت. كان ذلك متأخراً في ذلك الوقت. تزوّجت في أيار من عام 1955".

وأشار إلى إحدى الصور المعلّقة على الجدار فوق طاولة المطبخ.

سأل هاري: "هل تلك زوجتك حقاً؟ ظننت أنها راكيل".

"أوه، نعم". ونظر إلى هاري بدهشة في بادئ الأمر، ثم قال: "نسيت أنك وراكيل تعرفان بعضكما من الاستخبارات السرية".

ذهبا إلى غرفة المعيشة، حيث ازدادت أكوام الأوراق منذ زيارته الأخيرة، وشغلت كل المقاعد باستثناء المقعد الموجود إلى جانب المكتب. أفسح فوك مكاناً لهما؛ ليجلسا إلى جانب طاولة صغيرة.

سأل فوك: "هل وجدت أي شيء عن الأسماء التي زوّدتك بها؟".

لخّص له هاري ما كان قد اكتشفه، ثم قال: "على أيّ حال، هناك عدّة عناصر جديدة. لقد لقيت شرطية حتفها".

"قرأت شيئاً عن ذلك في الصحف".

"لقد حُلّت القضية. نحن ننتظر نتائج اختبار الحمض النووي الريبي. هل تصدّق المصادفات يا سيد فوك؟".

"ليس تماماً".

"ولا أنا؛ لهذا السبب أطرح على نفسي أسئلة حين يظهر دائماً

الأشخاص ذاتهم في قضايا غير مترابطة كما يبدو للوهلة الأولى. في الليلة نفسها التي لقيت فيها إيلين غيلتن حتفها، تركت رسالة على مجيبـي الآلي تقول لي فيها: لقد نلنا منه الآن. كانت تساعدني على البحث عن الشخص الذي كان قد طلب بندقية ماركلين من جوهانسبرغ. بالطبع، ليست هناك أي صلة ظاهرة بين هذا الشخص والقاتل، لكنها أفكار متقاربة؛ خاصة لأنّها كانت مهتمة جداً بالاتصال بي. كانت تلك قضية أعمل عليها طوال أسابيع، وقد حاولت الاتصال بي عدّة مرات تلك الليلة، وبدت قلقة جداً، مما يوحي بأنها كانت تشعر بتهديد ما".

وضع هاري سبابته على الطاولة الصغيرة.

"لقي أحد الأشخاص الذين ذكرتهم، هالغريم ديل، حتفه غيلة في الخريف الماضي. كان هناك أيضاً في الزقاق الذي عُثر عليه فيه، من بين أشياء أخرى، بقايا قيء. لم نتوصّل إلى شيء، ولم تكن صورة قاتل محترف لا يرحم أبداً تناسب شخصاً يتقيأ في مسرح الجريمة. على أيّ حال، لم يُلغِ كريبوس احتمال أن يكون القاتل هو من تقيّأ، وأرسل عينة من اللعاب لإجراء اختبار الحمض النووي الريبي عليها. قارن أحد زملائي في وقت مبكر اليوم تلك النتائج بالاختبارات التي تمّت على القبعة التي وجدناها إلى جانب الشرطية القتيلة، وكانت متطابقة".

توقف هاري عن الكلام، ونظر إلى الرجل الآخر.

قال فوك: "فهمت. تظن أن القاتل شخص واحد".

"لا، لا أظن ذلك. أفكّر فحسب في أن هناك صلة بين الجريمتين، وليست مصادفة أن يظهر سفير أولسن في مكان قريب في كلتا المرتين".

"لماذا لا يكون قد قتل كليهما؟".

"ربما فعل ذلك بالطبع. لكن، هناك اختلاف جوهري في أسلوب العنف الذي يستخدمه سفير أولسن، وقاتل هالغريم ديل. هل رأيت من قبل الضرر الجسدي الذي يمكن أن يُحدثه مضرب كرة القاعدة؟ يسحق الخشب الأملس العظام، ويجعل أعضاء داخلية مثل الكبد والكليتين تتمزق. يبقى الجلد في أغلب الأحيان سليماً، وتموت الضحية عادة بسبب النزيف الداخلي. كان الشريان السباتي في حالة هالغريم ديل ممزقاً، ونتيجة لهذا النوع من القتل، يسيل الدم سريعاً. هل تفهم؟".

"نعم، لكنني لا أعرف إلى أين تريد أن تصل".

"أخبرت والدة سفير أولسن أحد الضباط أن ابنها لا يتحمّل رؤية الدم".

توقف كوب قهوة فوك وهو في طريقه إلى فمه، فوضعه جانباً مجدداً.

"نعم، لكن...".

"أعرف ما تفكر فيه؛ أنت تفكر أنه هو من فعل ذلك، وحقيقة أنه لا يتحمّل منظر الدم قد تفسّر لماذا تقيأ، لكن ما أقصده هو أن القاتل لم يكن يستخدم سكيناً في المرّة الأولى. ووفقاً لتقرير مختص علم الأمراض، كان شقاً جراحياً ممتازاً، لا يستطيع تنفيذه إلا شخص يعرف ما يفعله".

أومأ فوك ببطء وقال: "أفهم ما تعنيه".

قال هاري: "تبدو مستغرقاً في التفكير".

"أظن أنني أعرف سبب وجودك هنا. أنت تتساءل هل بمقدور أحد الجنود من سنهايم تنفيذ مثل عملية القتل تلك".

"هذا صحيح. هل كان هناك أحد منهم يستطيع القيام بذلك؟".

"نعم، كان هناك شخص". أمسك فوك كوبه بكلتا يديه، وعيناه تهيمان في مكان بعيد. "الشخص الذي لم تعثر عليه، غدبراند يوهانسن. أخبرتك أننا كنا ندعوه أبا الحنّاء، أليس كذلك؟".

"هل يمكنك إخباري المزيد عنه؟".

"نعم، لكن يجب أن نجلب مزيداً من القهوة أولاً".

أريسفين. 8 أيار 2000

سُمِعت الصرخة من داخل المنزل: "من هناك؟". كان الصوت رقيقاً وخائفاً، ورأى هاري شكلها عبر الزجاج الضبابي.

"هاري هول. تكلمنا عبر الهاتف".

فُتح الباب قليلاً.

"آسفة، أنا...".

فتحت سيغني جوول الباب على مصراعيه، ودخل هاري المنزل، ووقف في الرواق. فقالت بابتسامة تبريرية: "إيفن خارج المنزل".

قال هاري: "نعم، قلت لي ذلك عبر الهاتف. أنتِ في الواقع من أرغب في التحدث إليها".

"أنا؟".

"إذا لم يكن لديك مانع يا سيدة جوول؟".

انتقلت السيدة العجوز إلى الداخل. كان شعرها الكثيف والرمادي بلون الفولاذ مجدولاً في عقدة، ومثبّتاً على رأسها بتسريحة عتيقة الطراز. وكان جسدها الممتلئ الذي يترنّح في أثناء مشيها، يجعلك تفكّر في حياة رغيدة وطعام جيد.

رفع بور رأسه حين دخلا غرفة المعيشة.

سأل هاري: "إذاً، لقد خرج زوجك في نزهة بمفرده؟".

قالت: "نعم، لا يمكنه اصطحاب بور إلى المقهى. اجلس من فضلك".

"المقهى؟".

ابتسمت: "هذا أمر قد بدأ بالقيام به مؤخّراً. إنّه يذهب إلى هناك ليقرأ الصحف. يقول إنه يفكر على نحو أفضل حين لا يجلس في المنزل".

"هذا على الأرجح صحيح".

"بالتأكيد. ويمكن أن تستغرق في أحلام اليقظة أيضاً، كما أفترض".

"أي نوع من أحلام اليقظة تقصدين؟".

"حسناً. ليست لديّ فكرة. يمكن ربما أن تتخيل أنك شاب مجدداً، وتشرب القهوة في مقهى في باريس أو فيينا". تلك الابتسامة السريعة التبريرية مجدداً. "دعك من ذلك. هل تشرب فنجاناً من القهوة؟".

"نعم، رجاءً".

أمعن هاري النظر إلى الجدران حين ذهبت سيغني جوول إلى المطبخ. كانت توجد فوق الموقد لوحة لشابٍّ يرتدي عباءة سوداء. لم يكن هاري

قد لاحظ الصورة حين كان هنا سابقاً. كان الرجل الذي يرتدي العباءة يقف بوضعية مميزة، وينظر على ما يبدو إلى آفاق بعيدة خارج مجال رؤية الرسّام. مشى هاري نحو الصورة. كانت لافتة نحاسية صغيرة مؤطرة تقول: أوفيرلج كورنليوس جوول، 1885-1969. استشاري في الطب.

قالت سيغني جوول حين وصلت حاملة صينيّة وضعت عليها أدوات القهوة: "هذا جد إيفن".

"صحيح. لديك الكثير من الصور هنا".

قالت وهي تضع الصينيّة على الطاولة: "نعم، الصورة التي إلى جانبها لجد إيفن الآخر، إنّه والد والدته؛ د. فيرنر شومان. كان أحد مؤسسي مستشفى أولفال في العام 1885".

"وهذا؟".

"جوناس شومان، مستشار في مستشفى ريكس".

"وأقرباؤك؟".

نظرت إليه مرتبكة. "ماذا تعني؟".

"أين أقرباؤك؟".

"إنهم... في مكان آخر. هل تريد قشدة في قهوتك؟".

"لا، شكراً".

جلس هاري، وقال: "أردت التحدّث إليك عن الحرب".

صرخت: "أوه، لا!".

"أفهم ذلك، لكن الأمر مهم. هل يمكن أن أسأل؟".

قالت وهي تسكب القهوة لنفسها: "سنرى".

"كنتِ ممرضة في أثناء الحرب...".

"نعم، على الجبهة الشرقية. أنا خائنة".

رفع بصره إليها، وكانت عيناها تنظران إليه بهدوء وهي تقول:

"كانت هناك نحو أربعمئة ممرّضة. حُكم علينا جميعاً بالسجن بعد ذلك، بالرغم من حقيقة أن الصليب الأحمر الدولي أرسل التماساً إلى السلطات النرويجية لإيقاف كل الإجراءات العقابية. لم يعتذر الصليب الأحمر النرويجي حتى العام 1990. كان لوالد إيفن، في الصورة هناك، علاقات ممتازة، واستطاع تخفيف الحكم الصادر بحقي... جزئياً؛ لأنني كنت قد ساعدت رجلَي مقاومة مصابَين في ربيع عام 1945، ولأنني لم أكن قطّ عضواً في ناسونال ساملنغ. هل هناك شيء آخر تود معرفته؟".

حدّق هاري إلى كوب قهوته، وخطر له أن بعض أفضل مناطق أوسلو

السكنية تتميز بهدوء شديد.

"لا أسعى إلى معرفة ماضيك يا سيدة جوول. هل تتذكرين جندياً نرويجياً على الجبهة يدعى غدبراند يوهانسن؟".

فزعت سيغني جوول، وعرف هاري أنه قد عثر على شيء.

سألت ووجهها متوتر: "ما الذي تريد معرفته بالضبط؟".

"ألم يخبرك زوجك؟".

"لا يخبرني إيفن شيئاً أبداً".

"حسناً. أحاول معرفة كل المعلومات عن الجنود النرويجيين الذين ذهبوا إلى سنهايم في طريقهم إلى الجبهة".

كرّرت بصوت خافت: "سنهايم. كان دانيال هناك".

"نعم، أعرف أنكِ كنت خطيبة دانيال غدسون. أخبرني سندر فوك بذلك".

"من هو؟".

"إنّه محارب قديم من الجبهة والمقاومة، يعرفه زوجك. كان فوك من اقترح أن أتحدث إليك بشأن غدبراند يوهانسن. فرّ فوك من الجبهة؛ لهذا لا يعرف ما حدث لغدبراند بعد ذلك، لكن جندياً آخر من الجبهة، وهو إدوارد موسكن، أخبرني عن انفجار قنبلة يدوية في الخندق. لم يستطع موسكن تذكّر كل الأحداث التي تلت الانفجار. لكن، إذا نجا يوهانسن منه فسيكون طبيعياً أن نفترض أن الأمر قد انتهى به في مستشفى ميداني".

تلمّظت سيغني جوول. جاء بور متمهلاً نحوها، ودفعت أصابعها في فراء الكلب الكثيف.

قالت: "نعم، أتذكّر غدبراند يوهانسن. فلقد كتب دانيال عنه أحياناً، في الرسائل التي كان يرسلها إليّ من سنهايم، والملاحظات التي حصلت عليها منه في المستشفى الميداني كانت مختلفة جداً. أظن أن غدبراند يوهانسن أصبح مثل شقيق أصغر له". ابتسمت. "يميل معظم الرجال بوجود دانيال إلى التصرف مثل أشقاء صغار له".

"هل تعرفين ما حدث لغدبراند؟".

"انتهى به الأمر في المستشفى معنا، كما قلت. كان ذلك في وقت يقع فيه قطاعنا من الجبهة في أيدي الروس، ويجري فيه انسحاب واسع النطاق. لم نستطع إيصال أي أدوية إلى الجبهة؛ لأن كل الطرقات كانت مسدودة بحركة السير القادمة من الاتجاه الآخر. كانت إصابة يوهانسن سيئة، فلقد أصيب بشظيّة قذيفة في فخذه فوق الركبة تماماً، بالإضافة إلى أشياء أخرى.

كانت الغنغرينا تنتشر في قدمه، وكان معرّضاً لخطر بترها؛ لهذا بدلاً من انتظار الدواء الذي لم يكن يصل، أُرسل إلى الغرب. كان آخر ما رأيته منه وجه ملتحٍ يبرز من تحت بطانية في مؤخر شاحنة. كان طين الربيع يصل إلى منتصف العجلات، واستغرق الأمر منهم ساعة للالتفاف حول المنعطف الأول والخروج من مجال الرؤية".

كان الكلب قد وضع رأسه فوق حجرها، ونظر إليها بعينين حزينتين.

"وكانت تلك آخر مرة ترينه فيها، أو تسمعين عنه شيئاً؟".

رفعت الكوب الخزفي الأنيق إلى شفتيها ببطء، وشربت منه رشفة صغيرة، ووضعته في مكانه مجدداً. لم تهتز يداها كثيراً، لكنهما كانتا ترتعشان.

قالت: "تلقيت رسالة منه بعد بضعة شهور. كتب أن لديه بعض مقتنيات دانيال الشخصية، وقبعة روسية؛ فهمت أنها نوع من تذكارات الحرب. كانت الكتابة مشوّشة، لكن ذلك ليس غريباً بالنسبة إلى جرحى الحرب".

"البطاقة، هل...؟".

هزّت رأسها.

"هل تتذكّرين من أين أُرسلت؟".

"لا. أتذكر فقط أن الاسم جعلني أفكّر في أن المنطقة خضراء وريفية، وأنه بخير".

وقف هاري.

سألت: "كيف عرف فوك ذاك عني؟".

"حسناً...". لم يكن هاري يعرف كيف يصوغ كلماته، لكنها تابعت كلامها، وقالت وهي تبتسم: "كان كل الجنود على الجبهة قد سمعوا عني؛ فأنا المرأة التي باعت نفسها مقابل تخفيف الحكم عنها. هل هذا ما يفكّرون فيه؟".

قال هاري: "لا أعرف". عرف أن عليه الخروج من هذا المكان. كان على بعد مبنيين فقط من الطريق الدائري حول أوسلو، لكن الجو هادئ جداً هناك، حتى إنّ المرء يكاد يظنّ أنه إلى جانب بحيرة في الجبال.

قالت: "تعرف أنني لم أرَه قطّ مجدداً بعد أن أخبروني أنه مات، أقصد دانيال".

كانت قد ركّزت على نقطة خيالية أمامها.

"سلّمني جندي بطاقة معايدة منه بمناسبة حلول السنة الجديدة، وبعد

ثلاثة أيام رأيت اسم دانيال على لائحة الموتى. لم أصدّق أن ذلك صحيح. أخبرتهم أنني سأرفض تصديق ذلك حتى يجعلوني أرى جثته. وهكذا أخذوني إلى القبر الجماعي في القطاع الشمالي، حيث كانوا يحرقون الموتى. نزلت إلى القبر، ودست على الجثث في أثناء بحثي، وانتقلت من جثة محروقة إلى أخرى، وحدّقت إلى محاجر العيون المسودّة الخاوية. لكن، لم يكن أي منها دانيال. قالوا إنه سيكون مستحيلاً أن أتعرّف إليه، لكنني أخبرتهم أنهم مخطئون، ثم قالوا إنهم ربما وضعوه في إحدى المقابر التي أغلقوها. لا أعرف، لكنني لم أره قطّ مجدداً".

فزعت حين تنحنح هاري.

"شكراً على القهوة يا سيدة جوول".

تبعته إلى الردهة. لم يسعه عندما وقف إلى جانب خزانة الملابس، وهو يغلق أزرار معطفه، إلا البحث عن ملامحها في الوجوه التي تحدّق من الصور المؤطرة والمعلّقة على الجدار. لكن، عبثاً حاول.

سألت وهي تفتح له الباب: "هل يجب أن نخبر إيفن أياً من هذا؟".

نظر هاري إليها بدهشة.

أضافت بسرعة: "أعني، هل يجب أن يعرف أننا تكلمنا عن هذا الأمر؟ عن الحرب و... دانيال؟".

"حسناً، ليس إن كنتِ لا ترغبين في أن يعرف، بالطبع".

"سيعرف أنك كنت هنا. لكن، ألا يمكننا القول فقط إنك انتظرته واضطررت إلى الذهاب إلى موعد آخر".

كانت عيناها تتوسلان إليه. لكن، كان هناك شيء آخر أيضاً.

لم يضع هاري إصبعه عليه حتى أصبح في رينغفين وفتح النافذة ليسمع ضوضاء السيارات التي تصم الآذان، وتجعله يطرد الصمت من رأسه. كان شيئاً مروّعاً ذلك الذي يخيف سيغني جوول.

منزل براندهوغ، نوردبرغ. 8 أيار 2000

نقر برنت براندهوغ طرف الكأس الكريستالية بسكينه، ودفع كرسيه إلى الخلف، ومسح فمه بمنديله فيما كان يتنحنح بلطف. ارتسمت ابتسامة على شفتيه؛ وكأنه يتسلّى بالنقاط التي كان سيذكرها في خطابه إلى ضيوفه: قائد الشرطة ستوركسن مع زوجها، وكورت ميريك مع زوجته.

"أصدقائي وزملائي الأعزّاء".

استطاع أن يرى زوجته بطرف عينه وهي تبتسم للآخرين بتكلّف؛ وكأنها تقول: أنا آسفة؛ لأنّه علينا سماع هذا، لكن الأمر خارج عن إرادتي.

تكلم براندهوغ في ذلك المساء عن الصداقة والزمالة، وعن أهمية الولاء، وعن حشد كتلة تقي من مجال الحرية الفضفاض الذي ستسمح به الديمقراطية دائماً لأشخاص غير مؤهلين جيداً وعديمي الكفاءة على مستوى القيادة بتحمّل المسؤولية. وبالطبع، لا يمكن أن تتوقع من سيّدات المنازل، والمزارعين المنتخبين سياسياً أن يفهموا مدى تعقيد مجالات المسؤولية التي جرى اختيارهم لإدارتها.

قال براندهوغ: "الديمقراطية ثمرة بحد ذاتها". وهي جملة كان قد اقتبسها ونسبها إلى نفسه. "لكن ذلك لا يعني أن الديمقراطية لا ثمن لها. عندما نجعل من عامل صفائح معدنية وزيراً للمالية...".

تأكّد في أوقات متباعدة من أن قائد الشرطة تصغي إليه، وأقحم في خطابه دعابة عن عملية التحوّل إلى الديمقراطية في عدّة مستعمرات سابقة في إفريقيا، حيث عمل هناك سفيراً. لكن الخطاب، الذي كان قد ألقاه عدّة مرات من قبل بأساليب أخرى، لم يعجبه في ذلك المساء. كان ذهنه في مكان آخر، حيث كان يفكّر طوال الأسابيع القليلة الماضية في راكيل فوك.

كانت قد أصبحت هاجساً بالنسبة إليه، وفكّر من حين إلى آخر في أن ينساها، غير أنّه كان يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يحظى بها.

فكّر في ألاعيبه الأخيرة، ولولا حقيقة أن كورت ميريك رئيسٌ للاستخبارات السرية، لما كانت قد نجحت قطّ. كان أول شيء عليه فعله هو إبعاد هاري هول ذاك عن المسرح، إلى خارج المدينة، إلى مكان لا تستطيع راكيل أو أي شخص آخر الاتصال به.

كان براندهوغ قد اتصل بكورت، وقال إن مصدره في داجبلايت قد أخبره أن هناك شائعات تنتشر في الدوائر الصحفية عن شيء حدث في

أثناء الزيارة الرئاسية في الخريف. كان يجب عليهما أن يتصرّفا قبل فوات الأوان، وإخفاء هاري في مكان لا تستطيع الصحافة الوصول إليه. ألم يفكر كورت في الشيء نفسه أيضاً؟

كان كورت قد قال حسناً، فيما أصرّ براندهوغ على ذلك حتى تنجلي الأمور على الأقل. شكّ براندهوغ في أن يكون ميريك قد صدّق ما قاله لحظة واحدة؛ ليكون صادقاً، وليس لأنه قلق جداً. اتصل به كورت بعد عدّة أيام، وقال إن هاري هول قد أُرسل إلى الجبهة، إلى مكان في السويد لا يعلمه إلا الله. كان براندهوغ قد فرك يديه سعادة. فالآن، لم يعد بإمكان أيّ شيء أن يفسد الخطط التي وضعها لنفسه ولراكيل.

"ديمقراطيتنا مثل ابنة جميلة تبتسم، لكنها ساذجة قليلاً. لا علاقة لحقيقة أن قوى الخير تتحد معاً في مجتمعٍ ما بحكم النخبة أو بممارسات السلطة، وهي ببساطة الضمانة الوحيدة التي لدينا؛ حتى لا يُنتهك عرض ابنتنا، الديمقراطية، وحتى لا تسيطر قوى غير مرغوب فيها على الحكومة. ومن ثَمّ فإن الولاء، هذه الفضيلة التي تكاد تندثر بين الناس أمثالنا، ليست مرغوبة فقط، بل ضرورية جداً أيضاً. نعم، إنها واجب...".

كانوا قد انتقلوا إلى المقاعد الوثيرة في غرفة المعيشة، ومرّر لهم براندهوغ علبة السجائر الكوبية الخاصّة به، التي جاءته هدية من القنصل النرويجي في هافانا.

كان قد همس بضع كلمات في أذن زوج آن ستوركسن وغمزه، لكن يبدو أنه لم يفهم المغزى. كان زوجها يبدو جافاً وصارماً. ماذا كان اسمه مجدداً؟ اسم مركّب. يا الله! هل نسي؟ تور إريك! ذلك هو، تور إريك.

"هل تريد المزيد من الشراب يا تور إريك؟".

ابتسم تور إريك ابتسامة متكلّفة، وهزّ رأسه. ربما كان من النوع المتقشّف الذي يجري خمسين كيلومتراً في الأسبوع، كما فكّر براندهوغ. كان كل ما في الرجل نحيلاً: الجسد، والوجه، وحتى شعره كان قليلاً. كان قد لاحظ النظرة التي تبادلها مع زوجته في أثناء إلقائه الخطاب؛ وكأنه يذكّرها بدعابة خاصة، لم تكن بالضرورة لها علاقة بالخطاب.

قال براندهوغ متجهماً: "هل هذا معقول؟! أن تكون واثقاً خيرٌ من أن تصبح نادماً".

ظهرت إلزا عند باب غرفة المعيشة وقالت: "مكالمة هاتفية لك يا برنت".

"عندنا ضيوف يا إلزا".

"إنه شخص من داجبلايت".

"سأتلقاها في مكتبي".

كانت المكالمة من قسم الأخبار، ومن امرأة لا يعرف اسمها. بدت يافعة، وحاول أن يتخيّلها. كانت من أجل المظاهرة التي تحصل في ذلك المساء خارج السفارة النمساوية في بوابة توماس هفتيس، ضد يورغ هايدر وحزب الحرية اليميني المتطرّف، الذي تم اختياره ليساعد على تأليف الحكومة. أرادت بضعة تعليقات موجزة فقط لصحيفة الصباح.

"هل تظن أن الوقت مناسب لإعادة النظر في علاقات النرويج الدبلوماسية مع النمسا يا سيد براندهوغ؟".

أغمض عينيه. كانوا يبحثون عن شيء ما، كما يفعلون من وقت إلى آخر، لكنه كان يعرف - وكذلك هم - أنهم لن يحصلوا على شيء؛ فقد كان يتمتع بخبرة كبيرة. كان بمقدوره أن يشعر أنه شرب كثيراً، وأن رأسه خفيف، وعينيه ترقصان خلف جفنيه، لكن تلك لم تكن مشكلة.

قال: "هذا قرار سياسي، ولا يمكن أن يحسمه موظفون حكوميون في وزارة الخارجية".

أطبق الصمت قليلاً. أحب صوتها. كانت شقراء، كما خمّن.

"أتساءل إن كنت بخبرتك الواسعة في الشؤون الخارجية تستطيع أن تتوقع ما ستفعله الحكومة النرويجية؟".

عرف أن عليه أن يجيب، وكان الأمر في غاية البساطة.

لا يمكنني أن أتوقع مثل تلك الأمور.

لا أكثر، ولا أقل. لم يكن من الممكن أن يشغل المرء منصباً مثل منصبه وقتاً طويلاً قبل أن ينتابه شعور بأنّه قد أجاب عن كل الأسئلة في الوجود. يظن الصحفيون الشباب عادة أنهم أول من يطرح عليه السؤال الذي يوجهونه إليه؛ لأنهم كانوا قد سهروا نصف الليل وهم يعملون عليه، وهم ينبهرون جميعاً حين يبدو أنه يتوقف عن الكلام؛ ليفكّر قبل الإجابة عن سؤال كان قد أجاب عنه على الأرجح عشرات المرات من قبل.

لا يمكنني أن أتوقع مثل تلك الأمور.

دُهش لأنه لم يقل لها تلك الكلمات. لكن، كان هناك شيء في صوتها، شيء جعله يشعر أنه أكثر لطفاً من ذي قبل. كانت قد قالت: خبرتك الواسعة. أراد أن يسألها إن كان الاتصال به، برنت براندهوغ بالتحديد، فكرتها.

قال: "أؤكّد لك مثل معظم الموظفين الحكوميين في وزارة الشؤون

الخارجية أن علاقاتنا الدبلوماسية المعتادة مع النمسا لا تزال قائمة. ذلك واضح. ندرك بالطبع أن دولاً أخرى في العالم تتفاعل مع ما يجري في النمسا الآن. على أيّ حال، العلاقات الدبلوماسية مع بلد ما لا تعني أننا نحب ما يجري هناك".

أجاب الصوت عند الطرف الآخر: "لا، لدينا علاقات دبلوماسية مع عدّة أنظمة عسكرية. لماذا تظن أننا نرى مثل ردود الأفعال العنيفة تلك على هذه الحكومة بالتحديد؟".

"أظن أن ذلك يستند إلى تاريخ النمسا المعاصر". كان يجب أن يتوقف عند ذلك الحد. كان عليه أن يصمت. "كانت هناك علاقات مع النازيّة. بالمحصلة، يتفق معظم المؤرخين أن النمسا كانت في الواقع حليفة ألمانيا الهتلرية في أثناء الحرب العالمية الثانية".

"ألم تكن النمسا محتلة، مثل النرويج؟".

خطر له أن لا فكرة لديه عمّا يتعلّمونه في المدارس بشأن الحرب العالمية الثانية في هذه الأيام؛ من الواضح أن معلوماتهم شحيحة.

سأل: "ماذا قلت إن اسمك كان؟". ربما كان قد شرب أكثر بقليل ممّا يجب. أخبرته باسمها.

"حسناً يا ناتاشا، دعيني أساعدك قليلاً قبل أن تبدئي بالاتصال بأي شخص آخر. هل سمعت بالضم؟ ذلك يعني أن النمسا لم تكن محتلة بالمعنى المتعارف عليه للكلمة. دخل الألمان النمسا في آذار عام 1938. لم تكن هناك مقاومة تقريباً، وبقيت الأمور على تلك الحال خلال الفترة المتبقة من الحرب".

"مثل النرويج إذاً؟".

دُهش براندهوغ؛ فقد قالت ذلك بثقة، ومن دون مسحة خجل.

قال ببطء وكأنه يتكلم مع طفلة غبية: "لا. ليس مثل النرويج. في النرويج دافعنا عن أنفسنا، وكان لدينا ملك وحكومة نرويجية على أهبة الاستعداد، ينتظرون في لندن، ويبثّون برامج إذاعية و... يشجّعون الموجودين في الوطن".

شعر أن أسلوبه الخطابي لم يحقق المراد، فأضاف: "وقف الشعب كله في النرويج جنباً إلى جنب ضد قوات الاحتلال. كان الخونة النرويجيون القلائل، الذين ارتدوا بزّات قوات أس - أس العسكرية وقاتلوا لمصلحة الألمان، حثالة المجتمع التي يجب أن يقبل المرء بوجودها في كل بلد. لكن، في النرويج، صمدت قوة الخير، وألّف الأفراد الأقوياء الذين قادوا حركة

المقاومة النواة التي مهّدت الطريق للديمقراطية. كان هؤلاء الأشخاص أوفياء لبعضهم بعضاً. وفي التحليل النهائي، كان ذلك ما أنقذ النرويج. الديمقراطية ثمرة نفسها. اشطبي ما قلته عن الملك يا ناتاشا".

"إذاً، أنت تظن أن كل من قاتل مع النازيين كان حثالة؟".

ما الذي كانت تسعى إليه حقاً؟ قرّر براندهوغ إنهاء الحديث.

"أعني ببساطة أنّ أولئك الذين كانوا خونة في أثناء الحرب يجب أن يكونوا سعداء؛ لأن أحكام السجن التي صدرت بحقهم كانت قصيرة. لقد كنت سفيراً في دول أطلقوا فيها النار على كل خائن، ولست واثقاً تماماً من أن ذلك لم يكن مناسباً في النرويج أيضاً. لكن، بالعودة إلى التعليق الذي أردته يا ناتاشا: ليس لدى وزارة الشؤون الخارجية تعليق على المظاهرة، أو أعضاء البرلمان الجدد في النمسا. لدي ضيوف هنا؛ لهذا إذا لم يكن لديك مانع في أن تعذريني يا ناتاشا...".

أذِنَت له ناتاشا، وأغلق السمّاعة.

عندما عاد إلى غرفة المعيشة كان ضيوفه على وشك أن يغادروا.

قال بابتسامة واسعة: "الآن؟". لكنه حدّ من اعتراضه؛ فقد كان متعباً.

رافق ضيوفه إلى الباب، وضغط بقوة على يد قائد الشرطة، وقال إنها يجب أن لا تتردّد في طلب أي شيء منه إذا كان بمقدوره المساعدة. كان كل شيء يسير بسلاسة عبر قنوات العمل، لكن...

آخر شيء فكّر فيه قبل أن يستغرق في النوم هو راكيل وشرطيها الذي كان قد أبعده عن المكان. خلد إلى النوم مبتسماً، لكنه استيقظ وهو يشعر بصداعٍ رهيب.

من فريدريكستاد إلى هالدن. 9 أيار 2000

كان القطار شبه فارغ، ووجد هاري مقعداً إلى جانب النافذة.

كانت الفتاة التي تجلس على الكرسي خلفه مباشرة قد أخرجت السمّاعتين من مسجّل وكمان، واستطاع سماع صوت المغنّي، لكنّه لم يتمكّن من سماع صوت الأدوات الموسيقية. كان خبير المراقبة الذي وظّفوه في سيدني قد شرح لهاري أنه عندما يكون الصوت منخفضاً فإن الأذن البشرية تضخّم تردّدات أصوات البشر.

فكّر هاري في أن حقيقة سماعه صوت إنسان قبل أن يصمت كل شيء آخر أمرٌ مريح.

كانت قطرات المطر تهتز على نوافذ العربة. حدّق هاري إلى الحقول الواسعة والرطبة في الخارج، وإلى الأسلاك الكهربائية التي ترتفع وتنخفض بين الأعمدة على طول الدرب.

كانت فرقة جانيزاري (وهي فرقة تعزف موسيقى عسكرية) تعزف في محطة فريدريكستاد. وأوضح له الجابي على متن القطار أنهم يتدرّبون من أجل عيد الاستقلال في 17 أيار.

قال: "كل ثلاثاء من كل سنة، وفي الموعد نفسه، يظن قائد الفرقة أن التدريبات تكون أكثر واقعية حين يحيط الناس بهم".

كان هاري قد وضع القليل من الملابس في الحقيبة، وظنّ أن الشقة في كليبان ستكون عادية، لكنها كانت مؤثثة جيداً: إذ كانت تحتوي على تلفاز، ومسجل، وبعض الكتب أيضاً.

كان ميريك قد قال مبتسماً: "كفاحي((2))، وذلك النوع من الأشياء".

لم يكن قد اتصل براكيل، بالرغم من أن سماعه صوتها كان كافياً بالنسبة إليه؛ فهو صوت إنسان على الأقل.

سمع طقطقة حادّة صادرة من مكبّر الصوت، وقاطعها صوت مكابح القطار المزعج، ثمّ سمع هاري صوتاً يقول: "المحطة الآتية هالدن".

مرّر هاري إصبعاً على النافذة حين كان يقلّب الجملة في رأسه: صوتٌ مزعج وغير مناسب؛ إنه صوتٌ ناشز...

فكّر في أن الصوت لا يمكن أن يكون ناشزاً إلا إذا قورن بأصوات أخرى.

وبالرغم من ذلك غنّى ذلك الصوت، وتردّد في أذنه، حاداً وناشزاً على نحو مزعج. كان ذاهباً إلى كليبان؛ ليعثر على مرسل فاكس محتمل لم يكن

قد أثار بعد أكثر من بضعة عناوين في الصحف. كان قد قرأ صحف ذلك اليوم، واتضح له أنهم قد نسوا آنذاك قصة رسائل التهديد التي أثارت الكثير من اللغط قبل أربعة أيام. كتبت داجبلايت، بدلاً من ذلك، عن المتزلج لاس كيوس الذي يكره النرويج، وعن برنت براندهوغ، معاون وزير الشؤون الخارجية، الذي قال - إذا صحّ ما نُقل عنه - إن الخونة يجب أن ينالوا عقوبة الإعدام.

كان هناك صوت ناشز آخر، لكن ربما هو ناشز لأنه أراده كذلك؛ مغادرة راكيل المطعم، والتعبير في عينيها، وإعلانها تقريباً أنها تحبه قبل أن تحجم عن الكلام، وتتركه هناك وحده مع فاتورة قيمتها ثمانمئة كرون كانت قد ادّعت أنها ستدفعها. لم يكن ذلك منطقياً، أم أنه كذلك؟ لقد ذهبت راكيل إلى شقة هاري، ورأته يشرب، وسمعته يتكلم باكياً عن زميلة ميتة كان قد عرفها منذ سنتين، وكأنها الشخص الوحيد الذي كانت علاقته به وطيدة. كان مثيراً للشفقة. يجب أن لا يرى الناس بعضهم على تلك الحال. إذاً، لماذا لم تنهِ الأمر في ذلك الوقت؟ لماذا لم تقل لنفسها إن هذا الرجل يسبب متاعب أكثر مما يمكن أن تتحمّل؟

كالمعتاد، كان قد هرب إلى عمله عندما أصبحت حياته الخاصة عبئاً ثقيلاً عليه. كان قد قرأ أن تصرّفه ذلك تصرّف مثالي لصنفٍ معينٍ من الرجال؛ وذلك على الأرجح السبب الذي جعله يمضي عطلة نهاية الأسبوع وهو يضع نظريات وسيناريوهات حول مؤامرة تضم كل العناصر المختلفة - بندقية ماركلين، مقتل إيلين، مصرع هالغريم ديل - في قدر واحدة؛ حتى يستطيع خلطها معاً، وتحضير حساء كريه الرائحة. كان ذلك مثيراً للشفقة أيضاً.

جال ببصره على الصحف فوق الطاولة القابلة للطي أمامه، وركّز على صورة رأس معاون وزير الشؤون الخارجية؛ كان هناك شيء مألوف في ذلك الوجه.

فرك ذقنه بيده. عرف من تجربته أن الدماغ يميل إلى إنشاء روابطه الخاصة حين يصل التحقيق إلى طريق مسدودة، وكان فصل التحقيق بشأن البندقية مغلقاً، وقد أوضح ميريك ذلك بجلاء. لقد دعاها قضية منتهية. أراد منه ميريك كتابة تقارير عن النازيين الجدد، والقيام بعمل سري بين شباب من دون جذور في السويد. حسناً، تباً له!

"... الرصيف على الجانب الأيمن".

ماذا إن ترجّل من القطار ببساطة؟ ما أسوأ ما قد يحدث؟ طالما أن

وزارة الشؤون الخارجية والاستخبارات السرية خائفتان من تسرّب نبأ حادثة إطلاق النار عند حاجز الدفع في السنة الماضية، فلن يستطيع ميريك صرفه من الخدمة. وفي ما يتعلق براكيل... في ما يتعلق براكيل، لم يكن يعرف.

خفّت سرعة القطار حتى توقف نهائيًّا محدثاً صريراً، وأطبق الصمت على العربة. أُغلقت أبواب بقوة على الرصيف في الخارج. بقي هاري جالساً على مقعده. كان بمقدوره سماع الأغنية الصادرة من الوكمان بوضوح أكبر، وقد سمعها عدّة مرات من قبل، لكنه لم يتذكّر أين.

2 كفاحي : هو اسم كتاب ألّفه أدولف هتلر ويتحدّث عن سيرة حياته .

نوردبرغ، وفندق كونتيننتال. 9 أيار 2000

لم يكن الرجل العجوز مستعداً قطّ لما حدث، وجعلته وخزات الألم المفاجئة يحبس أنفاسه. تكوّر على الأرض، وغطّى فمه بكفّه ليمنع نفسه من الصراخ. تمدّد على تلك الحال محاولاً استعادة وعيه، في حين كانت نوبات من الضوء والظلام تندفع داخله. فتح عينيه وأغمضهما، ودارت السماء فوقه. شعر أن الوقت يتسارع: انطلقت الغيوم مسرعة في السماء، ولمعت النجوم في السماء الزرقاء. تحوّل النهار إلى ليل، ثم إلى نهار، فليلٍ، فنهارٍ، فليلٍ مجدداً، ثم انتهى ذلك، وشمّ رائحة التراب الرطب تحته، وعرف أنه حي.

بقي في المكان نفسه حتى استعاد أنفاسه. كان العرق قد جعل قميصه يلتصق بجسده، ثم استلقى على بطنه، ونظر إلى الأسفل نحو المنزل مجدداً.

كان منزلاً خشبياً أسود كبيراً. بقي مستلقياً هناك منذ الصباح، وعرف أن الزوجة وحدها في المنزل. بالرغم من ذلك، كانت كل المصابيح مضاءة في الطابقين الأرضي والأول. كان قد رآها وهي تمشي لتضيء كل المصابيح حين حلّ الغسق، وافترض أنها تخاف من الظلام.

هو نفسه كان خائفاً. ليس من الظلام؛ لأنه لم يخف منه قطّ، بل كان خائفاً من تسارع الوقت والألم. كانت تجربة جديدة، ولم يكن قد تعلّم السيطرة على ألمه بعد، ولم يعرف إن كان بمقدوره ذلك. والوقت؟ بذل قصارى جهده كي لا يفكّر في انقسام الخلايا مراراً وتكراراً.

ظهر القمر في السماء. تفقّد ساعته، فوجد أنها 7:30. سيصبح الظلام حالكاً قريباً، وسيكون عليه أن ينتظر حتى الصباح. سيمضي الليل كله في العراء في تلك الحال. نظر إلى الملتجإ الذي كان قد شيّده، ويتألف من غصنين متداخلين كان قد دفعهما في الأرض، وترك فوقها نصف متر منهما فقط. كان غصن خالٍ من الأوراق من شجرة الصنوبر يسند هذين الغصنين عند نقطة التقائهما. قطع بعد ذلك ثلاثة أغصان طويلة، ووضعها على الأرض، وأسندها إلى غصن الصنوبر، ثم غطّاها بطبقة كثيفة من أغصان الصنوبر الصغيرة، وهكذا أصبح لديه نوعٌ من السقف ليحميه من المطر، ويحفظ بعض الدفء، ويموّه وجوده إذا ضلَّ المارة طريقهم على الدرب على نحو غير متوقع. كان الأمر قد استغرق منه نحو نصف ساعة لينتهي من وضع الأغصان بتلك الطريقة التي تقيه من الريح.

اعتقد أن خطر رؤيته من الطريق، أو من قبل أي شخص في مكان قريب معدوم. سيتطلب الأمر شخصاً حاد البصر على نحو غير معتاد؛ ليميّز المثوى المؤقت بين جذوع الأشجار في غابة صنوبر كثيفة على بعد نحو ثلاثمئة متر. وزيادة في الحيطة كان قد غطّى الفتحة كلها تقريباً بأغصان صنوبر صغيرة أيضاً، وربط خرقاً حول ماسورة البندقية؛ حتى لا ينعكس ضوء شمس ما بعد الظهر المنخفضة عن الفولاذ.

تفقّد ساعته مجدداً. يا الله! أين هو؟

أدار برنت براندهوغ الكأس في يده، وتفقّد ساعته مجدداً. أين كانت بحقّ الله؟

كانا قد اتفقا على اللقاء عند الساعة 7:30، وقد أصبحت الساعة آنذاك 7:45. تجرّع ما تبقى من شرابه وسكب لنفسه كأساً أخرى من قارورة الشراب التي أحضرتها له المسؤولة عن خدمة الغرف. كان يوماً عصيباً؛ حيث كانت العناوين في داجبلايت قد جعلت الهاتف لا يتوقف عن الرنين أبداً. كان قد تلقى دعماً قوياً، لكنه في النهاية اتصل بمحرر الأخبار في داجبلايت، وهو صديق قديم منذ أيام الجامعة، وأوضح له أن كلامه قد أُسيء اقتباسه. كان قد وعده مقابل ذلك بمعلومات داخلية عن الخطإ الجسيم الذي ارتكبه وزير الخارجية في اجتماع لجنة المال الأوروبية. كان المحرّر قد طلب بعض الوقت للتفكير، واتصل به مجدداً بعد نصف ساعة. بدا أن ناتاشا تلك جديدة في مهنة الصحافة، وقد أقرّت بأنها ربما تكون قد أساءت فهم براندهوغ. لن ينشروا توضيحاً حول ذلك، لكنهم لن يتابعوا القضية أيضاً. كانت مناورة الحدّ من الأضرار ناجحة.

تجرّع براندهوغ كمية كبيرة من شرابه، وشمّ رائحته النفّاذة في القناة الأنفية. نظر حوله. كم ليلة كان قد أمضى في هذا المكان؟ كم مرة كان قد استيقظ في السرير ملكي الحجم والمريح وهو يعاني صداعاً بعد أن شرب كثيراً؟ كم مرة كان قد طلب من المرأة التي تنام إلى جانبه - إذا كانت لا تزال هناك - أن تستقل المصعد إلى قاعة الفطور في الطابق الأول، وتنزل السلالم؛ حتى يبدو الأمر وكأنها خارجة من اجتماع فطور، وليس من إحدى غرف النوم؛ حتى لا يكتشف أحد الأمر.

سكب لنفسه كأساً أخرى.

سيكون الأمر مختلفاً مع راكيل؛ فهو لن يرسلها إلى الأسفل إلى القاعة المخصصة لتناول الفطور.

سمع طرقاً خافتاً على الباب. وقف، وألقى نظرة أخيرة على غطاء

السرير الأصفر والذهبي الأنيق، وشعر بقشعريرة خوف صغيرة، تخلّص منها مباشرة، ومشى أربع خطوات إلى الباب. نظر إلى نفسه في مرآة الردهة، ومرّر لسانه على أسنانه الأمامية البيضاء، ثم رطّب إصبعه ومرّرها على حاجبيه وفتح الباب.

كانت تستند إلى الجدار وقد حلّت أزرار معطفها، فبدا فستانها الصوفي الأحمر تحته. كان قد طلب منها ارتداء شيء أحمر. كان جفناها ثقيلين، وابتسمت له بتكلّف. أُصيب براندهوغ بالدهشة؛ إذ لم يسبق له أن رآها تنظر إليه بمثل تلك الطريقة من قبل. لا بدّ من أنها كانت تشرب، أو تتناول نوعاً من الحبوب. أمعنت عيناها النظر إليه بفتور، وتعرّف صوتَها بصعوبة حين تمتمت شيئاً غير مترابط عن عدم عثورها على المكان. أمسك ذراعها، لكنها تملّصت منه؛ لهذا قادها إلى الغرفة ويده على ظهرها. رمت نفسها على الأريكة.

سأل: "هل تريدين شراباً؟".

قالت بكلمات مبهمة: "نعم، من فضلك، أم تفضّل أن أتعرّى مباشرة؟".

سكب براندهوغ كأساً لها من دون أن يجيب. كان يعرف ما ترمي إليه. لكن، إذا ظنّت أنها تستطيع إفساد متعته بتمثيل دور بائعة الهوى، فستكون مخطئة. حسناً، كان سيفضّل على الأرجح أن تختار الدور الذي يحبه من سبقوه في وزارة الخارجية؛ أي دور الفتاة البريئة التي تُعجب بسحر مديرها الذي لا يُقاوم، وثقته بنفسه، وفسوقه. لكن، أهم شيء كان خضوعها لرغباته. كان أكبر من أن يؤمن بالدوافع الرومانسية البشرية. كان الشيء الوحيد الذي يفصلهما هو ما يسعى إليه كلاهما: السلطة والمهنة، أو حضانة ابن.

لم يزعجه إطلاقاً أن النساء أُعجبن بمنصبه بصفته مديراً. بالمحصلة، كان معجباً بذلك هو أيضاً. كان برنت براندهوغ، معاون وزير الشؤون الخارجية. حُبًّا بالله، كان قد أفنى كل حياته ليصبح معاون وزير. إذا أرادت راكيل أن تتعاطى الممنوعات وتتصّرف مثل بائعة هوى، فإن ذلك لم يكن ليغير الحقائق.

قال وهو يضع قطعتي ثلج في شرابها: "أعتذر، لكن يجب أن أحظى بك. ستفهمين كل هذا على نحو أفضل عندما تزداد معرفتك بي. لكن، على أيّ حال، دعيني أشرح لك الدرس الأول، وأعطيك فكرة عمّا يجعلني قرادة (حشرة تمص الدم)".

أعطاها الكأس.

"يزحف بعض الرجال في الحياة وأنوفهم في الأرض، وهم قانعون بالفتات. فيما يقف الباقون منا على أقدامهم، ويمشون نحو الطاولة، ويجلسون في أماكن يستحقونها. نحن أقلّية؛ لأن أسلوب حياتنا يتطلّب منا أحياناً أن نكون قساة، وهذه القسوة تتطلّب قوة. يجب أن نحرّر أنفسنا من تنشئتنا الاجتماعية الديمقراطية التي تنادي بالمساواة بين البشر. إذا كان الخيار بين ذلك والزحف، فسأفضّل تحطيم الأخلاقيات قصيرة النظر التي لا تستطيع وضع أفعال الأفراد في سياقها الصحيح، وأؤمن حقاً أنك في أعماقك ستحترمينني من أجل ذلك".

لم ترد، وإنما تجرّعت الشراب دفعة واحدة.

قالت: "لم يكن هول يمثّل أي تهديد لك. أنا وهو صديقان فقط".

قال، وهو يملأ ببطء الكأس التي أعادتها إليه: "أظن أنكِ تكذبين. ويجب أن أحظى بكِ لنفسي. لا تُسيئي فهمي. عندما اشترطت عليك أن تنهي علاقتك بهول، لم يكن لذلك علاقة بالغيرة، وإنما بمبدأ الطهارة. بالرغم من ذلك، بضعة أسابيع في السويد، أو أياً يكن المكان الذي أرسله ميريك إليه، لن تؤذيه".

ضحك براندهوغ بصوت خافت.

"لماذا تنظرين إليّ على هذا النحو يا راكيل؟".

قالت وهي تبتعد عنه: "تربية جيدة".

ابتلع ريقه حين كان يحدّق إليها. كانت فاتنة، وكانت نضارة جلدها الذهبي ظاهرة للعيان. لم يكن ممكناً تخمين أنها قد أنجبت ولداً. كانت مثالية.

قال وهو يضع يده على ركبتها: "لسنا في عجلة من أمرنا". لم يشِ وجهها بأي تعبير، لكنه شعر بأنها فزعت.

قالت وهي تهزّ كتفيها: "افعل ما تريده".

"هل تودّين رؤية الرسالة أولاً؟".

أمال رأسه إلى جهة المغلّف البني الممهور بختم السفارة الروسية، والموجود وسطَ الطاولة. كانت الرسالة موجّهة من السفير فلاديمير ألكساندروف إلى راكيل فوك ويخبرها فيها أن السلطات الروسية تطلب منها تجاهل الاستدعاء السابق إلى جلسة الحضانة الخاصة بأوليغ فوك - غوسيف. كانت القضية كلها ستؤجّل إلى أجلٍ غير مسمى؛ نظراً إلى تراكم القضايا في المحاكم. لم يكن ذلك سهلاً، حيث كان على براندهوغ أن يذكّر السفير الروسي ببعض الخدمات التي يدين له بها؛ وأن يعرض عليه، إضافة إلى

ذلك، المزيد منها. كان بعضها من صلاحيات وزير الخارجية النرويجي.

قالت: "أثق بك. هل يمكننا الانتهاء من ذلك؟".

طرفت عينها بصعوبة حين مسّت كفّه وجنتها، لكن رأسها دار وكأنه متصل بدمية قماشية.

فرك براندهوغ يده وهو يتأملها بإمعان. قال: "لست غبية يا راكيل. ولهذا أظن أنكِ تعرفين أن هذا ليس إلا إجراءً مؤقتاً. يجب الانتظار ستة شهور قبل أن تسقط القضية بتقادم الزمن. قد يأتي استدعاء جديد في أي لحظة، وكل ما يتطلبه الأمر مكالمة هاتفية مني".

حدّقت إليه، ولاحظ أخيراً علامات حياة في عينيها الجامدتين.

قال: "أظن أن اعتذاراً منك لن يكون في غير مكانه".

خفق صدرها، وارتعش منخراها، وامتلأت عيناها بالدموع ببطء.

سأل: "إذاً؟".

"آسفة". كان صوتها مسموعاً بصعوبة.

"يجب أن ترفعي صوتك".

"آسفة".

ابتسم براندهوغ.

"حسناً، حسناً يا راكيل". مسح دمعة عن وجنتها. "سيكون كل شيء على ما يرام. يجب أن تعرفيني على نحو أفضل. أريد أن نكون صديقين. هل تفهمين يا راكيل؟".

أومأت.

"هل أنت واثقة؟".

تنشّقت الهواء ببطء، ثم أومأت مجدداً.

"هذا ممتاز".

كانت ليلة باردة على نحو غير معتاد، وقد دخل الرجل العجوز كيس نومه، وبالرغم من أنه كان يستلقي على طبقة كثيفة من أغصان الصنوبر الصغيرة إلا أن البرد تسلل إلى جسده من الأرض. كانت قدماه قد تيبستا، وكان عليه أن يقلب نفسه بين الحين والآخر من جانب إلى آخر؛ حتى لا يفقد الشعور بأعلى جسده أيضاً.

كانت النوافذ في المنزل لا تزال مضاءة، لكن الظلام كان حالكاً في الخارج آنذاك، ولم يعد يستطيع رؤية الكثير من خلال منظار البندقية. لم يكن الوضع ميؤوساً منه بعد. إذا عاد الرجل إلى منزله في ذلك المساء، فسيكون المصباح الخارجي فوق مدخل المرأب، قبالة الغابة، مضاءً. نظر

الرجل العجوز عبر المنظار. بالرغم من أن ضوء المصباح لم يكن قوياً، إلا أن لون باب المرأب كان ساطعاً بما يكفي ليظهر واضحاً أمامه.

قلب الرجل العجوز نفسه على ظهره. كان المكان هادئاً هناك، ولا بدّ من أنه سيسمع السيّارة حين تأتي؛ هذا إذا لم يستسلم للنوم. كانت نوبة الألم التي شعر بها في معدته قد أرهقته، لكنه لم يستطع النوم. لم يكن قد نام قطّ في أثناء مهمة من قبل؛ مطلقاً. شعر بالضغينة في داخله، وحاول تدفئة نفسه بها. كان شعوره هذا مختلفاً، وليس كأيّ شعور بالكراهية سبق له أن اضطرم بلهبٍ ثابتٍ داخله. وقد رافقته طوال تلك السنين، تستهلكه وتقضي على أي أفكار صغيرة لديه، وتسهم في تكوين وجهة نظره، وتسمح له برؤية الأشياء بطريقة أفضل. كانت تلك الكراهية الجديدة تشتعل بقوة كبيرة، ولم يكن واثقاً إن كان يتحكم بها، أم أنها تتحكم به. كان يعرف أنه يجب أن لا يسمح لنفسه بالانجرار خلفها، وأنّ عليه البقاء هادئاً.

نظر إلى السماء المزدانة بالنجوم من بين أغصان أشجار الصنوبر فوقه؛ كانت صافية جداً وباردة. كان سيموت، وسيلقى الجميع حتفهم. كانت فكرة جيدة، وحاول إبقاءها في ذهنه، ثم أغمض عينيه.

حدّق براندهوغ إلى الثريّا المعلّقة بالسقف. كان شريط ضوء أزرق من إعلان بلابونكت في الخارج ينعكس على شكل موشور داخل الغرفة.

قال: "يمكنك أن تذهبي الآن".

لم ينظر إليها، وسمع فقط الغطاء وهو يُدفع إلى الخلف، وشعر بالسرير يرتفع، ثم سمع صوت ارتداء الملابس. لم تكن قد تفوّهت بكلمة. استلقت هناك وعيناها الكبيرتان السوداوان المشدوهتان تمتلأن خوفاً، أو كراهية. كان ذلك ما جعله يشعر بعدم ارتياح...

كان قد تجاهل الأمر في البداية، وانتظر الإحساس. فكّر في نساء أخريات كان قد حظي بهن، وقد نجح الأمر في كل مرة، لكن الإحساس لم يأتِ، وطلب منها بعد بعض الوقت أن تتوقف عن لمسه؛ إذ لم يكن يريد أن يسمح لها بإذلاله.

أطاعت مثل رجل آلي، وتثبتت من الالتزام بجانبها من الصفقة، لا أكثر ولا أقل. كان يجب أن تنتظر ستة شهور حتى تسقط قضية حضانة أوليغ نتيجة مرور الزمن. كان الوقت طويلاً، ولا فائدة من الغضب؛ ستكون هناك أيام أخرى، وليالٍ أخرى.

كان قد عاد إلى البداية. لكن، من الواضح أنه قد أكثر من الشراب

الذي أفقده الإحساس، وجعله لا يستجيب لما تفعله، أو يفعله هو.

كان قد أمرها بالجلوس في حوض الاستحمام، وإعداد شراب لكليهما. ماء حار، وصابون. كان قد أسهب كثيراً في الحديث عن جمالها. لم تتفوّه بكلمة، وبقيت هادئة وباردة جداً. أصبح الماء في النهاية بارداً أيضاً، وقد جفّفها وأخذها إلى السرير مجدداً. أضحى جلدها بعد ذلك مشدوداً وجافاً، وقد بدأت ترتعش، وشعر بأنها قد بدأت تستجيب؛ أخيراً. ثم رأى عينيها مجدداً: كبيرتين، وسوداوين، وجامدتين. كان بصرها مثبتاً على نقطة في السقف، واختفى السحر مجدداً. شعر برغبة في صفعها، وإعادة الحيوية إلى عينيها الخاليتين من أي تعبير؛ برغبة في ضربها بظاهر يده، ليرى الجلد يتورّد، ويصبح متورماً وأحمر.

سمعها تأخذ الرسالة عن الطاولة، وتفتح مشبك حقيبتها.

قال: "يجب أن نقلل من الشراب في المرة التالية، وهذا ينطبق عليكِ أنت أيضاً".

لم تنبس ببنت شفة.

"سنلتقي في الأسبوع التالي يا راكيل، في المكان والزمان نفسيهما. لن تنسي، أليس كذلك؟".

قالت: "كيف يمكن أن أنسى؟". ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها.

نهض، وأحضر لنفسه شراباً آخر. شربه ببطء، ثم استلقى على ظهره.

انتصف الليل بسرعة، وأغمض عينيه، لكن النوم جافاه. استطاع أن يسمع صوت التلفاز من الغرفة المجاورة. مزّقت صفّارة شرطة سكون الليل. تباً! رفع رأسه واستدار. كان السرير المريح قد جعل ظهره متيبساً. لقد عانى دائماً مشكلات في النوم في هذا المكان، وليس بسبب السرير فقط. كانت الغرفة الصفراء هي السبب، وستبقى دائماً غرفة فندق، ومكاناً غريباً.

كان قد أخبر زوجته أنه سيحضر اجتماعاً في لارفيك. وكالمعتاد، عندما تسأله عن اسم الفندق الذي سيقيمون فيه، لا يستطيع تذكّر اسمه. تساءل هل هو ريكا؟ كان قد قال إنه إذا انتهى الاجتماع في وقت متأخر، فسيتصل بها؛ لكنكِ تعرفين طبيعة دعوات العشاء المتأخرة تلك يا عزيزتي.

حسناً، لم يكن لديها شيء تتذمر بشأنه. كانت الحياة التي تعيشها أفضل مما يمكن لها أن تتمنّى الحصول عليه. وبفضله، كانت قد سافرت إلى معظم أرجاء العالم، وعاشت في مساكن سفارات فخمة ممتلئة بالخدم في بعض أجمل مدن العالم، وتعلّمت لغاتٍ أجنبية، والتقت أشخاصاً مميزين. لم تضطر قطّ إلى أن ترفع إصبعاً طوال حياتها. ماذا ستفعل إذا اضطرت

إلى العيش بمفردها، وهي التي لم تعمل قطّ؟ كان هو أساس وجودها، وأسرتها، وباختصار كل ما تملكه. لا، لم يكن سيزعج نفسه بما تظنّه إلزا، أو لا تظّنه.

بالرغم من ذلك، كانت هي الشخص الذي يفكّر فيه في تلك اللحظة. كان يجب أن يكون هناك معها، ليكون هناك جسد دافئ ومألوف خلفه، وذراع حوله. نعم، إنه بحاجة إلى القليل من الدفء بعد كل تلك البرودة.

نظر إلى ساعته مجدداً. يمكن أن يقول إن العشاء قد انتهى باكراً، وإنّه قد قرّر العودة بسيارته إلى المنزل. ليس ذلك فقط، فهي ستكون سعيدة؛ كانت تكره من دون شك بقاءها بمفردها ليلاً في ذلك المنزل الكبير.

استلقى هناك وهو يصغي السمع إلى الأصوات الآتية من الغرفة المجاورة.

ثم نهض، وبدأ يرتدي ملابسه بسرعة.

لم يعد الرجل العجوز يشعر بالبرد، وهو يرقص. إنها رقصة فالس بطيئة، وقد وضعت وجنتها على عنقه. كانا يرقصان منذ وقت طويل، ويتصببان عرقاً، وجلدها الساخن جداً يحرق جلده. شعر بأنها تبتسم. أراد أن يستمر في الرقص على تلك الحال، وأن يمسكها ببساطة حتى يحترق المبنى كله، ويقف الزمن، وأن يستطيعا فتح عيونهما، ويكتشفا أنهما قد أصبحا في مكان مختلف.

همست شيئاً، لكن الموسيقى كانت عالية جداً.

قال وهو يحني رأسه: "ماذا؟". وضعت شفتيها قرب أذنه، وقالت: "يجب أن تستيقظ".

فتح عينيه بسرعة، ورمش في الظلام قبل أن يرى البخار الصادر من فمه معلّقاً في الهواء. لم يكن قد سمع السيارة تصل. انقلب، وتأوّه بصوت خافت، وحاول أن يسحب ذراعيه من تحته. كان صوت باب المرأب هو الذي أيقظه. سمع محرك السيارة، ولمح الفولفو الزرقاء وهي تختفي في المرأب المظلم. كانت ذراعه اليمنى قد تخدّرت. سيخرج الرجل مجدداً بعد بضع ثوانٍ، وسيقف تحت الضوء، ويغلق باب المرأب؛ وعندها... سيكون الأوان قد فات.

تحسس الرجل العجوز يائساً الزمام في كيس النوم، وأخرج ذراعه اليسرى. كان الأدرينالين يندفع في شرايينه، لكن النوم لم يدعه وشأنه؛ كان مثل طبقة من قطن طبي يكتم كل الأصوات، ويمنعه من الرؤية بوضوح.

سمع صوت باب السيارة يُغلق.

كانت كلتا ذراعيه خارج كيس النوم آنذاك، ولحسن الحظ منحته السماء المزدانة بالنجوم ضوءاً كافياً للعثور على البندقية ووضعها في مكانها. أسرع، أسرع! وضع وجنته على أخمص البندقية البارد. حدّق عبر المنظار. طرفت عينه، ولم يرَ شيئاً. نزع بأصابع مرتعشة الخرق التي كان قد لفّها حول المنظار لإبعاد الجليد عن العدسات. هذا هو المطلوب! وضع وجنته على أخمص البندقيّة مجدداً. ماذا الآن؟ كان المرأب خارج بؤرة التسديد، ولا بدّ من أنه قد حرّك أداة تعيين المدى. سمع طقطقة باب المرأب حين تمّ إغلاقه. عدّل المدى وظهر الرجل في البؤرة. كان رجلاً طويلاً، عريض الكتفين، يرتدي معطفاً صوفياً ويقف وظهره إليه. طرفت عين الرجل العجوز مرتين. كان الحلم لا يزال معلقاً مثل ضباب رقيق أمام عينيه.

أراد أن ينتظر حتى يستدير الرجل، ويتأكّد بما لا يدع مجالاً للشك من أنه الشخص المقصود. تكوّرت إصبعه حول الزناد، وضغط عليه بحرص. كان الأمر سيصبح أسهل مع السلاح الذي تدرّب عليه طوال سنين، حيث إنّ الضغط على الزناد يجري في عروقه، وكل الحركات تلقائية. ركّز على أنفاسه. قتل شخص ليس أمراً صعباً، خاصة إذا كنت قد تدرّبت على ذلك. في بداية معركة جتسبيرغ في العام 1863، وقف مجنّدان حديثاً على بعد خمسين متراً من بعضهما، وأطلقا النار على بعضهما المرة تلو الأخرى من دون أن يصيب أحدهما الآخر؛ ليس لأنهما كانا راميين سيئين، بل لأنهما سدّدا فوق رأسي بعضهما. لم يستطيعا ببساطة تجاوز عتبة قتل شخص آخر، لكن، عندما فعلا ذلك مرة...

استدار الرجل الواقف أمام المرأب، وبدا أنه ينظر إلى الرجل العجوز مباشرة. كان هو، ولا شك في ذلك. ملأ جذعه كل منظار البندقية تقريباً. بدأ الضباب في رأس الرجل العجوز يختفي. حبس أنفاسه وزاد الضغط على الزناد ببطء وهدوء. كان يجب أن تصيبه أول رصاصة؛ لأن الظلام حالك خارج دائرة الضوء إلى جانب المرأب. توقف الزمن. كان برنت براندهوغ رجلاً ميتاً، وكان ذهن الرجل العجوز صافياً تماماً آنذاك.

لهذا السبب شعر أنه قد فعل شيئاً خاطئاً قبل جزء من ألف من الثانية من قيامه بذلك. لم يتحرك الزناد. ضغط الرجل العجوز بقوة أكبر، لكن الزناد لم يتزحزح. قفل الأمان. عرف الرجل العجوز أن الأوان قد فات. عثر على قفل الأمان بإبهامه، وفتحه؛ ثم حدّق عبر المنظار إلى مخروط الضوء الخالي. كان براندهوغ قد ذهب، وراح يمشي نحو الباب الأمامي على

الجانب الآخر من المنزل، قبالة الطريق.

طرفت عين الرجل العجوز. كان قلبه يخفق داخل أضلاعه مثل مطرقة. أطلق زفيراً من رئتيه اللتين تؤلمانه. كان قد غفل لحظة. طرفت عينه مجدداً. بدا أن ما يحيط به يسبح في ضباب رقيق آنذاك. لقد فشل. ضرب الأرض بقبضتيه. لم يدرك أنه كان يبكي حتى سقطت أول دمعة حارة على ظاهر يده.

كليبان، السويد. 10 أيار 2000

أفاق هاري.

انقضت ثانية قبل أن يعرف مكانه. كان أول شيء خطر له بعد أن دخل الشقة هو أن النوم مستحيل؛ إذ لم يكن هناك إلا جدار رقيق، ولوح زجاجي واحد يفصل غرفة النوم عن الطريق المزدحم في الخارج. لكن، حين أغلق المتجر في الطرف الآخر من الطريق أبوابه في الليل، أصبح المكان هادئاً جداً. لم تمر السيارات إلا نادراً، وبدا أن السكان المحليين قد اختفوا.

كان هاري قد اشترى من المتجر بيتزا غرانديس، وهي الأكثر انتشاراً في النرويج، وسخّنها في الفرن. فكّر في أن جلوسه في السويد، وتناوله طعاماً إيطالياً مصنوعاً في النرويج أمر غريب. شغّل بعد ذلك التلفاز المغبرَّ الذي كان يجثم على صندوق في الزاوية. كان واضحاً أن التلفاز يعاني مشكلة ما؛ لأن وجوه كل الأشخاص فيه كانت خضراء اللون. جلس يشاهد فيلماً وثائقياً: كانت هناك فتاة تسرد قصة حياة شقيقها، الذي أمضى طفولته كلها في السبعينيات وهو يسافر في أرجاء العالم، ويبعث إليها الرسائل؛ من بيئة التشرّد في باريس، إلى رحلة على متن قطار في الهند، وصولاً إلى حافة اليأس في كوبنهاغن. كان الأمر بسيطاً جداً؛ بضع لقطات سينمائية معظمها صور ساكنة، وصوت معلّق، وقصة حزينة وكئيبة على نحو غريب. لا بدّ من أنه قد حلم بذلك؛ لأنه عندما استيقظ كانت الشخصيات والأماكن لا تزال ماثلة في شبكيتي عينيه.

كان المعطف الذي تركه يتدلى فوق كرسي المطبخ مصدر الصوت الذي أيقظه. ترددت أصداء رنين الهاتف الحادّ بين جدران الغرفة الخاوية. كان قد وضع لوحة المشع الإلكترونية على أقصى درجة، لكنه كان لا يزال يتجمّد تحت الغطاء الرقيق. وضع قدمه على المشمّع البارد، وأخرج الهاتف الخلوي من جيب معطفه الداخلي.

"مرحباً؟".

لا جواب.

"مرحباً؟".

كل ما استطاع سماعه في الطرف الآخر هو صوت التنفّس.

"هل هذه أنتِ يا أختاه؟".

كانت الشخص الوحيد الذي قد يفكّر فيه مباشرة، ولديه رقم هاتفه،

ويمكن أن يتصل به عند منتصف الليل.

"هل هناك خطب ما؟ مع هيلج؟".

كانت لديه شكوك بشأن إيداع الطائر عند شقيقته، لكنها بدت سعيدة جداً، وقد وعدت بأن تعتني به جيداً. لكنها لم تكن شقيقته؛ فهي لا تتنفس على هذا النحو عادة، وبالإضافة إلى ذلك كانت ستجيبه لو كانت هي المتصلة.

"من المتصل؟".

لا جواب بالرغم من ذلك.

كان على وشك إنهاء المكالمة حين سمع نشيجاً خافتاً. بدأت الأنفاس ترتعش، وبدا أن الشخص عند الطرف الآخر سيبكي. جلس هاري على الأريكة. واستطاع أن يرى من بين الستائر الزرقاء الرقيقة لافتة ضوئية لمتجر آي - سي - أيه.

أخرج هاري لفافة تبغ من علبة سجائر موضوعة على طاولة صغيرة إلى جانب الأريكة، أشعلها واسترخى إلى الخلف. سحب منها نفساً عميقاً فيما كان يسمع الأنفاس المرتعشة تتحول إلى نشيج خافت.

قال: "لا تبكي الآن".

مرّت سيارة في الخارج، وفكّر هاري في أنها فولفو من دون شك. وضع هاري الغطاء على ساقيه، ثم سرد قصة الفتاة وشقيقها الكبير، كما يتذكرها تقريباً. عندما انتهى لم تكن تبكي، وبعد أن قال عمتِ مساءً انتهت المكالمة.

عندما رنّ الهاتف الخلوي مجدداً كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة، وكان الضوء واضحاً في الخارج. بحث هاري عن الهاتف إلى أن وجده أخيراً تحت الغطاء، بين قدميه. كان ميريك هو المتصل، وبدا متوتراً.

قال: "عد إلى أوسلو مباشرة. يبدو أن شخصاً ما قد استخدم بندقية ماركلين تلك".

القسم السابع

مستشفى ريكس. 10 أيار 2000

عرف هاري برنت براندهوغ حالاً. كانت هناك ابتسامة عريضة على وجهه، وكان يحدّق إليه بعينين واسعتين.

سأل هاري: "لماذا يبتسم؟".

قال كلمتسن: "لا تسألني. تتيبّس عضلات الوجه، وتظهر على وجوه الناس كل أنواع التعابير الغريبة. يأتي إلينا بين الحين والآخر آباء لا يستطيعون التعرّف إلى أبنائهم لأن تعابير وجوههم قد تغيّرت كثيراً".

كانت طاولة التشريح موجودة وسطَ الغرفة. أبعد كلمتسن الملاءة؛ حتى يستطيعوا رؤية الرُّفات. غيّر هالفورسن رأيه على نحو مفاجئ، بعد أن كان قد رفض عرض هاري بالحصول على كريم النعناع قبل أن يدخلوا. كانت حرارة غرفة التشريح رقم 4 في قسم الطب الشرعي في مستشفى ريكس اثنتي عشرة درجة، ولم تكن الرائحة أسوأ شيء. لم يستطع هالفورسن أن يتوقف عن التقيؤ.

قال كنوت كلمتسن: "أتفق معك، إنه منظر مقزّز".

أومأ هاري. كان كلمتسن طبيباً بارعاً في علم الأمراض، ورجلاً لبقاً. كان يدرك أن هالفورسن جديد، ولم يرغب في أن يحرجه. لم تكن جثّة براندهوغ تبدو أسوأ من معظم الجثث. بكلمات أخرى، لم يكن يبدو أسوأ من التوأم الذي بقي ممدداً في الماء أسبوعاً، أو من الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً والذي تحطّمت سيارته في أثناء محاولته الهرب من الشرطة وهو يقود بسرعة 200 كيلومتر في الساعة؛ أو من المدمن على الشراب الذي أضرم النار في نفسه وجلس عارياً ومتدثّراً بسترة فرائية ذات قلنسوة. كان هاري قد رأى أشياء كثيرة، وفي ما يخص أبغض عشرة أمور بالنسبة إليه، كان برنت براندهوغ خارج اللائحة، لكنّ شيئاً واحداً كان واضحاً: هناك رصاصة قد اخترقت ظهر برنت براندهوغ، وبدا الأمر فظيعاً. كان الثقب في صدره الذي خرجت منه الرصاصة كبيراً بما يكفي ليضع هاري قبضته فيه.

قال هاري: "إذاً، دخلت الرصاصة من ظهره؟".

"من بين عظمي الكتفين تماماً، واتجهت نحو الأسفل. حطّمت العمود الفقري عند دخولها، والقص في طريق خروجها. كما ترى، هناك أجزاء من القص مفقودة، ولقد وجدوا آثاره على مقعد السيارة".

"على مقعد السيارة؟!".

"نعم، كان قد فتح باب المرأب آنذاك، في طريقه إلى العمل على الأرجح، فاخترقت الرصاصة جسده على نحو مائل، عبر الزجاج الخلفي، واستقرت في الجدار في نهاية المرأب".

سأل هالفورسن الذي بدا أنه استعاد رباطة جأشه: "أي نوع من الرصاصات تلك؟".

قال كلمتسن: "سيكون على خبراء المقذوفات الإجابة عن هذا السؤال. لكن أثرها كان بين دمدم ومثقب أنفاق. كان المكان الوحيد الذي رأيت فيه شيئاً مماثلاً هو كرواتيا، حين كنت أعمل في مهمة للأمم المتحدة في العام 1991".

قال هاري: "إنّها رصاصة مجنّحة. لقد وجدوا بقاياها، وقد اخترقت نصف سنتيمتر في الجدار. كانت الخرطوشة التي عثروا عليها عند الأشجار القريبة من النوع نفسه الذي وجدته في سيلجان في الشتاء الماضي؛ لهذا السبب اتصلوا بي مباشرة. ماذا يمكنك أن تخبرنا غير ذلك يا كنوت؟".

لم يكن هناك الكثير. قال إنهم قد أنهوا تشريح الجثة آنذاك، بحضور كريبوس كما ينص القانون. كان سبب الوفاة واضحاً، وبخلاف ذلك لم تكن هناك إلا نقطتان اعتبر أنهما تستحقان الذكر: كانت هناك آثار شراب في دم براندهوغ، وعُثر على إفرازات أنثوية تحت ظفر إصبعه الوسطى اليمنى.

سأل هالفورسن: "هل هي زوجته؟".

قال كلمتسن وهو ينظر إلى الشرطي الشاب من فوق نظارته: "سيتأكد فريق الطب الشرعي من ذلك إذا ظنّ أن الأمر ضروري. قد لا تكون هناك حاجة إلى طرح ذلك النوع من الأسئلة الآن، إلا إذا كنت تظن أنّ له علاقة بالتحقيق".

هزّ هاري رأسه.

انتقلا بالسيارة إلى سوغنسفان، ثم إلى بدر أنكرز قبل الوصول إلى منزل براندهوغ.

قال هالفورسن: "إنّه منزل قبيح".

رنّا الجرس، وانقضى بعض الوقت قبل أن تفتح الباب امرأة تضع تبرجاً كثيفاً، في الخمسينيات من عمرها.

"إلزا براندهوغ؟".

"أنا شقيقتها. ما الأمر؟".

أظهر هاري بطاقته.

قالت الشقيقة بصوتٍ يكتم غضبها: "هل هناك المزيد من الأسئلة؟".

أومأ هاري، وعرف تقريباً ما كان ينتظره.

"بصراحة! إنها مرهقة تماماً، ولن يعيد ذلك زوجها، كل...".

قاطعها هاري بتهذيب: "أعتذر، لكننا لا نفكّر في زوجها. إنه ميت. نحن نفكّر في الضحية التالية، ونأمل ألا يضطر شخص آخر إلى معاناة ما تختبره الآن".

وقفت الشقيقة هناك وفمها مفتوح، من دون أن تعرف كيف تُكمل جملتها. ساعدها هاري على الخروج من حيرتها بسؤالها إن كانا يجب أن يخلعا حذاءيهما قبل أن يدخلا.

لم تبدُ السيدة براندهوغ منهكة جداً كما وصفتها شقيقتها. كانت تجلس على الأريكة، وتحدّق إلى الخواء، لكن هاري لاحظ أدوات حياكة تبرز من تحت وسادة، وفكّر في أنّه ليس هناك أي خطب في الحياكة بعد أن يكون الزوج قد لقي حتفه غيلة. على العكس، ظنّ هاري أن ذلك طبيعي تماماً، وشيء مألوف تتشبث به في حين ينهار باقي العالم من حولك.

قالت: "سأغادر الليلة إلى منزل شقيقتي".

قال هاري: "فهمت أن الشرطة ستضع حارساً قرب منزلك حتى إشعار آخر، في حال...".

قالت وهي تومئ: "في حال كانوا يسعون خلفي أنا أيضاً".

سأل هالفورسن: "هل تظنين أنهم يريدون النيل منك؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن هم؟".

هزّت كتفيها، وحدّقت إلى خارج النافذة؛ إلى ضوء النهار الباهت الذي يدخل الغرفة.

قال هاري: "أعرف أن كريبوس كان هنا وسألك عن هذا، لكنني أتساءل أيضاً إن كنت تعرفين ما إذا كان زوجك قد تلقّى أي تهديدات بعد المقالة الصحفية في داجبلايت أمس".

قالت: "لم يتصل بنا أحد هنا، لكنك لا تستطيع العثور إلا على اسمي أنا في دليل الهاتف. ذلك ما أراده برنت. يجب أن تسأل وزارة الخارجية إن كان أحد قد اتصل".

قال هالفورسن، وهو يتبادل النظرات مع هاري: "لقد فعلنا ذلك. ونحن نحاول اقتفاء أثر المكالمات الواردة إلى مكتبه أمس".

طرح هالفورسن بضعة أسئلة عن أعداء محتملين لزوجها، لكنها لم تكن تعرف الكثير لتساعدهما.

جلس هاري، واستمع إليها لبعض الوقت حتى خطرت له فكرة فجأة. سأل: "ألم تكن هناك أي اتصالات هاتفية أمس؟".

قالت: "نعم، تلقينا على الأرجح بعض الاتصالات".

"من اتصل؟".

"شقيقتي، وبرنت، ومؤسسة استطلاعات رأي، أو أخرى إذا كنت أتذكر بدقة".

"ماذا سألوا؟".

"لا أعرف. طلبوا أن يتحدثوا إلى برنت. لديهم لوائح أسماء، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى العمر والجنس...".

"طلبوا أن يتكلموا مع برنت براندهوغ، أليس كذلك؟".

"نعم...".

"لا يستخدمون الأسماء في استطلاعات الرأي. هل سمعت أي ضوضاء في الخلفية؟".

"ماذا تعني؟".

"في مكاتب استطلاعات الرأي تكون المكاتب مفتوحة على بعضها، ويوجد الكثير من الأشخاص الآخرين؛ لذا تكون الضوضاء واضحة وعالية".

قالت: "كان هناك شيء، لكن...".

"لكن؟".

"ليست الضوضاء التي تفكّر فيها. كانت... مختلفة".

"متى تلقيت هذه المكالمة؟".

"عند منتصف اليوم تقريباً، كما أظن. قلت إنه سيعود إلى المنزل بعد الظهيرة. لقد نسيت أن برنت سيذهب إلى لارفيك؛ لتناول العشاء مع مجلس المصدّرين".

"طالما أن اسم برنت ليس مدرجاً في دليل الهاتف، فهل خطر لك أن المتصل قد يكون شخصاً يتصل بكل من اسمه براندهوغ؛ ليكتشف أين يعيش برنت؟ ويعرف متى سيعود إلى المنزل؟".

"لا أفهمك...".

"مؤسسات استطلاع الرأي لا تتصل بمنزل رجل موظف وسطَ يوم عمل".

استدار هاري إلى هالفورسن.

"تفقّد الخدمة مع تيلينور؛ لترى إن كان بمقدورك معرفة الرقم الذي تم الاتّصال منه".

قال هالفورسن: "اعذريني يا سيدة براندهوغ، لاحظت أن لديكِ هاتف آي - أس - دي - أن (الشبكة الرقمية للخدمات المتكاملة) أسكوم جديداً في الردهة. إنّ لديّ الجهاز نفسه، وستكون آخر عشر مكالمات مخزّنة في الذاكرة مع الرقم والتاريخ. هل تسمحين...؟".

نظر هاري إلى هالفورسن موافقاً قبل أن يقف على قدميه. رافقته شقيقة السيدة براندهوغ إلى الردهة.

أخبرت السيدة براندهوغ هاري بابتسامة ساخرة: "كان برنت عتيق الطراز بطريقة ما، لكنه يحب شراء أشياء حديثة حين تظهر؛ كالهواتف وذلك النوع من الأشياء".

"كم كان عتيق الطراز في ما يتعلق بالإخلاص يا سيدة براندهوغ؟".

ارتفع رأسها.

قال هاري: "ظننت أن بمقدورنا مناقشة هذا الأمر حين نصبح وحدنا. توثّق كريبوس مما قلته لهم في وقت سابق اليوم، ولم يكن زوجك في أي اجتماع مع مجلس المصدّرين في لارفيك أمس. هل كنتِ تعرفين أن وزارة الخارجية تحجز غرفة في الكونتيننتال تحت تصرفه؟".

"لا".

"أخبرني بذلك مديري في الاستخبارات السرية هذا الصباح. تبين أن زوجك كان هناك بعد ظهر الأمس. لا نعرف إن كان وحده. لكن، بالطبع تخطر للمرء أفكار معينة حين يكذب زوج على زوجته، ويذهب إلى فندق".

أمعن هاري النظر إلى وجهها فيما كانت تعابيره تتبدّل من غضب، إلى يأس، إلى كآبة، إلى... ضحك؛ ضحك بدا مثل نحيب خافت.

قالت: "في الواقع، يجب أن لا أتفاجأ. إذا كان لا بدّ من أن تعرف، فإنه كان... عصرياً جداً في ذلك الموضوع أيضاً، بالرغم من أنني لا أرى علاقة لذلك بالقضية".

قال هاري: "ربما منح ذلك السبب زوجاً غيوراً الحافز لقتله".

"هذا يمنحني حافزاً أيضاً يا سيد هول. هل فكّرت في ذلك؟ عندما عشنا في نيجيريا كانت تكلفة قاتل مأجور مئتي كرون نرويجي". ضحكت الضحكة الخافتة نفسها. "ظننت أنك قلت إن الحافز كان التصريح الذي ظهر في داجبلادت".

"نحن نستعرض كل الخيارات".

قالت: "عادة كن نساءً يلتقيهنّ في العمل. بالطبع، لا أعرف كل ما يجري، لكنني أمسكت به متلبساً مرة، ثم رأيت النمط يتكرّر، وكيف كان

يقوم به. لكن، جريمة!؟". هزّت رأسها. "لا تطلق النار على شخص من أجل ذلك الشيء هذه الأيام، أليس كذلك؟".

نظرت إلى هاري، الذي لم يعرف كيف يرد. استطاع أن يسمع عبر الباب الزجاجي المؤدي إلى ردهة المدخل صوت هالفورسن العميق. تنحنح هاري: "هل تعرفين إن كان يقيم علاقة مع امرأة معينة مؤخّراً؟".

هزّت رأسها. "اسأل في وزارة الخارجية. إنها بيئة غريبة، كما تعلم. يجب أن يكون هناك شخص أكثر من مستعد لمنحك دليلاً".

قالت ذلك من دون ضغينة، وكأنها مسألة معلومات فقط.

رفع كلاهما بصرهما حين دخل هالفورسن الغرفة.

قال: "هذا غريب. لقد تلقيتِ مكالمة هاتفية عند الساعة 12:24 يا سيدة براندهوغ، لكن ليس في الأمس، وإنما في اليوم الذي سبقه".

قالت: "يا الله! ربما اختلطت عليّ الأمور. حسناً، إذاً لا علاقة لها بالقضية".

قال هالفورسن: "ربما لا. تفقّدت الرقم من الاستعلامات على أيّ حال. جاءت المكالمة من هاتف في مقهى شرودر".

قالت: "مقهى؟ نعم، هذا سيفسّر على الأرجح الضوضاء في الخلفية. هل تظن...؟".

قال هاري وهو ينهض: "قد لا يكون لهذا الاتّصال بالضرورة أي علاقة بمقتل زوجك. هناك الكثير من الأشخاص الغرباء في شرودر".

رافقتهما إلى الدرجات الأمامية. كان الجو في الخارج مكفهراً بعد ظهيرة ذلك اليوم، وكانت هناك غيوم منخفضة تغطي التلة خلفهم.

وقفت السيدة براندهوغ وهي تشبك ذراعيها؛ وكأنها تتجمد من البرد.

قالت: "الظلام حالك هنا. هل لاحظتما ذلك؟".

كانت وحدة شعبة الجريمة لا تزال تمشّط المنطقة حول المكان الذي كانوا قد عثروا فيه على الخرطوشة، فيما كان هاري وهالفورسن يقتربان من الأرض البور.

سمعا صوتاً يصرخ حين انحنيا ومرّا من تحت الشريط الأصفر: "مهلاً، أنتما هناك!".

أجاب هاري: "نحن من رجال الشرطة".

صرخ الصوت نفسه: "لا يمثّل هذا الأمر أي فرق! يجب أن تنتظرا حتى ننتهي".

كان ويبر ينتعل حذاءه المطاطي العالي، ويرتدي معطفاً غريباً أصفر

اللون مخصّصاً لحمايته من المطر. انحنى هاري وهالفورسن، ومرّا من تحت الشريط مجدّداً عائدين أدراجهما.

صرخ هاري: "ويبر".

فأجابه هذا الأخير وهو يلوّح لهما لينصرفا: "لا وقت لديّ".

"لحظة واحدة فقط".

اقترب ويبر بخطوات واسعة، وتعبير غاضب يبدو على وجهه.

صاح من مسافة عشرين متراً: "ماذا تريد؟".

"كم بقي ينتظر؟".

"الرجل هنا؟ لا فكرة لدي".

"هيا يا ويبر. تخمين".

"من يعمل على هذه القضية؟ أنت أم كريبوس؟".

"كلانا. لم ننسق بعد".

"وهل تحاول خداعي بأنكما ستفعلان ذلك؟".

ابتسم هاري وأخرج لفافة تبغ.

"لقد خرجت ببعض التخمينات الصائبة من قبل يا ويبر".

"أوقف هذا التملّق يا هول. من الشاب؟".

قال هاري قبل أن تسنح لهالفورسن فرصة التعريف عن نفسه: "إنّه هالفورسن".

قال ويبر وهو ينظر إلى هاري بازدراء لم يحاول إخفاءه: "أصغِ إليّ يا هالفورسن. التدخين عادة مقزّزة، وهو الإثبات الأخير بأنّ البشر الموجودين هنا على الأرض إنّما هم موجودون من أجل شيء واحد فقط: المتعة. ترك الرجل الذي كان هنا ثمانية أعقاب في قارورة ماء نصف مملوءة. لفائف تبغ تيدي من دون مَرشَح. ومدخنو تيدي لا يقنعون باثنتين في يوم واحد. لهذا إن لم تكن اللفائف قد نفدت منه، فتقديري أنه بقي هنا أربعاً وعشرين ساعة على الأكثر. كان قد اقتطع من أسفل الأشجار أغصان الصنوبر الصغيرة التي لا تستطيع الأمطار الوصول إليها. لكن، كانت هناك قطرات ماء على أغصان الصنوبر التي تغطي الملجأ. هطل المطر آخر مرة عند الساعة الثالثة من بعد ظهر أمس".

سأل هالفورسن: "إذاً، كان يستلقي هنا بين الساعة الثامنة مساءً والثالثة صباحاً من أمس؟".

قال ويبر باقتضاب، وعيناه لا تزالان على هاري: "أظن أن هالفورسن سيمضي قدماً، خاصة إذا أخذنا بالحسبان المنافسة التي سيواجهها في سلك

الشرطة؛ إنها تصبح أسوأ فأسوأ. هل رأيت نوع الأشخاص الذين يجندونهم في كلية الشرطة الآن؟ حتى المعلّم الذي يدرّب الطلاب أضحى عبقرياً مقارنة بالهراء الذي نحصل عليه".

بدا أن ويبر لم يعد فجأة في عجلة من أمره، وألقى خطبة لاذعة وطويلة عن الآفاق الكئيبة لقوة الشرطة.

سأل هاري بسرعة حين توقف ويبر ليلتقط أنفاسه: "هل رأى أحد من القاطنين في الجوار أي شيء؟".

"لدينا أربعة رجال ينتقلون من منزل إلى آخر الآن، لكن معظم الناس لن يعودوا إلى بيوتهم حتى وقت متأخر. لن يعثروا على أي شيء".

"لماذا؟".

"لا أظن أنه ظهر في الأنحاء. أطلقنا في وقت مبكر اليوم كلباً تعقّب خطواته في الغابة مسافة كيلومتر، وصولاً إلى أحد الدروب. لكننا أضعناه هناك. أظن أنه سلك الطريق نفسها في المجيء والعودة، بين سوغنسفان وبحيرة ماريدال، وكان بمقدوره أن يركن سيارته في عشرة مواقف للمشاة على الأقل، في هذه المنطقة. وهناك الآلاف الذين يستخدمون هذه الطريق كل يوم، ويحمل نصفهم على الأقل حقائب ظهر، كما تعرفان؟".

"نعرف ذلك".

"وستسألني الآن على الأرجح إن كانت هناك أي بصمات".

"حسناً...".

"هيّا".

"ماذا عن قارورة الماء؟".

هزّ ويبر رأسه.

"ليست هناك بصمات. لا شيء. نظراً إلى المدة التي أمضاها هنا، لم يترك على نحو مدهش إلا آثاراً قليلة. سنتابع البحث، لكنني واثق تماماً من أن آثار الحذاء، وبضعة ألياف من ملابسه هي كل ما سنعثر عليه".

"إضافة إلى الخرطوشة".

"لقد تركها عمداً. فقد أُزيل كل شيء آخر بمهارة".

"آه، ربما هي بمثابة تحذير. ما رأيك؟".

"ما رأيي؟ ظننت أن الشباب فقط هم الذين يتمتعون ببعض الذكاء. إنه الانطباع الذي يحاولون الترويج له في الشرطة هذه الأيام".

"هذا صحيح. شكراً على مساعدتك يا ويبر".

"واحتفظ بعقب لفافة التبغ يا هول".

قال هالفورسن في السيارة، وهما في طريقهما إلى وسط المدينة: "إنّه متزمّت قليلاً".

أقرّ هاري: "يكون تقبّل ويبر صعباً أحياناً، لكنه يتقن عمله".

نقر هالفورسن نغمة أغنية على لوحة القيادة، ثم سأل: "وماذا سنفعل الآن؟".

"سنذهب إلى كونتيننتال".

كان كريبوس قد اتصل هاتفياً بكونتيننتال بعد خمس عشرة دقيقة من قيامهم بتغيير الملاءات في غرفة براندهوغ وغسلها. لم يلاحظ أحد أن براندهوغ قد استقبل زائراً، وعرفوا فقط أنه غادر عند منتصف الليل تقريباً.

وقف هاري في ردهة الاستقبال، وهو يدخّن آخر لفافة تبغ لديه، فيما كان رئيس قسم الاستقبال المناوب في الليلة السابقة يفرك يديه، ويبدو محبطاً.

قال: "لم نعرف أن السيد براندهوغ قد قُتل برصاصة حتى وقت متأخر من الصباح، وإلا ما كنّا لنمسّ غرفته".

أشار هاري متفهّماً، وسحب نفساً عميقاً من لفافة التبغ. لم تكن غرفة الفندق مسرحاً لأي جريمة، وكان مثيراً للاهتمام العثور ببساطة على أي شعر أشقر على الوسادة، والاتصال بالشخص الأخير الذي تكلم مع براندهوغ.

قال الرجل مبتسماً على نحو يوحي بأنّه على وشك أن يبكي: "حسناً. إذاً هذا كل شيء".

لم يجب هاري. كان قد لاحظ أن رئيس قسم الاستقبال يصبح أكثر توتراً كلما قلّ كلامه هو وهالفورسن. لهذا لم يقل شيئاً، بل انتظر وراقب وهج سيجارته.

قال موظف الاستقبال وهو يمرّر يداً على طول طية سترته: "أفٍّ...".

انتظر هاري، وأمعن هالفورسن النظر إلى الأرضية. صمت رئيس قسم الاستقبال خمس عشرة ثانية بصعوبة قبل أن يتكلم ويقول: "بالطبع، كان يستقبل زواراً هناك بين الفينة والأخرى".

قال هاري من دون أن يشيح بصره عن وهج سيجارته: "من؟".

"نساء ورجال...".

"من؟".

"في الحقيقة، لا أعرف. ليس من شأننا أن نعرف من الذي يختار

معاون الوزير تمضية وقته معه".

"حقاً؟".

صمت.

"بالطبع، إذا جاءت امرأة ليست نزيلة إلى هنا، فنحن لا نسجل ملاحظة عن الطابق الذي تستقل المصعد إليه؟".

"هل يمكنك أن تتعرّف إليها؟".

"نعم". جاء الرد مثل رصاصة، من دون تردد. "كانت جذّابة جداً، وثملة بشدة".

"بائعة هوى؟".

"إذا كانت كذلك فهي من الطبقة المخملية. إنهنّ يأتين بكامل رشدهن. حسناً، لا أعرف الكثير عنهن. هذا الفندق ليس...".

قال هاري: "شكراً".

حملت ريح جنوبية الدفء معها. وعندما غادر هاري مقر قيادة الشرطة بعد اجتماعه مع ميريك وقائد الشرطة، عرف على نحو فطريّ أن شيئاً قد انتهى. كان موسم جديد قد بدأ.

كانت قائد الشرطة وميريك يعرفان براندهوغ، ووجد كلاهما - رسمياً فقط - أن من الضروري تكثيف الجهود. كان واضحاً أن الاثنين قد ناقشا القضية على انفراد. افتتح ميريك الاجتماع بقرار إلغاء المهمة السرية في كليبان. بدا مرتاحاً تقريباً، كما لاحظ هاري. وبعد ذلك، قدّمت قائد الشرطة عرضها، وأدرك هاري أن أعماله البطولية في سيدني وبانكوك قد تركت أثراً في الدوائر العليا في قوة الشرطة.

كانت قائد الشرطة قد قالت عن هاري إنّه كنّاس نموذجي، ثم شرحت الدور الذي سيلعبه.

إنّه موسم جديد. جعلت الريح الدافئة والجافة هاري يشعر بالدوار، فأجاز لنفسه أن يستقل سيارة أجرة؛ لأنه لا يزال يجر خلفه رِجلاً ثقيلة. كان أول شيء فعله حين دخل شقته في بوابة صوفيز هو تفقّد المجيب الآلي. كانت العين الحمراء مضاءة. لا يوجد وميض، ولا رسائل.

كان قد طلب من ليندا نسخ ملف القضية، وأمضى ما تبقى من الأمسية وهو يراجع كل ما لديهم عن جريمتي قتل هالغريم ديل وإيلين غيلتن. لم يكن يتوقع العثور على شيء جديد. لكن، ربما حفّز هذا الأمر مخيلته. نظر من وقت لآخر إلى الهاتف، متسائلاً كم يستطيع الانتظار قبل أن يتصل بها. كانت قضية براندهوغ النبأ الرئيس في أخبار التلفاز. أوى إلى

السرير عند منتصف الليل، ثم نهض عند الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل، وسحب مقبس الهاتف، ووضع الجهاز في الثلاجة، ونام عند الساعة الثالثة.

مكتب مولر. 11 أيار 2000

قال مولر بعد أن شرب هاري وهالفورسن أول رشفة من القهوة: "حسناً؟". كان هاري قد أخبره مكشّراً ما فكّر فيه.

"أظن أن الصلة بين المقال الذي نشر في الصحيفة وجريمة القتل واهية".

"لماذا؟". شدّ مولر ظهره.

"كان القاتل، برأي ويبر، يختبئ في الغابة منذ وقت مبكر من اليوم؛ أي بعد عدّة ساعات فقط من نشر داجبلايت المقال. لم يكن ذلك فعلاً عفوياً، وإنما هو هجوم خُطط له بعناية. كان القاتل يعرف أنه سيطلق النار على براندهوغ منذ بضعة أيام. لقد تفقّد المكان، وعرف أوقات وصول براندهوغ ومغادرته، وعثر على أفضل مكان ليطلق النار منه من دون أن يراه أحد، وعرف كيف سيدخل ويخرج، ومئات التفاصيل الصغيرة".

"إذاً، تظن أن هذه هي الجريمة التي اشترى بندقية ماركلين لتنفيذها؟".

"ربما، وربما لا".

قال مولر بحدّة: "شكراً. يجعلنا هذا نقطع شوطاً طويلاً".

"أعني فقط أنه احتمال. من ناحية أخرى، الأمر كله غير منطقي. يبدو مبالغاً فيه أن تقوم بتهريب بندقية الاغتيال الأغلى ثمناً في العالم لقتل موظف حكومي يشغل منصباً مرموقاً لكن لا يرافقه حارس شخصي أو أي موظف أمن. يستطيع أي قاتل ببساطة رنّ جرس الباب وإطلاق النار عليه باستخدام مسدس من مدى قريب. هذا يشبه... يشبه...".

أشار هاري بحركات دائرية بيديه.

قال هالفورسن: "إطلاق النار على عصافير دوري من مدفع".

قال هاري: "بالضبط".

"همم". أغمض مولر عينيه. "وما الدور الذي تراه لنفسك في سياق التحقيق يا هاري؟".

ابتسم هاري: "أرى نفسي كنّاساً نوعاً ما. أنا شخص من الاستخبارات السرية يقوم بعمله، لكن يمكنني طلب المساعدة من كل الأقسام الأخرى عند الضرورة. أنا رجل يقدم تقاريره إلى ميريك، لكنه يستطيع الاطلاع على كل الوثائق في القضية، ويطرح أسئلة، ولا يجيب عن أسئلة الآخرين؛ ذلك الصنف من الأشخاص".

قال مولر: "ماذا عن رخصة للقتل أيضاً؟ وسيارة سريعة جداً؟".

قال هاري: "في الواقع، هذه ليست فكرتي. لقد كان ميريك يتكلم مع قائد الشرطة".

"قائد الشرطة؟".

"نعم. أفترض أنك ستتلقى بريداً إلكترونياً عن هذا في أثناء النهار. تحظى قضية براندهوغ بأولوية قصوى منذ هذه اللحظة، ولا تريد قائد الشرطة أن نترك أي حجر من دون أن نقلبه. إنه أحد إجراءات مكتب التحقيقات الاتحادي، حيث تتداخل مهمات فرق تحقيق مختلفة إلى درجة ما لتفادي نمطية الأفكار في مثل هذه القضايا الكبيرة. لا بدّ من أنك قد قرأت عن ذلك".

"لا".

"القصد هو أنه حتى إذا اضطررت إلى إنجاز بعض المهمات مرتين، وحتى إذا نفّذت فرق مختلفة العمل نفسه عدّة مرات، فإن أفضليات مقاربات مختلفة وأساليب متنوّعة في التحقيق تفوق ذلك أهمية".

قال مولر: "شكراً. ما علاقة هذا بي؟ لماذا تجلس هنا الآن؟".

"لأنني، كما قلت، يمكنني طلب المساعدة من كل الأقسام...".

"... الأخرى عند الضرورة. سمعت ذلك. فلتتفوّه بما تفكّر فيه يا هاري".

أمال هاري رأسه نحو هالفورسن الذي كان يبتسم بارتباك وهو ينظر إلى مولر، فتأوّه هذا الأخير ما إن فهم مُراده.

"أرجوك يا هاري! تعرف أننا نعاني نقصاً كبيراً في شعبة الجريمة".

"أعدك أن تسترجعه بحال جيدة".

"قلت لا!".

لم يقل هاري شيئاً. انتظر، شبك أصابعه، ونظر بإمعان إلى لوحة قلعة سوريا ماريا (لكيتلسن ثيودور: أشهر رسّامي النرويج) المعلّقة على الجدار فوق رفوف الكتب؛ وهي نسخة عن اللّوحة الأصلية وزهيدة الثمن.

سأل مولر: "متى سيعود؟".

"عندما تنتهي القضية".

"عندما... هذه هي الطريقة التي يجيب فيها رئيس قسم يا هاري، وليس العكس".

هزّ هاري كتفيه. "آسف أيها المدير".

آيرشفاين. 11 أيار 2000

كان قلبها يخفق مثل آلة خياطة تعمل بسرعة حين رفعت السمّاعة.

قال الصوت: "مرحباً سيغني. هذا أنا".

شعرت بأنها تذرف الدموع مباشرة.

همست: "توقف عن هذا، رجاءً".

"حتى يفرّقنا الموت. ذلك ما قلته يا سيغني".

"سأنادي زوجي".

ضحك المتصل بصوت خافت، ثم قال: "لكنه ليس موجوداً، أليس كذلك؟".

كانت تضغط على الهاتف بقوة كبيرة آلمت يدها. كيف استطاع أن يعرف أن إيفن ليس في المنزل؟ ولماذا لا يتصل إلا عندما يكون إيفن خارج البيت؟

جعلت الفكرة التالية حلقها يضيق، فأصبح تنفسها صعباً وبدأت تشعر بالدوار. هل كان يتصل من مكان يستطيع منه رؤية المنزل، ورؤية إيفن حين يخرج منه؟ لا، لا، لا. استعادت رباطة جأشها بعزيمة قوية وركّزت على التنفّس: أنفاس عميقة ليست سريعة جداً. قالت لنفسها الكلمة نفسها التي كانت تقولها للجنود الجرحى الذين يُحضرون إليها من الخنادق، وهم يصرخون مذعورين ويتنفّسون بصعوبة؛ اهدئي. استطاعت السيطرة على خوفها، وعرفت من الأصوات في الخلفية أنه يتصل من مكان مزدحم بالناس. كان منزلها في منطقة سكنية.

قال الصوت: "كنتِ بارعة الجمال في رداء الممرضة يا سيغني، وتتألقين بياضاً ونقاءً؛ مثل أولاف ليندفيغ (قائد أس - أس النرويجية) في ردائه الأبيض. هل تتذكرينه؟ كنت عفيفة وظننت أنكِ لن تخونينا أبداً؛ لأن ذلك ليس من شيمك. ظننت أنك مثل أولاف ليندفيغ. رأيتك وأنت تلامسين شعره يا سيغني، في ليلة أضاءها القمر. بدوتما شبيهين بتلك الكائنات البيضاء ذات الأجنحة لكنني كنت مخطئاً. هل تعرفين هذا؟".

لم ترد. دارت الأفكار في رأسها مثل عاصفة، وجعلها شيء قاله تتحرك بسرعة. الصوت؛ استطاعت سماعه آنذاك، وكان يغيّر نبرته.

أرغمت نفسها على أن ترد: "لا".

"لا؟ يجب أن تعرفي ذلك. يمكنك اعتباري أحد تلك الكائنات. ولكن، لن تكوني مخطئة مثلي!".

قالت: "دانيال ميت".

أطبق الصمت عند الطرف الآخر، ولم تعد تسمع إلا صفير أنفاسه عبر قطعة القماش. تكلم الصوت مجدداً: "لقد أصدرت الحكم، على الأحياء والأموات". ثم أغلق السمّاعة.

أغمضت سيغني عينيها، ثم نهضت وذهبت إلى غرفة النوم. وقفت خلف الستائر المغلقة ورأت صورتها المنعكسة على زجاج النافذة. كانت ترتعش وكأنها مصابة بحمّى.

مكتب هاري القديم. 11 أيار 2000

استغرق الأمر من هاري عشرين دقيقة ليعود إلى مكتبه القديم. وجد كل ما يحتاج إليه حيزاً في كيس من 7 إيلفن. كان أول شيء فعله هو اقتطاع صورة برنت براندهوغ من داجبلايت، ثم ثبّتها بدبوس على لوح، إلى جانب صور أرشيفية لكل من إيلين، وسفير أولسن، وهالغريم ديل. أربعة أدلّة. كان قد أرسل هالفورسن إلى وزارة الشؤون الخارجية ليطرح الاستفسارات ويرى إن كان بمقدوره معرفة هويّة المرأة التي كانت في الكونتيننتال. أربع حيوات؛ أربع قصص. جلس على الكرسي البالي وأمعن النظر إلى الصّور، لكنّ الوجوه حدّقت ببساطة إلى مكان ما خلفه وهي خالية من أي تعبير.

اتصل بشقيقته التي كانت ترغب حقاً في أن تحتفظ بهيلج، لبعض الوقت على الأقل. قالت إنهما قد أصبحا صديقين حميمين، وأجاب هاري إنّه لا بأس بذلك طالما أنها تتذكر أن تطعمه.

قالت شقيقته: "إنها أنثى".

"أوه، نعم. كيف عرفت ذلك؟".

"تحقّقت وهنريك من الأمر".

كان سيسأل كيف تحقّقا، لكنه قرّر أنّه من الأفضل له ألا يعرف.

"هل تكلمت مع والدنا؟".

كانت قد تكلّمت معه، وسألت هاري إن كان سيلتقي تلك المرأة مجدداً.

"أي امرأة؟".

"تلك التي قلت إنك ستخرج في نزهة معها، كما أظن. المرأة التي لديها ابن صغير".

"أوه، تلك. لا، لا أظن ذلك".

"هذا غباء شديد".

"غباء؟ أنت لم تلتقيها قطّ يا أختاه".

"أظن أنه غباء لأنك تحبها".

كان بمقدور شقيقته أحياناً قول أشياء، وطرح أسئلة لا يعرف هاري كيف يجيبها عنها. اتفقا على الذهاب إلى دار العرض يوماً ما. فسألها هاري إن كان ذلك يعني انضمام هنريك إليهما. فأجابته أخته إنه كذلك. تسير الأمور بتلك الطريقة حين يكون لك قرين.

أنهيا الاتصال، واستغرق هاري في أفكاره. لم يكن وراكيل قد التقيا في الرواق بعد، لكنه يعرف مكان مكتبها. حزم أمره ونهض: كان عليه أن يتكلم معها آنذاك، فهو لم يعد يطيق الانتظار.

ابتسمت له ليندا حين دخل رواق الاستخبارات السرية.

"عدت إلينا أيها الوسيم؟".

"لقد عرّجت لرؤية راكيل فقط!".

"ذلك فحسب يا هاري؟ لقد رأيتكما أنتما الاثنين في حفل الإدارة، كما تعرف".

نظر هاري بغضب إلى ابتسامتها الماكرة التي جعلت أذنيه تحترقان، وحاول إطلاق ضحكة جافة من دون جدوى.

"لكن، يمكن أن توفّر على نفسك عناء المشي يا هاري. راكيل في المنزل اليوم، بسبب المرض. لحظة واحدة يا هاري...". رفعت سمّاعة الهاتف. "الاستخبارات السرية، هل يمكنني مساعدتك؟".

كان هاري في طريقه للخروج من الباب حين نادته ليندا قائلة: "المكالمة لك. هل تريد الحديث هنا؟". أعطته السمّاعة.

"هل أنت هاري هول؟". كان الصوت صوت امرأة، وبدا أنها تلهث، أو خائفة.

"أنا هو".

"أنا سيغني جوول. يجب أن تساعدني أيها المفتش هول، سيقتلني".

استطاع هاري سماع نباح في الخلفية.

"من سيقتلك يا سيدة جوول؟".

"إنه في طريقه إلى هنا الآن. أعرف أنه هو. إنه... إنه...".

"حاولي أن تهدئي يا سيدة جوول. من الذي تتكلمين عنه؟".

"لقد غيّر صوته، لكنني عرفته هذه المرة. إنه يعرف أنني قد داعبت شعر أولاف ليندفيغ في المستشفى الميداني. عرفته حين قال ذلك. يا الله، ماذا يجب أن أفعل؟".

"هل أنتِ وحدك؟".

قالت: "نعم، أنا وحدي. أنا وحيدة تماماً. هل تفهم؟".

كان النباح في الخلفية قد أصبح مسعوراً آنذاك.

"ألا يمكنك الهرب إلى منزل جارتك وانتظارنا هناك يا سيدة جوول؟ من...".

"سيجدني! إنه يعثر عليّ في كل مكان".

كانت في حالة هستيرية. وضع هاري يده على السمّاعة وطلب من ليندا أن تتصل بمركز التنسيق الرئيس وتطلب إرسال أقرب سيارة دورية متوافرة إلى السيدة جوول في آيرشفاين في بيرغ. وتكلم بعد ذلك مع سيغني جوول وهو يأمل ألا تلاحظ قلقه.

"إذا لم تخرجي من المنزل، فعلى الأقل أوصدي كلّ الأبواب يا سيدة جوول. من...".

قالت: "أنت لا تفهم. إنه... إنه...". كان الخط قد قُطع.

"تباً! آسف يا ليندا. أخبريهم أن السيارة ضرورة قصوى، ويجب أن يتوخوا الحذر. قد يكون هناك متطفّل مسلح".

اتصل هاري بالاستعلامات الهاتفية، وحصل على رقم جوول وطلبه. كان الخطّ لا يزال مشغولاً فأعاد السمّاعة إلى ليندا.

"إذا سأل ميريك عني، فأخبريه أنني في طريقي إلى منزل إيفن جوول".

آيرشفاين. 11 أيار 2000

عندما انعطف هاري إلى آيرشفاين رأى مباشرة سيارة الشرطة خارج منزل جوول. كان الشارع الهادئ بمنازله الخشبية، وبُرك المياه الناتجة عن ذوبان الجليد، والضوء الأزرق الذي يدور ببطء، والطفلين الفضوليين اللذين كانا يركبان على درّاجتيهما الهوائيتين إعادةً للمشهد خارج منزل سفير أولسن. تضرّع هاري أن يتوقف التشابه عند ذلك الحد.

ركن سيارته الإسكورت وترجّل منها، ثم مشى ببطء نحو المنزل. عندما كان ويبر يغلق الباب خلفه سمع صوت شخص ما يقف على الدرج.

قال هاري مندهشاً: "ويبر، دربانا يتقاطعان مجدداً".

"بالفعل".

"لم أكن أعرف أنك تخرج في مهمة دورية أيضاً".

"تعرف تماماً أنني لا أفعل ذلك. لكن براندهوغ يعيش في الجوار، وكنا قد ركبنا السيارة حين سمعنا الرسالة عبر اللاسلكي".

"ما الذي يجري؟".

"لا أعرف أكثر مما تعرفه. ليس هناك أحد في المنزل، لكن الباب كان مفتوحاً".

"هل ألقيت نظرة في الأرجاء؟".

"من القبو إلى العلّية".

"غريب. الكلب ليس هنا أيضاً، كما أرى".

"الكلاب والناس، كلهم اختفوا. لكن، يبدو أن شخصاً ما كان في القبو؛ لأن نافذة الباب هناك محطّمة".

قال هاري وهو يجول بنظره في المنطقة حوله: "حقاً!". رأى ملعب كرة مضرب بين المنازل.

قال هاري: "ربما تكون قد ذهبت إلى إحدى الجارات. طلبت منها ذلك".

تبع ويبر هاري إلى الردهة حيث كان شرطي شاب يقف هناك وهو ينظر إلى المرآة فوق طاولة الهاتف.

سأل ويبر ساخراً: "حسناً يا موين، هل يمكنك رؤية أي علامات تدل على وجود إنسان؟".

استدار موين وأومأ لهاري، ثم قال:

"حسناً، لا أدري إن كان هذا يشير إلى وجود إنسان".

أشار إلى المرآة، واقترب الاثنان منه.
قال ويبر: "حسناً، سأكتشف ذلك".
بدا أن الحروف الحمراء الكبيرة قد كُتبت بأحمر شفاه. إنّه وليّي .
شعر هاري وكأنه يضع قشرة برتقال داخل فمه.
اهتز زجاج الباب الأمامي حين فُتح الباب.
سأل الظل الواقف أمامهم وظهره إلى الضوء: "ماذا تفعلون هنا؟ وأين بور؟". كان إيفن جوول.
جلس هاري إلى طاولة المطبخ مع إيفن جوول الذي كان يبدو قلقاً جداً. زار موين الجيران مستفسراً عن سيغني جوول، وسأل إن كان أحد قد رأى شيئاً. كانت لدى ويبر أشياء كثيرة يفعلها في قضية براندهوغ، وغادر في سيارة الدورية، لكن هاري وعد بأن يُقلَّ موين.
قال إيفن جوول: "كانت تخبرني عادة حين تريد الخروج من المنزل. أعني أنها تخبرني دائماً".
"هل ذلك خطّها؟ أقصد الخطّ على المرآة في الردهة".
قال: "لا. لا أظن ذلك".
"هل ذلك أحمر شفاهها؟".
نظر جوول إلى هاري من دون أن يجيب.
قال هاري: "كانت خائفة حين تكلمت معي هاتفياً. قالت إن شخصاً ما يحاول أن يقتلها. هل لديك أي فكرة عمّن يكون؟".
"قتل؟".
"ذلك ما قالته".
"لكن، لا أحد يريد قتل سيغني".
"لا؟".
"هل أنت مجنون يا رجل؟!".
"حسناً، في هذه الحالة إذاً، أنا واثق من أنك تفهم أنني يجب أن أسألك إن كانت زوجتك غير مستقرة، أو هستيرية".
لم يكن هاري واثقاً من أن جوول قد سمعه، إذ اكتفى بهزّ رأسه.
قال هاري وهو ينهض: "لا بأس. ينبغي أن تعصر ذهنك لتخبرنا أي شيء قد يساعدنا. ويجب أن تتصل بكل أصدقائك وأقربائك لترى إن كانت قد ذهبت إلى أحدهم طلباً للحماية. لقد بدأت البحث، وسأتفقد مع موين الحيَّ. حالياً، ليس هناك شيء آخر يمكننا فعله".
عندما كان هاري يغلق الباب خلفه، اقترب منه موين وهو يهزّ رأسه.

سأل هاري: "ألم يرَ أحدٌ أيّ شيء؟ سيارة ربّما؟".

"في هذا الوقت من اليوم ليس هناك إلا المتقاعدون والأمهات مع أطفال صغار في المنازل".

"المتقاعدون بارعون في ملاحظة الأشياء".

"ليس هذه المرة، كما يبدو. هذا إذا كان هناك شيء يثير الانتباه أصلاً".

يثير الانتباه. لم يعرف هاري السبب، لكن كان هناك شيء في عبارة موين يتردّد في ذهنه. كان الطفلان اللذان يركبان على درّاجتيهما الهوائيتين قد اختفيا. تنهّد.

"لنذهب من هنا".

مقر قيادة الشرطة. 11 أيار 2000

كان هالفورسن يتكلم عبر الهاتف حين دخل هاري المكتب. وضع إصبعه على شفتيه ليشير إلى أنه يتحدث إلى شخص ما. خمّن هاري أنه لا يزال يحاول معرفة هويّة المرأة التي كانت في الكونتيننتال، ولم يكن ذلك يعني إلا أن الحظ لم يسعفه في وزارة الخارجية. كان المكتب خالياً من أي أوراق باستثناء كومة من الملاحظات حول القضية على طاولة هالفورسن، وقد أُزيل كل شيء إلا ما يتعلّق بقضية بندقية ماركلين.

قال هالفورسن: "لا. أخبرني إذا سمعت شيئاً، اتفقنا؟".

أغلق السمّاعة.

سأل هاري وهو يرمي بنفسه على كرسيه: "هل عرفت متى سيكون أون هنا؟".

أومأ هالفورسن ورفع إصبعيه مشيراً إلى الساعة الثانية. نظر هاري إلى ساعته، وعرف أن أون سيصل بعد عشرين دقيقة.

قال هاري وهو يرفع السمّاعة: "احصل على صورة لإدوارد موسكن". ثم طلب رقم سندر فوك واتفقا على اللقاء عند الثالثة، وبعد ذلك أخبر هالفورسن عن اختفاء سيغني جوول.

سأل هالفورسن: "هل تظن أن لذلك علاقة بقضية براندهوغ؟".

"لا أعرف، لكن الحديث مع أون أصبح مهماً جداً".

"لماذا؟".

"لأن هذا الأمر يبدو على نحو متزايد عمل شخص ما مصابٍ بلوثةٍ في عقله، ولهذا نحتاج إلى خبير".

كان أون رجلاً كبيراً بطرائق عديدة؛ فهو بدين جداً، وطوله نحو المترين، ويُعدُّ أفضل عالم نفس في مجاله. لم يكن متخصّصاً في علم النفس السلوكي، لكنه كان رجلاً ذكياً وقد ساعد هاري على حلّ قضايا أخرى.

كان وجهه ودوداً وبشوشاً، ولطالما خطر لهاري أن أون إنساني أكثر من اللازم، وحساس جداً، ومناسب تماماً للعمل في ميدان علم النفس البشري من دون أن يتضرر من ذلك. عندما سأله هاري عن ذلك، كان أون قد أجاب أنه يتأثر بالطبع، لكن من لا يفعل ذلك؟!

كان يصغي السمع جيداً إلى هاري في أثناء كلامه آنذاك عن حزِّ عنق هالغوريم ديل، ومقتل إيلين غيلتن، واغتيال برنت براندهوغ. أخبره هاري عن إيفن جوول، الذي يظن أنّه يجدر بهم البحث عن جندي كان

قد قاتل معهم على الجبهة الروسية، وهي نظرية ربما تكون قد تعزّزت بمقتل برنت براندهوغ بعد التقرير في داجبلايت. وأخيراً، أخبره عن اختفاء سيغني جوول.

بعد ذلك، استغرق أون في أفكاره. تأفف حين كان يومئ برأسه تارة ويهزّه تارة أخرى.

قال: "يؤسفني القول إنني لا أعرف كيف أساعدك. الشيء الوحيد الذي يمكنني العمل عليه هو الرسالة التي كُتبَت على المرآة. إنها تشبه بطاقة زيارة، وهي شيء طبيعي جداً بالنسبة إلى القتلة المتسلسلين. وخاصة بعد ارتكابهم عدّة جرائم؛ إذ يشعرون باطمئنان كافٍ يدفعهم إلى استفزاز الشرطة".

"هل هو رجل مريض يا أون؟".

"المرض مفهوم نسبي. جميعنا مرضى. السؤال هو: ما درجة التكيّف التي وصلنا إليها في ما يتعلق بالقواعد التي وضعها المجتمع للسلوك المرغوب فيه؟ ليست هناك أفعال تُعتبر بحد ذاتها من أعراض المرض. يجب أن تنظر إلى السياق الذي تحدث فيه تلك الأفعال. يستطيع معظم الناس مثلاً السيطرة على الحافز في الدماغ الأوسط الذي يحاول منعنا من قتل إخواننا البشر. هذه إحدى الخصائص المتطوّرة التي نتحلّى بها لحماية جنسنا. لكن، إذا تدرّبت لوقت طويل بما يكفي للتغلب على عوامل المنع تلك، فإنها تضعف في النهاية. إذا بدأت أنت وأنا بالقتل فجأة، فستصبح فرصةُ أن نصبح مريضين كبيرةً. لكن الأمر لا ينبغي أن يكون على تلك الحال بالضرورة إذا كنت قاتلاً مأجوراً أو... شرطياً".

"إذاً، إذا كنا نتكلم عن جندي - شخص كان يقاتل على كلا الجانبين في أثناء حرب - فإنّ إمكانية سيطرته على الرغبة في القتل لديه أقل بكثير من أيّ شخص آخر، على افتراض أن كليهما يتمتعان بعقل راجح؟".

"نعم ولا. الجندي مدرّب على القتل في حالة الحرب، ولكي لا يتأثر في عوامل المنع. ويجب أن يشعر بأن فعل القتل يقع في السياق نفسه".

"إذاً، يجب أن يشعر بأنه لا يزال يقاتل في حرب؟".

"ببساطة نعم. لكن، إذا افترض أن الوضع على تلك الحال، يمكن له أن يستمر في القتل من دون أن يكون مريضاً وفقاً للمفهوم الطبي. ليس مريضاً أكثر من أي جندي عادي. إنها مجرد قضية إحساس مشوّه بالواقع، ونحن الآن نتزلج على جليد رقيق".

سأل هالفورسن: "ماذا تعني؟".

"من الذي يستطيع القول إنه صحيح أو طبيعي، أخلاقي أو لا؟ علماء النفس؟ المحاكم؟ السياسيون؟".

قال هاري: "هذا صحيح. لكن، هناك أشخاص يفعلون ذلك".

قال أون: "بالضبط. لكن، إذا شعرت بأن أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة يحكمون عليك بأنك ظالم أو غير مستقيم، فسيفقدون برأيك سلطتهم الأخلاقية. مثلاً، إذا سُجن شخص ما لأنه عضو في حزب شرعي تماماً، فإنك تبحث عن استئناف ضد حكم السجن هذا أمام سلطة أعلى؛ إذا صح القول".

قال هاري: " إنّه وليّي ".

أومأ أون.

"ماذا يعني هذا برأيك يا أون؟".

"قد يعني أنه يريد تبرير أفعاله. فهو بالرغم من كل شيء، يشعر بالحاجة إلى أن يفهمه الآخرون. معظم الناس يحتاجون إلى ذلك كما تعرف".

* * *

عرّج هاري على شرودر في طريقه للقاء لوك. لم يكن المكان مزدحماً في ذلك الصباح، وكانت ماجا تجلس إلى الطاولة تحت التلفاز، وهي تحمل لفافة تبغ وصحيفة. أراها هاري صورة إدوارد موسكن التي استطاع هالفورسن الحصول عليها في وقت قصير جداً؛ على الأرجح من السلطة التي كانت قد أصدرت له رخصة القيادة الدولية قبل سنتين.

قالت: "أظن أنني قد رأيت هذا الوجه القبيح من قبل، لكنني لا أتذكر أين أو متى. لا بدّ من أنه جاء إلى هنا بضع مرات؛ لأنني أعرف وجهه، لكنه ليس زبوناً دائماً".

"هل يعقل أن يكون شخصٌ آخر قد تكلم معه؟".

"تطرح الآن سؤالاً غريباً يا هاري".

"اتصل شخص ما من الهاتف الموجود هنا عند الساعة 12:30 يوم الاثنين الماضي. لا أتوقع أن تتذكّري، لكن هل يمكن أن يكون هو المتصل؟".

هزّت ماجا كتفيها.

"هذا ممكن بالطبع، لكن قد يكون أيًّا كان أيضاً. تعرف كيف هي الحال يا هاري".

اتصل هاري في طريقه إلى بوابة فاييز بهالفورسن وطلب منه أن يتكلم مع إدوارد موسكن.

"هل أعتقله؟".

"لا، لا. تحقّق من حجة غيابه في قضيتي اغتيال براندهوغ واختفاء سيغني جوول اليوم".

كان وجه سندر فوك شاحباً حين فتح الباب لهاري.

شرح: "جاءني صديق مع قارورة من الشراب أمس. لم يعد جسدي يتحمّل هذا النوع من الأشياء. لا، لو أنني في الستين من عمري مجدداً...".

ضحك وذهب ليرفع إبريق القهوة عن الموقد بعد أن بدأ يصفر.

صرخ من المطبخ: "قرأت عن اغتيال هذا الرجل من وزارة الخارجية. قالوا في الصحيفة إن الشرطة لا تستبعد احتمال وجود صلة بين مقتله وما قاله عن النرويجيين على الجبهة. تظن الصحيفة النرويجيّة فيردنز غانغ أنّ النازيين الجدد وراء الأمر. هل تصدّق ذلك حقاً؟".

"ربما تصدّق ف - غ ذلك. لكنّنا لا نصدّق شيئاً ولا نظن أي شيء أيضاً. كيف يسير أمر الكتاب؟".

"ببطء في هذه الأثناء. لكن، إذا انتهيت منه، فسيفتح عيون بعض الناس. على أي حال، هذا ما أقوله لأحفّز نفسي على العمل في مثل هذا اليوم".

وضع فوك القهوة على الطاولة بينهما، واسترخى على كرسيه إلى الخلف. كان قد وضع قطعة قماش باردة حول الإبريق، وشرح بابتسامة العارف أنها حيلة قديمة كان قد تعلّمها على الجبهة. كان واضحاً أنه يأمل أن يسأله هاري عن تلك الطريقة، لكن الأخير لم يكن لديه وقت.

قال: "لقد اختفت زوجة إيفن جوول".

"يا الله! هل هربت؟".

"لا نظن ذلك. هل تعرفها؟".

"لم ألتقِها قطّ، لكنني أعرف الكثير عن الخلاف حين أراد جوول الزواج بها. كانت ممرضة على الجبهة و...إلخ. ماذا حدث؟".

أخبره هاري عن المكالمة الهاتفية واختفائها.

"لا نعرف شيئاً آخر بعد. كنت آمل أنك تعرفها وأن تمنحني دليلاً".

"آسف، لكن...". توقف فوك ليتناول رشفة من كوب قهوته، وبدا أنه يفكر في شيء ما. "ما الذي قلت لي إنه كان مكتوباً على المرآة؟".

قال هاري: " إنّه وليّي ".

"همم".

"ما الذي تفكر فيه؟".

قال فوك وهو يفرك ذقنه غير الحليق: "لأكون صريحاً، لست متأكّداً من ذلك".

"هيا، قل لي ما تفكر فيه".

"قلت إنه قد يرغب في شرح موقفه، وأن يكون مفهوماً".

"نعم؟".

مشى فوك إلى خزانة الكتب، وسحب كتاباً سميكاً ثم بدأ يقلّب صفحاته.

قال: "تماماً، كما ظننت".

أعطى هاري الكتاب. كان معجماً للكتاب المقدّس.

"انظر إلى ما كتب تحت عنوان دانيال".

جال هاري ببصره على الصفحة حتى عثر على الاسم. "دانيال. العبرية. إنّه وليّي".

رفع بصره إلى فوك الذي كان قد رفع الإبريق ليسكب قهوة.

"أنت تبحث عن شبح أيها المفتش هول".

باركفين، يورانينبورغ. 11 أيار 2000

استقبل يوهان كروهن هاري في مكتبه. كانت رفوف الكتب خلفه مملوءة بمجلّدات مطبوعات قانونية، مغلّفة بجلد بني؛ والتي تتناقض على نحو صارخٍ مع وجه المحامي الطفولي.

قال كروهن وهو يشير إلى هاري لكي يجلس: "ها نحن نلتقي مجدداً".

قال هاري: "ذاكرتك جيدة".

"لا أعاني مشكلة في ذاكرتي. سفير أولسن. كانت قضيتك قوية، ومن المخجل أن المحكمة لم تستطع الالتزام بالقوانين".

قال هاري: "لم آتِ من أجل ذلك. أريد أن أطلب منك معروفاً".

قال كروهن وهو يضع أنامله على بعضها: "السؤال لا يكلّف شيئاً". ذكّر هاري بطفل يمثّل دور راشد.

"أبحث عن سلاح تمّ استيراده على نحو غير شرعي. ولديّ سبب للاعتقاد أن سفير أولسن ربما كان متورطاً في الأمر بطريقة أو بأخرى. ونظراً إلى أن عميلك قد مات فلن يمنعك قانون الحفاظ على السرية من تزويدنا ببعض المعلومات. قد يساعدنا ذلك على معرفة قاتل برنت براندهوغ؛ الذي نعرف حق المعرفة أنه قُتل بذلك السلاح تحديداً".

ابتسم كروهن ابتسامة فاترة.

"سأفضّل أن تتركني أقرر حدود سرية معلومات العميل أيها الضابط. ليس هناك افتراض تلقائي بأنها تبطل بسبب الموت. ويبدو واضحاً أنك لم تفكّر في حقيقة أنني قد أعتبر مجيئك إلى هنا للاستفسار عن المعلومات صفيقاً إلى حدٍّ ما، ويجب أن تتذكر أن الشرطة قد أطلقت النار على موكّلي".

قال هاري: "أحاول نسيان المشاعر والتصرف على نحو مهني".

"إذاً، حاول بجهد أكبر أيها الضابط!". أصبح صوت كروهن أكثر حدّة عندما رفعه. "هذا ليس مهنياً جداً، كما أنّ قتل رجل في منزله ليس مهنياً أبداً".

قال هاري: "كان ذلك دفاعاً عن النفس".

قال كروهن: "إنّها مسألة تقنية. إنه شرطي خبير. كان يجب أن يعرف أن أولسن غير مستقر، وأنّه لا يجب أن يدخل منزله بالطريقة التي فعل بها ذلك. يجب محاكمة الشرطي".

لم يدع هاري ذلك يمر مرور الكرام.

"أتفق معك على أنه أمرٌ محزن دائماً أن يُطلق سراح مجرم لسبب تقني".

طرفت عين كروهن مرتين قبل أن يدرك ما كان هاري يعنيه.

قال: "التقنيات القانونية لها أوضاع مختلفة أيها الضابط. أداء القسم في محكمة قد يبدو تفصيلاً بسيطاً، لكن من دون إجراءات احترازية قانونية...".

"رتبتي مفتش".

ركّز هاري على التكلّم بهدوء وبطء: "الإجراء الاحترازي القانوني الذي تتكلم عنه كلّف زميلتي حياتها؛ إيلين غيلتن. فلتجعل ذاكرتك التي تبدو فخوراً جداً بها تعرف. إيلين غيلتن في الثامنة والعشرين من عمرها. أفضل موهبة تحقيق في قوة شرطة أوسلو. جمجمة مهشّمة. ميتة شنيعة جداً".

وقف هاري وانحنى عبر طاولة كروهن، بطوله كله البالغ متراً وتسعين سنتيمتراً. استطاع رؤية تفاحة آدم في عنق كروهن الهزيل البشع وهي ترتفع وتنخفض، وطوال ثانيتين طويلتين سمح هاري لنفسه بترف الاستمتاع بالخوف الذي ظهر واضحاً في عيني المحامي الشاب. ثم ألقى هاري بطاقته على الطاولة.

قال: "اتصل بي عندما تقرر مدى سرية معلومات الموكّل".

كان هاري على وشك أن يخرج من الباب حين أوقفه صوت كروهن.

"اتصل بي قبل موته مباشرة".

استدار هاري، وتنهّد كروهن.

"كان خائفاً من شخص ما. كان سفير أولسن خائفاً دائماً؛ وحيداً وخائفاً".

تمتم هاري: "ومن منّا ليس كذلك؟". ثم أضاف: "هل قال ممن كان خائفاً؟".

"الأمير. كان هذا هو الاسم الذي دعاه به؛ الأمير".

"هل قال أولسن لماذا كان خائفاً؟".

"لا، قال فقط إن الأمير أعلى منه شأناً، وإنّه قد أمره بأن يقترف جريمة. لهذا أراد أن يعرف إلى أي حدٍّ يصبح تنفيذ الأوامر جريمة يُعاقب عليها. أحمق مسكين".

"أي نوع من الأوامر؟".

"لم يقل".

"هل قال شيئاً آخر؟".

هزّ كروهن رأسه.

"اتصل بي في أي وقت إذا تذكّرت شيئاً آخر".

"وهناك شيء آخر أيها المفتش. إذا ظننت أنني لن أنام لتبرئتي الرجل الذي قتل زميلتك، تكون مخطئاً".

لكن هاري كان قد غادر.

هربرت للبيتزا. 11 أيار 2000

اتصل هاري بهالفورسن وطلب منه الذهاب إلى هربرت. كان المكان خالياً تقريباً إلا منهما، فاختارا طاولة إلى جانب النافذة. شاهدا رجلاً يجلس في الزاوية وهو يرتدي معطفاً مطرياً طويلاً، شاربه مشذّب مثل شارب أدولف هتلر، وقدماه اللتان تنتعلان حذاءً تستقران على مقعد كرسي. بدا أنه يحاول تسجيل رقم عالمي جديد في أن يكون مملاً.

كان هالفورسن قد تكلم مع إدوارد موسكن الذي لم يكن في درامن.

"لم يجب حين اتصلت بمنزله، لهذا حصلت على رقم هاتفه الخلوي من الاستعلامات. تبين أنه في أوسلو. لديه شقة في ترومسوغاتا في رودلوكا حيث يقيم حين يكون في بجرك".

"بجرك؟".

"مضمار السباق. يذهب إلى هناك كل جمعة وأحد. قال إنه يراهن بمبالغ صغيرة ويستمتع قليلاً؛ وهو يمتلك ربع حصان. التقيته في الإسطبلات خلف المضمار".

"ماذا قال أيضاً؟".

"يذهب عادة إلى شرودر في الصباح حين يكون في أوسلو. ليست لديه فكرة عن برنت براندهوغ، ولم يتصل بمنزله قطّ. يعرف سيغني جوول؛ ويتذكرها من الجبهة الشرقية".

"ماذا عن حجة غيابه؟".

طلب هالفورسن تروبيك هاواي مع سجق وأناناس.

"كان موسكن يقيم بمفرده في شقته في ترومسوغاتا كل الأسبوع، ولم يقم إلا برحلات إلى بجرك، كما قال. كان هناك في صبيحة اليوم الذي قُتل فيه براندهوغ أيضاً، وهذا الصباح".

"حسناً. كيف تظن أنه أجاب عن أسئلتك؟".

"ماذا تعني؟".

"هل صدّقته حين كنت معه؟".

"نعم، لا. حسناً، صدّقته، همم...".

"ثق بإحساسك الداخلي يا هالفورسن، ولا تقلق؛ ثم قل ما تشعر به. لن أستخدم ذلك ضدك".

نظر هالفورسن إلى الأسفل نحو الطاولة، وقلّب لائحة الطعام بأصابعه.

"إذا كان موسكن يكذب، فهو رجل بارد جداً بالتأكيد. هذا كل ما

يمكنني قوله".

تنهّد هاري.

"هل تظن أننا يجب أن نراقب موسكن عن كثب؟ أريد رجلين خارج شقته ليلاً ونهاراً".

أومأ هالفورسن واتصل برقم عبر هاتفه الخلوي. استطاع هاري سماع صوت مولر فيما كان يختلس النظر إلى النازي الجديد في الزاوية. ماذا كانوا يدعون أنفسهم؟ أهم اشتراكيون وطنيون أم ديمقراطيون وطنيون؟ كان قد تلقى نسخة من أطروحة دكتوراه في علم النفس من الجامعة خلصت إلى وجود سبعةٍ وخمسين نازياً جديداً في النرويج.

وصلت البيتزا ونظر هالفورسن إلى هاري مستفسراً.

قال هاري: "تفضّل، البيتزا ليست طعامي المفضّل".

كان قد انضم إلى الرجل الذي يرتدي المعطف المطري في الزاوية رجل آخر يرتدي سترة عسكرية خضراء قصيرة. وضعا رأسيهما إلى جانب بعضهما، ونظرا إلى الشرطيَّين.

قال هاري: "هناك شيء آخر بعد. أخبرتني ليندا في الاستخبارات السرية عن وجود أرشيف أس - أس في كولونيا، احترق جزئياً في السبعينيات، لكن بقيت بعض المعلومات عن النرويجيين الذين قاتلوا مع الألمان: القيادات، والأوسمة العسكرية، والرتب، وهذا النوع من الأشياء. أريد منك أن تتصل بهم وترى إن كان بمقدورك اكتشاف أي شيء عن دانيال غدسون، وغدبراند يوهانسن".

قال هالفورسن وفمه ممتلئ بالبيتزا: "حاضر سيدي. بعد أن أنتهي من تناول البيتزا".

قال هاري وهو ينهض: "في هذه الأثناء سأثرثر مع صديقينا الشابين".

كان هاري يتفادى دائماً - في نطاق العمل - الاستفادةَ من حجمه للحصول على أفضلية نفسية. وبالرغم من أن شارب هتلر قد مدّ عنقه لينظر إلى هاري، إلا أن الأخير كان يعرف أن النظرة الباردة تخفي الخوف نفسه الذي كان قد رآه في عيني كروهن. كان ذلك الرجل قد تدرّب أكثر على إخفاء خوفه. جذب هاري الكرسي الذي كان شارب هتلر يضع ساقيه عليه، فنزلت قدما هذا الأخير إلى الأرض قبل أن تسنح له الفرصة لفعل أي شيء.

قال هاري: "آسف. ظننت أن هذا الكرسي شاغر".

قال شارب هتلر: "هذا محض هراء". استدار الرأس الحليق الذي يبرز

من السترة العسكرية إلى الخلف.

قال هاري: "حسناً، إنه الشرطي، أو الحيوان المقزّز. العم اعتقال. لا، ربما يكون ذلك لطيفاً. ماذا عن الشرطة؟ هل ذلك عالميٌّ بما يكفي؟".

سأل صاحب السترة: "هل نزعجك أم ماذا؟".

قال هاري: "نعم، أنتما تزعجانني. لقد كنتما تزعجانني منذ وقت طويل. سلّما على الأمير وأخبراه أن هاري هول سيزعجه. من هول إلى الأمير، هل فهمتما ذلك؟".

طرفت عين صاحب السترة العسكرية وحدّق إلى هاري فاغراً فمه، ثم فتح الرجل الذي يرتدي معطفاً فمه وبرزت أسنانه متموّجة في كل الاتجاهات وضحك حتى سال لعابه.

سأل: "هل تتكلم عن صاحب السمو الملكي هاكون ماغنوس؟". وعندما فهم صاحب السترة العسكرية الدعابة أخيراً ضحك معه.

قال هاري: "حسناً. إذا كنتما مجرد عنصرين وضيعين، فبالطبع لن تعرفا من هو الأمير. لهذا سيكون عليكما نقل الرسالة إلى قائدكما. استمتعا بالبيتزا أيها الشابان".

مشى عائداً إلى هالفورسن، وشعر بعيونهما تخترق ظهره.

قال هاري لهالفورسن الذي كان مشغولاً بتناول قطعة كبيرة من البيتزا تغطّي نصف وجهه: "أنهِ طعامك. يجب أن نخرج قبل أن أدوّن المزيد من النقاط السلبية في سجلّي".

هولمنكولن. 11 أيار 2000

كانت تلك الأمسية أكثر أمسيات الربيع دفئاً حتى ذلك الوقت. وكان هاري يقود السيارة ونافذتها مفتوحة مما سمح للنسيم العليل بمداعبة وجهه وشعره. استطاع من أعلى هولمنكولن رؤية فيورد أوسلو والجزر المتناثرة فيه مثل أصداف بنية مخضرّة، وكان أوّل أشرعة الموسم الجديد البيضاء يشق طريقه نحو البر في ذلك المساء. وقف طالبا مدرسة يعتمر كل منهما قبعة حمراء إلى جانب حافلة حمراء ثبتت على سقفها مكبّرات صوت، وهما يتبوّلان. كانت الموسيقى تصدح: لا أريد أن تكون حبيبي...

مشت سيدة عجوز بتمهّل على الطريق. كانت ترتدي سروال ركوب خيل، وسترة فرائية مشدودة بإحكام حول خصرها ويظهر من تعبير وجهها أنها متعبة ولكنها سعيدة.

ركن هاري سيارته بعيداً عن المنزل. لم يكن يريد أن يقودها على الدرب المؤدي إلى هناك، من دون أن يعرف السبب؛ ربما لأنه ظن أن إيقاف السيارة بعيداً سيبدو أقل عدوانية. هذا سخيف بالطبع؛ لأن زيارته لم تكن متوقعة أو موضع ترحيب.

كان في منتصف الدرب المؤدي إلى المنزل حين رنّ هاتفه الخلوي. كان هالفورسن يتصل به من أرشيف الخونة.

قال: "لا شيء. إذا كان دانيال غدسون لا يزال حياً حقاً، فهو بالتأكيد لم يُدن بعد الحرب".

"وسيغني جوول؟".

"حُكم عليها بالسجن سنة واحدة".

"لكنها لم تذهب إلى السجن قطّ. هل هناك شيء آخر مثير للاهتمام؟".

"لا شيء. وهم يستعدون الآن لإخراجي وإغلاق المكان".

"اذهب إلى المنزل ونم. ربما سنكتشف شيئاً غداً".

كان هاري قد وصل إلى عتبة الدرج وعلى وشك أن يتجاوزه بقفزة واحدة حين فُتح الباب، فوقف ساكناً من دون حراك. كانت راكيل ترتدي كنزة صوفية وجينزاً أزرق، شعرها غير مسرّح ووجهها أكثر شحوباً من المعتاد. أمعن النظر إلى عينيها بحثاً عن أي إشارة تدلّ على أنها سعيدة لرؤيته مجدداً، لكنه لم يجد شيئاً. أكثر ما أخافه هو اختفاء ذلك اللطف المعتاد. لم تكن عيناها تعبّران عن أي شيء، مهما كان ذلك يعني.

قالت: "سمعت شخصاً يتكلم في الخارج. ادخل".

كان أوليغ في غرفة المعيشة، يشاهد التلفاز وهو مرتدٍ ثياب النوم.

قال هاري: "مرحباً أيها الخاسر. ألا يجب أن تكون الآن تحاول التدرب على تيتريس؟".

تأفف أوليغ من دون أن يشيح بصره عن التلفاز.

قال هاري لراكيل: "أنسى دائماً أن الأطفال لا يفهمون التهكّم".

سأل أوليغ: "أين كنت؟".

"كنت؟". كان هاري محتاراً قليلاً من عبارة أوليغ التي تنطوي على اتهام. "ماذا تعني؟".

حرّك أوليغ كتفيه.

سألت راكيل: "هل تريد قهوة؟". أومأ هاري. جلس أوليغ وهاري بصمت وهما يشاهدان هجرة النو الرائعة عبر صحراء كالاهاري، في حين كانت راكيل تتحرك في المطبخ. استغرق الأمر وقتاً، مع القهوة والهجرة.

قال أوليغ أخيراً: "ستة وخمسون ألفاً".

قال هاري: "هذا ليس صحيحاً".

"تفوقت على أفضل نتيجة على الإطلاق".

"اذهب وأحضرها".

كان أوليغ قد وقف على قدميه وغادر غرفة المعيشة حين دخلت راكيل حاملة القهوة. جلست قبالة هاري. فبحث هاري عن جهاز التحكم عن بعد، وخفف صوت الحوافر المجلجل. كانت راكيل من كسرت الصمت في النهاية.

"ماذا ستفعل في 17 أيار هذه السنة؟".

"سأعمل. لكن، إذا كنتِ تقترحين دعوتي إلى شيء ما، فسأبذل قصارى جهدي...".

ضحكت ونبذت الفكرة بأن لوّحت بيدها.

"آسفة، كنت أريد إجراء حديث معك. لنتكلم عن شيء آخر".

سأل هاري: "كنتِ مريضة، أليس كذلك؟".

"تلك قصة طويلة".

"لديك عدد منها".

سألت: "لماذا عدت من السويد؟".

"براندهوغ. غريبٌ أنني كنت أجلس معه هنا".

قالت راكيل: "نعم، الحياة مليئة بمصادفات غريبة".

"غريبة جداً إلى درجة أنها لا تحدث حتى في الخيال".

"أنت لا تعرف شيئاً عنها يا هاري".

"ماذا تقصدين؟".

تنهّدت وحرّكت الشاي في كوبها.

سأل هاري: "ما الأمر؟ هل تتواصل الأسرة كلها برسائل مشفّرة هذا المساء؟".

حاولت أن تضحك، لكن الأمر انتهى بتنشّق. زكام الربيع، كما فكّر هاري.

"أنا... إنه...".

حاولت أن تقول جملة عدّة مرات، لكنها لم تنطق شيئاً واضحاً. حرّكت الملعقة الصغيرة في كوبها في دوائر. لمح هاري من فوق كتفها تمساحاً يسحب نواً ببطء ومن دون رحمة إلى النهر.

قالت: "مررت بوقت عصيب، وقد اشتقت إليك كثيراً".

استدارت نحو هاري، وحينها فقط شاهد أنها تبكي. سالت الدموع على وجنتيها وتجمّعت تحت ذقنها. حاولت أن توقفها.

شرع هاري: "حسناً...". وكان ذلك كل ما استطاع قوله قبل أن يصبحا بين ذراعي بعضهما بعضاً. تشبّثا ببعضهما وكأن كلاًّ منهما طوق نجاة للآخر. كان هاري يرتعش، وفكّر: هذا فحسب. هذا فقط كافٍ؛ احتضانها على ذلك النحو.

"أمي". جاءت الصرخة من الطابق الأول. "أين لعبة غيم بوي؟".

صرخت راكيل بصوتٍ مرتعش: "في درجٍ في خزانة الملابس. ابدأ من الأعلى".

همست لهاري: "قبّلني".

"لكن أوليغ قد...".

"إنّ اللعبة ليست في خزانة الملابس".

عندما نزل أوليغ على السلالم مع لعبة غيم بوي التي عثر عليها أخيراً في صندوق الألعاب، لم يلاحظ الجو السائد في غرفة المعيشة في البداية. وضحك على هاري الذي همهم مهتماً حين رأى الرقم الجديد. لكن، عندما انطلق هاري لتحطيم الرقم الجديد، سمع أوليغ يقول: "ما خطب وجهيكما؟".

نظر هاري إلى راكيل، التي استطاعت بصعوبة منع نفسها من الابتسام.

قال هاري وهو يستبدل بثلاثة خطوط خطّاً واحداً أبيض على اليمين: "هذا لأننا معجبان ببعضنا كثيراً، ورقمك على وشك أن يُحطّم أيها الخاسر".

ضحك أوليغ وربت على كتف هاري قائلاً: "هذا محال. أنت هو الخاسر".

شقة هاري. 11 أيار 2000

لم يشعر هاري بأنه خاسر حين فتح، بعد منتصف الليل بقليل، باب شقته ورأى الضوء الأحمر على المجيب الآلي يومض. كان قد حمل أوليغ إلى سريره وشرب الشاي، وقالت راكيل إنها ستخبره يوماً ما قصة طويلة؛ حين لا تكون مرهقة جداً. وكان هاري قد أجابها أنها بحاجة إلى عطلة، ووافقت على ذلك.

قال: "يمكن أن نذهب معاً، نحن الثلاثة، بعد أن تنتهي هذه المهمة".

كانت قد داعبت شعره.

"هذا ليس من الأشياء التي يمكننا أن نثرثر بشأنها يا هاري هول".

"من يثرثر؟".

"لا يمكنني الحديث عن ذلك الآن. اذهب إلى منزلك يا هاري هول".

كانا قد تبادلا القبلات مجدداً في الردهة، ولا يزال هاري يشعر بطعمها على شفتيه.

من دون أن ينير الضوء، تقدم ببطء إلى غرفة المعيشة، وضغط زر التشغيل على المجيب الآلي، فملأ صوت سندر فوك الظلام:

""أنا فوك. كنت أفكّر في أنه إذا كان دانيال غدسون أكثر من شبح، فهناك شخص واحد فقط على هذه الأرض يستطيع حلّ هذا اللغز. إنه الرجل الذي كان مناوباً عشية رأس السنة الجديدة حين لقي دانيال غدسون على ما يبدو حتفه؛ أقصد غدبراند يوهانسن. يجب أن تعثر على غدبراند يوهانسن أيها المفتش هول".

كان هناك صوت إغلاق سماعة. وعندما كان هاري يتوقع سماع صوت طقطقة، سمع رسالة جديدة.

"أنا هالفورسن. إنها الساعة 11:30. لقد تلقيت مكالمة الآن من أحد رجلي الشرطة اللذين يقفان خارج شقة موسكن. لقد بقيا ينتظران لوقت طويل، لكنه لم يعد إلى المنزل، لهذا جرّبا الاتصال بالرقم في درامن ليعرفا إن كان سيجيب على الهاتف، لكنه لم يجب. ذهب أحد الرجلين إلى بيركن، لكن كل شيء كان موصداً والمصابيح مطفأة. طلبت منهما البقاء هناك لبعض الوقت وإذاعة بحث عن سيارة موسكن عبر لاسلكي الشرطة. أردت فقط أن تعرف ذلك. أراك غداً".

سمع صوتاً يشير إلى انتهاء الرسالة، ثم بدأت رسالة جديدة. كان ذلك رقماً قياسياً جديداً على مجيب هاري الآلي.

"أنا هالفورسن مجدداً. لقد أُصبت بالخرف. نسيت تماماً أن أذكر الشيء الآخر. يبدو أن بعض الحظ قد أسعفنا أخيراً. لا يوجد في أرشيف أس - أس في كولونيا أي تفاصيل شخصية عن غدسون أو يوهانسن. طلبوا مني الاتصال بأرشيف الجيش الألماني المركزي في برلين. تكلمت مع رجل عجوز لطيف هناك قال إن قلّة قليلة من النرويجيين كانت في الجيش النظامي الألماني. لكن، عندما شرحت له الأمر، قال إنه سيتأكد من الأمر على أيّ حال. بعد مضيّ بعض الوقت اتصل بي وقال - كما هو متوقع - إنه لم يعثر على شيء يتعلق بدانيال غدسون. ولكنه عثر على نسخ من بعض الوثائق التي تخص شخصاً يدعى غدبراند يوهانسن، وهو نرويجي أيضاً. يبدو من الأوراق أنه قد نُقل من قوات أس - أس إلى الجيش في العام 1944. كانت هناك ملاحظة على النسخ تقول إن الوثائق الأصلية أُرسلت إلى أوسلو في صيف العام 1944، ووفقاً لرجلنا في برلين فإن ذلك يعني أن يوهانسن قد أُرسل إلى هناك. عثر أيضاً على بعض المراسلات مع طبيب كان قد وقّع على شهادات يوهانس الطبية في فيينا".

جلس هاري على الكرسي الوحيد في الغرفة.

"كان اسم الطبيب كريستوفر بروكهارد، في مستشفى رودولف الثاني. توثّقت من الأمر من شرطة فيينا، وتبين أن المستشفى لا يزال يعمل، وزوّدوني بأسماء عشرين شخصاً وأرقام هواتفهم؛ أولئك الذين كانوا يعملون هناك في أثناء الحرب ولا يزالون أحياء".

فكّر هاري في أن الجرمان يعرفون كيف يحفظون السجلات.

"وهكذا، بدأت أتصل بهم. ألمانيتي سيئة جداً!".

خشخشت ضحكة هالفورسن عبر مكبّر الصوت.

"اتصلت بثمانية منهم قبل أن أعثر على ممرضة تتذكر غدبراند يوهانسن. إنها امرأة عجوز تبلغ الخامسة والسبعين من العمر. قالت إنها تتذكّره جيداً. ستحصل على رقمها وعنوانها صباح غد. بالمناسبة، اسمها هيلينا ماير".

أطبق صمت تبعته إشارة انتهاء الرسالة، ثم توقفت طقطقة شريط التسجيل.

حلم هاري براكيل. كان وجهها يلتصق بعنقه، وكتل التيتريس تسقط وتسقط. لكن صوت سندر فوك هو الذي أيقظه في منتصف الليل وجعله يحدّق إلى شيء ما في الظلام.

"يجب أن تجد غدبراند يوهانسن".

حصن أكرشوس. 12 أيار 2000

كانت الساعة 2:30 من بعد منتصف الليل حين أوقف الرجل العجوز سيارته إلى جانب مستودع في شارع يدعى أكرشوستراندا. كان الشارع قبل سنوات خلت طريقاً رئيسة في أوسلو، لكن بعد افتتاح نفق فجلينجي أُغلق أكرشوستراندا من أحد طرفيه، ولم يعد يستخدمه في أثناء النهار إلا عمّال الأرصفة البحرية، وزبائن بنات الهوى الذين يريدون مكاناً هادئاً نسبياً ليتنزهوا فيه. كانت هناك عدّة مستودعات بين الطريق والمياه والجانب الغربي من حصن أكرشوس على الطرف الآخر. كان بمقدور أي شخص، إذا وُجد في موقع في أكر بريغج مع منظار جيد، أن يرى بالتأكيد ما رآه الرجل العجوز؛ إذ رأى رجلاً وامرأة متبرجة تخضع لرغباته عند الجدار الغربي للحصن تحت المدافع مباشرة. كان على كلا جانبي الثنائي كشّاف قوي يضيء الواجهة الصخرية والجدار فوقه.

أكرشوس، سجن الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية. كان القسم الداخلي من منطقة الحصن مغلقاً في الليل، وبالرغم من أنه استطاع شق طريقه إلى الداخل، إلا أن خطر اكتشافه في موقع الإعدام الفعلي كان كبيراً. لم يكن أحد يعرف حقاً عدد الأشخاص الذين لقوا حتفهم رمياً بالرصاص هناك في أثناء الحرب. لكن، كانت هناك لوحة تذكارية للرجال الذين سقطوا من المقاومة النرويجية. كان الرجل العجوز يعرف أن واحداً منهم على الأقل مجرم معروف استحق العقاب الذي ناله أياً تكن الطريقة التي ينظر المرء فيها إلى الأمر. وكانوا قد أطلقوا النار أيضاً على فيدكون كيسلنغ والآخرين الذين حوكموا لارتكابهم جرائم حرب وعوقبوا. كان كيسلنغ قد سُجن في برج المسحوق، ولطالما تساءل العجوز ما إن كان ذلك البرج قد ألهم الكاتب النرويجيّ ينس بورنبو في كتابه، الذي وصف فيه بالتفصيل أساليب شتّى للإعدام على مر الزمن؟ هل كان وصفه الإعدامَ من قبل فصيلة عسكرية متأثراً بإعدام فيدكون كيسلنغ في ذلك اليوم من تشرين الأول عام 1945، حين قادوا الخائن إلى الساحة ليثقبوا جسده بالرصاص؟ هل وضعوا - كما وصف المؤلف - قلنسوة فوق رأسه وثبّتوا قطعة قماش مربّعة فوق قلبه كعلامة؟ هل أصدروا الأمر بإطلاق النار أربع مرات قبل أن ينهمر الرصاص عليه؟ هل كان الرماة المدرّبون سيئين إلى درجة اضطر معها الطبيب الذي فحصه بسمّاعته إلى القول إن الرجل المدان يجب أن يُعدم مجدداً؛ حتى فعلوا ذلك أربع مرات أو خمساً ومات الرجل نتيجة

الدم الذي سال بغزارة من الجروح الكثيرة؟

كان الرجل العجوز قد اقتطع الوصف من الكتاب.

كان الرجل قد فرغ من المرأة وفي طريقه إلى سيارته. أما المرأة فكانت لا تزال تقف إلى جانب الجدار، بعد أن عدّلت هندامها وأشعلت سيجارة توهّجت في الظلام حين سحبت نفساً منها. انتظر الرجل العجوز، إلى أن سحقت لفافة التبغ تحت كعبها وبدأت تمشي على الدرب الموحل حول الحصن عائدة إلى مكتبها في الشارع بجانب مصرف نورجس.

استدار الرجل العجوز إلى المقعد الخلفي حيث كانت المرأة المكمّمة تحدّق إليه بالعينين المدهوشتين نفسيهما اللتين رآهما حين استعادت رشدها بعد حقنها بمادة مخدّرة. استطاع رؤية فمها يتحرك خلف الكِعَام((3)).

قال وهو ينحني نحوها ويُعلّق شيئاً على معطفها: "لا تخافي يا سيغني". حاولت أن تحني رأسها لترى ذلك الشيء، لكنه رفع رأسها إلى الأعلى.

قال: "لنذهب في نزهة، كما اعتدنا".

خرج من السيارة، وفتح الباب الخلفي، وسحبها إلى الخارج، ثم دفعها أمامه. تعثرت ووقعت على الحصى والعشب إلى جانب الطريق، لكنه أمسك الحبل الذي يُحكم وثاق يديها خلف ظهرها وجعلها تقف على قدميها. وضعها أمام أحد الكشّافين مباشرة، والضوء في عينيها.

قال: "لا تتحركي. نسيت الشراب، ريبيروس. أنت تتذكرينه، أليس كذلك؟ هدوء تام، وإلا...".

كان الضوء يبهر عينيها، واضطر إلى وضع السكين أمام وجهها تماماً لتراه. وبالرغم من الضوء الساطع، كان بؤبؤاها كبيرين جداً حتى بدت عيناها سوداوين تماماً. ذهب إلى السيارة ونظر حوله، لكن لم يكن هناك أحد في مرمى البصر. أصغى السمع، وكان كل ما سمعه ضوضاء المدينة المعتاد، ثم فتح الصندوق. دفع كيس النفايات الأسود جانباً وشعر أن جسد الكلب داخله قد بدأ يتيبّس آنذاك. لمع فولاذ بندقية ماركلين الداكن. أخرج البندقية وجلس على المقعد الأمامي. فتح النافذة حتى منتصفها ووضع البندقية عليها. عندما نظر إلى الأعلى رأى ظلها الضخم يتراقص على الجدار البني المصفر العائد إلى القرن السادس عشر. لا بدّ من أن الظل كان مرئياً عبر كل الخليج من نسودن. هذا جميل.

شغّل السيارة بيده اليمنى وزاد سرعة دوران المحرك. ألقى نظرة أخيرة حوله قبل أن يحدّق عبر المنظار. كانت المسافة خمسين متراً تقريباً،

ومعطفها يملأ كل الدائرة في عدسات المنظار. عدّل التسديد قليلاً إلى اليمين ووجدت الشعيرةُ السوداء ما كان يبحث عنه؛ الورقة البيضاء. أطلق الهواء من رئتيه وأطبق أصابعه حول الزناد، وهمس: "أهلاً بعودتك".

3 الكعام: ما شدّ به فم البعير.

القسم الثامن

فيينا. 14 أيار 2000

دلّل هاري نفسه ثلاث دقائق وهو يستمتع بملمس الجلد البارد على قفا عنقه وذراعيه على مقعد تايرولين للطيران، ثم استغرق في التفكير مجدداً.

امتد الريف تحتهم مثل قطع متصلة من اللونين الأخضر والأصفر، ولمع الدانوب تحت أشعة الشمس مثل جرح بني ينزف. كانت المضيفة الجوية قد أخبرتهم أنهم على وشك الهبوط في شوشات، وجهّز هاري نفسه.

لم يكن يحب الطيران قطّ، لكنه كان قد بدأ في السنوات الأخيرة يخاف فعلاً. كانت إيلين قد سألته مرة عمّا يخاف منه، وقد أجابها: "التحطّم والموت، ماذا غير ذلك؟". كانت قد أخبرته أن احتمال الموت على متن طائرة في رحلة عادية هي واحد من ثلاثين مليوناً، وقد شكرها على المعلومة وقال إنه لن يخاف بعد ذلك.

أخذ هاري نفساً عميقاً ثم أطلق زفيراً فيما كان يستمع إلى تغير أصوات المحرك. لماذا يصبح الخوف من الموت أسوأ حين تكبر؟ ألا يجب أن يكون العكس صحيحاً؟ كانت سيغني جوول في التاسعة والسبعين من عمرها، ويبدو أن الخوف قد جعلها تفقد صوابها. كان أحد حرّاس حصن أكرشوس قد عثر عليها. وكان الحرّاس قد تلقوا مكالمة هاتفية في أثناء مناوبتهم من مليونير شهير أُصيب بالأرق في أكر بريغج يخبرهم فيها أن أحد الكشّافَين على الجدار الجنوبي مطفأ، وقد أرسل الضابط المناوب حارساً شاباً إلى هناك. كان هاري قد استجوب الحارس بعد ساعتين، وأخبره هذا الأخير أنه رأى حين اقترب من الكشّاف امرأة فاقدة الوعي ممددة عليه، تحجب الضوء. في البداية كان قد فكّر في أنها مدمنة على الممنوعات، لكنه حين اقترب ورأى الشعر الأشيب والملابس عتيقة الطراز، أدرك أنها امرأة عجوز. لذا، كان ما فكّر فيه هو أنها مريضة، لكنه اكتشف عندها أن يديها موثقتان خلف ظهرها. لم يرَ الثقب الكبير في معطفها إلا حين اقترب منها كثيراً.

كان قد أخبر هاري: "رأيت أن عمودها الفقري محطّم. تباً، استطعت رؤية عمودها الفقري".

كان قد أخبره بعد ذلك أنه استند إلى الواجهة الصخرية وتقيّأ، وأدرك لاحقاً فقط، بعد أن جاءت الشرطة لتأخذ الجثة وسطع الضوء على الجدار مجدداً، ماهية المادة اللزجة على يده. كان قد عرض يده على هاري وكأن

ذلك شيء مهم.

كانت وحدة مسرح الجريمة قد وصلت إلى المكان، ومشى ويبر إلى هاري وهو ينظر إلى سيغني جوول بعينين ناعستين. وقال: "إنّها ليست وفاة طبيعيّة؛ فالله رحيم. أمّا هنا فلا نجد أثراً للرّحمة".

كان الشاهد الوحيد رجلاً يحرس المستودعات. كان هذا الشاهد قد رأى سيارة تدخل أكرشوستراندا متجهة إلى الشرق عند الساعة 2:45، لكن بصره بُهر؛ لأن أضواء السائق كانت على أشدّها ولم يستطع رؤية نوع السيارة أو لونها.

شعر أن الطيّار يزيد السرعة. تخيّل هاري أنهم يحاولون زيادة الارتفاع؛ لأن الربّان قد رأى فجأة الألب أمام القمرة مباشرة. بدا أن الهواء تحت جناحي طائرة تايرولين قد اختفى وشعر هاري ببطنه يصبح فجأة تحت أذنيه. تأوه بصوتٍ عالٍ حين قفزوا في اللحظة التالية مجدداً مثل كرة مطاطية. سمع صوت الربّان عبر جهاز الاتصال الداخلي وهو يقول شيئاً بالألمانية والإنكليزية عن مطبّات هوائية.

كان أون قد أشار إلى أن الشخص الذي لا يتمتع بالقدرة على الشعور بالخطر لن ينجو يوماً واحداً. ضغط هاري على ذراع الكرسي وحاول العثور على السكينة في تلك الفكرة.

في الواقع، كان أون هو من تحدّث عن الدوافع التي جعلت هاري يسافر على متن أول طائرة تقلع إلى فيينا. عندما أصبحت الحقائق على الطاولة، كان قد قال فوراً إن الزمن عامل بالغ الأهمية.

كان أون قد قال: "إذا كنا نتعامل مع قاتل متسلسل، فإنه على حافة فقدان السيطرة. ليس مثل القاتل المتسلسل التقليدي الذي يبحث عن تنفيس لرغباته لكنه يشعر بخيبة أمل في كل مرة، ويزيد وتيرة القتل نتيجة الإحباط. من الواضح أن هذا القاتل ليس لديه مثل هذا الدافع. إنّ لديه خطة شريرة أو أخرى يجب إنهاؤها، وقد توخّى الحرص وتصرف بعقلانية حتى الآن. تشير حقيقة أن الجرائم قريبة من بعضها بعضاً، وأنه بذل كل جهد ممكن للتشديد على رمزية أفعاله - مثل ذلك الإعدام في حصن أكرشوس - إلى أنه يشعر بأنه منيع أو أنه يفقد السيطرة على الوضع، أو أنّه مصاب بالذّهان ربّما".

كان هالفورسن قد قال: "أو ربما لا يزال يسيطر على الوضع تماماً. لم يخطئ بعد، وليس لدينا أي دليل حتى الآن".

وقد كان هالفورسن محقاً تماماً. لم يكن هناك أي دليل.

استطاع موسكن تبرير تحرّكاته. كان قد رفع سمّاعة الهاتف في درامن حين اتصل به هالفورسن في الصباح ليتأكد من مكانه، بعد أن فشل رجلا المراقبة في التقاط أي أثر له في أوسلو. لم يعرفوا بالطبع إن كان ما قاله صحيحاً؛ فلقد أخبرهم أنه قد انتقل بالسيارة إلى درامن بعد إغلاق مضمار بجرك عند الساعة العاشرة والنصف ووصل عند الحادية عشرة والنصف. لكن، هناك احتمال بأن يكون قد وصل عند الثانية والنصف من بعد منتصف الليل مما يمنحه فرصة إطلاق النار على سيغني جوول.

كان هاري قد طلب من هالفورسن الاتصال بالجيران وسؤالهم إن كانوا قد رأوا موسكن وهو يصل إلى منزله، أو سمعوا صوت سيارته، لكنه لم يكن يأمل كثيراً بأن يكون أحدهم قد رآه أو سمعه. وقد طلب من مولر أن يتحدث إلى المدّعي العام ليرى إن كان بمقدورهم الحصول على مذكرة تفتيش لكلتا شقتي موسكن. كان هاري يعرف أن حججهم ضعيفة، وقد أجاب المدّعي العام، وهو محق تماماً، أنه يريد أن يرى على الأقل شيئاً يشبه دليلاً ظرفياً قبل أن يمنحهم ما يريدونه.

لم تكن لديهم أدلّة. كان الوقت قد حان ليبدأ الشعور بالخوف.

أغمض هاري عينيه. كان وجه إيفن جوول لا يزال مطبوعاً في مخيلته. أشيب، ومنكفئ على نفسه. كان قد جلس مسترخياً على الكرسي في آيرشفاين وطوق الكلب في يده.

حطّت العجلات على الأرض، وتيقّن هاري من أنه من المحظوظين.

كان الشرطي الذي عيّنه قائد الشرطة في فيينا تحت تصرفه بوصفه سائقاً ودليلاً ومترجماً يقف في قاعة الواصلين، ويرتدي بذلة داكنة، ويضع نظارة شمسية، وله عنق ثخين، ويحمل ورقة قياس أيه 4 كُتِب عليها السيد هول بقلم حبر جاف.

عرّف الرجل عن نفسه على أنه فريتز، وقاد هاري إلى سيارة بي أم دبليو زرقاء داكنة انطلقت بعد لحظة في الطريق العامّة نحو المدينة، تجاوزت مداخن المصانع التي تطلق دخاناً أبيض، كما تجاوزت سائقين يقودون سيارتهم بهدوء، ولقد التزموا بالسير إلى جهة اليمين حين زاد فريتز سرعة سيارته.

قال فريتز: "ستقيم في فندق التجسس؟".

"فندق التجسس؟".

"إمبريال القديم، حيث كان العملاء الروس والغربيون الذين ينشقّون عن دولهم في أثناء الحرب الباردة يقيمون فيه. لا بدّ من أن ميزانية

مديرك كبيرة".

وصلا إلى ساحة كارنتنر وأشار فريتز: "تلك قمة ستفانسدوم، ويمكن أن تراها من فوق السطوح إلى اليمين. إنها جميلة، أليس كذلك؟ هذا هو الفندق. سأنتظر حتى تستلم غرفتك".

ابتسم موظف الاستقبال في إمبريال حين رأى هاري ينظر إلى منطقة الاستقبال بإعجاب.

"لقد جدّدناها بتكلفة بلغت أربعين مليون شيلنغ وأصبحت كما كانت قبل الحرب بالضبط. دمّرها القصف في العام 1944 كلَّها تقريباً، وكانت غير صالحة للاستعمال قبل بضع سنوات".

عندما غادر هاري المصعد في الطابق الثاني شعر بأنه يمشي على أرض طرية، فقد كان السجاد سميكاً وليناً جداً. لم تكن الغرفة كبيرة جداً، لكن السرير العريض ذا القوائم الأربع الموجود فيها يبدو أن عمره مئة سنة على الأقل. عندما فتح النافذة شمّ رائحة الكعك الصادرة من المخبز الموجود في الجهة المقابلة من الشارع.

قال له فريتز حين عاد إلى السيارة مجدداً: "تعيش هيلينا ماير في لازارتغيس". وصاح مستهجناً حين غيّرت سيارة مسارها من دون أن تعطي إشارة.

"إنها أرملة، ولديها ولدان راشدان. بعد الحرب عملت كمعلّمة حتى تقاعدت".

"هل تكلمت معها؟".

"لا، لكنني قرأت ملفها".

حين وصلا إلى مقصدهما، تبيّن أنّ البيت كان فخماً في وقت ما، لكن طلاءه الآن يتقشّر عن الجدران في ردهة الدرج الفسيحة، وكان صدى خطواتهما المتثاقلة يمتزج مع صوت ماء يرشح من مكان ما.

وقفت هيلينا ماير مبتسمة إلى جانب مدخل شقتها في الطابق الثالث. كانت عيناها بنّيتين ومفعمتين بالحياة.

كانت الشقة مؤثثة جيداً ومملوءة بكل الحلي الصغيرة التي يجمعها الناس في أثناء حياتهم.

قالت: "اجلسا من فضلكما". ثم استدارت إلى هاري: "أتكلم الألمانية فقط، لكن يمكنك أن تتحدث معي بالإنكليزية، فأنا أفهمها جيداً".

أحضرت صينية عليها قهوة وكعك. شرحت وهي تشير إلى طبق الكعك: "سترودل".

قال فريتز وهو يمد يده ليتناول قطعة: "تبدو لذيذة".

قال هاري: "إذاً، أنت تعرفين غدبراند يوهانسن".

"نعم، أعرفه. كنا ندعوه أوريا، فقد كان يُصرُّ على ذلك. في البداية ظننا أنه لم ينجُ بسبب جروحه".

"أي نوع من الجروح؟".

"كانت لديه جروح في رأسه، وساقه بالطبع. كان د. بروكهارد على وشك أن يبترها".

"لكنه تعافى وأُرسل إلى أوسلو في صيف العام 1944، أليس كذلك؟".

"نعم، كانت تلك هي الخطة".

"ماذا تقصدين".

"حسناً، اختفى، ولا أظن أنه ظهر في أوسلو، أليس كذلك؟".

"ليس وفقاً لما أعرفه، لا. أخبريني عن عمق معرفتك بغدبراند يوهانسن؟".

"جيدة جداً. كان منفتح الذهن وقاصاً جيداً. أظن أن كل الممرضات، واحدة تلو الأخرى، قد وقعن في حبه".

"وأنت أيضاً؟".

ضحكت ضحكة قوية ارتعش لها صوتها. "أنا أيضاً، لكنه لم يكن يريدني؟".

"لا؟".

"أوه، لقد كنت جميلة. لم يكن الأمر لذلك السبب. أراد أوريا امرأة أخرى".

"حقاً؟".

"نعم، كان اسمها هيلينا أيضاً".

"أي هيلينا؟".

تقطّب جبين السيدة العجوز عبوساً.

"إنّها هيلينا لانغ. كان حبهما لبعضهما سبب المأساة".

"أي مأساة؟".

حدّقت إلى هاري وفريتز مدهوشة، ثم نظرت إلى هاري مجدداً.

قالت: "ألست هنا من أجل ذلك؟ بسبب الجريمة؟".

حدائق القصر. 14 أيار 2000

كان يوم الأحد، وكان الناس يسيرون ببطء أكثر من المعتاد، والرجل العجوز يمشي معهم في حدائق القصر. توقف إلى جانب مبنى الحراسة. كانت الأشجار خضراء فاتحة - وهو اللون الذي يفضّله - كلها باستثناء واحدة فقط. لن تكون شجرة السنديان الطويلة في وسط الحدائق أكثر خضرة مما كانت عليه آنذاك. لم يكن ممكناً ملاحظة الفرق. بعد أن أفاقت الشجرة من سباتها الشتوي، كان النسغ الذي يمدّها بالحياة قد بدأ يجري وينشر السم في شبكة العروق. كان قد وصل آنذاك إلى كل ورقة، وها هو يمنعها من النمو، وسيؤدي بعد أسبوع أو اثنين إلى ذبول الأوراق، وتحولها إلى اللون البني وسقوطها. وفي النهاية، سيؤدي إلى موت الشجرة.

لكنهم لم يكونوا يعرفون ذلك بعد، ومن الواضح أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً. لم يكن برنت براندهوغ جزءاً من الخطة الأصلية، وأدرك الرجل العجوز أن الجريمة قد أربكت الشرطة. كانت الملاحظات التي أدلى بها براندهوغ في داجبلايت إحدى تلك المصادفات الغريبة فقط، وقد ضحك بصوتٍ عالٍ حين قرأها. يا للهول! كان قد اتفق مع براندهوغ في ذلك. يجب إعدام المهزوم، فذلك قانون الحرب.

لكن، ماذا عن كل الأدلّة الأخرى التي تركها لهم؟ لم يستطيعوا حتى ربط الخيانة الكبرى بالإعدام في حصن أكرشوس. ربما سيلاحظون ذلك في المرة التالية التي تُطلق فيها نيران المدافع على المتاريس.

نظر حوله بحثاً عن مقعد خشبي. كان الفاصل الزمني بين نوبات الألم يصبح أقصر فأقصر آنذاك. لم يكن بحاجة إلى الذهاب إلى بوير واكتشاف أن السرطان ينتشر في كل جسده، فقد كان يعرف ذلك بنفسه. لن يطول الأمر بعد ذلك.

استند إلى شجرة بتولا ملكية؛ رمز الاحتلال. هربت الحكومة والملك إلى إنكلترا. قاذفات ألمانية في الجو، شطرٌ من قصيدة كتبها نوردال غريغ يجعله يشعر بالغثيان. إنه يعتبر خيانة الملك انسحاباً مشرّفاً؛ وكأنَّ تركه شعبه وقت الشدّة كان فعلاً أخلاقياً. وفي أمان لندن كان الملك أحد أصحاب الجلالة الآخرين المنفيين الذين ألقوا خطباً مؤثرة على مسامع نساء الطبقة المخملية المتعاطفات معهم في أثناء مآدب العشاء، وهم يتشبثون بأمل أن تعود إليهم ممالكهم الصغيرة يوماً ما. وعندما انتهى كل شيء، كان هناك الاستقبال حين رسا القارب الذي يحمل ولي العهد قرب الرصيف، وصرخ كل

الحاضرين بصوتٍ أجش لإخفاء شعورهم وشعور الملك بالخجل. استدار الرجل العجوز نحو الشمس وأغمض عينيه.

أوامر بصوتٍ عالٍ، أحذية وبنادق أيه - جي - 3 تضرب الحصى. التسليم، أو تغيير الحرّاس.

فيينا. 14 أيار 2000

قالت هيلينا ماير: "إذاً، لم تكن تعرف؟".

هزّت رأسها، وكان فريتز يتكلم عبر الهاتف ليجعل شخصاً ما يبحث في ملفات قضايا الجرائم القديمة.

همس: "أنا واثق من أننا سنجده". لم يكن لدى هاري شك في ذلك.

سأل هاري وهو يستدير إلى السيدة العجوز: "إذاً، كانت الشرطة واثقة من أن غدبراند يوهانسن قتل طبيبه؟".

"نعم، بالفعل. كان كريستوفر بروكهارد يعيش وحيداً في إحدى شقق المستشفى. قالت الشرطة إن يوهانسن حطم زجاج الباب الخارجي وقتله وهو نائم في سريره".

"كيف...؟".

مرّرت السيدة ماير إصبعاً ترتعش على عنقها.

قالت: "رأيته بنفسي بعد ذلك. كان بمقدور المرء أن يصدّق أن الطبيب قد فعل ذلك بنفسه؛ لأن الجرح كان دقيقاً جداً".

"حسناً. ولماذا كانت الشرطة واثقة من أنه يوهانسن؟".

ضحكت.

"نعم، يمكنني إخبارك عن السبب؛ لأن يوهانسن كان قد سأل الحارس عن الشقة التي يعيش بروكهارد فيها، وقد رآه الحارس وهو يركن السيارة في الخارج، ويدخل عبر الباب الرئيس. كان قد خرج راكضاً بعد ذلك، وشغّل محرك سيارته، وقادها مبتعداً بسرعة كبيرة نحو فيينا. واختفى في اليوم التالي من دون أن يعرف أحد مكانه، ووفقاً للأوامر الصادرة إليه كان يُفترض أن يكون في أوسلو بعد ثلاثة أيام. انتظرته الشرطة النرويجية لكنه لم يظهر هناك قطّ".

"إلى جانب شهادة الحارس، هل تتذكرين إن كان لدى الشرطة أي دليل آخر؟".

"هل أتذكر؟ تكلمنا عن الجريمة لسنوات! تطابق الدم الذي عُثر عليه على الزجاج المكسور مع فصيلة دمه. ووجدت الشرطة البصمات نفسها التي عثرت عليها في غرفة نوم بروكهارد على طاولة إلى جانب فراش أوريا وعلى سريره في المستشفى. فضلاً على ذلك، كان لديه الحافز...".

"حقاً؟".

"نعم، لقد أحبّا بعضهما؛ أقصد غدبراند وهيلينا، لكنها كانت ستتزوج

بكريستوفر".

"كانا خطيبين؟".

"لا، لا. لكن كريستوفر كان مفتوناً بهيلينا، والجميع يعرف ذلك. كانت هيلينا من عائلة ثرية أفلست بعد أن انتهى الأمر بوالدها في السجن. كان الزواج من أحد أفراد أسرة بروكهارد الوسيلة الوحيدة لوقوف أفراد الأسرة مجدّداً على أقدامهم. وتعرف كيف هي الحال؛ إنها شابة لديها التزامات معينة تجاه أسرتها. على الأقل هذا ما فعلته في ذلك الوقت".

"هل تعرفين مكان هيلينا لانغ اليوم؟".

استغربت الأرملة: "لكنك لم تمسّ كعك سترودل يا عزيزي".

تناول هاري قضمة كبيرة، مضغها وأومأ مستحسناً للسيدة ماير.

قالت: "لا. لا أعرف. عندما تبين أنها كانت مع يوهانسن في ليلة الجريمة، حقّقوا معها، لكنهم لم يكتشفوا شيئاً. تركت العمل في مستشفى رودولف الثاني وانتقلت إلى فيينا. أسّست عملها الخاص في الخياطة. نعم، كانت امرأة قوية وجريئة. كنت أراها تسير في الشوارع هنا أحياناً. لكن، في منتصف الخمسينيات باعت الشركة، ولم أسمع عنها شيئاً بعد ذلك. قال أحدهم إنها قد سافرت إلى الخارج. لكنني أعرف شخصاً يمكن أن تسأله إن كانت لا تزال حية. بياترس هوفمان، كانت تعمل لدى أسرة لانغ كمدبرة منزل. بعد الجريمة لم يعد بمقدور الأسرة تحمّل نفقاتها وعملت لبعض الوقت في رودولف الثاني".

كان فيرتز آنذاك يتكلم عبر الهاتف مجدداً.

طنّت ذبابة بيأس حول النافذة. كانت تتبع منطقها المجهري وبقيت ترتطم بالزجاج من دون أن تفهم السبب. نهض هاري.

"سترودل...؟".

"في المرة القادمة يا سيدة ماير. ليس لدينا وقت الآن".

سألت: "لماذا؟ حدث ذلك قبل أكثر من نصف قرن مضى. لن يذهب إلى أي مكان".

قال هاري وهو يراقب الذبابة السوداء تحت الستائر المزركشة في الشمس: "حسناً...".

تلقى فريتز رسالة على هاتفه الخلوي وهو في طريقه إلى مخفر الشرطة، فأدار السيارة في الاتجاه المعاكس فجأة مما جعل السائقين خلفه يطلقون أبواق سياراتهم.

قال وهو يزيد السرعة: "بياتريس هوفمان حيّة. إنها في دار المسنين في

شارع مورباخ؛ الذي يقع في غابات فيينا".

صدر عن توربو بي أم دبليو صوت حاد. انتقلا من حي مبانٍ سكنية إلى منطقة منازل خشبية، وكروم، وأخيراً إلى الغابة الخضراء التي تطرح أوراقها سنوياً. كانت شمس بعد الظهر تتراقص على الأوراق، وتجعل الجوّ سحرياً في أثناء مرورهما السريع على طول شوارع عريضة تصطف على جانبيها أشجار الزان والكستناء.

قادتهما ممرضة إلى الحديقة الكبيرة.

كانت بياتريس تجلس على مقعد خشبي في ظل شجرة سنديان ضخمة كثيرة العقد، وقبعة من القش تعلو وجهها الهزيل المتغضّن. تكلم فريتز معها بالألمانية وشرح سبب مجيئهما. أمالت المرأة العجوز رأسها وهي تبتسم.

قالت بصوتٍ مرتعش: "عمري تسعون سنة الآن، ولا تزال عيناي تذرفان الدموع حين أفكّر في الآنسة هيلينا".

سأل هاري بألمانية تلميذ: "هل لا تزال حية؟ هل تعرفين أين هي؟".

سألت ويدها خلف أذنها: "ماذا يقول؟". فشرح لها فريتز ما قاله هاري.

قالت: "نعم، أجل، أعرف أين هيلينا. إنها تجلس في الأعلى هناك". وأشارت نحو قمم الأشجار.

فكّر هاري ها نحن ذا، إنها خرفة. لكن السيدة العجوز لم تكن قد أنهت كلامها.

"إنها مع الصالحين. كما قلت، تذرف عيناي الدموع كلما فكّرت فيها".

سأل هاري: "هل تتذكرين غدبراند يوهانسن؟".

قالت بياتريس: "أوريا. لم ألتقه إلا مرة واحدة. إنّه شاب وسيم وفاتن، لكنه عليل لسوء الحظ. من كان يظن أن مثل ذلك الشاب اللطيف والمهذّب يستطيع أن يقتل؟ كانت المشاعر تستحوذ عليه بقوة، نعم، وهيلينا أيضاً لم تتغلب على ذلك قطّ، تلك المسكينة. لم تعثر الشرطة عليه قطّ، وبالرغم من أن الشرطة لم تتهم هيلينا بشيء، إلا أن أندريه بروكهارد تكفّل بطردها من المستشفى. انتقلت إلى المدينة وقامت بعمل تطوّعي لدى رئيس الأساقفة حتى أصبحت في ضائقة مادية شديدة أرغمتها على البحث عن عمل مأجور. ولهذا بدأت بعمل الخياطة، وبعد سنتين كان لديها أربع عشرة امرأة يخطن لها بدوام كامل. خرج والدها من السجن لكنه لم يستطع العثور على عمل بعد فضيحة المصرفي اليهودي. كان ردّ فعل

السيدة لانغ على انهيار وضع الأسرة سيئاً، وتوفيت بعد مرض طويل في العام 1953، ومات السيد لانغ في الخريف نفسه في حادث سيارة. باعت هيلينا الشركة في العام 1955، وغادرت البلاد من دون أن تقول شيئاً لأحد. أتذكر ذلك اليوم، فقد كان 15 أيار، يوم تحرير النمسا".

رأى فريتز تعبير وجه هاري الفضولي وشرح قائلاً: "النمسا حالة استثنائية. هنا لا نحتفل باليوم الذي استسلم فيه هتلر، وإنما باليوم الذي غادر فيه الحلفاء البلاد".

تكلمت بياترس عن الطريقة التي تلقت فيها نبأ موت هيلينا.

"لم نكن قد سمعنا عنها طوال أكثر من عشرين سنة حين تلقيت يوماً ما رسالة ممهورة بختم بريديّ من باريس. كانت هناك في عطلة مع زوجها وابنتها، كما كتبت. كانت رحلتها الأخيرة نوعاً ما، كما أدركت. لم تقل أين استقرت، أو من تزوجت، أو نوع المرض الذي أُصيبت به. لم تقل إلا أنه لم يعد لديها وقت طويل تعيشه وأرادت مني إشعال شمعة من أجلها في ستفانسدوم. كانت هيلينا شخصية مميزة.

سالت دمعة على وجنة السيدة العجوز المتغضّنة.

"لن أنسى ذلك أبداً. أظن أنها قرّرت منذ أن كانت في السابعة من عمرها كيف ستعيش حياتها. وبالرغم من أن حياتها لم تكن كما تخيّلت تماماً، وخاضت خلالها تجارب عديدة ومريرة، إلا أنني مقتنعة بأنها كانت تصدق في أعماق قلبها طوال حياتها أنّها ستعيش بسعادة لاحقاً. ذلك ما كانت تصدقه".

سأل هاري: "هل ما زلت محتفظة بالرسالة؟".

مسحت دموعها وأومأت. "أحتفظ بها في غرفتي. اسمح لي أن أجلس هنا وأستغرق في الذكريات قليلاً. يمكن أن ندخل بعد ذلك. بالمناسبة، ستكون هذه أول ليلة حارة في السنة".

جلسوا صامتين، وهم يستمعون إلى حفيف الأغصان وتغريد العصافير الصغيرة فيما كانت الشمس تغيب خلف سوفينالب، وكل واحد منهم يفكّر في أولئك الذين غادروا. قفزت حشرات ورقصت تحت الأشجار. فكّر هاري في إيلين، ورأى عصفوراً استطاع أن يُقسم أنه صائد الذباب الذي كان قد رأى صوره في كتاب طيور.

قالت بياتريس: "لنذهب".

كانت غرفتها صغيرة وبسيطة، لكنها مضاءة وأنيقة. فيها سرير إلى جانب الجدار الخلفي الذي تغطّيه صور من كل الأحجام. بحثت بياتريس

بين بعض الأوراق في درج خزانة ملابس كبير.

قالت: "أنا منظّمة، ولهذا سأعثر عليها". فكّر هاري في أن ذلك طبيعي.

وقعت عيناه في تلك اللحظة على صورة في إطار فضي.

قالت بياتريس: "إليك الرسالة".

لم يجب هاري، بل حدّق إلى الصورة بإمعان، ولم يجب حتى سمع صوتها خلفه مباشرة.

"التُقطت الصورة حين كانت هيلينا تعمل في المستشفى. كانت جميلة، أليس كذلك؟".

قال هاري: "نعم، كانت جميلة. هناك شيء مألوف على نحو غريب فيها".

* * *

كانت ليلة حارة ورطبة. تململ هاري واستدار في السرير ذي القوائم الأربع، رمى البطانية على الأرض، وأبعد الملاءة عن الفراش فيما كان يحاول إسكات كل الأفكار والنوم. كان قد فكّر في ثلاجة الغرفة لحظة واحدة، لكنه تذكّر عندها أنه قد أخرج مفتاحها من الحلقة وسلّمه إلى موظف الاستقبال. سمع أصواتاً في الرواق خارج غرفته. أمسك أحدهم بمقبض بابه فجلس هاري على السرير، لكن أحداً لم يدخل.

سمع قصف رعد، يبدو مثل تفجيرات بعيدة، يأتي من إحدى جهات البلدة، ثم تبعه آخر.

استغرق هاري في النوم، ثم استيقظ وهو يلهث، وكان عليه أن يقلب نفسه في السرير ليتأكّد من أنه لا يزال وحده. بعد ذلك، اندمج كل شيء في دوّامة من رعدٍ ونومٍ وأحلام. استيقظ في منتصف الليل على صوت مطر ينهمر بغزارة، ذهب إلى النافذة وحدّق إلى الأسفل؛ إلى الأشجار حيث كان الماء يسيل فوق الأرصفة ويسوق معه قبعة فقدها مالكها.

عندما أيقظت مكالمةٌ هاري في الصباح الباكر كان الضوء ساطعاً في الخارج والشوارع جافة.

نظر إلى ساعته التي كان قد وضعها على الطاولة إلى جانب السرير. كانت طائرته ستقلع بعد ساعتين إلى أوسلو.

بوابة ثرسيس. 15 أيار 2000

كان مكتب ستال أون أصفر والجدران مغطاة برفوف تتكدّس عليها كتب تخصصية، ورسوم لشخصيات عديدة، ومن بينها رسوم لجيل أوكروست.

قال الطبيب أون: "تفضل بالجلوس يا هاري. هل تريد الجلوس على الكرسي أم على الأريكة؟".

كان ذلك حديثه الافتتاحي، وردّ هاري بأن رفع الزاوية اليسرى من فمه في ابتسامته المعتادة التي تعني هذا مضحك، لكنني سمعته من قبل. عندما اتصل هاري من مطار غارديمون، كان أون قد قال له إنه يستطيع استقباله، لكن ليس لديه متسع من الوقت؛ لأن عليه الذهاب إلى حلقة دراسية في هامار، حيث سيقول خطابَ الافتتاح.

قال أون: "عنوانها مشكلات تتعلق بتشخيص الإدمان على الشراب. لن تُذكر بالاسم".

سأل هاري: "هل ترتدي هذه الملابس الأنيقة لهذا الغرض؟".

قال أون وهو يمرّر يده على طول طيّة سترته: "الملابس إحدى أقوى الإشارات التي تصدر عنا. يشير الصوف إلى الرجولة والثقة".

سأل هاري وهو يخرج دفتر ملاحظاته وقلمه: "وربطة العنق فراشية الشكل؟".

"إنها تشير إلى طيش مثقّف وغطرسته. وقار مع لمسة من التهكم الذاتي، إذا أردت. إنّها أكثر من كافية للتأثير في زملاء من الصف الثاني كما يبدو".

استرخى أون إلى الخلف، سعيداً بنفسه، ووضع يديه فوق كرشه الكبيرة.

قال هاري: "أخبرني عن انفصام الشخصية، أو الشيزوفرنيا".

تأوه أون: "في خمس دقائق؟".

"إذاً بإيجاز".

"أولاً، ذكرت انفصام الشخصية والشيزوفرنيا في السياق نفسه، وهذا أحد مظاهر سوء الفهم التي استحوذت لسبب ما على مخيلة العامة. الشيزوفرنيا تعبير يشمل مجموعة كاملة من الاضطرابات الذهنية المختلفة تماماً والتي ليس لها أيّ علاقة بانفصام الشخصية؛ صحيحٌ أن شيزو كلمة إغريقية تعني انفصام، لكن ما كان الطبيب يوجين بلولر (طبيب نفسي سويسري) يعنيه هو أن الوظائف النفسية في ذهن المُصاب بالفصام منفصلة.

وإذا...".

أشار هاري إلى ساعته.

قال أون: "حسناً. انفصام الشخصية الذي تكلمت عنه يدعى ا - ش - م: اضطراب الشخصية المركّبة، ويفسّر بوجود شخصيتين أو أكثر لدى فردٍ تتناوبان في السيطرة عليه، كما هي حال د. جيكل والسيد هايد".

"إذاً، هذا موجود؟".

"أوه، نعم، لكنه نادر، وأكثر ندرة مما تريدنا بعض أفلام هوليوود أن نصدّق. في خمسٍ وعشرين سنة من عملي بصفتي عالم نفس لم أكن محظوظاً بما يكفي لأشاهد حالة واحدة من ا - ش - م، لكنني أعرف حقاً الكثير عن ذلك".

"مثلاً؟".

"مثلاً، إنها حالة ترتبط دائماً بفقدان الذاكرة تقريباً. بكلمات أخرى، قد يستيقظ مريض ا - ش - م وهو يعاني آثار الإسراف في الشراب من دون أن يدرك أن سبب ذلك هو أن شخصيته الأخرى سكّيرة. حسناً، في الواقع، قد تكون إحدى الشخصيتين مدمنة على الشراب والأخرى تمتنع عنه تماماً".

"ليس حرفياً، كما أفهم الأمر؟".

"بالتأكيد".

"لكن الإدمان على الشراب مرض نفسي أيضاً".

"نعم، وهذا ما يجعل ا - ش - م فاتناً جداً. لدي تقرير عن حالة ا - ش - م إحدى شخصياتها مدخّنة شرهة في حين أن الأخرى لم تمسّ لفائف التبغ قطّ، وعندما قاسوا ضغط دم الشخصيّة المدخّنة وجدوا أنه أعلى بنسبة 20%. كانت نساء يعانين ا - ش - م قد قلن إنهن يشهدن حالة الطمث عدّة مرات في الشهر؛ لأن كلّ شخصية لديها دورة الحيض الخاصة بها".

"إذاً، يستطيع هؤلاء الناس تغيير طبيعتهم الجسدية؟".

"إلى حدٍّ معين، نعم. القصة عن د. جيكل والسيد هايد ليست في الواقع بعيدة جداً عن الحقيقة كما قد يفكّر المرء. كانت إحدى الشخصيات في حالة معروفة وصفها د. أوشرسن، سويّة جنسياً في حين أن الأخرى غير سويّة".

"هل تتمتع الشخصيات بأصوات مختلفة؟".

"نعم. في الواقع، إنّ الصوت إحدى أسهل الطرائق لملاحظة التبدل بين الشخصيات".

"هل هو مختلف جداً إلى درجة أن شخصاً ما يعرف ذلك الإنسان جيداً لن يعرف أحد تلك الأصوات الأخرى. عبر الهاتف، مثلاً؟".

"إذا لم يكن الفرد المعني يعرف شيئاً عن الشخصيات الأخرى، نعم. مع أشخاص لا يمتلكون معرفة وثيقة بمرض ا - ش - م، قد يكون تغيّر الإشارات في لغة الجسد كفيلاً بأن يجلسوا في الغرفة نفسها من دون أن يعرفوا الشخص".

"هل يستطيع شخص يعاني ا - ش - م إخفاء ذلك عن أقرب الناس إليه؟".

"هذا ممكن، نعم. إنّ تواتر ظهور الشخصيات الأخرى رهنٌ بكل فرد وحده، ويستطيع المرضى السيطرة إلى حدٍّ ما على التغيّرات بأنفسهم أيضاً".

"لكن، عندها يجب أن تعرف الشخصيات بشأن بعضها؟".

"نعم، بالفعل، لكن ذلك ليس استثنائياً أيضاً. وكما هي الحال في رواية د. جيكل والسيد هايد، قد تنشأ نزاعات مريرة بين الشخصيات؛ لأن لديها أهدافاً، وأخلاقاً، وعوامل تعاطف وكراهية مختلفة في ما يتعلق بالناس حولها".

"ماذا عن خط اليد؟ هل يمكنها التمايز في ذلك أيضاً".

"ذلك ليس تمايزاً يا هاري. أنت لست الشخص نفسه كل الوقت أيضاً؛ عندما تعود إلى المنزل من العمل فأنت تتعرض لتغيّرات غير حسّية أيضاً: صوتك، ولغة جسدك، وغيرها. غريبٌ أنك ذكرت خط اليد؛ لأنني حصلت في وقت ما على كتاب فيه صورة رسالة كتبها مريض ا - ش - م بسبعة عشر خطاً مختلفاً تماماً ومتناسقاً جداً. سأرى إن كان بمقدوري العثور عليها يوماً ما حين أحظى بمزيد من الوقت".

سجل هاري بضع ملاحظات على دفتره.

تمتم: "دورات طمثية مختلفة، وخطوط مختلفة؛ هذا جنون مطلق".

"هذا رأيك يا هاري. آمل أنني ساعدتك لأنني يجب أن أذهب".

طلب أون سيارة أجرة وخرجا إلى الشارع معاً. سأل أون هاري عندما وقفا على الرصيف إن كانت لديه أي خطط ليوم الاستقلال في 17 أيار.

"سأستقبل وزوجتي بعض الأصدقاء لتناول الطعام، وأنت موضع ترحيب شديد".

قال هاري سعيداً ومحرجاً في الوقت نفسه من الدعوة المفاجئة: "هذا لطف منك، لكن النازيين الجدد يخططون للتّسبب بالإزعاج في السابع عشر، وقد تلقيت تعليمات لتنسيق المراقبة في غرونلاند. يطلبون منا دائماً نحن

العُزّاب العمل في مثل أيام الاحتفالات الأسرية تلك، كما تعلم".

"ألا يمكنك أن تعرّج لوقت قصير فقط؟ لدى معظم الناس الذين سيأتون شيء يفعلونه في وقت لاحق من اليوم".

"شكراً. سنرى ما سيحدث، وسأتصل بك. على أيّ حال، كيف يبدو أصدقاؤك؟".

تفقّد أون ربطة عنقه؛ ليتأكد من أنها مناسبة.

قال: "إنهم مثلنا، لكن زوجتي تعرف بعض الأشخاص المحترمين".

توقفت سيارة أجرة قربهما في تلك اللحظة. فتح هاري الباب وصعد أون إلى السيارة، لكن عندما كان على وشك إغلاقه تذكر فجأة شيئاً آخر.

"ما الذي يسبب ا - ش - م؟".

انحنى أون في مقعده ونظر إلى هاري.

"ما الذي يحدث حقاً يا هاري؟".

"لست واثقاً، لكن قد يكون ذلك مهماً".

"حسناً. يتعرض مرضى ا - م - ش غالباً لسوء المعاملة في طفولتهم، لكن الاضطراب قد ينجم أيضاً عن تجارب مريرة جداً في الحياة لاحقاً. شخصية أخرى تنشأ للهروب من المشكلات".

"ما نوع المشكلات المريرة التي تسبب ذلك إذا كنا نتكلم عن رجل راشد؟".

"يجب أن تستخدم مخيلتك. ربما يكون قد تعرض لكارثة طبيعية، أو فقد شخصاً يحبه، أو وقع ضحية عنف، أو عاش خائفاً وقتاً طويلاً جداً".

"كأن يكون جندياً في الحرب مثلاً".

"قد تكون الحرب سبباً، نعم".

"أو حرب عصابات".

قال هاري الجملة الأخيرة لنفسه؛ فقد كانت سيارة الأجرة آنذاك تحمل أون في طريقها إلى بوابة ترسيس.

قال هالفورسن: "إسكتلندي".

"ستمضي يوم 17 أيار في مشرب إسكتلندي؟". كشّر هاري، ووضع حقيبته خلف مشجب القبّعات.

هزّ هالفورسن كتفيه: "هل لديك أي اقتراحات أخرى؟".

"إذا كان لا بدّ من ذهابك إلى مشرب، فاعثر على الأقل على واحد أكثر أناقة من مشرب إسكتلندي، أو الأفضل من ذلك، أطلق سراح أحد الآباء هنا، وقم بإحدى مناوبات المراقبة في أثناء استعراض الأطفال. أجر

مضاعف من دون آثار الإفراط في الشراب".

"سأفكر في الأمر".

استرخى هاري على الكرسي.

"ألن تجعلهم يصلحونه قريباً؟ يبدو صوته سيئاً جداً".

قال هاري متجهماً: "لا يمكن إصلاحه".

"آسف. هل وجدت شيئاً في فيينا؟".

"سأتكلم عن ذلك، أنت أولاً".

"حاولت التأكد من حجة غياب إيفن جوول في الوقت الذي اختفت زوجته فيه. ادّعى أنه كان يمشي وسطَ المدينة، في طريقه إلى كافبرنري في أولفاسفين، لكنه لم يلتقِ أحداً هناك يمكن أن يؤيد روايته. قال العاملون في كافبرنري إنهم كانوا مشغولين جداً ولا يمكنهم إثبات شيء أو نفيه".

قال هاري: "كافبرنري قبالة شرودر مباشرة".

"إذاً؟".

"أوضح حقيقة فحسب. ماذا قال ويبر؟".

"لم يجدوا شيئاً. قال ويبر إنه إذا اقتيدت سيغني جوول إلى الحصن في السيارة التي رآها الخفير الليلي، كانوا سيجدون شيئاً على ملابسها، مثل ألياف من المقعد الخلفي، أو تراب، أو زيت على الحذاء؛ أيّ شيء".

قال هاري: "كان قد وضع أكياساً بلاستيكية في السيارة".

"ذلك ما قاله ويبر أيضاً".

"هل تحقّقتم من التبن الجاف الذي وجدوه على معطفها؟".

"نعم. قد يكون من إسطبل موسكن، وقد يكون من مليون مكان آخر".

"إنّه تبن، وليس قشًّا".

"ليس هناك شيء مميز في التبن يا هاري، إنه مجرد... تبن".

"تباً!". نظر هاري حوله متجهماً.

"ماذا بشأن فيينا؟".

"المزيد من التبن. هل تعرف شيئاً عن القهوة يا هالفورسن؟".

"ماذا؟!".

"كانت إيلين تحضّر قهوة رائعة. تشتريها من متجر في غرونلاند. ربما...".

قال هالفورسن: "لا! لن أحضّر لك قهوة".

قال هاري وهو ينهض: "عدني بأنك ستحاول. سأخرج بضع ساعات".

"هل هذا كل ما يمكنك قوله عن فيينا؟ تبن؟ أليست هناك قشّة في

مهبّ الريح؟".

هزّ هاري رأسه. "آسف، كانت تلك طريقاً مسدودة أيضاً. ستعتاد على ذلك".

كان شيء ما قد حدث. مشى هاري على طول غرونلاندسليرت في محاولة لوضع إصبعه عليه. كان هناك شيء بشأن الناس في الشوارع، شيء حدث لهم حين كان في فيينا. اجتاز مسافة طويلة حتى وصل إلى بوابة كارل يوهانس قبل أن يدرك الأمر. لقد حلّ الصيف. استطاع هاري للمرة الأولى منذ سنوات أن يشم رائحة الإسفلت، والناس الذين يمرّون إلى جانبه، والورود في محل بيع الأزهار في غرنسن. وعندما كان يمشي في حدائق القصر كانت رائحة العشب الذي جُزّ حديثاً قوية جداً وجعلته يبتسم. وقف رجل وامرأة يرتديان زيّ عمال القصر وهما ينظران إلى الأعلى؛ إلى قمة شجرة، ويتناقشان ويهزّان رأسيهما. كانت المرأة قد حلّت أزرار أعلى ردائها السروالي وربطته حول خصرها. لاحظ هاري أنها عندما نظرت إلى الشجرة في الأعلى وأشارت إليها، كان زميلها يختلس النظرات إلى قميصها الضيق.

كانت متاجر الملابس في هيدجهوغسفين تسابق الزمن لتزويد الناس بالثياب؛ من أجل احتفالات عيد الاستقلال. كانت الأكشاك تبيع أشرطةً وأعلاماً، واستطاع أن يسمع من مسافة بعيدة صدى فرقة موسيقية تضع لمساتها الأخيرة على أنغام المسيرة التقليدية. كانت النشرة الجوية تشير إلى سقوط أمطار، لكن الجو سيكون دافئاً.

كان هاري يتصبب عرقاً حين رنّ جرس باب منزل سندر فوك.

لم يكن فوك يتطلع قدماً على نحو خاص إلى ذلك اليوم الوطني.

"الضوضاء مزعجة، وهناك الكثير من الرايات. لا عجب في أن هتلر شعر بالقرب من النرويجيين؛ فهم وطنيون كثيراً. نحن لا نجرؤ على الإقرار بذلك".

سكب القهوة.

قال هاري: "انتهى الأمر بغدبراند يوهانسن في المستشفى العسكري في فيينا. قتل طبيباً في الليلة التي سبقت مغادرته إلى النرويج، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت".

قال فوك وهو يرتشف القهوةَ الساخنةَ بصوتٍ عالٍ: "حسناً، كنت أعرف أن هناك خطباً ما بشأن ذلك الفتى".

"ماذا يمكنك أن تخبرني عن إيفن جوول؟".

"الكثير، إذا اضطررت إلى ذلك".

"حسناً، أنت مضطر إلى ذلك".

رفع فوك حاجبه الكث.

"هل أنت واثق من أنك لا تسير في الاتجاه الخاطئ الآن يا هول؟".

"لست واثقاً من أي شيء على الإطلاق".

نفخ فوك على قهوته وهو مستغرق في التفكير.

"لا بأس. إذا كان ذلك ضرورياً جداً. كانت علاقتي بجوول تشبه علاقة غدبراند يوهانسن بدانيال غدسون بطرائق عديدة. كنت أباً بديلاً لإيفن. يتعلق ذلك على الأرجح بحقيقة أنّه ليس لديه والدان".

توقف كوب قهوة هاري وهو في منتصف الطريق إلى فمه.

"لا يعرف الكثير من الناس ذلك؛ لأن جوول اعتاد إخفاء الأمر طوال الوقت. تكوّنت طفولته الملفّقة من أشخاص، وتفاصيل، وأماكن، وتواريخ أكثر مما يستطيع معظم الناس أن يتذكّروه من طفولتهم. كانت الرواية الرسمية تقول إنه ترعرع مع أسرة جوول في مزرعة في غريني. لكن الحقيقة هي أنه نشأ مع آباء مختلفين في مؤسسات شتّى في أرجاء النرويج قبل أن يحط الرحال أخيراً حين كان في الثانية عشرة من عمره لدى أسرة جوول التي لم تُرزق بأطفال".

"كيف تعرف أنه كذب بشأن ذلك؟".

"إنها قصة غريبة حقاً. لكن، في إحدى الليالي، كنت وجوول نقوم بالمراقبة خارج المعسكر في الغابة، في شمال هارستوا، حين حدث له شيء غريب. لم أكن وجوول مقرّبين على نحو خاص في ذلك الوقت، ودُهشت كثيراً حين بدأ يخبرني كيف كان يتعرض لسوء المعاملة حين كان صغيراً، وأن أحداً لم يكن يريده. أخبرني بعض التفاصيل الشخصية جداً في حياته، وكان الاستماع إلى بعضها مؤلماً حقاً. لا بدّ من أن بعض الراشدين الذين كان يعيش معهم...". ارتعش فوك.

قال: "لنذهب في نزهة. تقول الإشاعة إن الطقس سيكون لطيفاً في الخارج".

تجاوزا بوابة فايبز إلى ستنسبارك، حيث كانوا يعرضون ملابس سباحة، وقد ابتعد مدمن على الغراء عن وكره في أعلى التلة وبدا أنه يكتشف كوكب الأرض للمرة الأولى.

قال فوك: "لا أعرف ما الذي دفعه إلى ذلك. لكن، بدا أنه أصبح شخصاً آخر في تلك الليلة. هذا غريبٌ جداً، لكن أغرب شيء حصل هو

أنه تصرّف في اليوم الآتي وكأنه قد نسي الحديث الذي دار بيننا".

"قلت إنكما لم تكونا مقرّبين جداً، لكنك أخبرته بعضاً من تجاربك على الجبهة الشرقية؟".

"نعم، بالطبع. لم تكن هناك أحداث كثيرة تقع في الغابة. كنا نتحرك في أرجائها معظم الوقت ونحن نراقب الألمان. ولم تكن لدينا إلا بضع قصص طويلة في أثناء انتظارنا".

"هل تحدّثتما كثيراً عن دانيال غدسون؟".

حدّق فوك إلى هاري.

"إذاً، لقد اكتشفت أن إيفن جوول مهووس بشأن دانيال غدسون؟".

قال هاري: "أنا أخمّن فقط في الوقت الحالي".

قال فوك: "نعم، تكلمت كثيراً عن دانيال. كان مثل أسطورة؛ أعني دانيال غدسون. فمن النادر أن تلتقي شخصاً حرّاً، وقوياً، وسعيداً مثله. وكان إيفن مفتوناً بالقصص. كنت أسردها له مراراً وتكراراً، خاصة تلك التي تتعلق بالروسي الذي حمله إلى الأرض التي لا يسيطر عليها أحد ليدفنه هناك".

"هل كان يعرف أن دانيال قد ذهب إلى سنهايم في أثناء الحرب؟".

"طبعاً. تذكّر إيفن كل التفاصيل عن دانيال التي بدأت أنساها وذكّرني بها. لسبب ما، بدا أنه متفاهم تماماً مع دانيال، بالرغم من أنني لا أستطيع أن أتخيل شخصين أكثر اختلافاً منهما. عندما ثمل إيفن مرة اقترح أن نناديه أوريا، كما كان دانيال قد فعل. وإذا سألتني، لم تكن مصادفة أن يضع عينيه على سيغني ألساكر في نهاية الحرب".

"لماذا؟".

"عندما اكتشف أن قضية خطيبة دانيال غدسون على وشك أن تصل إلى نهايتها، ذهب إلى قاعة المحكمة وجلس هناك كل اليوم وهو ينظر إليها. ويبدو أنه قد قرر سلفاً أن يحظى بها".

"لأنها كانت فتاة دانيال؟".

سأل فوك: "هل أنت واثق من أن هذا مهم؟". ومشى على الدرب نحو التلة بسرعة كبيرة، وكان على هاري أن يحثّ خطاه ليلحق به.

"بالتأكيد".

"لست واثقاً إن كان يجب أن أقول هذا، لكنني شخصياً أظن أن إيفن جوول أحب أسطورة دانيال غدسون أكثر مما أحب سيغني جوول. أنا واثق من أن إعجابه بغدسون كان عاملاً أسهم بقوة في عدم استئنافه

دراسة الطب بعد الحرب، ودفعه إلى دراسة التاريخ بدلاً من ذلك. ولقد تخصّص - على نحو طبيعي - في تاريخ الاحتلال النرويجي والجنود النرويجيين على الجبهة الشرقية".

كانا قد وصلا إلى القمة، ومسح هاري عرقه، فيما كان فوك يلهث.

"أحد الأسباب التي جعلت إيفن جوول يشتهر بسرعة كبيرة كمؤرخ هو أنه كان بوصفه رجل مقاومة سابقاً أداةً ممتازة لكتابة التاريخ الذي شعرت السلطات بأنها تريده للنرويج بعد الحرب: فهي تريد غضّ النظر عن التعاون واسع الانتشار مع الألمان، والتركيز على المقاومة الضعيفة التي انبثقت هناك. مثلاً، خصّص جوول خمس صفحات لدى حديثه عن غرق بلوخر ليلة 9 نيسان في كتابه التاريخي، لكنه تجاهل تماماً حقيقة الإجراءات القانونية ضد نحو 100,000 نرويجي في المحاكم. وقد نجح الأمر؛ إذ لا تزال أساطير الشعب النرويجي الذي يقاتل جنباً إلى جنب ضد النازية حيّة حتى اليوم".

"هل هذا ما سيكون عليه كتابك يا سيد فوك؟".

"أحاول فقط قول الحقيقة. كان إيفن يعرف أن ما يكتبه تحريف للحقيقة إذا لم يكن أكاذيب. تكلمنا عن ذلك مرة. دافع عن نفسه بالقول إن ذلك أسهم في توحيد الشعب. الشيء الوحيد الذي لم يستطع وضعه تحت ضوء البطولة المرغوب فيه هو فرار الملك إلى الحرية. لم يكن رجل المقاومة الوحيد الذي شعر بالخذلان في العام 1944، لكنني لم ألتقِ قطّ شخصاً متحيّزاً في نقده مثل إيفن، ولا حتى بين الجنود على الجبهة. تذكّر أنه كان منبوذاً كل حياته من قبل أشخاص أحبهم ووثق بهم. أظن أنه يكره كل شخص غادر إلى لندن من كل قلبه؛ حقاً".

جلسا على مقعد خشبي ونظرا نحو الأسفل إلى دار عبادة فاغربورغ، وإلى السطوح في بيلستردت التي تصل إلى البلدة، وإلى فورد أوسلو الأزرق الذي يتلألأ بعيداً.

قال فوك: "إنها جميلة ورائعة جداً، حتى يبدو أحياناً أنها تستحق الموت من أجلها".

حاول هاري أن يفهم كل ذلك ويضعه في سياقه الصحيح. لكن، كان هناك تفصيل صغير مفقود.

"بدأ إيفن بدراسة الطب في ألمانيا قبل الحرب. هل تعرف أين في ألمانيا؟".

قال فوك: "لا".

"هل تعرف إن كان يفكّر آنذاك في التخصّص في مجال معين؟".

"نعم، أخبرني أنه حلم باتباع خطوات الأب الذي ربّاه، ووالده من قبله".

"وكانا؟".

"ألا تعرف؟ إنهما المستشاران جوول؟ كانا جرّاحين".

غرونلاندسليرت. 16 أيار 2000

كان بيارني مولر وهالفورسن وهاري يمشون جنباً إلى جنب عبر بوابة موتزفلدتز. كانوا داخلَ كراتشي الصغيرة، وذكّرتهم الرائحة والملابس والناس من حولهم بالنرويج قليلاً مثلما ذكّرهم الكباب الذي كانوا يأكلونه بالسجق النرويجي المشوي. اقترب منهم فتى يرتدي ملابس باكستانية، لكنه يضع شريط 17 أيار على ثنية سترته المذهّبة وهو يقفز على الرصيف. كان أنفه أفطس وغريب الشكل، ويحمل علماً نرويجياً في يده. كان هاري قد قرأ في الصحف أن الأجانب ينظّمون احتفال 17 أيار للأطفال في ذلك اليوم؛ حتى يستطيعوا التركيز على المناسبة الخاصّة بهم في اليوم التالي.

"مرحى!".

أشرق وجه الصبي بابتسامة بيضاء حين كان يتجاوزهم.

كان مولر يقول: "إيفن جوول ليس شخصاً عادياً، وربما يكون أفضل مرجع عن تاريخ الحرب. إذا كان هذا صحيحاً، فسيثير الأمر عاصفة هوجاء في الصحف. لا يمكنني التفكير في العواقب إذا كنا مخطئين؛ أقصد إذا كنت مخطئاً يا هاري".

"كل ما أطلبه هو إذن بإحضاره للاستجواب بوجود عالم نفس، ومذكرة تفتيش لمنزله".

قال مولر وهو يومئ: "وكل ما أطلبه هو دليل واحد أو شاهد على الأقل. جوول مشهور، ولم يره أحد في أي مكان قرب مواقع الجرائم؛ ولا حتى مرة واحدة. ماذا عن المكالمة الهاتفية التي تلقّتها زوجة براندهوغ من مشربك المحلّي، مثلاً؟".

قال هالفورسن: "عرضت صورة إيفن جوول على المرأة التي تعمل في شرودر".

قال هاري: "ماجا".

قال هالفورسن: "لا تتذكر أنها رأته".

تأوه مولر وهو يمسح الصلصة عن فمه: "هذا ما أقوله بالضبط".

قال هالفورسن وهو يلقي نظرة سريعة على هاري: "نعم، لكنني عرضت الصورة على عدد من الأشخاص الذين كانوا يجلسون هناك. كان هناك رجل عجوز يرتدي معطفاً قد أومأ وقال إننا يجب أن نعتقل هذا الشخص".

كرّر هاري: "معطف. ذلك هو الموهوك، كونراد آسنس، الملاح في زمن

الحرب. إنه شخصية متميزة، لكنه ليس شاهداً يمكن الاعتماد عليه، كما أخشى. على أيّ حال، كان جوول قد أخبرنا أنه كان في كافبرنري على الطرف المقابل من الشارع. لا توجد هواتف هناك. لذا، إذا كان يرغب في إجراء اتصال فمن الطبيعي أن يذهب إلى شرودر".

تجهم مولر ونظر متشككاً إلى الكباب الذي يأكله. كان قد وافق على مضض - غير مقتنع نوعاً ما - أن يجرّب الكباب الذي نصحه به هاري".

"وأنت تصدّق حقاً كل ذلك الهراء المتعلّق بانفصام الشخصية يا هاري؟".

"أظن مثلك أنه أمرٌ لا يُصدّق أبداً أيها المدير، لكن أون يعتبره احتمالاً، وهو مستعد لمساعدتنا".

"إذاً، تظن أن أون يمكنه أن ينوّم جوول مغناطيسياً، ويستطيع إخراج دانيال غدسون ذاك من داخله والحصول على اعتراف منه؟".

قال هاري: "ليس مؤكداً أن لدى إيفن جوول أي فكرة عمّا فعله دانيال غدسون؛ لهذا من الضروريّ جداً أن نتكلم معه. وفقاً لأون، الأشخاص الذين يعانون ا - ش - م حسّاسون جداً للتنويم المغناطيسي؛ لأن ذلك ما يفعلونه لأنفسهم طوال الوقت؛ أي تنويم أنفسهم مغناطيسياً".

قال مولر وهو يحرك عينيه: "هذا رائع. إذاً، ما الفائدة من مذكرة التفتيش؟".

"كما قلت بنفسك، ليس لدينا دليل أو شهود، ونعرف أننا لا نستطيع الاعتماد على قبول المحكمة لكل ذلك الهراء النفسي، لكن إذا عثرنا على بندقية ماركلين، فسنكون قد حققنا الغاية المرجوة. لن نحتاج إلى أي شيء غيرها".

توقف مولر فجأة على الرصيف، ثم قال: "وما هو الحافز؟".

أمعن هاري النظر إلى وجه مولر الذي قال:

"تجربتي تقول إنّ الأشخاص المضطربين لديهم عادة حافز في جنونهم. ولا يمكنني رؤية دافع جوول".

قال هاري: "ليس جوول أيها المدير، وإنما حافز دانيال غدسون. ربّما يكون ذهاب سيغني جوول إلى العدو قد منح غدسون حافزاً للانتقام. ربما يشير ما كتبه على المرآة - إنّه وليي - إلى أنه يرى أنّ الجرائم حملة رجل واحد، وأنها قضية عادلة، بالرغم من إدانة الآخرين لها".

"ماذا عن جريمتي القتل الأخريين؟ جريمتا قتل برنت براندهوغ - إذا كنت محقاً بأنّ القاتل هو نفسه - وهالغريم ديل؟".

"ليست لديّ فكرة عن الدوافع، لكننا نعرف أن براندهوغ لقي حتفه باستخدام بندقية ماركلين، وأن ديل يعرف دانيال غدسون. ووفقاً لتقرير التشريح حُزَّ عنق ديل وكأن جراحاً قد فعل ذلك. حسناً، كان جوول قد بدأ بدراسة الطب وحلم بأن يصبح جرّاحاً. ربما كان على ديل أن يموت؛ لأنه قد اكتشف أن جوول يتصرف مثل دانيال غدسون".

تنحنح هالفورسن.

سأل هاري متجهماً: "ماذا؟". كان قد عرف هالفورسن وقتاً طويلاً بما يكفي ليتوقّع أنه لن يسمع اعتراضاً، وعلى الأرجح ليس شيئاً راسخاً له ما يبرّره.

"مما كنت قد أخبرتنا به عن مرضى ا - ش - م، لا بدّ من أن إيفن جوول هو الذي قتل هالغريم ديل؛ إذ لم يكن دانيال غدسون جرّاحاً".

ابتلع هاري آخر قطعة من الكباب، ومسح فمه بمنديل، ونظر حوله بحثاً عن سلّة مهملات، ثم قال: "لا بأس. يمكنني القول إننا يجب أن ننتظر حتى نحصل على أجوبة عن كل أسئلتنا قبل أن نفعل شيئاً. وأدرك تماماً أن المدّعي العام سيعتبر الدليل ظرفياً، لكن لا يستطيع أحد منا تجاهل حقيقة أن لدينا مشتبهاً فيه قد يقتل مجدداً. أنتما خائفان من الضجيج الإعلامي إذا اتهمنا إيفن جوول، لكن تخيلا الصخب الذي سيحدث إذا اقترف أي جرائم أخرى، ثم تبين لاحقاً أننا كنا نشتبه فيه ولم نفعل شيئاً لإيقافه...".

قال مولر: "نعم، نعم، نعم، أعرف ذلك. إذاً، أنت تظن أنه سيقتل مجدداً؟".

قال هاري: "هناك أشياء كثيرة في هذه القضية لست واثقاً منها. لكن، إذا كان هناك شيء واحد أنا متأكّد منه تماماً فهو أنه لم يُنهِ مشروعه بعد".

"وما الذي يجعلك واثقاً إلى هذا الحد؟".

ربت هاري على بطنه وابتسم ابتسامة ساخرة.

"يوجد شخص هنا يبعث إليّ بإشارات مورس أيها المدير. هناك سبب دفعه إلى شراء أغلى بندقية اغتيال وأفضلها في العالم. أحد الأسباب التي جعلت دانيال غدسون أسطورة هو أنه كان قنّاصاً بارعاً. شيء ما هنا يخبرني بأنّه قد قرّر المضي في هذه الحملة حتى نهايتها المنطقية. ستكون إكليل التاج، وشيئاً يخلّد أسطورة دانيال غدسون".

اختفت حرارة الصيف ثانية حين عصفت ريح رطبة ببوابة موتزفلدتز، وأثارت الغبار والأوراق. أغمض مولر عينيه، وشد معطفه على نفسه بإحكام وارتعش. فكّر بيرغن، بيرغن.

قال: "سأرى ما يمكنني فعله. كن مستعداً دائماً".

مقر قيادة الشرطة. 16 أيار 2000

كان هاري وهالفورسن مستعدين، وعندما رنّ هاتف هول، قفز كلاهما. أمسك هاري السمّاعة قائلاً: "هول يتكلم!".

قالت راكيل: "لا داعي للصراخ؛ لهذا السبب اختُرع الهاتف. ما الذي كنت قد قلته عن السابع عشر في ذلك اليوم؟".

"ماذا". استغرق الأمر من هاري بضع ثوانٍ ليفهم ما يجري. "هل تقصدين ما قلته عن أنني أعمل؟".

قالت راكيل: "الشيء الآخر. إنك ستبذل قصارى جهدك...".

"هل تقصدين ذلك؟". شعر هاري بشيء غريب ودافئ في معدته. "هل تقصدين أنكما ستودّان تمضية الوقت معي إذا وجدت شخصاً يهتم بالمناوبة؟".

ضحكت راكيل.

"تبدو لطيفاً الآن. يجب أن أشير إلى أنك لست خياري الأول. لكن، نظراً إلى أن والدي قد قرّر البقاء وحده هذه السنة، فالجواب هو نعم، نودّ أن نكون معك".

"ماذا يقول أوليغ عن ذلك؟".

"كان هذا اقتراحه".

"نعم؟ إنه فتى ذكي، أوليغ ذاك".

كان هاري سعيداً جداً، ووجد صعوبة في التحدث بصوته الطبيعي، ولم يهتم إطلاقاً بأنّ هالفورسن يجلس قبالته إلى الطاولة، وابتسامته تمتد من أذن إلى أخرى.

دغدغ صوت راكيل أذنه وهي تقول له: "هل اتفقنا؟".

"إذا استطعت ذلك، نعم. سأتصل بك لاحقاً".

"لا بأس، أو يمكنك المجيء لتناول شيء معنا هذا المساء. أعني إذا كان لديك الوقت أو الرغبة".

جاءت الكلمات مرتجلة على نحو مبالغ فيه، وعرف هاري أنها كانت تتدرب عليها قبل أن تتصل به. كان صوت ضحكتها يتردد في ذهنه، وشعر أنّ رأسه خفيف وكأنه تناول مادة مخدّرة، وكان على وشك أن يقول شيئاً ما حين تذكر أمراً كانت قد قالته في المطعم: أعرف أن الأمر لن يتوقف عند مرة واحدة. لم تكن تعرض عليه شيئاً يتناوله.

إذا كان لديك الوقت أو الرغبة.

إذا كان الرعب سيدبُّ في أوصاله، فإن هذا هو الوقت المناسب.

قاطع وميض الهاتف أفكاره.

"لدي مكالمة على الخط الآخر يجب أن أتلقاها. راكيل، هل يمكنك الانتظار ثانية؟".

"طبعاً".

ضغط هاري زر المربع، وكان مولر.

"مذكرة الاعتقال جاهزة، وإذن التفتيش في طريقه إلينا. انطلق توم والر مع سيارتين وأربعة رجال مسلحين. آمل أن تكون يد الرجل الذي يكتب شيفرة مورس في بطنك ثابتة يا هاري".

قال هاري وهو يشير إلى هالفورسن بأن يرتدي سترته: "إنه يخطئ في حروف، لكن ليس في الرسالة كلها. أراك لاحقاً". أغلق هاري السمّاعة.

كانا يقفان في المصعد في طريقهما إلى الأسفل حين خطر لهاري أن راكيل لا تزال على الخط الآخر، وأنها تنتظر جوابه. لم تكن لديه الطاقة الذهنية ليكتشف ما كان يعنيه ذلك.

آيرشفاين، أوسلو. 16 أيار 2000

كانت حرارة أول أيام الصيف في السنة قد بدأت تخف حين دخلت سيارة الشرطة المنطقة السكنية المؤلفة من منازل منفصلة عن بعضها. لم يكن هاري مرتاحاً؛ ليس لأنه يتصبب عرقاً تحت السترة المضادة للرصاص فقط، بل لأن الجو هادئ جداً أيضاً. حدّق إلى الستائر خلف الوشيع المشذّب بأناقة، لكن شيئاً لم يتحرّك. شعر بأنه مثل راعي بقر وعلى وشك أن يشترك في معركة.

كان هاري في البداية قد رفض ارتداء السترة المضادة للرصاص، لكن توم والر، الذي تولّى قيادة العملية، كان قد وجّه إليه إنذاراً نهائياً بسيطاً: إما أن يرتدي السترة أو يبقى في المنزل. كانت حجة أن رصاصة من بندقية ماركلين يمكنها أن تخترق السترة كما يخترق سكينٌ الزبدة قد جعلت والر يهز كتفيه استخفافاً.

ذهبوا في سيارتي شرطة. كانت الثانية، التي يستقلّها والر، قد اتجهت إلى سوغنسفان، ثم إلى أوليفال هاغباي، لتدخل آيرشفاين من الاتجاه الآخر قادمة من الغابة. سمع صوت والر يخشخش عبر اللاسلكي الصغير، هادئاً وواثقاً من نفسه. سأل عن الموقع، وراجع الأسلوب المتبّع وإجراء الطوارئ مجدداً، وطلب من كل شرطي أن يكرّر مهمته.

"إذا كان محترفاً، فسيكون قد وضع جهاز إنذار على البوابة؛ لهذا سندخل من فوقها وليس عبرها".

كان كفوءاً، حتى هاري أقرّ بذلك، وتبين أن الآخرين في السيارة يحترمون والر.

أشار هاري إلى المنزل الخشبي الأحمر.

"هذا هو".

قال الشرطي الذي يجلس في المقعد الأمامي عبر لاسلكي صغير: "ألفا، لا يمكنني رؤيتك".

والر: "نحن عند المنعطف تماماً. ابتعدوا عن أنظار من في المنزل حتى ترونا. حوّل".

"فات الأوان. نحن هناك الآن. حوّل".

"لا بأس، لكن ابقوا في السيارة حتى نأتي إليكم. انتهى".

رأوا في اللحظة التالية مقدمة سيارة الشرطة الثانية تظهر عند المنعطف. تقدموا مسافة خمسين متراً حتى وصلوا إلى المنزل وأوقفوا

سيارتهم بحيث تسد مخرج المرأب. توقفت السيارة الثانية أمام بوابة الحديقة.

عندما خرجوا من السيارتين، سمع هاري صوتاً مكتوماً لكرة ترتطم بمضرب. كانت الشمس تتحرك نحو أولرناسن، وشمّ رائحة قلي قطع من اللحم تأتي من إحدى النوافذ.

بدأت المهمة بعد ذلك. قفز شرطيان من فوق السياج وكل منهما يحمل رشاش أم - بي - 5 وركضا بسرعة حول المنزل، أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار.

بقيت الشرطية في سيارة هاري حيث كانت، وكانت مهمتها الاتصال لاسلكياً بمركز التنسيق الرئيس، وإبعاد المشاهدين المحتملين عن المكان. انتظر والر والشرطي الأخير حتى أصبح الشرطيان الآخران في موقعيهما، ثمّ ثبّت كل منهما اللاسلكي الصغير في جيب سترته وقفز من فوق البوابة وهو يشهر مسدسه الرسمي. وقف هاري وهالفورسن خلف سيارة الشرطة وهما يراقبان العملية كلها.

سأل هاري الشرطية: "لفافة تبغ؟".

ابتسمت: "لا، شكراً".

"كنت أتساءل إن كانت لديك واحدة".

اختفت ابتسامتها. إنّها غير مدخّنة نموذجية، كما فكّر هاري.

كان والر والشرطي يقفان في أعلى الدرج، وقد اتّخذ كل منهما موقعاً إلى أحد جانبي الباب، حين رنّ هاتف هاري الخلوي.

رأى هاري عيني الشرطية تتحرّكان. إنّها تفتقر إلى الخبرة، وعلى الأرجح هي تفكر الآن.

كان هاري على وشك إغلاق هاتفه، لكنّه قرّر في اللحظة الأخيرة التحقق فقط من أنه ليس رقم راكيل. كان الرقم مألوفاً، لكنه لم يكن رقم راكيل. كان والر قد رفع آنذاك يده لإعطاء الإشارة حين أدرك هاري من الذي يتصل به. لذا، أخذ اللاسلكي الصغير من الشرطية التي فغرت فمها.

"ألفا! توقف. المشتبه فيه يتصل بي الآن. هل يمكنك سماعي؟".

نظر هاري إلى الدرجة حيث كان والر يومئ برأسه. ضغط هاري الزر في هاتفه الخلوي ووضعه على أذنه.

"هول يتكلم".

"مرحباً". دُهش هاري لأنه لم يكن إيفن جوول. "أنا سندر فوك. أعتذر

عن إزعاجك، لكنني أقف في منزل إيفن جوول وأظن أنك يجب أن تأتي إلى هنا".

"لماذا؟ وماذا تفعل هناك؟".

"أظن أنني قد فعلت شيئاً غبياً. اتصل بي قبل ساعة وطلب مني المجيء فوراً؛ لأن حياته في خطر. قدت سيارتي إلى هنا ووجدت الباب مفتوحاً، لكنني لم أرَ إيفن، وأخشى الآن أنه قد أوصد الباب على نفسه في غرفة النوم".

"لماذا تظن ذلك؟".

"باب غرفة النوم موصد، وعندما حاولت النظر عبر الثقب، كان المفتاح فيه من الداخل".

قال هاري وهو يمشي حول السيارة ويدخل عبر البوابة: "حسناً. اسمعني جيداً. ابقَ حيث أنت تماماً. إذا كنت تحمل شيئاً في يديك فضعه أرضاً واجعلهما ظاهرتين للعيان. سنكون هناك بعد ثانيتين".

مشى هاري نحو العتبة، وراقب والر والشرطيون الآخرون حركاته بدهشة. ضغط على مقبض الباب ودخل.

كان فوك يقف في الردهة وسمّاعة الهاتف في يده، وهو يحدّق إليهم فاغراً فمه بدهشة.

كان كل ما استطاع قوله حين شاهد والر والمسدس في يده: "يا الله! كان هذا سريعاً...".

سأل هاري: "أين غرفة النوم؟".

أشار فوك بصمت نحو السلالم.

قال هاري: "دُلّنا".

تقدم فوك رجال الشرطة الثلاثة.

"هنا".

حاول هاري فتح الباب، لكن فوك كان محقاً حين قال إنه موصد. كان هناك مفتاح في القفل حاول إدارته، لكنه لم يتحرّك.

قال فوك: "لم أتمكن من إخبارك بذلك، لكنني كنت أحاول فتح الباب بأحد مفاتيح غرف النوم الأخرى؛ ينجح ذلك أحياناً".

أخرج هاري المفتاح ووضع عينه على الثقب. رأى في الداخل سريراً وطاولة إلى جانبه، وبدا له أنّ هناك ظلاًّ على السرير. كان والر يتكلم بصوت منخفض عبر اللاسلكي الصغير. شعر هاري بالعرق يسيل داخل سترته مجدداً. لم يعجبه منظر الظل.

"ظننت أنك قلت إن هناك مفتاحاً من الداخل أيضاً؟".

قال فوك: "كان هناك مفتاح، حتى أوقعته وأنا أحاول وضع المفتاح الآخر في القفل".

سأل هاري: "إذاً، كيف سندخل؟".

قال والر: "إنها في طريقها إلينا". وفي تلك اللحظة، سمعوا صوت حذاء ثقيل على السلالم. كان أحد رجلي الشرطة اللذين اتخذا موقعيهما خلف المنزل يحمل عتلة حمراء.

قال والر وهو يشير إلى الباب: "من هنا".

طارت شظايا، وفُتح الباب على مصراعيه.

دخل هاري، وسمع والر وهو يطلب من فوك الانتظار في الخارج.

كان أول شيء لاحظه هاري هو طوق الكلب. كان إيفن جوول قد شنق نفسه به، ومات وهو يرتدي قميصاً أبيض مفتوحاً عند العنق، وسروالاً أسود، وزوجاً من الجوارب المخططة. كان هناك كرسي مقلوب خلفه أمام خزانة الملابس، وحذاؤه تحت الكرسي. رفع هاري بصره إلى السقف، ورأى أن الطوق مربوط إلى عقدة هناك. حاول هاري أن يتوقف، لكنه لم يستطع منع نفسه من إمعان النظر إلى وجه إيفن جوول. كانت إحدى العينين تحدّق إلى الغرفة في حين أن الأخرى مثبّتة على هاري. وحدها. بدا مثل غول برأسين في كل منهما عين واحدة، كما فكّر هاري. مشى إلى النافذة الشرقية وراقب الأطفال الذين كانوا يركبون درّاجاتهم الهوائية في آيرشفاين، تجذبهم إشاعات عن وجود سيارات شرطة تظهر دائماً بسرعة كبيرة في مناطق مثل تلك.

أغمض هاري عينيه وفكّر ملياً. الانطباع الأول مهم. أول فكرة تخطر على بالك في الموقع هي غالباً الأكثر صحة. كانت إيلين قد علّمته ذلك، وعلّمه مدربه التركيز على أول شيء يشعر به حين يصل إلى مسرح الجريمة؛ لهذا السبب لم يكن هاري يحتاج إلى أن يستدير ليعرف أن المفتاح على الأرض خلفه. كان يعرف أنهم لن يجدوا أي بصمات في الغرفة، وأن أحداً لم يقتحم المنزل؛ لأن القاتل والضحية - بكل بساطة - معلّقان في السقف. كان الغول ذو الرأسين قد انفصل.

قال هاري لهالفورسن الذي كان قد انضم إليهم ويقف في تلك الأثناء عند الباب، وهو يحدّق إلى الجثة المتدلية: "اتصل بوبير. ربما يكون قد خطط لبداية مختلفة في احتفالات الغد، لكن وَاسِه بحقيقة أن هذا الأمر قد انتهى. فلقد اكتشف إيفن جوول القاتل ودفع حياته ثمناً لذلك".

سأل والر: "ومن هو القاتل؟".

"ذاك. إنه ميت أيضاً. كان يدعى دانيال غدسون ويعيش في رأس جوول".

وفيما كان هاري يخرج من المنزل طلب من هالفورسن أن يخبر ويبر بضرورة الاتصال به إذا عثر على الماركلين.

وقف هاري على العتبة في الخارج وألقى نظرة شاملة على المنطقة. كان لافتاً للنظر عدد الجيران الذين يعملون في حدائقهم، ويقفون على أطراف أناملهم لينظروا من فوق وشيع منازلهم. خرج والر أيضاً ووقف إلى جانب هاري.

قال والر: "لم أفهم تماماً ما قلته في الداخل. هل تعني أن الرجل قد انتحر بدافع الشعور بالذنب؟".

هزّ هاري رأسه. "لا، أعني ما قلته. قتلا بعضهما. إيفن قتل دانيال لإيقافه، ودانيال قتل إيفن حتى لا يكتشف أحد أمره. تطابقت اهتماماتهما مرة واحدة".

أومأ والر، لكن بدا أنه لم يفهم شيئاً.

قال: "هناك شيء مألوف في الرجل العجوز. أعني الشخص الحي".

"صحيح. إنه والد راكيل فوك، إذا كنت...".

"طبعاً، الجميلة في الاستخبارات السرية، ذلك هو".

سأل هاري: "هل لديك لفافة تبغ؟".

قال والر: "لا. ما سيحدث هنا لاحقاً هو مسؤوليتك يا هول. أفكّر في أن أغادر المكان، لهذا إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة، أخبرني الآن".

هزّ هاري رأسه، ومشى والر نحو البوابة.

قال هاري: "آه، بالمناسبة، إذا لم يكن لديك شيء غداً، أحتاج إلى ضابط يتمتع بالخبرة ليحلّ محلي".

ضحك والر وتابع سيره.

صرخ هاري: "كل ما عليك فعله هو تنظيم المراقبة في غرونلاند. أعرف أنك بارع في ذلك النوع من الأشياء. يجب أن نتأكد من عدم قيام حليقي الرؤوس بضرب الأجانب الذين سيحتفلون في ذلك اليوم".

كان والر قد وصل إلى البوابة وتوقف فجأة.

سأل من فوق كتفه: "وأنت مسؤول عن ذلك؟".

قال هاري: "ليس أمراً مهماً. كلّ ما يتطلبه الأمر هو سيارتان، وأربعة رجال".

"ما المدة؟".

"من الثامنة وحتى الثالثة".

استدار والر وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

قال: "هل تعرف أمراً؟ بعد أن فكرت في الأمر، أدين لك بخدمة. هذا رائع. سأنوب عنك".

ودّعه والر، ثم ركب سيارته، وانطلق بها مبتعداً.

يدين لي بخدمة مقابل ماذا؟ فكّر هاري، وأصغى إلى صوت ضربات الكرة البطيئة القادمة من ملعب كرة المضرب، لكنه نسي ذلك في اللحظة التالية لأن هاتفه رنّ مجدداً، وظهر هذه المرة الرقم الخاص براكيل.

هولمنكولفن. 16 أيار 2000

"هل هذه لي؟".

صفّقت راكيل بيديها وأمسكت باقة من أزهار الربيع.

قال هاري وهو يدخل المنزل: "لم أستطع الذهاب إلى بائع الزهور؛ ولهذا جئتك بهذه من حديقتي. آه، أشم رائحة حليب جوز الهند. هل هو تايلندي؟".

"نعم، وتهانينا على البذلة الجديدة".

"هذا واضح، أليس كذلك؟".

ضحكت راكيل وربتت على طيّة الصدر.

"صوف ممتاز النوعية".

"110 فاخر".

لم تكن لدى هاري أي فكرة عما تعنيه 110 فاخر. كان قد دخل في لحظة حماسة إلى أحد المتاجر الفخمة في هيدجهوغسفين حين كانوا على وشك إغلاق الأبواب، وجعل فريق المبيعات يجد له البذلة الوحيدة التي يمكن أن تناسب جسده الطويل. كان مبلغ سبعة آلاف كرون أكثر بكثير مما ينوي إنفاقه بالطبع، لكن البديل كان أن يبدو غريب الشكل في بزّته القديمة؛ لهذا كان بمقدوره إغماض عينيه، ووضع بطاقته على الآلة، ومحاولة النسيان.

ذهبا إلى غرفة الطعام، حيث كانت الطاولة معدّة لشخصين.

قالت قبل أن يسأل: "أوليغ نائم". أطبق الصمت. شرعت تقول: "لم أقصد...".

قال هاري بابتسامة: "لم تقصدي؟". لم يكن قد رآها تتورد خجلاً من قبل. ضمّها إليه، وشمّ رائحة شعرها المغسول حديثاً، وشعر بأنها ترتعش قليلاً.

همست: "الطعام...".

تركها، واختفت في المطبخ. كانت النافذة التي تطلّ على الحديقة مفتوحة، والفراشات البيضاء التي لم تكن موجودة أمس ترفرف مثل قصاصات من ورق ملون في المغيب. كانت رائحة الصابون الأخضر والأرضية الخشبية الرطبة تعبق في الداخل. أغمض هاري عينيه. كان يعرف أنه سيحتاج إلى عدّة أيام مثل هذه قبل أن تختفي صورة إيفن جوول الذي يتدلّى من طوق الكلب من ذاكرته تماماً، لكنها كانت تتلاشى. لم يعثر ويبر

وزملاؤه على الماركلين، لكنهم وجدوا الكلب بور في كيس قمامة وعنقه مقطوع. وقد عثروا في صندوق العدّة على ثلاثة سكاكين؛ وكلها ملطخة بالدم. خمّن هاري أن بعضها من دم هالغريم ديل.

نادته راكيل من المطبخ ليساعدها على حمل بضعة أشياء. كانت صورة جوول تتلاشى آنذاك.

هولمنكولفن. 17 أيار 2000

كانت موسيقى الجانيزاري تصدح وتختفي مع الريح. فتح هاري عينيه. كان كل شيء أبيض؛ فضياء الشمس يومض ويلمع مثل شيفرة مورس بين الستائر البيضاء التي تتحرك، والجدران بيضاء، والسقف أبيض، والملاءات بيضاء وناعمة وباردة على جلده الساخن. استدار. كانت الوسادة تحتفظ بشكل رأسها، لكن السرير فارغ. نظر إلى ساعة معصمه وكانت تشير إلى الثامنة وخمس دقائق. كانت وأوليغ في طريقهما إلى أرض استعراض حصن أكرشوس؛ حيث سيبدأ احتفال الأطفال. كانا قد اتفقا على اللقاء أمام مبنى الحراسة إلى جانب القصر عند الساعة الحادية عشرة.

أغمض عينيه وتذكّر الليلة مرة أخرى، ثم نهض وذهب إلى الحمام. كان المكان أبيض هناك أيضاً: آجر أبيض، وخزف أبيض. استحمّ بماء بارد جداً، وقبل أن يدرك الأمر كان يدندن أغنية قديمة لفرقة ذا ذا :"... يوم ممتاز!".

كانت راكيل قد أخرجت له منشفة بيضاء، فجفف جلده جيّداً بالقطن المحبوك والسميك؛ لجعل دورته الدموية تجري بسلاسة، فيما كان يمعن النظر إلى وجهه في المرآة. كان سعيداً آنذاك، أليس كذلك؟ ابتسم للوجه أمامه، وبادله الابتسام؛ إكمان وفرايزن. ابتسم للعالم والعالم سوف...

ضحك بصوتٍ عالٍ، ربط المنشفة حول خصره ومشى ببطء على قدمين رطبتين عبر الردهة إلى باب غرفة النوم. استغرق الأمر ثانية قبل أن يدرك أنها غرفة النوم الخطأ؛ لأن كل شيء كان أبيض مجدداً: الجدران، والسقف، وخزانة الثياب التي صفّت فوقها صور الأسرة، والسرير العريض المرتّب بأناقة وعليه غطاء من نسيج محبوك عتيق الطراز.

استدار وكان على وشك أن يغادر بعد أن وصل إلى الباب حين توقف فجأة. تجمّد في مكانه؛ وكأن جزءاً من دماغه يأمره بالمضي قدماً ونسيان الأمر في حين أن جزءاً آخر يريد منه العودة والتثبت من أن الذي رآه كان ما يفكّر فيه حقاً. أو، ليكون أكثر دقة، ما يخشى أن يكون. لم يكن يعرف ما الذي يخاف منه بالتحديد ولماذا. كان يعرف فقط أنه عندما يكون كل شيء مثالياً، لا يمكن أن يصبح الوضع أفضل، ولن يرغب أيّ كان في تغيير شيء؛ أي شيء. لكن الأوان كان قد فات، وبالطبع كان ذلك متأخراً.

أخذ نفساً، ثم استدار وعاد.

كانت الصورة بالأبيض والأسود في إطار ذهبي بسيط، ووجه المرأة فيها رفيع، وجبينها عالٍ، ووجنتاها بارزتان، وعيناها هادئتان ومبتسمان ومركزتان على شيء فوق آلة التصوير بقليل، إنه المصور على ما يبدو. بدت قوية. كانت ترتدي كنزة بسيطة، يتدلّى فوقها رمز النصارى الديني.

لم يكن ذلك هو السبب الذي جعلها تبدو مألوفة في أول مرة رأى فيها صورتها.

لم يكن هناك شك؛ كانت المرأة نفسها التي رآها في الصورة في غرفة بياتريس هوفمان.

القسم التاسع

أوسلو. 17 أيار 2000

أكتب هذه حتى يعرف أي شخص يعثر عليها القليل عن السبب الذي جعلني أتخذ القرارات التي أقدمت عليها. كانت القرارات في حياتي خياراً بين شرّين أو أكثر، ويجب أن يُحكم عليّ وفقاً لذلك. لكن يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أيضاً حقيقة أنني لم أهرب قطّ من قراراتي، وأنني لم أتهرّب قطّ من التزاماتي الأخلاقية. لقد خاطرت باتخاذ قرارات خاطئة بدلاً من العيش مثل جبان كفرد من الأغلبية الصامتة، أو كشخص يجد الطمأنينة في الحشد، شخص يسمح للآخرين باتخاذ قرارات نيابة عنه. لقد اتخذت هذا القرار النهائي؛ كي أكون مستعداً حين ألقى المولى وحبيبتي هيلينا.

"تباً!".

ضغط هاري على المكابح حين اندفع حشدٌ من الناس يرتدون أزياء وطنية إلى المنطقة السكنية عند التقاطع في ماجورستون. بدا أن المدينة كلها تتحرك آنذاك، وشعر بأن الأضواء لن تتغير أبداً إلى الأخضر مجدداً. استطاع أخيراً تغيير التروس وزيادة سرعة السيارة. أوقف سيارته إلى جانب سيارة أخرى في بوابة فايبز، حدّد زرّ جرس باب فوك وضغط عليه. تجاوزه طفل ينتعل حذاءً جلدياً يصدر عنه صوت عالٍ، وجعل بوق دميته الذي يصمُّ الآذان ويشبه نهيق الحمار، هاري يقفز.

لم يُجِب فوك. عاد هاري إلى سيارته، وأخذ العتلة التي يحتفظ بها دائماً داخل السيارة بدلاً من الاحتفاظ بها في الصندوق بسبب القفل الذي لا يمكن فتحه. ثمّ عاد ووضع كلتا ذراعيه على الأجراس. سمع بعد عدة ثوانٍ أصواتاً متنافرة مفعمة بالحيوية، تعود على الأرجح إلى أشخاص يركضون عكس عقارب الساعة، وهم يحملون في أيديهم حديداً ساخناً أو ملمّع أحذية. قال إنه من الشرطة وإنهم يجب أن يصدّقوه، وبالرغم من أنه سمع ضوضاء غاضبة فقد استطاع فتح الباب. اندفع إلى الأعلى، وهو يصعد أربع درجات في كل خطوة. وصل إلى الطابق الثالث، وقلبه آنذاك يخفق أسرع مما كان عليه حين رأى الصورة قبل ربع ساعة مضت.

المهمة التي أسندتها إلى نفسي كلّفت حتى الآن عدّة أشخاص أبرياء حياتهم، وبالطبع هناك خطر بأن تكلف أكثر. سيكون الأمر على تلك الحال دائماً في الحرب؛ لهذا احكموا علي بوصفي جندياً لم تكن لديه خيارات كثيرة. تلك هي رغبتي. لكن إذا كنتم ستحكمون علي بقسوة، فاعرفوا أنكم

لستم معصومين أيضاً، وسيكون الأمر كذلك دائماً، لي ولكم على حدٍّ سواء. في النهاية، ليس هناك إلا قاضٍ واحد فقط؛ الله. هذه هي مذكراتي.

قرع هاري باب فوك مرتين بقبضته، ونادى اسمه بصوت عالٍ. وعندما لم يسمع شيئاً، أقحم العتلة تحت القفل وضغط بثقله عليها. فُتح الباب في المحاولة الثالثة مصدراً طقطقة عالية. تخطّى العتبة. كانت الشقة مظلمة وهادئة، وذكّرته بطريقة غريبة بغرفة النوم التي كان قد غادرها منذ قليل. كانت خالية ومهجورة تماماً. فَهِم السبب حين ذهب إلى غرفة المعيشة. كانت مهجورة: فالأوراق التي كانت منثورة على الأرضية، والكتب التي كانت على الرفوف المائلة، وأكواب القهوة نصف الممتلئة قد اختفت. كان الأثاث قد دُفع إلى الزاوية وغُطّي بملاءات بيضاء. كان شعاعٌ من ضوء الشمس يدخل عبر النافذة ويسقط على كومة من الأوراق المربوطة معاً بخيط، والموجودة في منتصف أرضية غرفة المعيشة الخالية.

* * *

عندما تقرأ هذه الأوراق، آمل أن أكون ميتاً. آمل أن نكون جميعاً أمواتاً.

جثم هاري إلى جانب كومة الأوراق.

كان قد طبع على الورقة العليا الخيانة العظمى: مذكرات جندي.

حلّ هاري عقدة الخيط.

الصفحة التالية: أكتب هذه حتى يعرف أي شخص يعثر عليها القليل عن السبب الذي جعلني أتخذ القرارات التي أقدمت عليها. قلّب هاري الأوراق. كان هناك ما لا يقل عن عدّة مئات من الصفحات المكتوبة. ألقى نظرة على ساعته فوجد أنها تشير إلى 8:30. وجد رقم فريتز في دفتر ملاحظاته، أخرج الهاتف الخلوي، واتصل بالنمساوي الذي كان في طريقه إلى منزله بعد مناوبة ليلية. اتصل هاري بالاستعلامات الهاتفية بعد أن تكلم مع فريتز لمدة دقيقة، وعثر الموظف هناك على الرقم وحوّل له المكالمة. "ويبر".

"هول. ذكرى استقلال سعيدة. أليس هذا ما يجب أن نقوله؟".

"ليذهب هذا إلى الجحيم. ماذا تريد؟".

"حسناً، لديك على الأرجح خطط لهذا اليوم...".

"نعم، أخطط لإبقاء الباب موصداً والنوافذ مغلقة، وأن أجلس بمفردي لقراءة الصحف. ماذا تريد؟".

"أريد رفع بعض البصمات".

"رائع، متى؟".

"الآن. يجب أن تحضر حقيبتك معك؛ حتى نستطيع إرسالها من هنا، وسأحتاج إلى مسدس سميث أند ويسون".

زوّده هاري بالعنوان، ثم أخذ كومة الأوراق معه إلى أحد الكراسي المغطّاة، وجلس عليه وبدأ يقرأ.

أوسلو. 17 أيار 2000

لينينغراد. 12 كانون الثاني 1942.

أضاءت ألسنة اللهب سماء الليل الرمادية، وجعلتها تشبه لوحة زيتية مرسومة فوق الطبيعة الكئيبة والمكشوفة التي تحيط بنا من كل الجهات. ربما شنّ الروس هجوماً، وربما كانت خدعة، لكننا لن نعرف إلا بعد مضي بعض الوقت. كان دانيال قد أثبت مجدداً أنه قنّاص بارع. لو أنه لم يكن أسطورة من قبل، لكان قد ضمن لنفسه صيتاً كالمسك اليوم. أصاب روسياً وقتله من مسافة نصف كيلومتر، ثم ذهب إلى أرض الرجل بمفرده، ودفن الميت وفقَ الشعائر النصرانية. لم أسمع قطّ عن شخص فعل ذلك من قبل. أعاد معه قبعة الروسي كتذكار. كان يتمتع بروحه المعنوية المرتفعة المعتادة، فغنّى وأطرب الجميع (باستثناء بعض مفسدي البهجة الحُسّاد). أنا فخور جداً؛ لأن مثل هذا الشخص عاقد العزم والشجاع صديقي. فبالرغم من أن هذه الحرب تبدو في بعض الأيام أنها لن تنتهي أبداً، وأن التضحيات من أجل بلدنا الأم كبيرة، إلا أن رجلاً مثل دانيال غدسون يمنحنا جميعاً الأمل بأننا سنوقف البلاشفة، وسنعود إلى النرويج الحرّة الآمنة.

تفقّد هاري ساعته وتابع القراءة.

لينينغراد، أمسية رأس سنة 1942.

... عندما رأيت الخوف في عيني فوك كان يجب أن أقول له بضع كلمات مطمئِنة؛ لتخفيف توتره. لم يكن هناك أحد غيرنا نحن الاثنين في مربض الرشّاش، فقد ذهب الآخرون إلى أسرّتهم، وكانت جثة دانيال تتمدّد متيبسة فوق صناديق الذخيرة. كشطت المزيد من دم دانيال عن حزام الخراطيش. كان القمر مضيئاً والثلج يهطل في ليلة استثنائية، وظننت آنذاك أن بمقدوري استعادة رفات دانيال وتجميعه مجدداً، وجعله كاملاً بحيث يستطيع أن يقف ويقودنا. لم يفهم سندر فوك هذا. كان طفيلياً، وانتهازياً، ومخبراً ينحاز إلى جانب أولئك الذين يظن أنهم سيفوزون؛ وفي اليوم الذي ستبدو فيه الأمور قاتمة لي، ولنا، ولدانيال، سيخوننا أيضاً. تراجعت خطوة إلى الوراء بسرعة، حتى أصبحت خلفه، أمسكت بجبينه ومرّرت الحرّبة على عنقه. يجب أن تكون ماهراً جداً لإحداث شق عميق ومتقن. تركته بعد أن ذبحته؛ لأنني كنت أعرف أن الأمر قد انتهى. استدار حول نفسه ببطء وحدّق إلي بعينيه الشرهتين الصغيرتين، وبدا أنه يريد الصراخ لكن الحربة كانت قد قطعت القصبة الهوائية ولم يخرج إلا صفير من الجرح العميق،

ودم. أمسك حنجرتَه بكلتا يديه ليمنع روحه من الخروج، لكن ذلك جعل الدم يتدفق إلى الخارج سريعاً بين أصابعه. وقعت على الأرض واضطررت إلى التراجع إلى الخلف فوق الثلج؛ حتى لا يلطخ بزّتي. لن تكون لطخات دم جديدة جيدةً إذا قرّروا التحقيق في فرار سندر فوك.

عندما توقف عن الحركة، أدرته على ظهره وسحبته إلى صناديق الذخيرة التي كان دانيال ممدداً عليها. لحسن الحظ، كانت بنيتهما الجسدية متماثلة. عثرت على أوراق سندر فوك الثبوتية. (فنحن نحتفظ بها دائماً معنا، ليلاً ونهاراً؛ لأننا إذا أوقفنا ولم تكن لدنيا وثائق تقول من نحن وما هي أوامرنا - مشاة، جبهة شرقية، تاريخ، ختم وما إلى ذلك - فنحن نخاطر بأن يجري إعدامنا رمياً بالرصاص فوراً بوصفنا فارّين من الجندية). طويت أوراق سندر وحشوتها في صندوق الذخيرة المتصل بحزام الخراطيش، ثم نزعت الكيس عن رأس دانيال ووضعته حول رأس سندر. وضعت دانيال بعد ذلك على ظهري وحملته إلى الأرض التي لا يسيطر أحد عليها، ودفنته هناك في الثلج، كما دفن دانيال أوريا، الروسي. احتفظت بقبعة دانيال الروسية، وأنشدت حصن منيع ، و انضموا إلى حلقة الرجال حول النار ".

لينينغراد. 3 كانون الثاني 1943.

كان الشتاء معتدلاً. وسار كلّ شيء وفقاً للخطّة. جاء حَمَلَة الجثث في وقت مبكر من صباح 1 كانون الثاني ونقلوا الجثة عن صناديق الذخيرة كما قيل لهم. صدّقوا، على نحو طبيعي، أن الشخص الذي ينقلونه على مزلجة إلى القطاع الشمالي هو دانيال غدسون. ما زلت أضحك كلما فكّرت في ذلك. لا أعرف إذا كانوا قد نزعوا الكيس عن الرأس قبل أن يُلقوه في القبر الجماعي، ولم يكن ذلك ليزعجني على أيّ حال؛ لأن حملة الجثث لا يعرفون دانيال أو سندر فوك.

الشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو شك إدوارد موسكن في أن فوك لم يفر، وأنني قتلته. ليس هناك ما يستطيع فعله؛ فجثة سندر فوك تستلقي مع مئات الجثث الأخرى، محترقة (أرجو أن تحترق روحه إلى الأبد) ولا يمكن تعرّفها.

لكن، في الليلة الماضية حين كنت مناوباً أمعنت التفكير في تلك العملية الجريئة. وأدركت تدريجياً أنني لا أستطيع ترك جثة دانيال مدفونة في الثلج. فنظراً إلى اعتدال فصل الشتاء، كانت هناك فرصة جيدة لكي تظهر الجثة في أي لحظة وتكشف التبديل، وعندما بدأت أحلم في الليل عمّا يمكن أن تفعله الثعالب وأبناء عرس بجثة دانيال حين يذوب الثلج في

الربيع، قرّرت نبش الجثة ووضعها في القبر الجماعي. بالمحصلة، كانت تلك أرضاً مبجّلة.

كنت خائفاً بالطبع من مواقع الحراسة التابعة لنا أكثر من تلك التابعة للروس. لكن، لحسن الحظ كان هالغريم ديل، رفيق فوك الغبي، يجلس في مربض الرشّاش. زيادة على ذلك، كانت ليلة غائمة، والأكثر أهمية من ذلك هو أنني شعرت بأن دانيال معي، نعم، كان ذلك في داخلي. وعندما وضعت الجثة أخيراً على صناديق الذخيرة وكنت على وشك أن أربط الكيس حول رأسه، ابتسم. أعرف أن قلّة النوم والجوع يمكن أن يتلاعبا بذهن المرء، لكنني رأيت فعلاً قناع الموت المتيبّس يتغير أمام ناظري.

كان الشيء غير المعتاد أن ذلك، وبدلاً من أن يخيفني، جعلني أشعر بالطمأنينة والسعادة، ثم تسللت عائداً إلى المهجع ونمت مثل طفل.

عندما استيقظ إدوارد موسكن بعد ساعة، بدا كما لو أنه قد حلم بكل ذلك، وأظن أنني استطعت أن أبدو مندهشاً جداً عند رؤيتي أن جثة دانيال وقد ظهرت مجدداً. لكن ذلك لم يكن كافياً لإقناع إدوارد موسكن. كان واثقاً من أنها جثة فوك، وأنني قد قتلته ووضعته هناك على أمل أن يظن حَمَلة الجثث أنهم قد نسوا أخذه أول مرة. رفع ديل الكيس ورأى موسكن أنه دانيال. دهش كلاهما، وفغرا فميهما، وكان يجب أن أكافح لأكبح ضحكتي التي كانت ستفضحنا أنا ودانيال.

المستشفى الميداني، القطاع الشمالي، لينينغراد.

17 كانون الثاني 1944.

ضربت القنبلة اليدوية التي أُلقيت من الطائرة الروسية خوذة ديل ودارت فوق الجليد فيما كنا نحاول الهرب بعيداً. كنت الأقرب إليها، وكنت واثقاً من أن ثلاثتنا سنموت: أنا وموسكن وديل. هذا غريب، لكن آخر فكرة خطرت لي كانت عن القدر؛ لأنني كنت قد أنقذت آنذاك إدوارد موسكن من الموت على يد ديل، الرجل المسكين، وكان إنجازي الوحيد هو إطالة عمر قائد قطاعنا دقيقتين بالضبط. لحسن الحظ، يصنع الروس قنابل يدوية سيئة ونجونا جميعاً من دون أن يصيبنا أي أذى. بالنسبة إلي، جُرحت قدمي وقد دخلت شظية عبر خوذتي إلى جبيني.

انتهى بي الأمر بمحض المصادفة في جناح خطيبة دانيال، مع الممرضة سيغني ألساكر. في البداية لم تتعرّف إليّ، لكنها جاءت بعد الظهر وتكلمت معي بالنرويجية. إنها جميلة جداً وأعرف جيداً لماذا أردت أن أخطبها.

أولاف ليندفيغ كان في ذلك الجناح أيضاً. وكانت سترته الجلدية البيضاء تتدلّى إلى جانب سريره. لا أعرف السبب؛ ربما حتى يستطيع الخروج مباشرة والعودة إلى المهمات التي تنتظره عندما تشفى جروحه. نحتاج إلى رجال يتمتعون بمثل خصاله الآن، فأنا أسمع المدفعية الروسية تقترب منا. راودته كوابيس ذات ليلة، كما أظن؛ لأنه صرخ وجاءت الممرضة سيغني إليه. حقنته بشيء ما، قد يكون المورفين. وعندما خلد إلى النوم مجدداً، رأيتها تداعب شعره. كانت جميلة جداً، وشعرت بالرغبة في أن أطلب منها الاقتراب من سريري لأخبرها من أكون، لكنني لم أرغب في إخافتها.

قالوا لي اليوم إنهم سيرسلونني غرباً؛ لأن الأدوية لا تصل إليهم. لم يقل أحد شيئاً، لكن قدمي كانت تؤلمني، وكان الروس يقتربون، وأعرف أن ذلك هو أملي الوحيد للنجاة.

غابات فيينا. 29 أيار 1944.

أجمل وأذكى امرأة قابلتها في حياتي. هل يمكنك أن تحب امرأتين في الوقت نفسه؟ نعم، يمكنك ذلك بالتأكيد.

لقد تغير غدبراند، ولهذا السبب كنت قد حظيت بلقب دانيال - أوريا. هيلينا تفضّله. كان غدبراند اسماً غريباً، كما تظن.

أكتب قصائد حين يذهب الآخرون إلى النوم، لكنني لست شاعراً. يخفق قلبي حين تظهر عند الباب، لكن دانيال يقول إنك يجب أن تبقى هادئاً، وبارداً تقريباً إذا أردت أن تظفر بقلب امرأة. الأمر يشبه قتل ذباب: إذ يجب أن تجلس ساكناً ومن دون حراك، والأفضل أن تنظر إلى اتجاه آخر. وعندما تبدأ الذبابة بالوثوق بك - عندما تحط على الطاولة أمامك، وتقترب منك، وتتوسل إليك تقريباً أن تحاول قتلها - تضرب بسرعة البرق، وبقوة وثبات مثل قناعاتك. الأخيرة هي الأهم. ليست السرعة وإنما القناعة هي التي تمكّنك من قتل الذباب. لديك فرصة واحدة، ويجب أن تكون مستعداً لها، كما يقول دانيال.

فيينا. 29 حزيران 1944.

... خلّصت نفسي من ذراعي حبيبتي هيلينا. كانت الغارة الجوية في الخارج قد انتهت منذ وقت طويل، لكن الساعة كانت تشير إلى منتصف الليل، والشوارع لا تزال خالية. وجدت السيارة حيث كنت قد تركتها، إلى جانب مطعم الفرسان الثلاثة. كانت نافذة السيارة محطّمة وكانت قطعة آجر قد أحدثت انبعاجاً كبيراً في سقفها، لكن بخلاف ذلك ولحسن الحظ كانت سليمة. قدتها بأسرع ما أجرؤ عائداً إلى المستشفى.

كنت أعرف أن الوقت قد فات لأفعل أي شيء من أجلي أنا وهيلينا. كنا ببساطة شخصين عالقين في دوّامة من الأحداث التي ليس لنا سلطان عليها. دفعتها مخاوفها على والديها إلى قبول الزواج بهذا الطبيب، كريستوفر بروكهارد، هذا الشخص الفاسد الذي كانت أنانيته المفرطة - التي يدعوها حباً! - إهانة لجوهر الحب. ألم يستطع أن يرى أن الحب الذي يشعر به كان النقيض المطلق للحب الذي تشعر به؟ يجب أن أضحّي الآن بحلمي في العيش مع هيلينا لأمنحها حياة، إذا لم تكن سعيدة، فكريمة على الأقل، وخالية من الإذلال الذي سيفرضه بروكهارد عليها.

تسارعت الأفكار في ذهني حين كنت أقود السيارة مسرعاً على طول الطريق الذي كان متعرّجاً مثل الحياة نفسها. لكن دانيال كان يقود يديّ وقدميّ.

... اكتشف أنني أجلس على حافة سريره ونظر إليّ غير مصدّق.

سأل: "ماذا تفعل هنا؟".

همست: "كريستوفر بروكهارد، أنت خائن وأحكم عليك بالموت. هل أنت مستعد؟".

لا أظن أنه كان مستعداً. لا يكون الناس مستعدين للموت أبداً؛ فهم يظنون أنهم سيعيشون إلى الأبد. آمل أن يكون قد رأى نافورة الدم التي اندفعت نحو السقف، وأن يكون قد سمع صوت الدم وهو يسيل فوق الملاءات حين سقط مجدداً، لكن أكثر من أيّ شيء آخر آمل أن يكون قد أدرك أنه يُحتضر.

عثرت في خزانة الملابس على بذلة، وحذاء، وقميص لففتها كلها بسرعة وحملتها تحت ذراعي؛ ثم ركضت إلى السيارة...

... كانت لا تزال نائمة. كنت مبللاً بالماء وأشعر بالبرد من هطول المطر المفاجئ، وتسللت تحت الملاءات نحوها. كانت دافئة مثل فرن، وتأوهت في نومها حين دفعت نفسي بين أحضانها. حاولت أن أغطي كل سنتيمتر من جلدها بجسدي، جرّبت أن أخدع نفسي بالتفكير في أن كل شيء قد انتهى، وحاولت أن أتفادى النظر إلى الساعة. كانت قد بقيت ساعتان فقط على موعد انطلاق قطاري، وساعتان فقط قبل أن أصبح قاتلاً مُطارداً في كل أرجاء النمسا. لم يكونوا يعرفون موعد مغادرتي أو الطريق التي سأسلكها، لكنهم كانوا يعرفون المكان الذي سأقصده، وسيكونون في انتظاري حين أصل إلى أوسلو. حاولت أن أضمّها بقوة تكفي باقي العمر.

سمع هاري الجرس. هل رنّ من قبل؟ وجد جهاز الاتصال الداخلي

وضغط على الزر ليسمح بدخول ويبر.

قال ويبر حين رأى الدخان، ورمى صندوقاً بحجم حقيبة سفر على الأرض: "مباشرة بعد الرياضة والتلفاز، هذا أكثر ما أكرهه. يجن جنون الجميع بحماسة وطنية يوم الاستقلال، حيث تُغلق الشوارع، ويتوجب عليك أن تقود كل الطريق حول وسط المدينة لتصل إلى أي مكان. يا الله! من أين أبدأ؟".

قال هاري: "لا بدّ من أن هناك بعض البصمات الجيدة على إبريق القهوة في المطبخ. لقد كنت أتكلم مع زميل لي في فيينا ينهمك الآن في البحث عن مجموعة من البصمات من عام 1944. لقد أحضرتَ ماسحاً ضوئياً وحاسوباً، أليس كذلك؟".

ربت ويبر على الصندوق.

"هذا رائع. عندما تنتهي من رفع البصمات، يمكنك وصل هاتفي الخلوي بالحاسوب وإرسالها إلى البريد الإلكتروني المعنون فريتز، فيينا. إنه مستعد لمقارنتها بمجموعته من البصمات وسيخبرنا بالنتيجة مباشرة. هذا جُلّ ما سنفعله. يجب أن أنتهي من قراءة بضع صفحات في غرفة المعيشة".

"ماذا...؟".

قال هاري: "قضية للاستخبارات السرية. قاعدة الحاجة إلى المعرفة فقط".

"هكذا إذاً؟". عضّ ويبر شفته، وحدّق إلى هاري بنظرة متفحّصة. نظر هاري إلى عينيه وانتظر.

وأخيراً قال: "هل تعرف أمراً يا هول؟ إنّه أمر جيد أن هناك شخصاً في هذا البلد لا يزال يتصرف مثل محترف".

أوسلو. 17 أيار 2000

هامبورغ. 30 حزيران 1944.

بعد أن كتبت الرسالة إلى هيلينا، فتحت صندوق الذخيرة، وأخرجت أوراق سندر فوك المطوية من المغلّف واستبدلت بها الرسالةَ. بعد ذلك كتبت اسمها وعنوانها عليها بالحربة، وخرجت إلى الليل. عندما أصبحت في الخارج شعرت بالحرارة. عصفت الريح بثيابي، وكانت السماء فوقي قبة صفراء متسّخة، والشيء الوحيد الذي كان بالإمكان سماعه، بالرغم من طقطقة ألسنة اللهب البعيدة، هو صوت تحطم الزجاج، وصرخات أولئك الذين لم يعد لديهم مكان يهربون إليه. لم أتخيّل شيئاً بهذا السوء على الإطلاق. كانت القنابل قد توقفت عن السقوط. مشيت على طول شارع لم يعد شارعاً، بل صار مجرد شريط من الإسفلت يمتد عبر مساحة مكشوفة فيها أكوام من الأنقاض. كان الشيء الوحيد الذي بقي قائماً في الشارع هو شجرة مسودّة تتطاول إلى السماء بأغصان تشبه أصابع ساحرة، ومنزلاً يحترق وتخرج منه صرخات. عندما اقتربت كثيراً وأصبحت رئتاي تؤلمانني مع كل نفس، استدرت وبدأت أمشي نحو الميناء. كان ذلك هو المكان الذي وجدتها فيه، تلك الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين الخائفتين. أمسكت بمعطفي، وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة حين مررت.

"أمي! أمي!".

تابعت طريقي، فلم يكن هناك شيء يمكنني فعله. كنت قد رأيت آنذاك هيكلاً عظمياً لإنسان وسط ألسنة اللهب الساطعة في الطابق الأعلى، يضع قدماً على كلا جانبي إطار النافذة. لكن الفتاة لحقت بي، وهي تصرخ وتتوسل إليّ أن أساعد والدتها. حاولت أن أحثّ الخطى، لكن ذراعيها الصغيرتين تشبّثتا بي ولم تتركاني، فسحبتها معي نحو بحر كبير تحتنا من ألسنة اللهب. مضينا قدماً، في موكب غريب، شخصان مقيدان معاً في طريقنا إلى الفناء.

بكيت، نعم بكيت، لكن الدموع تبخّرت حينما ذُرفت. لا أعرف من منا الذي توقف، لكنني رفعتها عن الأرض، واستدرت، وحملتها إلى المهجع ولففت بطانيتي حولها. ثم أخذت وسادات كانت موجودة على أسرّة أخرى، واستلقيت إلى جانبها على الأرض.

لم أعرف اسمها قطّ، أو ما حدث لها؛ لأنها اختفت في أثناء الليل. لكنني أعرف أنها أنقذت حياتي لأنها منحتني الأمل.

أفقت على مدينة تحتضر. كانت عدّة حرائق لا تزال مشتعلة، ومباني الميناء قد سُوّيت بالأرض، وبقيت المراكب التي كانت قد جاءت محمّلة بمواد تموينية أو لإخلاء الجرحى في أوسنالستر، بعيدة لا تستطيع الرسو.

حلّ المساء قبل أن يُفسح أفراد الفريق حيزاً يستطيعون التحميل منه والتفريغ فيه، فأسرعت إلى هناك. انتقلت من مركب إلى آخر حتى وجدت ما كنت أبحث عنه؛ رحلة إلى النرويج. كانت السفينة تدعى آنا وتنقل إسمنتاً إلى تروندهايم. كانت الوجهة تناسبني تماماً؛ لأنني لم أتخيّل أن أوامر البحث عني ستُرسل إلى هناك. كانت الفوضى قد دبّت في النظام الألماني المعتاد، وكانت سلسلة القيادة مرتبكة إذا أردت قول ذلك بلطف. بدا أن رمز أس - أس على ياقتي قد ترك انطباعاً معيناً، ولم أواجه مشكلة في الصعود على متن السفينة، وإقناع القبطان بأن الأوامر التي أريته إياها تقول إنني يجب أن أذهب إلى أوسلو عبر أقصر الطرقات الممكنة. كان ذلك، في الظروف السائدة آنذاك، يعني على متن آنا إلى تروندهايم، ومن هناك بالقطار إلى أوسلو.

استغرقت الرحلة ثلاثة أيام. غادرت السفينة، وأظهرت أوراقي وتابعت طريقي، ثم ركبت قطاراً إلى أوسلو. استغرقت الرحلة كلها أربعة أيام. ذهبت إلى المرحاض قبل أن أغادر القطار، وارتديت الثياب التي كنت قد أخذتها من كريستوفر بروكهارد. أصبحت مستعداً آنذاك للامتحان الأول. مشيت إلى بوابة كارل يوهانس. كان الجو دافئاً والمطر يهطل رذاذاً. تقدمت فتاتان نحوي، وقهقهتا بصوتٍ عالٍ حين تجاوزتهما. بدا الجحيم في هامبورغ بعيداً سنوات ضوئية. ابتهج قلبي مجدداً، فقد عدت إلى بلدي الحبيب وولدت مرة ثانية.

دقّق موظف الاستقبال في الكونتيننتال بأوراقي الثبوتية قبل أن ينظر إليّ من فوق نظارته.

"أهلاً بك في فندق كونتيننتال يا سيد فوك".

وعندما استلقيت على ظهري في غرفة الفندق الصفراء، وأنا أحدق إلى السقف وأصغي إلى أصوات المدينة في الخارج، جرّبت اسمي الجديد على لساني: سندر فوك. لم يكن مألوفاً، لكنني أدركت أنه سوف يجدي نفعاً.

نوردماركا. 12 تموز 1944.

صدّق رجل يدعى إيفن جوول قصتي كلها، مثل رجال الجبهة الداخلية الآخرين. ولماذا لا يصدقونني؟ ستكون الحقيقة - أنني قاتلت على الجبهة الشرقية ومطلوب لجريمة اقترفتها - أشدّ وقعاً من فراري وعودتي إلى

النرويج عبر السويد. كانوا قد تأكّدوا من المعلومات من مصادرهم، وتلقّوا تأكيداً بأن شخصاً اسمه سندر فوك مفقود، وهرب على الأرجح إلى الروس. كان الألمان منظمين في أجهزتهم!

أتكلم النرويجية الفصحى؛ نتيجة ترعرعي في الولايات المتحدة كما أظن، ولم يلاحظ أحد أنني بصفتي سندر فوك قد تخلّصت بسرعة من لهجة غدبراندسدالسن. جئت من مكان صغير في النرويج. لكن، حتى إذا ظهر شخص التقيته في شبابي (شباب، يا الله! كان ذلك قبل ثلاث سنوات فقط، لكنه بدا مثل حياة كاملة) فأنا واثق من أنه لن يتعرّف إليّ. أشعر بأنني مختلف تماماً.

أكثر ما أخشاه هو أن يظهر شخص يعرف سندر فوك الحقيقي. لحسن الحظ، إنه ينحدر من مكان أكثر عزلة من بلدتي، إذا كان ذلك ممكناً. لكن بالطبع لديه أقارب يمكن أن يعرفوه.

أتجوّل في المكان وأمعن التفكير في تلك الأشياء، وكانت دهشتي لهذا السبب كبيرة حين أصدروا إليّ اليوم أوامر بتصفية أحد شقيقيّ؛ شقيقي فوك اللذين ينتميان إلى ناسونال ساملنغ. يُفترض بهذا الأمر أن يختبر فعلاً إن كنت قد غيّرت موقفي أم أنني مجرد دخيل. انفجرت ودانيال بالضحك؛ لأننا قد عرفنا غايتهم. طلبوا مني في الواقع التخلص من الأشخاص الذين قد يكشفون أمري! أدرك تماماً أن الذين يدّعون أنهم جنود يفكّرون في أن قتل الأشقاء أمر متطرف؛ لأن أولئك الموجودين هنا في هذه الغابات الآمنة غير معتادين على وحشية الحرب. لكنني كنت قد قرّرت أن أنفذ الأمر قبل أن يغيروا رأيهم. سأذهب إلى البلدة عندما يحلّ الظلام وأنبش سلاحي المخبّأ مع بزّتي في صندوق الأمتعة في المحطة، وأستقل قطار الليل نفسه الذي وصلت على متنه. أعرف اسم أقرب قرية إلى مزرعة آل فوك؛ لهذا يجب أن أسأل فقط عن...

أوسلو. 13 أيار 1945.

يوم غريب آخر. لا يزال البلد متحمساً كثيراً للتحرير، ووصل اليوم ولي العهد أولاف إلى أوسلو مع وفد حكومي. لم أزعج نفسي بالذهاب إلى الميناء لرؤيته، لكنني سمعت أن نصف أوسلو كانت مجتمعة هناك. ذهبت اليوم إلى بوابة كارل يوهانس وأنا أرتدي ملابس مدنية بالرغم من أن أصدقائي الجنود لم يفهموا سبب عدم رغبتي في أن أمشي مزهواً بزيّ المقاومة وأحظى باستقبال الأبطال؛ إذ يُفترض أن يكون ذلك عامل جذب كبيراً للشابات في هذه اللحظة. نساء وبزّات؛ إذا لم أكن مخطئاً فقد كن

يحببن الجري وراء البزّات الخضراء في العام 1940 على النحو نفسه.

صعدت إلى القصر لأرى إن كان ولي العهد سيظهر على الشرفة ويقول بضع كلمات. كان حشد آخر قد تجمّع هناك أيضاً، وجرى تبديل الحرّاس حين وصلت. عرضٌ مثير للشفقة بمعايير ألمانية، لكن الناس كانوا يهلّلون.

كلي أمل أن ولي العهد سيصب ماءً بارداً على أولئك النرويجيين الطيبين المزعومين، الذين كانوا يجلسون مثل مشاهدين سلبيين طوال خمس سنوات من دون أن يرفعوا إصبعاً إلى أي جانب، وها هم الآن يصرخون مطالبين بالانتقام من الخونة. في الواقع، أظن أن ولي العهد أولاف يمكن أن يفهمنا؛ لأنه - إذا كانت الإشاعات صحيحة - كان الشخص الوحيد الذي أظهر، بخلاف الملك والحكومة، بعض الشجاعة في أثناء توقيع وثيقة الاستسلام بعرضه البقاء مع النرويجيين ومشاركتهم مصيرهم. لكن الحكومة أوصته بخلاف ذلك. كانوا يعرفون جيداً أن ذلك قد يضعهم والملك في موقف غريب جداً، بأن يتركوه في النرويج في حين يهربون هم أنفسهم إلى الخارج.

نعم، لديّ أمل بأن ولي العهد الشاب - الذي يعرف كيف يرتدي بزّة عسكرية - يمكن أن يشرح للأمة ما حققه الجنود على الجبهة الشرقية، خاصة وأنه رأى بنفسه الخطر الذي يمثّله البلاشفة في الشرق - ولا يزالون يمثّلونه - على أمّتنا. بالعودة إلى بداية عام 1942، عندما كنا نستعد للانطلاق إلى الجبهة الشرقية، يُقال إن ولي العهد قد أجرى محادثات مع الرئيس روزفلت وعبّر عن مخاوفه من خطط الروس للنرويج.

كانت هناك مغالاة في الوطنية وكنت أستمع إلى الأغاني الوطنية وأنا أنظر إلى الأشجار الخضراء؛ إذ لم يسبق لي قطّ أن رأيت أشجاراً أكثر اخضراراً منها. لكن ولي العهد لم يظهر على الشرفة اليوم، ولهذا يجب أن أتحلّى بالصبر.

"لقد اتصلوا من فيينا. البصمات متطابقة".

وقف ويبر قرب المدخل المؤدي إلى غرفة المعيشة.

قال هاري بإيماءة بسيطة، وهو مستغرق في القراءة: "حسناً".

قال ويبر: "لقد تقيأ أحدهم في سلة المهملات. هناك شخص مريض جداً؛ لأن الدم أكثر من القيء".

لعق هاري إبهامه وقلب الصفحة. "لا بأس".

صمت.

"إذا كان هناك شيء يمكنني أن أساعد به...".

"شكراً جزيلاً يا ويبر. لكن، هذا كل شيء".

أمال ويبر رأسه، لكنه لم يتحرك.

سأل أخيراً: "ألا يجب أن تطلق إنذاراً؟".

رفع هاري رأسه ونظر إلى ويبر مشغول البال: "لماذا؟".

قال ويبر: "تباً إذا كنت أعرف. على أساس الحاجة إلى عدم المعرفة".

ابتسم هاري، ربما بسبب تعليق الشرطي الأكبر منه سناً.

"لا. ذلك هو السبب بالتحديد".

انتظر ويبر سماع المزيد، لكنه لم يسمع شيئاً.

"كما تريد يا هول. أحضرت مسدس سميث أند ويسون معي. إنه محشو ومعه مخزن إضافي. أمسك!".

نظر هاري إلى الأعلى في الوقت المناسب تماماً ليمسك القراب الأسود الذي كان ويبر قد رماه إليه. أخرج المسدس. كان مزيّتاً والفولاذ ملمّعاً حديثاً. كان مسدس ويبر الخاص، طبعاً.

قال هاري: "شكراً لمساعدتك يا ويبر".

"اعتنِ بنفسك".

"سأحاول. أتمنى لك يوماً... طيباً".

تأفف ويبر من تذكيره بذلك. خرج متثاقلاً من الشقة، وعاد هاري إلى الانغماس بعمق في الأوراق مجدداً.

أوسلو. 27 آب 1945.

خيانة - خيانة - خيانة! مندهشاً، جلست هناك محجوباً عن الأنظار في الصف الأخير، في حين تقدمت امرأتي وجلست على رصيف الميناء. ابتسمت له - لإيفن جوول - تلك الابتسامة العابرة لكن المفهومة. وكانت تلك الابتسامة السريعة كافية لأعرف كل شيء، لكنني جلست هناك، متسمراً على المقعد الخشبي، وأنا غير قادر على فعل أي شيء باستثناء الإصغاء ومراقبة ما يجري؛ والشعور بالمعاناة. الكاذب المنافق! يعرف إيفن جوول جيداً من هي سيغني ألساكر. كنت الشخص الذي أخبره عنها. لا يمكن لومه، فهو يظن أن دانيال غدسون ميت، لكنها أقسمت على الإخلاص له حتى الموت. نعم، سأقول ذلك مجدداً: إنها خيانة! ولم ينطق ولي العهد ببنت شفة. كانوا يطلقون النار في حصن أكرشوس على رجال خاطروا بحياتهم من أجل النرويج. وكانت أصداء الطلقات تعلق في الهواء فوق المدينة ثانيةً واحدة، ثم تختفي ويصبح كل شيء أكثر هدوءاً من ذي قبل؛ وكأن شيئاً لم يحدث.

قيل لي في الأسبوع الماضي إن قضيتي رُفضت، وإن أعمالي البطولية تفوق الجرائم التي ارتكبتها أهمية. ضحكت حتى ذرفت الدموع حين قرأت الرسالة. إذاً، يظنون أن إعدام أربعة مزارعين لا حول لهم ولا قوة في غدبراندسدالن عمل بطولي، ويفوق الجريمة التي اقترفتها في الدفاع عن وطني الأم في لينينغراد أهمية! رميت بكرسيٍّ على الجدار وجاءت مالكة المنزل، فكان علي أن أعتذر. هذا كافٍ لدفعك إلى الجنون.

في الليل حلمت بهيلينا؛ بها فقط. يجب أن أحاول النسيان. ولم يقل ولي العهد كلمة واحدة. هذا لا يُحتمل. أظن...

أوسلو. 17 أيار 2000

تفقّد هاري ساعته مجدداً. قلّب بضع أوراق أخرى حتى وقع بصره على اسم مألوف.

شرودر. 23 أيلول 1948.

... عمل بإمكانيات واعدة. لكن ما كنت أخشاه منذ وقت طويل حدث اليوم.

كنت أقرأ الصحيفة حين لاحظت شخصاً يقف إلى جانب طاولتي ويمعن النظر إلي. رفعت بصري وتجمّد الدم في عروقي! رأيت أنه كان مرهقاً نوعاً ما، وملابسه رثّة. لم تعد وقفته منتصبة وصلبة كما أتذكرها. كان شيء فيه قد تغير، لكنني عرفت مباشرة قائدَ قطاعنا القديم؛ الرجل ذا العين الواحدة.

قال إدوارد موسكن: "غدبراند يوهانسن. يُفترض أنك ميت؛ تلك كانت الإشاعة في هامبورغ".

لم أكن أدري ماذا أقول، وعرفت فقط أن الرجل الذي جلس قبالتي قد يجعلني أُحاكم بتهمة الخيانة، أو حتى القتل.

كان فمي جافاً تماماً حين تمكّنت من النطق أخيراً. قلت نعم، أنا حيّ بالتأكيد، ولأكسب الوقت أخبرته أن الأمر قد انتهى بي في المستشفى العسكري في فيينا مع جروح في الرأس وإصابة في القدم. وسألته عمّا حدث له. قال إنه أُعيد إلى وطنه وانتهى به الأمر في المستشفى في سنسن، والغريب أنه المكان نفسه الذي كان سيجري إرسالي إليه. حُكم عليه مثل معظم الآخرين بالسجن لمدّة ثلاث سنوات، وأُطلق سراحه بعد سنتين ونصف.

تكلمنا قليلاً عن هذا وذاك، وبعد مرور بعض الوقت بدأت أرتاح. طلبت له شراباً، وتكلمنا عن عمل مواد البناء الذي أديره. أخبرته برأيي: كان من الأفضل بالنسبة إلى أشخاص مثلنا إنشاء أعمالٍ خاصةٍ بهم؛ لأن معظم الشركات رفضت توظيف رجال الجبهة الشرقية السابقين (خاصة الشركات التي كانت قد تعاونت مع الألمان في أثناء الحرب).

سأل: "ماذا عنك؟".

كنت قد شرحت له أن الانضمام إلى الجانب الصحيح لم ينفعني كثيراً.

جلس موسكن هناك طيلة الوقت، وتلك الابتسامة الزائفة ترتسم على شفتيه. وفي النهاية، لم يعد يطيق صبراً. أخبرني أنه كان يحاول اقتفاء أثري

منذ وقت طويل، لكن كل الدروب انتهت في هامبورغ. كان قد استسلم تقريباً حين رأى يوماً ما اسم سندر فوك في مقال صحفي عن رجال المقاومة. كان ذلك قد أثار اهتمامه مجدداً، واكتشف أين يعمل فوك واتصل به. فأخبره أحدهم أنني ربما أكون في شرودر.

شعرت بالتوتر وفكّرت ها نحن ذا. لكن ما قاله كان مختلفاً تماماً عما كنت أتخيله.

"لم أفِكَ حقّك من الشكر قطّ؛ لمنعك هالغريم ديل من إطلاق النار علي في ذلك الوقت. أنقذت حياتي يا يوهانسن".

قلّلت من أهمية ذلك بأن هززت كتفيّ وحدّقت إليه فاغر الفم. كان ذلك أفضل ما استطعت فعله.

قال موسكن إنني أثبتُّ أنني رجل أتحلى بأخلاق كريمة حين أنقذت حياته؛ لأنه كان لدي سبب يجعلني أتمنّى موته. لو أنهم عثروا على جثة سندر فوك، لكان بمقدور موسكن على الأرجح أن يشهد على أنني القاتل. أومأت ببساطة. ثم نظر إليّ وسألني إن كنت خائفاً منه. أدركت أن ليس لدي ما أخسره بإخباره القصة كلها كما كانت قد وقعت تماماً.

أصغى موسكن السمع، ركّز عينه الوحيدة عليّ بضع مرات ليكتشف إن كنت أقول الحقيقة أو أكذب، وهزّ رأسه بين الفينة والأخرى، لكنه كان يعرف جيداً أن معظم ما أخبره به صحيح.

عندما أنهيت كلامي، طلبت كأسَيْ شراب أخريين وأخبرني عن نفسه. كانت زوجته قد وجدت رجلاً آخر يعتني بها وبالفتى حين كان في السجن. فهم الأمر. ربما كان ذلك أفضل لإدوارد الصغير أيضاً؛ أن لا يترعرع مع أب خائن. بدا موسكن متكيفاً مع ذلك. قال إنه أراد أن يعمل في النقل، لكنه لم يحصل على أي وظيفة سائق تقدم لها.

قلت: "اشترِ شاحنتك الخاصة. يجب أن تبدأ شيئاً خاصاً بك أيضاً".

قال وهو يلقي نظرة خاطفة باتجاهي: "ليس لدي مالٌ كافٍ لفعل ذلك". كانت لدي فكرة مبهمة إلى أين يتجه ذلك الحديث. "والمصارف ليست مهتمة بالتعامل مع رجال الجبهة الشرقية السابقين. يظنون أننا جميعاً محتالون".

قلت: "لقد ادّخرت بعض المال، ويمكنك اقتراض مبلغ مني".

رفض، لكنني قلت إنها قضية منتهية.

قلت: "سأضيف الفائدة عليه بالطبع؛ لأن ذلك بديهي". تهلّل وجهه، لكنه عاد ليصبح رزيناً بسرعة مجدداً، وقال إن بعض الوقت قد يمضي قبل

أن يستطيع ردّ المال إليّ. طمأنته إلى أن معدل الفائدة لن يكون مرتفعاً جداً، وأنه سيكون رمزياً. ثم طلبت المزيد من الشراب، وعندما كنا في طريقنا إلى الخارج تصافحنا. كنا قد عقدنا صفقة.

أوسلو. 3 آب 1950.

... وجدت رسالة ممهورة بختم بريد فيينا في صندوق البريد. وضعتها على طاولة المطبخ أمامي وحدّقت إليها. كان اسمها وعنوانها مكتوبين على ظهر المغلف. كنت قد بعثت برسالة إلى مستشفى رودولف الثاني في أيار على أمل أن يكون هناك شخص ما يعرف مكان هيلينا في العالم ويرسلها إليها. وتحسباً من رؤية عيون متطفلة الرسالة، وخوفاً من أن يقوم أحد بفتحها، لم أكتب فيها شيئاً قد يكون خطراً على أي منا، وبالطبع لم أكتب اسمي الحقيقي. ولم أكن بالتأكيد أجرؤ أن آمل بالحصول على جواب. حسناً، لا أعرف حتى إن كنت، في أعماقي، أريد جواباً، وليس بالتأكيد من النوع الذي قد أتوقّعه؛ أي أن تكون متزوجة وأمًّا لطفلة. لا، لم أكن أريد ذلك، بالرغم من أن ذلك ما كنت قد تمنّيته لها، ووافقت عليه.

يا الله! لقد كنا يافعين. كانت في التاسعة عشرة فقط. والآن، حين أحمل رسالتها في يدي، يبدو الأمر كله غير حقيقي؛ كأن خط اليد الأنيق على المغلّف ليس له أي علاقة بهيلينا التي كنت أحلم بها طوال ست سنوات. فتحت الرسالة بأصابع مرتعشة، وأرغمت نفسي على توقّع الأسوأ. كانت رسالة طويلة وقد انقضت عدّة ساعات فقط الآن منذ أن قرأتها للمرّة الأولى، لكنني أحفظها عن ظهر قلب.

عزيزي أوريا

أحبك. سهلٌ أن تعرف أنني سأحبك ما تبقى من حياتي. لكن الشيء الغريب هو أنني أشعر بأنني قد أحببتك كل حياتي أيضاً. عندما تلقيت الرسالة بكيت من السّعادة. إنها...

ذهب هاري إلى المطبخ وهو يحمل المخطوطة بيديه، عثر على القهوة في الخزانة فوق المغسلة ووضعها في الإبريق وتابع القراءة عن لمِّ الشمل السعيد - بالرغم من أنه كان صعباً ومؤلماً أيضاً - في فندق في باريس. أصبحا خطيبين في اليوم التالي.

منذ ذلك الوقت فصاعداً، كتب غدبراند أقل فأقل عن دانيال، وبدا أخيراً أنه قد اختفى تماماً من حياته.

كتب بدلاً من ذلك عن زوجين يحبّان بعضهما حباً جماً، ولا يزالان يشعران بأنفاس من يطاردهما على عنقيهما بسبب مقتل كريستوفر بروكهارد.

التقيا سراً في كوبنهاغن، وأمستردام، وهامبورغ. هيلينا تعرف هوية غدبراند الجديدة، لكن هل تعرف الحقيقة كلها عن الجريمة التي حصلت على الجبهة الشرقية، وعمليات الإعدام في مزرعة فوك؟ لم تكن تعرف على ما يبدو.

أصبحا خطيبين بعد أن غادر الحلفاء النمسا، وغادرت في العام 1955 البلد الذي كانت واثقة من أن مجرمي الحرب، والفاشيين الذين لم يكونوا قد تعلّموا من أخطائهم سوف يسيطرون عليه مجدداً. استقرا في أوسلو، حيث تابع غدبراند، الذي ظل يستعمل اسم سندر فوك، إدارة شركته الصغيرة. زوّجهما رجل دين في السنة نفسها في احتفال خاص في حديقة هولمنكولفن، حيث كانا قد اشتريا منزلاً كبيراً ومستقلاً بالمال الذي حصلت عليه هيلينا من بيع شركة الخياطة في فيينا. كتب غدبراند أنهما سعيدان.

سمع هاري صوتاً، واندهش حين رأى أنّ القهوة قد فاضت من الإبريق.

أوسلو. 17 أيار 2000

مستشفى ريكس. 1956.

نزفت هيلينا دماءً كثيرة حتى أصبحت حياتها في حالة حرجة لبعض الوقت. لكن، لحسن الحظ تصرفوا بسرعة. فقدنا الطفل. شعرت هيلينا بحزنٍ شديد بالرغم من أنني قلت لها مراراً إنها يافعة وإننا سنحظى بمزيد من الفرص. على أيّ حال، لم يكن الطبيب متفائلاً كثيراً. قال إن الرحم...

مستشفى ريكس. 12 آذار 1967.

ابنة. سوف تُدعى راكيل. بكيت وانتحبت، وربتت هيلينا على وجنتي وقالت إنها مشيئة الله...

كان هاري قد عاد إلى غرفة المعيشة. وضع يده فوق عينيه. لماذا لم يلحظ صلة القرابة حين رأى صورة هيلينا في غرفة بياتريس؟ أم وابنتها؛ لا بدّ من أن ذهنه كان في مكان آخر. هذا هو السبب على الأرجح؛ كان ذهنه في مكان آخر. رأى راكيل في كل مكان: في الشارع، وفي وجوه النساء اللواتي يجتازهن، وعلى شاشة التلفاز حين يقلّب القنوات، وخلف المنضدة في مقهى. لهذا، لِمَ يهتمّ لدى رؤيته وجهها في صورة امرأة جميلة على جدار؟

هل يجب أن يتصل بموسكن ليتأكد مما كان غدبراند يوهانسن، المعروف باسم سندر فوك، قد كتبه؟ هل كان بحاجة إلى ذلك؟ ليس آنذاك.

قلّب أوراق المخطوطة حتى وصل إلى تاريخ 5 تشرين الأول عام 1999. لم يكن قد بقي إلاّ بضع صفحات فقط. أحس هاري بأن راحتيه تتعرّقان، وشعر بالشيء نفسه الذي كان والد راكيل قد وصفه حين تلقى رسالة هيلينا؛ شعر بنفور من مواجهة الأمر المحتوم في نهاية المطاف.

أوسلو. 5 تشرين الأول 1999.

سأموت. بعد كل الأشياء التي كنت قد اختبرتها انتابني الفضول حين اكتشفت أنني سأتلقى الضربة القاضية، كما يحدث مع معظم الناس، من مرض شائع. كيف سأخبر راكيل وأوليغ؟ مشيت إلى بوابة كارل يوهانس وشعرت بمدى أهمية هذه الحياة فجأة بالنسبة إليّ، هذه الحياة التي كنت قد اعتبرت أن لا قيمة لها منذ موت هيلينا؛ ليس لأنني لا أشتاق إلى أن أكون معك مجدداً يا هيلينا، لكن لأنني قد أهملت هدفي وقتاً طويلاً، ولم يعد لديّ الآن هذا الوقت. مشيت على الدرب نفسه المفروش بالحصى

الذي اجتزته في 13 أيار عام 1945. لم يظهر ولي العهد على الشرفة بعد ليقول إنه يفهم. إنه يفهم حقاً كل المحتاجين. لا أظن أنه سيخرج. أعتقد أنه قد خاننا.

نمت بعد ذلك مستنداً إلى شجرة وراودني حلم طويل وغريب. وعندما استيقظت، كان رفيقي القديم قد استفاق أيضاً. لقد عاد دانيال، وأعرف ما يريد أن يفعله.

صرّت الفورد إسكورت حين وضع هاري علبة التروس على وضعية الرجوع إلى الخلف، ثمّ على السرعتين الأولى والثانية بالتتابع. جأرت السيارة مثل وحش جريح حين ضغط هاري على دوّاسة السرعة بقوّة. قفز رجل يرتدي الزيّ الشعبيّ الاحتفاليّ إلى ممر المشاة عند التقاطع بين بوابة فايبز وبوغستادفين، وتفادى بشق الأنفس أن تترك العجلة المطاطية أثراً على ساقه التي يغلفها جورب طويل. في هيدجهوغسفين كان هناك رتل من السيارات ينتظر دخول وسط المدينة، لهذا قاد هاري سيارته إلى الجانب الأيسر من الطريق ويده على البوق، متمنياً أن يكون لدى سائقي السيارات القادمة باتجاهه وعي كافٍ لينحرفوا عن طريقه. كان قد انعطف آنذاك حول حافة الرصيف خارج مقهى لوري حين ملأ جدار أزرق فاتح فجأة مجال رؤيته كله. إنّه الترام!

كان الأوان قد فات كي يتوقف؛ ولهذا شدّ هاري المقود بقوة، وضغط قليلاً على دواسة المكابح لتعديل مساره، اهتزّت السيارة فوق الطريق المرصوفة بالحجارة حتى اصطدم الجانب الأيسر من سيارته بجانب الترام الأيسر. سمع صوتاً قويًّا حين اختفت المرآة الجانبية، لكن صوت مقبض الباب وهو يُسحب على طول جانب الترام كان طويلاً وحاداً.

"تباً، تباً!".

تحرّر بعد ذلك، ودارت العجلات خارج سكة الترام، وسارت بثبات على الإسفلت، ودفعته نحو إشارة المرور التالية.

أخضر، أخضر، أصفر.

تجاوز الإشارة بأقصى سرعة، ولا تزال إحدى يديه تضغط على وسط المقود على أمل أن يستطيع بوق سيارة واحدة لفت الانتباه عند الساعة 10:15 يوم 17 أيار في وسط أوسلو. ثم زعق، وضغط على المكابح بقوة، وبينما كانت الإسكورت تحاول يائسة التشبث بالأرض الأم، اندفعت أغلفة شرائط "كاسيت" فارغة، وعلب لفائف تبغ وهاري إلى الأمام. ارتطم رأسه بالزجاج الأمامي حين توقفت السيارة. كان حشدٌ سعيدٌ من أطفالٍ يلوّحون

بالرّايات قد تجمّع على ممر المشاة أمامه. فرك هاري جبينه. كانت حدائق القصر أمامه مباشرة، والدرب المؤدي إلى القصر ممتلئاً بالناس؛ حتى بدا أسود اللون. سمع من السيارة المكشوفة التي تقف إلى جانبه صوت المذياع والبث المباشر المألوف الذي يسمعونه كل سنة.

"والآن، الأسرة الملكية تلوّح من الشرفة لمسيرة الأطفال والحشود التي تجمّعت هنا في ساحة القصر. الناس يهتفون لولي العهد صاحب الشعبية الكبيرة خاصة، الذي كان قد عاد إلى الوطن من الولايات المتحدة. إنه بالطبع...".

أبعد هاري قدمه عن الدبرياج، وزاد سرعة السيارة، واتجه إلى الحاجز الحجري أمام الدرب المفروش بالحصى.

أوسلو. 16 تشرين الأول 1999

لقد بدأت أضحك مجدداً. إنه دانيال الذي يضحك طبعاً. لم أقل إن أول شيء فعله حين أفاق كان الاتصال بسيغني. استخدمنا هاتفاً في شرودر، وكان أمراً يفطر الفؤاد جعل الدموع تسيل.

المزيد من التخطيط الليلة. لا تزال المشكلة هي طريقة الحصول على السلاح الذي أريده.

أوسلو. 15 تشرين الثاني 1999

... بدا أن المشكلة في طريقها إلى الحل أخيراً. ظهر هالغريم ديل. لم يكن مفاجئاً أنه قد أصبح في حالٍ يرثى لها. كنت آمل على الأقل ألا يعرفني. من الواضح أنه قد سمع الإشاعات التي تقول إنني قد لقيت حتفي في أثناء القصف على هامبورغ؛ لأنه كان يظن أنني شبح. انتابه شكّ في أنها عملية احتيال، وأراد مالاً لإبقاء فمه مغلقاً. لكن ديل الذي أعرفه لن يستطيع الحفاظ على سرٍّ مقابل كل المال في العالم. لهذا قرّرت أن أكون آخر شخص يتكلم معه. لم يسعدني ذلك، لكنني يجب أن أقرَّ بأنني شعرت ببعض الرضا حين تثبتُّ من أنني لم أنسَ مهاراتي القديمة.

أوسلو. 17 أيار 2000

أوسلو. 8 شباط 2000.

كنت وإدوارد نلتقي طوال أكثر من خمسين عاماً ست مرات سنوياً في شرودر؛ ويكون اللقاء في الثلاثاء الأوّل من الشهر الثاني صباحاً. لا نزال ندعو اجتماعنا ذاك اجتماع عمل، كما كنا نفعل حين كانت شرودر في يونغستورغت. تساءلت دائماً عن الشيء الذي يربطني وإدوارد معاً، نظراً إلى الاختلاف الكبير بيننا. ربما كان ذلك ببساطة المصير المشترك. لقد خضنا الأحداث نفسها: قاتل كلانا على الجبهة الشرقية، وخسر زوجته وكبر ابنه؛ مثلي تماماً. لا أعرف. أهم شيء بالنسبة إليّ هو أنني أحظى بولاء إدوارد الكامل. وهذا طبيعي، إذ لم ينسَ قطّ أنني ساعدته بعد الحرب، لكنني كنت قد قدّمت له يد العون أيضاً في سنوات لاحقة. كما حدث في نهاية الستينيات، حين خرجت مشكلته المرتبطة بالشرب والرهان على الخيول عن نطاق السيطرة، وحين كاد يخسر شركة الشاحنات التي يملكها برمّتها تقريباً، فقد اضطررت حينها إلى دفع ديونه.

لا، لم يبقَ الكثير من الجندي الرائع الذي أتذكره من لينينغراد. لكن، في السنوات الأخيرة بدأ إدوارد يفهم على الأقل حقيقة أن الحياة ليست كما كان قد تخيّلها تماماً، وأن عليه أن يكتفي بما هو متوافر بين يديه. ركّز على حصانه، ولم يعد يشرب أو يدخّن، وأقنع نفسه بتمرير معلومات عن السباقات إليّ.

وبمناسبة الحديث عن المعلومات، كان هو من أخبرني أن إيفن جوول يسأل إن كان دانيال لا يزال حياً. اتصلت مساء اليوم نفسه بإيفن وسألته إن كان قد أُصيب بالخرف، لكن إيفن أخبرني أنه قد رفع قبل بضعة أيام سمّاعة هاتف إضافي يضعه في غرفة النوم، واسترق السمع إلى رجل يدّعي أنه دانيال مما أصاب زوجته برعب شديد. كان الرجل قد قال إنها ستسمع منه في أحد أيام الثلاثاء التالية. كان إيفن قد سمع أصواتاً أدرك أنها صادرة من مقهى ما، وقرّر آنذاك أن يزور المقاهي في أوسلو كل ثلاثاء حتى يعثر على المتصل المزعج. كان يعرف أن الشرطة لن تكلّف نفسها عناء التدقيق في مثل تلك القضية التافهة، ولم يكن قد قال شيئاً لسيغني حتى لا تمنعه. كان يجب أن أضرب قفا رأسي؛ لأمنع نفسي من الضحك بصوتٍ عالٍ وأتمنى له حظاً طيباً، ذلك الأحمق العجوز.

بعد أن انتقلت إلى الشقة في ماجورستون لم أعد أرى راكيل كثيراً،

لكننا تكلمنا عبر الهاتف. بدا أن كلينا متعبان من شنٍّ حرب. كنت قد تخلّيت عن فكرة أن أشرح لها ما فعلته بي وبوالدتها حين تزوجت بذلك الروسي من أسرة البلاشفة القديمة.

قالت: "أعرف أنك تظن أنها خيانة، لكن ذلك حدث قبل وقت طويل. دعنا لا نتحدث عن الأمر بعد الآن".

لم يكن ذلك قبل وقت طويل. لم يمضِ وقت طويل على أي شيء.

كان أوليغ قد سأل عن صحتي. إنه فتى رائع، أوليغ ذاك. آمل فقط ألا يصبح عنيداً ومتصلباً في رأيه مثل والدته. لقد ورثت ذلك من هيلينا. إنهما متشابهتان جداً، وقد امتلأت عيناي دموعاً وأنا أكتب هذا.

لقد حجزت شاليه إدوارد الأسبوع القادم. سأختبر البندقية هناك. سيكون دانيال سعيداً.

ضربت العجلتان الأماميتان في سيّارة هاري حافة الرصيف، وارتدّ التأثير إلى داخل السيارة. وثبت الإسكورت بقوة في الهواء، ثم أصبحت على العشب فجأة. كان هناك عدد كبير من الناس على الدرب، لهذا قاد هاري السيارة على المرج. اندفع بسيارته بين البحيرة وأربعة شبان كانوا قد قرّروا تناول فطورهم على بطانية في المتنزه. رأى في المرآة الضوء الأزرق المتقطّع. كانت الحشود تتزاحم آنذاك حول مبنى الحراسة، لهذا توقف هاري، وخرج من السيارة، وجرى نحو الحواجز حول ساحة القصر.

"شرطة!". صرخ هاري فيما كان يشق طريقه عبر الحشود. كان أولئك الموجودون في المقدمة قد استيقظوا عند بزوغ الفجر لضمان أن يحظوا برؤية الفرقة، وتردّدوا في التحرك. عندما قفز فوق الحاجز حاول حارس إيقافه، لكن هاري أبرز بطاقته الرسمية، وترنّح في مشيته إلى الساحة المكشوفة. صرّت الحصى تحت قدميه. أدار ظهره إلى مسيرة الأطفال، وفرقة فالرينغا للشبان التي كانت في تلك اللحظة تسير تحت شرفة القصر على أنغام أغنية أنا مجرد راقص، فيما الأسرة الملكية تلوّح لها. حدّق إلى جدار من الوجوه البيضاء المبتسمة وإلى رايات حمراء وبيضاء وزرقاء. جالت عيناه على صفوف الناس. إنهم متقاعدون، وأقرباء يلتقطون الصور، وآباء يحملون أطفالاً صغاراً على أكتافهم، لكنه لم يرَ سندر فوك، أو غدبراند يوهانسن، أو دانيال غدسون.

"تباً! تباً!".

صرخ مذعوراً أكثر من أي شيء آخر.

لكن، هناك أمام الحواجز، رأى على الأقل وجه شخص يعرفه يرتدي

ملابس مدنية، ويحمل لاسلكياً صغيراً، ويضع نظارة شمسية عاكسة. كان قد أخذ بنصيحة هاري بشأن عدم الذهاب إلى مشرب إسكتلندي، ودعم الآباء في سلك الشرطة بدلاً من ذلك.

"هالفورسن!".

أوسلو. 17 أيار 2000

أوسلو. 16 أيار 2000.

سيغني ميتة. أُعدمت قبل ثلاثة أيام برصاصة اخترقت قلبها الغادر لأنّها خائنة. بعد أن بقيتُ معه وقتاً طويلاً، ارتعشت حين تركني دانيال بعد إطلاق الرصاصة. تركني في حيرة ووحدة. سمحت للشكوك بأن تساورني، وقضيت ليلة مريعة. لم ينفع المرض. تناولت ثلاثةَ أقراصٍ من تلك التي وصفها لي د. بوير بالرغم من أنني يجب أن أتناول واحدة فقط. لكن، مع ذلك كان الألم لا يُطاق. نمت في النهاية، وفي اليوم الآتي كان دانيال قد عاد بحيوية متجددة. كانت تلك هي المرحلة ما قبل الأخيرة ونحن الاثنان نصرّ الآن على المضي قدماً بشجاعة.

انضم إلى حلقة الرجال حول النار، حدّق إلى المشاعل الذهبية والبرّاقة

حثّ الجنود على شحذ الهمم، وعلى أن يرهنوا ذواتهم للصمود والقتال.

إنه يقترب. اليوم الذي سيجري فيه الانتقام من الخيانة العظمى يقترب. أنا لا أهاب شيئاً.

الشيء المهم هو أن الخيانة ستظهر للملأ. إذا عثر الأشخاص الخطأ على هذه المذكرات، فسيكون هناك احتمال بأن تُدمّر أو تبقى سرّيّة خوفاً من ردود أفعال العامة. من أجل أن أكون واثقاً، كنت قد زوّدت شرطياً شاباً في الاستخبارات السرية بالأدلّة الضرورية. يبقى أن نعرف مدى ذكائه، لكنّ إحساسي الداخلي يقول إنه على الأقل شخص مستقيم.

كانت الأيام الأخيرة مثيرة.

بدأ ذلك في اليوم الذي عقدت العزم فيه على تصفية الحساب مع سيغني. كنت قد اتصلت بها لأقول لها إنني سأذهب إليها. وعندما خرجت من شرودر، رأيت وجه إيفن جوول عبر الواجهة الزجاجية للمقهى على الجانب الآخر من الشارع. تظاهرت بأنني لم أره وتابعت سيري، لكنني عرفت أنه سيستنتج الوقائع حين يمعن التفكير في الأمر.

اتصل الشرطي بي أمس. لم أكن أظن أن الأدلّة التي زوّدته بها كانت واضحة جداً، وأنه سيفهم كيف ترتبط معاً إلا بعد إنجاز المهمة. على أيّ حال، تبين أنه قد اقتفى أثر غدبراند يوهانسن إلى فيينا. عرفت أنني يجب أن أكسب وقتاً؛ على الأقلّ لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعة. ولهذا أخبرته قصة عن إيفن جوول كنت قد نسجتها في خيالي تحسباً. قلت له إن

إيفن كان شخصاً فقيراً ومسكيناً، وإنّه تعلّم الكثير من دانيال؛ أولاً، ستجعل القصة جوول يبدو وراء كل شيء، ووراء قتل سيغني أيضاً. ثانياً، ستجعل انتحار جوول الذي كنت أخطط له في تلك الأثناء أكثر مصداقية.

عندما غادر الشرطي، انطلقت إلى العمل مباشرة. لم يبدُ إيفن جوول مندهشاً جداً حين فتح الباب اليوم ورآني عند العتبة في الخارج. لم أعرف هل فهم الأمر، أم أنه ببساطة لم يكن ليتفاجأ آنذاك. كان يبدو ميتاً سلفاً. رفعت سكيناً إلى عنقه، وأكّدت له أنه إذا قام بخطوة واحدة خاطئة فسأذبحه بالسهولة نفسها التي كنت قد ذبحت فيها كلبه. وللتأكد من أنه يفهم ما كنت أعنيه، فتحت كيس القمامة الذي أحمله معي وأريته الحيوان. صعدنا إلى الطابق العلوي ودخلنا غرفته حيث سمح لي عن طيب نفسٍ وخاطرٍ أن أضعه على الكرسي، وأن أربط طوق الكلب بحديدة مثبّتة في السقف.

قلت: "لا أريد أن تعثر الشرطة على أي أدلّة أخرى حتى ينتهي الأمر. ولهذا يجب أن نجعل هذا يبدو انتحاراً". لكنه لم يُجب، وبدا غير مكترث. من يدري، ربما كنت أقدّم له معروفاً؟

بعد ذلك، مسحت بصماتي ووضعت كيس القمامة الذي يحتوي على الكلب والسكاكين في القبو. كان كل شيء في مكانه، وعندما كنت أتفقّد غرفة النوم للمرّة الأخيرة، سمعت صرير الحصى، ورأيت سيارة شرطة في الطريق. كانت متوقفة؛ وكأنها تنتظر شيئاً. عرفت أنني في مأزق. ذُعر غدبراند بالطبع، لكن لحسن الحظ تصرّف دانيال بسرعة.

أخذت المفاتيح من غرفتي النوم الأخريين. عمل أحدها على فتح باب الغرفة التي يتدلّى إيفن من سقفها مشنوقاً. وضعت المفتاح على الأرض إلى جانب الباب، وأخرجت المفتاح الأصلي من القفل واستخدمته لأوصد الباب من الخارج، ثم بدّلت به المفتاحَ الأصلي في غرفة النوم الأخرى. أنهيت ذلك في بضع ثوانٍ، ثم نزلت بهدوء إلى الطابق الأرضي، واتصلت بهاتف هاري هول الخلوي.

ودخل المكان في اللحظة التالية.

وبالرغم من أنني شعرت بالرغبة في الضحك، إلا أنني أظن أنني استطعت التظاهر بالدهشة؛ لأنني على الأرجح كنت متفاجئاً قليلاً. في الواقع، كنت قد رأيت أحد رجال الشرطة من قبل، في تلك الليلة التي كنت فيها في حدائق القصر. لكن، لا أظن أنه تعرّف إليّ. ربما رأى دانيال اليوم. نعم، تذكرت أن أمسح البصمات عن المفاتيح.

"هاري! ماذا تفعل هنا؟ هل طرأ أمر ما؟".

"اسمع، اتصل عبر اللاسلكي الصغير...".

"مهلاً؟".

كانت فرقة طبول مدرسة بولتلوكا تسير إلى جانبهما.

صرخ هاري: "قلت...".

صرخ هالفورسن: "ماذا؟".

انتزع هاري اللاسلكي الصغير من يده.

"أصغوا جيداً، كل من يوجد هنا. أبقوا عيونكم مفتوحة بحثاً عن رجل يبلغ من العمر سبعين سنة، وطوله متر وخمسة وسبعون سنتيمتراً، وعيناه زرقاوان، وشعره أبيض. إنه على الأرجح مسلح، أكرّر مسلح، وخطر جداً. هناك سبب للاشتباه في محاولة اغتيال، لهذا تحقّقوا من النوافذ المفتوحة والسطوح في المنطقة. أكرّر...".

كرّر هاري الرسالة، وحدّق هالفورسن إليه فاغراً فمه. وعندما أنهى هاري تحذيره رمى اللاسلكي الصغير إليه.

"الآن، مهمتك هي إلغاء احتفال 17 أيار يا هالفورسن".

"ماذا قلت؟".

"أنت في الخدمة. أنا أبدو مثل شخص... في حالٍ يرثى لها. لن يستمعوا إلي".

تركّز بصر هالفورسن على لحية هاري غير الحليقة، وعلى القميص المجعّد الذي كانت أزراره مغلقة كيفما اتفق، وعلى القدمين اللتين كانتا تنتعلان الحذاء من دون ارتداء زوجٍ من الجوارب.

"من هم؟".

جأر هاري وهو يشير إلى الأعلى بإصبع مرتعشة: "ألم تفهم بعد ما أتكلم عنه؟".

أوسلو. 17 أيار 2000

هذا الصباح. المدى أربعمئة متر. لقد فعلت ذلك من قبل. ستكون الحدائق نضرة وخضراء، ومفعمة بالحياة، وخالية من الأشجار الميتة. لكنني كنت قد مهّدت الطريق للرصاصة. شجرة ميتة من دون أوراق. ستأتي الرصاصة من الأعلى، وستصيب ذرية الخائن، وسيرى الجميع ما يحصل لأصحاب القلوب غير الطاهرة. قال الخائن إنه يحب بلده، لكنه غادره، وتركنا لننقذه من المتطفلين القادمين من الشرق، ثم اعتبرنا خائنين بعد ذلك.

جرى هالفورسن نحو مدخل القصر، في حين بقي هاري في الساحة المكشوفة، وهو يسير في دوائر مثل رجل ثمل. سيتطلب الأمر بضع دقائق لإخلاء الشرفة الملكية. يجب أن يتخذ رجال مهمون القرارات أولاً؛ وسيكونون مسؤولين عنها. لا يمكن إلغاء احتفال 17 أيار ببساطة لأن شرطياً كان يثرثر مع زميل ينتابه الشك. جال ببصره على الحشد، ذهاباً وإياباً، من دون أن يعرف تماماً ما يبحث عنه.

ستأتي من الأعلى.

رفع بصره إلى الأعلى؛ إلى الأشجار الخضراء النضرة. كانت عالية جداً، وذات أوراق كثيفة. لذا، فبالرغم من وجود منظار جيد على البندقية سيكون مستحيلاً إطلاق النار من منازل مجاورة.

أغمض هاري عينيه، وتحركت شفتاه. ساعديني الآن يا إيلين.

لقد مهّدت الطريق.

أُصيبا بالدهشة، القصر، حين كان يمشي هنا في الأمس، الشجرة التي لم تكن عليها أي أوراق. فتح عينيه مجدداً، نظر إلى قمم الأشجار، ورآها هناك: شجرة

السنديان البنية الميتة. شعر هاري أن قلبه قد بدأ يخفق بقوة. استدار وجرى نحو القصر، وفي طريقه كاد أن يرتطم بعازف طبل. وعندما وصل إلى الخط المباشر بين الشرفة والشجرة، توقف. تبع بصره المسار إلى الشجرة. كان عملاق أزرق بارد يتطاول خلف الأغصان العارية؛ إنّه فندق ساس. بالطبع، إنّه أمر سهل جداً، رصاصة واحدة. لن يلاحظ أحد إطلاق رصاصة واحدة في 17 أيار، ثم سيمشي بهدوء إلى منطقة استقبال مكتظّة، ثم إلى الشوارع المزدحمة حيث سيختفي. وبعدها؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟

لم يكن بمقدوره التفكير في ذلك الآن، وعليه أن يتصرف. يجب أن

يتصرف. لكنه كان متعباً جداً. بدلاً من الشعور بالإثارة شعر هاري برغبة ملحّة في الابتعاد عن المكان، والذهاب إلى المنزل، والاستلقاء والنوم، والاستيقاظ في يوم جديد ليجد أنّ كل ذلك كان حلماً. أيقظته صفّارة سيارة إسعاف تمر في درامنسفين من غفلته، وقاطع الصوت موسيقى الفرقة النحاسية.

"تباً! تباً!".

انطلق يجري.

راديسون ساس. 17 أيار 2000

كان الرجل العجوز يستند إلى النافذة وساقاه مطويتان تحته وكان يمسك البندقية بكلتا يديه، ويصغي إلى صفّارة سيارة الإسعاف تتلاشى من بعيد. فات الأوان، كما فكّر. كل نفسٍ ذائقة الموت.

كان مريضاً مجدداً. كان الألم قد أفقده الوعي تقريباً، وتكوّر بعد ذلك على الأرض، ينتظر أن تأخذ الأقراص مفعولها. أربعة منها. كان الألم قد خفَّ، وشعر بوخزة أخيرة ذكّرته بأن الألم سيعود قريباً، وسيستأنف رحلاته المعتادة إلى الحمّام مجدداً. أحد الحمّامين، الذي فيه جاكوزي يوجد فيه تلفاز أيضاً، وقد شغّله. سمع أغانيَ وطنية، والنشيد القومي، وسمع ما قاله صحفيون يرتدون ملابس احتفالية ويتكلمون عن مسيرة الأطفال على كل القنوات.

كان يجلس آنذاك في غرفة المعيشة، والشمس معلّقة في السماء مثل سراج ضخم، تضيء كل شيء. عرف أن عليه ألا ينظر مباشرة إلى الضوء؛ لأن ذلك سيجعله أعشى، ولن يستطيع رؤية القنّاصين الروس وهم يتلوّون على الثلج في الأرض التي لا يسيطر عليها أحد.

همس دانيال: أستطيع رؤيته، عند الساعة الواحدة، على الشرفة خلف الشجرة الميتة تماماً.

أشجار؟ لم تكن هناك أشجار في تلك البيئة المملوءة بحفر القنابل.

كان ولي العهد قد خرج إلى الشرفة، لكنه لم يقل شيئاً.

صرخ صوت بدا أنه غدبراند: "سيهرب!".

فقال دانيال: "لا، لن يفر. لا يهرب أي بلشفي لعين".

"يعرف أننا قد رأيناه، وسيزحف إلى الحفرة".

لا، لن يفعل.

وضع الرجل العجوز البندقية على حافة النافذة. كان قد استخدم مفكاً لفتح النافذة أكثر من الحدّ المسموح به. ما الذي كانت تلك الفتاة في الاستقبال قد أخبرته إيّاه في ذلك الوقت؟ أن ذلك لمنع النزلاء من تنفيذ أفكار سخيفة. حدّق عبر منظار البندقية. كان الأشخاص صغار الحجم جداً هناك. حدّد المدى: أربعمئة متر. الإطلاق من الأعلى نحو الأسفل، ويجب أن تأخذ بالحسبان حقيقة أن الجاذبية تؤثر في الرصاصة على نحو مختلف؛ وأن ذلك المسار مختلف عن إطلاق النار على المستوى نفسه. لكن دانيال يعرف ذلك، فهو يعرف كل شيء.

نظر الرجل العجوز إلى ساعته، وكانت تشير إلى 10:45. حان الوقت ليسمح بحدوث ذلك. وضع ذقنه على أخمص البندقية البارد الثقيل، ويده اليسرى على الماسورة في مكان أبعد قليلاً. أغمض عينه اليسرى قليلاً. ملأ الحاجزُ على الشرفة المنظارَ، ثم شاهد معاطف سوداء وقبعات. وجد الوجه الذي كان يبحث عنه. كان هناك بالتأكيد شبه كبير، وهو وجه الشاب نفسه الذي رآه في العام 1945.

كان دانيال قد أصبح أكثر هدوءاً وسدّد. لم يعد هناك بخار يخرج من فمه آنذاك.

أمام الشرفة، بعيداً عن شعيرة التسديد كان هناك طائر يجلس على أحد الأغصان، في مسار إطلاق النار تماماً. غيّر الرجل العجوز نقطة تسديده بعصبية. لم يكن هناك من قبل. سرعان ما سيطير مجدداً. وضع البندقية جانباً، وسحب هواءً نقياً إلى رئتيه اللتين تؤلمانه.

طق - طق.

ضرب هاري المقود وأدار مفتاح التشغيل مرة أخرى.

طق - طق.

"اشتغلي أيتها الحقيرة! أو سأحولك إلى قطع معدنية غداً".

دار محرك الإسكورت محدثاً جلبة، وانطلقت السيارة وهي تقذف العشب والحصى في طريقها. انعطف هاري إلى اليمين بحدّة إلى جانب البحيرة. رفع الشبان الممدّدون على البطانية قوارير شرابهم وحيّوا هاري في اندفاعه إلى فندق ساس. كان المحرك يجأر في التروس الأول، وكانت يده على البوق، واستطاع أن يشق طريقه بفاعلية على الدرب المزدحم المفروش بالحصى. لكن، فجأة ظهرت عربة أطفال إلى جانب الروضة في الأسفل من خلف شجرة، وجّه السيارة إلى اليسار، وأدار المقود بقوة إلى اليمين، ثم ارتطم بمنصة مدولبة، وتفادى بصعوبة السياج أمام البيوت الزجاجية. انزلقت السيارة جانبياً إلى فيرجلاندسفين، أمام سيارة أجرة تحمل أعلاماً نرويجية، وغصن بتولا يزين حاجز المشع. ضغط سائق سيارة الأجرة على المكابح بقوة، لكن هاري زاد السرعة وشق طريقه عبر حركة سير معاكسة نحو بوابة هولبرغز.

أوقف السيارة أمام أبواب الفندق الدوّارة وخرج منها مسرعاً. عندما اندفع إلى منطقة الاستقبال المزدحمة، أطبق الصمت على المكان للحظة، وتساءل الجميع إن كانوا سيشهدون تجربة فريدة. لكنه كان مجرد رجلٍ ثملٍ جداً في 17 أيار. كانوا قد رأوا ذلك من قبل، وارتفعت الأصوات

مجدداً. أسرع هاري إلى قسم الاستقبال.

قال صوت: "صباح الخير". ارتفع حاجبان تحت شعر أشقر بدا وكأنه مستعار، ورمقته العينان من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. لاحظ هاري اسمها المكتوب على البطاقة.

"بتي أندرسن، ما سأقوله لك الآن ليس دعابة سمجة، لهذا أصغي إليّ جيداً. أنا شرطي، وهناك قاتل في الفندق".

أمعنت بتي أندرسون النظر إلى الرجل الطويل رثّ الثياب بعينين محتقنتين تجعلان أي شخص يظن - على نحو مفهوم تماماً - أنها إما ثملة أو مجنونة، أو كلتا الحالتين معاً. نظرت إلى بطاقة الهوية التي رفعها أمامها، ثم نظرت إليه مجدداً، ومطولاً.

قالت: "الاسم".

"اسمه سندر فوك".

عملت أصابعها على لوحة المفاتيح.

"آسفة، لا يوجد أحد هنا بذلك الاسم".

"تباً! جرّبي غدبراند يوهانسن".

"لا يوجد غدبراند يوهانسن أيضاً أيها المفتش هول. ربما أخطأت الفندق؟".

"لا! إنه هنا، في غرفته الآن".

"إذاً، فقد تكلمت معه، أليس كذلك؟".

"لا. لا، أنا... يستغرق شرح الأمر وقتاً طويلاً".

مرّر هاري يده على وجهه.

"لنرَ. يجب أن أفكّر. لا بدّ من أنه في الأعلى الآن. كم عدد الطوابق هنا؟".

"واحد وعشرون طابقاً".

"وكم عدد النزلاء الذين لم يسلّموا مفاتيح غرفهم بعد؟".

"قلّة قليلة، كما أخشى".

رفع هاري كلتا يديه في الهواء وحدّق إليها.

همس: "بالطبع، دانيال هو من سيقوم بذلك".

"عفواً؟".

"تحقّقي رجاءً من دانيال غدسون".

ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لم يكن الرجل العجوز يعرف. لم يكن هناك شيء. على الأقل، لم يكن قد حدث شيء حتى ذلك الوقت. كان قد وضع

أربع رصاصات على عتبة النافذة، وعكس معدنُ الأغلفة البني الباهت الضارب إلى الصفرة أشعةَ الشمس.

حدّق من خلال منظار البندقية مجدداً. كان الطائر لا يزال هناك. عرفه، فقد كانا يحملان الاسم نفسه. وجّه المنظار إلى الحشود. جال ببصره على صفوف الناس عند الحواجز، وتوقف حين رأى شخصاً مألوفاً. هل هذه هي حقاً...؟ ركّز المنظار. نعم، لا شك في ذلك، كانت راكيل. ما الذي تفعله في ساحة القصر؟ وكان أوليغ هناك أيضاً. بدا أنه يبتعد عن مسيرة الأطفال. رفعته راكيل فوق الحاجز بذراعين ممدودتين. كانت قوية، وكانت يداها قويّتين تماماً مثل والدتها. كانا يمشيان آنذاك نحو مبنى الحراسة. نظرت راكيل إلى ساعتها، وبدا أنها تنتظر شخصاً ما. كان أوليغ يرتدي السترة التي أهداه إياها في الميلاد. قالت راكيل إن أوليغ قد دعاها سترة الجد. بدا أنها صغيرة على الجسد النحيل أصلاً.

ضحك الرجل العجوز بصوتٍ خافت. سيكون عليه أن يشتري له سترة جديدة من أجل الخريف.

شعر بالألم من دون سابق إنذار هذه المرة، ولهث يائساً طالباً الهواءَ.

كانت الشمس تهبط، وزحفت ظلالهم المنحنية نحوه على طول جدران الخندق.

أصبح كل شيء معتماً. لكن، عندما شعر أنه على وشك أن يفقد وعيه، خفف الألمُ قبضتَه مجدداً. كانت البندقية قد انزلقت إلى الأرض، وجعل العرق قميصه يلتصق بجسده.

شدّ قامته، وضع البندقية مجدداً على حافة النافذة. كان الطائر قد حلّق بعيداً، وصار المجال أمامه واضحاً لإطلاق النار.

ملأ الوجهُ الشابُّ المنظارَ التلسكوبي مجدداً. كان الأمير واسع الاطلاع، وهذا ما يجب أن يكون عليه أوليغ. كان ذلك آخر شيء قاله لراكيل. كان ذلك آخر شيء قاله لنفسه قبل أن يطلق النار على براندهوغ. لم تكن راكيل في المنزل في اليوم الذي ذهب فيه إلى هولمنكولفن ليأخذ بضعة كتب، لهذا دخل البيت ووجد مصادفة المغلّف على الطاولة، وترويسة السفارة الروسية عليه. كان قد قرأها، ثم أعادها إلى مكانها، وحدّق عبر النافذة إلى الحديقة، إلى كتلة الثلج الباقية هناك بعد هطول رذاذ من المطر؛ آخر مظاهر الشتاء. كان قد فتّش بعد ذلك في أدراج الطاولة الأخرى حتى عثر على الرسائل الأخرى، تلك التي تحمل اسم السفارة النرويجية، وتلك التي تفتقر إلى رأسية، مكتوبة على مناديل مائدة وأوراقٍ

مُزّقت من دفاتر ملاحظات، وموقّعة من برنت براندهوغ. وكان قد فكّر في كريستوفر بروكهارد.

لن يستطيع أحمق روسي إطلاق النار على موقعنا الليلة.

حرّر الرجل العجوز قفل الأمان. شعر بهدوء غريب. كان قد تذكّر آنذاك سهولة حزّ عنق بروكهارد، وإطلاقه النار على برنت براندهوغ. سترة الجد، سترة الجد الجديدة. زفر الهواء من رئتيه وأطبق إصبعه حول الزناد.

ركض هاري نحو المصعد، ووضع قدمه بين البابين ليحول دون انغلاقهما بشكل كامل، ففُتح البابان مجدّداً، ونظرت وجوه ذاهلة إليه حين وقف أمام المصعد حاملاً بطاقة مفتاح تفتح أبواب كل الغرف.

صرخ هاري: "شرطة! اخرجوا جميعاً!".

بدا الأمر وكأن جرس المدرسة قد رنّ معلناً استراحة الغداء، لكن رجلاً في العقد الخامس من عمره، وله لحية قصيرة سوداء مشذّبة، ويرتدي بذلة زرقاء مقلّمة عليها طبقة من القشرة فوق كتفيه، ويضع شريط 17 أيار عريضاً على صدره بقي في مكانه.

"نحن مواطنون نرويجيون، أيها الرجل الطيب، وهذه ليست دولة بوليسية!".

مشى هاري قرب الرجل حتى دخل المصعد، وضغط على الرقم 21. لكن صاحب اللحية المشذّبة لم يكن قد أنهى كلامه.

"أخبرني بسبب وجيه يجعلني أنا دافع الضرائب أتحمّل...".

أخرج هاري مسدّس سميث أند ويسون الخاص بوبير من قراب كتفه. "لدي ستة أسباب وجيهة هنا يا دافع الضرائب. اخرج!".

يمضي الوقت سريعاً، وسرعان ما سيحل يوم جديد. سنراه على نحو أفضل في ضوء الصباح، ونعرف هل هو صديق أم عدو.

عدو، عدو. على أيّ حال، عاجلاً أم آجلاً سأنال منه.

سترة الجد.

تباً، ليس هناك شيء بعد ذلك.

يبدو الوجه في المنظار رزيناً. ابتسم أيها الشاب.

خيانة، خيانة، خيانة.

كان الزناد مشدوداً آنذاك إلى الخلف ولم تعد هناك أي مقاومة، والبداية ستكون في مكان ما من الأرض التي لا يسيطر عليها أحد. لا تفكّر في الضوضاء والارتداد، وليحدث ذلك في أي وقت.

أصابه الدوي بالدهشة. كان الصمت مطبقاً طوال جزء من الثانية، ثم

تردّد الصدى، واستقرت موجة الصوت فوق المدينة، وتلاشت آلاف الأصوات تماماً في تلك اللحظة.

كان هاري يجري مسرعاً عبر أروقة الطابق الحادي والعشرين حين سمع الدوي.

فصرخ قائلاً: "تباً!".

منحته الجدران التي تحيط به من كلا الجانبين شعوراً بأنه يتحرك داخل قمع. فالأبواب، واللوحات، والزخارف التكعيبية كلها زرقاء. لم تكن خطواته الواسعة مسموعة تقريباً على السجاد السميك. رائع. تفكّر الفنادق الجيدة في تخفيف الضوضاء. ويفكّر شرطي جيد في ما يجب أن يفعلوه. تباً، تباً، أسيد لكتيك في الدماغ. آلة الثلج. الغرفة 2154، الغرفة 2156. دوي آخر. الجناح الملكي.

خفق قلبه بقوة مثل طبل بين أضلاعه. وقف هاري إلى جانب الباب، ودفع بطاقة المفتاح في القفل. سمع أزيزاً خافتاً، ثم طقّة هادئة، وأصبح اللون على البطاقة أخضر. أدار هاري المقبض بحذرٍ شديد.

كانت الشرطة تعتمد إجراءات صارمة في مثل هذه المواقف، وقد انضم هاري إلى الدورة الدراسية وتعلّمها. ولكن، لم تكن لديه النيّة ليتقيد بأي منها آنذاك.

فتح الباب على مصراعيه، فاندفع هاري إلى الداخل وهو يرفع مسدسه أمامه بكلتا يديه، ورمى بنفسه إلى وضعية الجثو عند مدخل غرفة المعيشة. بهره الضوء الذي يغمر الغرفة ووخز عينيه. نافذة مفتوحة. كانت الشمس خلف الزجاج تبدو مثل هالة فوق رأس رجل أبيض الشعر استدار ببطء نحوه.

صرخ هاري: "شرطة! ألقِ البندقية".

تقلّص بؤبؤا هاري، ورأى ظل البندقية المصوّبة إليه.

كرّر: "ألقِ البندقية. لقد فعلت ما أتيت لتنفيذه يا فوك. أُنجزت المهمة. انتهى الأمر الآن".

كان ذلك غريباً لكن الفرق النحاسية كانت لا تزال تعزف في الخارج وكأن شيئاً لم يحدث. رفع الرجل العجوز البندقية، ووضع أخمصها على وجنته. كانت عينا هاري قد اعتادتا الضوء فحدّق إلى ماسورة ذلك السلاح الذي لم يكن قد رآه حتى ذلك الوقت إلا في الصور.

تمتم فوك شيئاً، لكنّ دوياً جديداً طغى على صوته. كان أوضح وأكثر حدّة هذه المرة.

همس هاري: "حسناً، أنا...".

في الخارج، خلف فوك، رأى هاري الدخان يرتفع في الهواء مثل فقاعة كلام بيضاء، وكان الدخان صادراً من المدفع الموجود على سور حصن أكرشوس؛ إنّها تحية 17 أيار. كان ما سمعه تحية المدفعية بمناسبة 17 أيار! سمع هاري الهتاف. تنفّس من منخريه. لم تكن في الغرفة رائحة بارود محترق. أدرك أن فوك لم يكن قد أطلق النار من البندقية بعد. لذا، أمسك بأخمص مسدسه بقوة، وراقب الوجه المتغضّن وهو يحدّق إليه من فوق المنظار. لم تكن المسألة تتعلق بحياته أو حياة الرجل العجوز. كانت التعليمات واضحة.

قال هاري: "لقد جئت من بوابة فايبز. لقد قرأت مفكّرتك يا غدبراند يوهانسن، أم أنني أتكلم مع دانيال الآن؟".

صكّ أسنانه وشدّ إصبعه على الزناد.

تمتم الرجل العجوز مجدداً.

"ماذا كان ذلك؟".

قال الرجل العجوز: "كلمة السر". كان صوته أجشّ ومختلفاً تماماً عن الصوت الذي كان هاري قد سمعه من قبل.

قال هاري: "لا تفعل ذلك. لا ترغمني على قتلك".

سالت قطرة عرق على جبين هاري ووصلت إلى أنفه وعلقت هناك، حيث بدا أنها لا تستطيع تحديد مسارها. شدّ هاري قبضته على المسدس.

كرّر الرجل العجوز: "كلمة السر".

رأى هاري أن إصبع الرجل العجوز تشتد حول الزناد، وشعر بالخوف من الموت يعتصر قلبه.

قال هاري: "لا. لم يفت الأوان بعد".

لكنه كان يعرف أن ذلك ليس صحيحاً. كان الأوان قد فات، والرجل العجوز خارج المنطق، وخارج هذا العالم وهذه الحياة.

"كلمة السر".

سينتهي الأمر عاجلاً بالنسبة إلى كليهما. لم يبقَ إلا بعض الوقت البطيء فقط، وهو الوقت في أمسية الميلاد قبل...

قال هاري: "أوليغ".

كانت البندقية مصوّبة مباشرة إلى رأسه. زعق بوق سيارة من بعيد، فيما تقلّصت عضلة في وجه الرجل العجوز.

قال هاري: "كلمة السر هي أوليغ".

توقفت الإصبع على الزناد.

فتح الرجل العجوز فمه ليقول شيئاً.

حبس هاري أنفاسه.

قال الرجل العجوز: "أوليغ". وبدت الكلمة التي تفوّه بها مثل نفحة ريح تخرج من بين شفتيه.

لم يستطع هاري قطّ أن يفسّر ذلك في ما بعد، لكنه رآه. كان الرجل العجوز يحتضر في تلك اللحظة، ثم تحوّل وجهه إلى وجه طفل ينظر إلى هاري من خلف التجاعيد. لم تعد البندقية مصوّبة نحوه، لذا أخفض هاري مسدسه، ثم مد يده ووضعها على كتف الرجل العجوز.

كان صوت الرجل العجوز لا يكاد يُسمع: "هل تعدني؟ أنهم لن...".

قال هاري: "أعدك. سأتحقق بنفسي من عدم ظهور أي أسماء علانية. لن يعاني أوليغ وراكيل بأي طريقة...".

ثبّت الرجل العجوز بصره على هاري وقتاً طويلاً، ثمّ ارتطمت البندقية بالأرض بصوتٍ مكتوم، ثم انهار.

أخرج هاري المخزن من البندقية ووضعه على الأريكة قبل أن يتصل بالاستقبال، ويطلب من بتي استدعاء الإسعاف. ثم اتصل بهاتف هالفورسن الخلوي وقال إن الخطر قد انتهى. بعد ذلك، سحب الرجل العجوز إلى الأريكة، وجلس على كرسي وهو ينتظر.

همس الرجل العجوز: "نلت منه في النهاية.كان على وشك أن ينجرف، كما تعلم. في الطين".

سأل هاري وهو يأخذ نفساً عميقاً من سيجارته: "ممن نلت؟".

"من دانيال بالطبع. نلت منه في النهاية. كانت هيلينا محقة. كنت دائماً أقوى".

أطفأ هاري سيجارته، ووقف إلى جانب النافذة.

همس الرجل العجوز: "أنا أحتضر".

"أعرف".

"إنه على صدري. هل يمكنك رؤيته؟".

"رؤية ماذا؟".

"ابن عرس".

لكن هاري لم يرَ ابن عرس، بل رأى غيمة بيضاء تطفو في الهواء مثل شكٍ عابر. في ضوء الشمس، رأى الرايات النرويجية ترفرف على كل سواري المدينة، ورأى طائراً رمادياً يخفق بجناحيه متجاوزاً النافذة. لكنه لم

يرَ أيّ ابن عرس.

القسم العاشر

مستشفى أولفال. 19 أيار 2000

وجد بيارني مولر هاري في غرفة الانتظار في قسم علم الأورام. جلس رئيس شعبة الجريمة إلى جانب هاري، وغمز شابة يافعة، فعبست واستدارت مبتعدة.

قال: "سمعت أن الأمر قد انتهى".

أومأ هاري. "عند الساعة الرابعة صباحاً. كانت راكيل هنا طوال الوقت. أوليغ في الداخل الآن. ماذا تفعل هنا؟".

"أردت فقط تبادل أطراف الحديث معك".

قال هاري: "يمكنني فعل ذلك وأنا أدخّن. لنخرج".

وجدا مقعداً خشبياً تحت شجرة. مرّت غيوم متفرّقة في السماء فوقهما. كانت كل الدلائل تشير إلى أنه سيكون يوماً دافئاً آخر.

سأل مولر: "إذاً، لا تعرف راكيل شيئاً؟".

"لا شيء".

"الأشخاص الذين يعرفون هم أنا، وميريك، وقائد الشرطة، ووزير العدل، ورئيس الوزراء. وأنت بالطبع".

"تعرف أفضل مني من هو على دراية بذلك أيها المدير".

"نعم، هذا طبيعي. أنا فقط أفكّر بصوتٍ عالٍ".

"إذاً، ما الذي كنت تريد قوله لي؟".

"هل تعرف أمراً يا هاري؟ أتمنى في بعض الأيام لو أنني أعمل في مكان آخر، في مكان تكون السياسة فيه أقل، وعمل الشرطة أكثر؛ في بيرغن مثلاً. لكنك تستيقظ في أيام مثل اليوم، وتقف إلى جانب نافذة غرفة نومك، وتنظر إلى الفورد، والجزر فيه، وتصغي السمع إلى العصافير المغرّدة و... هل تفهم؟... ثم لا ترغب في الذهاب إلى أي مكان".

راقب مولر خنفساء صغيرة تسير ببطء على فخذه.

"ما أردت قوله هو أننا نود إبقاء الأمور على حالها يا هاري".

"وما الأمور التي نتكلم عنها؟".

"هل كنت تعرف أنه ما من رئيس أميركي قد أنهى مدة حكمه في السنوات العشرين الماضية من دون اكتشاف عشر محاولات لاغتياله على الأقل؟ وأن كل المعتدين من دون استثناء قد اعتُقلوا من دون أن يصل شيء إلى آذان وسائل الإعلام؟ لا أحد يستفيد من معرفة العامة خططَ اغتيال رأس الدولة يا هاري، خاصة تلك التي يمكن أن تنجح؛ نظرياً على

الأقل".

"نظرياً أيها المدير؟".

"ليست كلماتي. لكن الخلاصة هي - بالرغم من ذلك - أننا نفرض تعتيماً على ذلك. لا نريد أن نروّج لعدم الاستقرار، أو نكشف عن نقاط ضعف في نظامنا الأمني. تلك ليست كلماتي أيضاً. عمليات الاغتيال مُعدية، مثل...".

قال هاري وهو يزفر الدخان من أنفه: "أعرف ما تعنيه. نفعل هذا أساساً من أجل أولئك الذين يتولون مناصب السلطة، أليس كذلك؟ إنهم أشخاص بمقدورهم - ويجب عليهم - إطلاق جرس الإنذار".

رد مولر: "كما قلت. في بعض الأيام تبدو بيرغن خياراً ملائماً".

لم يقل أي منهما شيئاً بضع لحظات. مشى طائر مختالاً أمامهما، وهو يهزّ ذيله، وينقر العشب ويُبقي عيناً يقظة ومفتوحة.

قال هاري: "إنّه عصفور ذُعّرة؛ عصفور صغير ذو ذيل طويل. موتاسيلا ألبا. احترس يا صاح".

"ماذا؟".

"ماذا يجب أن نفعل بشأن الجرائم التي اقترفها غدبراند يوهانسن؟".

"كشفنا كل الجرائم السابقة وهذا أمر جيّد. أليس كذلك؟".

"ماذا تعني؟".

زمّ مولر شفتيه، ثم قال:

"الشيء الوحيد الذي سنحققه من إثارة تلك الأمور الآن هو إثارة جروح قديمة. وهناك خطر في أن يدس شخص ما أنفه في القضية وينبش القصة كلها. القضايا منتهية".

"هذا صحيح في ما يتعلق بإيفن جوول، وسفير أولسن. ولكن، ماذا عن جريمة قتل هالغريم ديل؟".

"لن يثير أحد ضوضاء بشأنه. بالمحصلة كان ديل...".

"مجرد محتال عجوز لن يهتم أحد بأمره؟".

"أرجوك يا هاري، لا تجعل الأمر أصعب مما هو الآن. تعرف أنني لست سعيداً بهذا أيضاً".

أطفأ هاري سيجارته على مسند ذراع المقعد الخشبي، ووضع عقب السيجارة في العلبة.

"يجب أن أدخل مجدداً أيها المدير".

"إذاً، يمكننا الاعتماد عليك لإبقاء هذا الأمر سراً؟".

ابتسم هاري ابتسامة عابرة.

"هل صحيح ما سمعته عن الشخص الذي يريد أن يحل محلي في الاستخبارات السرية؟".

قال مولر: "بالتأكيد. قال توم والر إنه سيكون سعيداً. يريد ميريك أن يجعل قسم النازيين الجدد كله جزءاً من التوصيف الوظيفي، وسيصبح نوعاً من لوح القفز إلى مناصب أعلى. سأوصي به على أي حال. أفترض أنك سعيد لأنه سيختفي الآن بعد عودتك إلى شعبة الجريمة؟ سيصبح منصب المفتش الذي كان يشغله معنا شاغراً الآن".

"إذاً، تلك هي المكافأة مقابل إبقاء فمي مغلقاً؟".

"ما الذي يجعلك تظن هذا يا هاري؟ أنت تستحق هذا المنصب لأنك الأفضل. لقد أثبت ذلك مجدداً. أتساءل فحسب إن كان بمقدورنا الاعتماد عليك".

"هل تعرف العمل الذي أريده؟".

هزّ مولر كتفيه. "لقد انتهى التحقيق في جريمة قتل إيلين يا هاري".

قال: "ليس تماماً. هناك بعض التفاصيل التي لا نعرفها. من بين أشياء أخرى، ماذا حدث لمبلغ 200,000 كرون نرويجي الذي دُفع لشراء البندقية. ربما كان هناك عدّة وسطاء".

أومأ مولر.

"لا بأس. سأمنحك أنت وهالفورسن شهرين. إذا لم تجدا شيئاً، فسأغلق القضية".

"موافق".

وقف مولر ليذهب.

"هناك شيء واحد فقط كنت أتساءل عنه يا هاري. كيف عرفت أن كلمة السر هي أوليغ؟".

"حسناً، كانت إيلين تقول لي دائماً إن أول شيء يخطر على بالها يكون صحيحاً".

"هذا مؤثر". أومأ مولر رأسه موافقاً. "وكان اسم حفيده أول شيء خطر على بالك؟".

"لا".

"لا؟".

"أنا لست إيلين. كان يجب أن أفكّر في الأمر قليلاً".

رمقه مولر بنظرة ثاقبة.

"هل تسخر مني الآن يا هول؟".

ابتسم هاري، ثم أومأ إلى الطائر.

"قرأت في كتاب الطيور أن لا أحد يعرف لماذا تهزّ الذُعّرة ذيلها حين تقف ساكنة. إنه لغز. الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أنها لا تستطيع التوقف...".

مقر قيادة الشرطة. 19 أيار 2000

كان هاري قد وضع قدمه آنذاك على الطاولة واتخذ وضعية الجلوس المثالية حين رنّ الهاتف. لم يكن يرغب في تعديل وضعية جلوسه، ولهذا مدّ نفسه إلى الأمام في حين استخدم عضلات مؤخرته ليتوازن على الكرسي الجديد المزوّد بإطارات تتحرك بسهولة بالغة. استطاع الإمساك بالهاتف بأطراف أنامله.

"هول".

"هاري؟ آسايا بورني يتكلم من جوهانسبورغ. كيف حالك؟".

"آسايا؟ هذه مفاجأة".

"حقاً؟ أتصل لأشكرك يا هاري".

"علامَ تشكرني؟".

"على عدم القيام بشيء".

"القيام بماذا؟".

"تعرف ما أعنيه يا هاري. على عدم البدء بأي خطوات دبلوماسية لتخفيف الحكم أو شيء من هذا القبيل".

لم يجب هاري. كان يتوقع هذه المكالمة منذ بعض الوقت. لم تعد وضعية الجلوس مريحة. أصبحت عينا أندرياس هوشنر حاضرتين فجأة. وكذلك صوت كونستانس هوشنر الذي يتوسّل: هل تعدني بأن تفعل ما في وسعك يا سيد هول؟

"هاري؟".

"لا أزال هنا".

"صدر الحكم بالأمس".

حدّق هاري إلى صورة شقيقته على الجدار. كان صيفاً دافئاً على نحو غير معتاد تلك السنة، أليس كذلك؟ كانا قد ذهبا للسباحة حتى عندما كان المطر يهطل. شعر بحزنٍ لا يمكن وصفه يغمره.

سمع نفسه يسأل: "عقوبة الإعدام؟".

"من دون حق بالاستئناف".

شرودر. 2 حزيران 2000

"ماذا ستفعل هذا الصيف يا هاري؟".

كانت ماجا تعدّ القطع النقدية.

"لا أعرف. لقد تكلمنا عن استئجار شاليه في مكان ما هنا في النرويج؛ لتعليم الفتى السباحة".

"لم أكن أعرف أن لديك أي أبناء".

"لا. حسناً، إنها قصة طويلة".

"حقاً؟ آمل أن أتمكّن من سماعها يوماً ما".

"سنرى يا ماجا. احتفظي بالباقي".

انحنت ماجا كثيراً وعلت وجهَها ابتسامةٌ ساخرة. كان المقهى شبه خالٍ بعد ظهيرة الجمعة على غير المعتاد. كانت الحرارة على الأرجح قد أرسلت معظم الناس إلى مطعم المصطبة في هانشهوغن.

قال هاري: "حسناً؟".

حدّق الرجل العجوز إلى الأسفل؛ إلى كأسه من دون أن يجيب.

"إنه ميت. ألست سعيداً يا آسنس؟".

رفع الموهوك رأسه ونظر إلى هاري.

قال: "من مات؟ لم يمت أحد. أنا فقط. أنا آخر الأموات".

تنهّد هاري، ووضع الصحيفة تحت ذراعه، ثم خرج إلى حرارة بعد الظهر الحارقة.